بحث بعنوان (محبة الله) للشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

مراتب محبّة الله وشروطها

إضاءة

لقد تطرّقنا فيما مضى مراراً، ومن زوايا عديدة، إلى القيم الإسلاميّة وأهدافها أملاً في أن يداعب قلوبَنا – ببركة أنوار كلمات الله تعالى وأقوال المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) – شعاع من نور علّها تُنتَشَل ممّا هي فيه من أوحال الدنس وغياهب الظلمات.

إنّ من المواضيع التي يتمّ بحثها مراراً وبالتفصيل هو القرب من الله عزّ وجلّ والسبيل إلى نيله. وقد استنتجنا، بالإفادة من الآيات والروايات، وعبر اللجوء إلى البحوث العقليّة، أنّ السبيل الوحيدة لبلوغ هذا الهدف هي عبادة الله. كما أنّنا قد تحدّثنا حول مفهوم العبادة وأقسامها ومراتبها وكيفيّة تجلّيها في حياة الإنسان. وكنّا قد ذكرنا أنّ الطريق إلى قرب الله يكمن في حركتنا الاختياريّة ونشاطنا الإراديّ. فموهبة كهذه لا تُعطى لأحد بالقوّة، ولا إجباراً، ولا إكراهاً، بل إنّ على المرء أن يطلبها، ويسعى إليها، ويمهّد لها كي يفيضها الله تعالى عليه. وقد قلنا فيما يتّصل بكيفيّة اختيار الطريق الموصل إلى قرب الله وسلوكه بأنّ كلّ حركة إراديّة إنّما تنشأ من مبدأين: هما المعرفة والإرادة، وهما قضيّتان متغايرتان وقابلتان للانفكاك عن بعضهما؛ فبعض الناس يعلم ما الذي ينبغي صنعه، لكنّه لا يفعل شيئاً، وبعض الأشخاص يرغبون في فعل شيء، لكنّهم لا يعلمون ما الذي يتعيّن فعله. وقد تناولنا من أجل ذلك بحوثاً حول أنماط المعرفة، والدوافع اللازمة لتكامل الإنسان، والسبيل إلى تقويتها.

مراتب محبّة الله

إنّ أقوى الحوافز التي من شأنها أنّ تدفع الإنسان ليخطو باتّجاه التقرّب إلى الله هي محبّة الله عزّ وجلّ؛ فكلّما اشتدّت محبّة الإنسان لربّه زادت رغبته في التقرّب إليه.

وهنا يكمن سؤال: ماذا نصنع لنحظى بهذه المحبّة؟ فالمحبّة هي من القيم السامية التي لا يسهل نيلها، وإنّ طي طريقها يحتاج إلى السعي والمثابرة. بالطبع إنّ لجميع المؤمنين مرتبة من مراتب محبّة الله سبحانه وتعالى. يقول القرآن الكريم: ﴿**وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً للهِ**﴾[1]. كما ويبيّن الله تعالى في آية أُخرى الحدّ الأدنى من هذه المحبّة بقوله: ﴿**قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ**﴾[2]؛ أي إن كان حبّه لهذه الأُمور يفوق حبّه لربّه، ويشكّل مانعاً له من طاعته عزّ

وجلّ فإنّه سيكون عرضة لخطر جسيم. فلا يجوز أن يكون حبّ الإنسان لأيّ شيء أكثر من حبّه لله. وهذه هي إحدى مراتب المحبّة اللازمة لتحقّق الإيمان، ولكنّها ليست كلّ شيء. فإنّها لنعمة عظيمة أن يحبّ الإنسان الله حقّاً ويكون مستعدّاً لبذل نفسه في سبيله وسبيل الإسلام، لكنّ هذا هو الحدّ الأدنى للقضيّة، فأيّ هبوط دون هذا الحدّ يُعدّ خطَراً يحذّر الله عزّ وجلّ منه.

إنّ لله جلّ وعلا عباداً تفوق محبّتهم له مستوى عقولنا. إذ يروى أنّ نبيّ الله شعيباً (على نبيّنا وآله وعليه السلام) بكى لسنوات طويلة حتّى فقد بصره، فأعاد الله له بصره، فعاد إلى البكاء لأعوام حتّى عمي ثانية، فردّ الله له بصره مرّة أُخرى، فعاود البكاء لسنين، فأوحى الله تعالى إليه: « **يا شعيب! إن كان هذا البكاء لأجل الجنّة فقد أبحتُها لك، وإن كان من أجل النار فقد حرّمتها عليك**» فماذا تطلب بعد ذلك إذن؟ «**فقال**: إلهي! أنت تعلم أنّ بكائي ليس خوفاً من جهنّم ولا شوقاً إلى الجنّة «**لا بل شوقاً إليك**»، فإنّني أُحبّك وأطلب لقاءك. «**فقال الله تعالى: لأجل هذا أخدَمتُك نبيّي وكليمي موسى عشر سنين**»[3]. فقصّة فرار موسى (عليه السلام) من «مَديَن» ولقائه ببنات شعيب كانت مقدّمة من أجل أن يرعى موسى لشعيب (عليهما السلام) أغنامه لثمان أو عشر سنين.

لكن ما هي حقيقة هذه المسائل؟ وماذا يعني البكاء لمحبّة الله بالضبط؟ بل البكاء إلى درجة أن يعمى الإنسان ثمّ يُعاد إليه بصره حتّى يُفعل به ذلك عدّة مرّات! إنّها لمن المسائل التي لا يسعنا إدراكها جيّداً.

لقد جاء في الخبر بخصوص مراتب معرفة ومحبّة نبيّ الله إبراهيم (عليه السلام) أنّه عندما ترك (عليه السلام) قوم النمرود متوجّهاً نحو الأرض التي كتبها الله له كان يصطحب معه قطيعاً ضخماً من الأغنام[4]. فنادى جبرئيل في دجى الليل بأمر من الله عزّ وجلّ: «**سُبّوح قُدّوس**» فإذا بجذبة تصيب إبراهيم عند سماعه النداء فيقول: يا مَن ذكرتَ اسم محبوبي! أعِدْه ثانية ولك نصف غنمي[5]. لا أدري إن حصل لكم ذات مرّة أن تستيقضوا من رقادكم في منتصف الليل على صوت تلاوة قرآن، أو أذان، أو مناجاة فتنتابكم حالة من البهجة والسرور؟! أعاد جبرئيل النداء: «**سُبّوح قُدّوس**» فالتهب شوق إبراهيم (عليه السلام) وقال: لك باقي غنمي أيضاً، أعدها مرّة أُخرى!

أيُّ حالة هذه التي ألـمّت بقلب إبراهيم لدى سماع اسم محبوبه؟ فكيف يكون الحبّ يا ترى، وإلى أيّ درجة يمكن أن يبلغ حتّى يكون إبراهيم (عليه السلام) حاضراً لِيَهَب كلّ ما يملك من أجل سماع اسم محبوبه؟! علينا أن نعلم إجمالاً أنّ المسافة بين محبّتنا ومحبّة نبيّ الله إبراهيم (عليه السلام) هي كالمسافة ما بين السماء والأرض؛ فنحن نحبّ الله، وعليّ (عليه السلام) أيضاً كان يحبّ الله، لكن شتّان بين محبّتنا ومحبّة أمير المؤمنين وإبراهيم (عليهما السلام). ولابدّ أن نصدّق أنّه من الممكن أن ينال المرء مثل هذه

الدرجات من محبّة الله، وأنّ الكمال الحقيقيّ للإنسان وقيمته الإنسانيّة هما في أن يكون له مثل هذه العلاقة مع الله جلّ وعلا.

فإذا كانت لهذه الامور حقيقة، وأنّ الأنبياء قد جاءوا ليسلكوا بنا السبيل الذي سلكوه ويوصلونا إلى المقام الذي وصلوه، فعلينا نحن أيضاً أن نطلب هذه الأُمور. ولا أدّعي بالطبع أنّ من الضروريّ أن نصير مثلهم؛ فنحن أضأل وأقلّ بكثير من أن نستطيع نيل أدنى مراتب الحبّ بصدق، وإذا ما أصبنا تلك المرتبة من دون أن نصبح محطّ سخط الباري عزّ وجلّ، فينبغي أن نطير من الفرح، لكنّه ثمّة من بين عباد الله، ممّن يمتلكون الهمم العالية والقلوب الطاهرة، قد آمنوا بمسير الأنبياء (عليهم السلام)، وعلموا بأنّ الكمال هو هذا تحديداً، وأنّه لابدّ من الحذو حذوهم وسلوك مسلكهم. ويتحتّم القول هنا بأنّ السير في هذا الطريق لا يتنافى بتاتاً مع أداء الواجبات الاجتماعيّة والسياسيّة، وإنّ ما قام به إبراهيم (عليه السلام) من تحطيم الأصنام وما تعرّض له من الإلقاء في النار كان في هذا الطريق أيضاً. فالعبوديّة لله عزّ وجلّ وحبّه تسري إلى كلّ شيء، وتظهر تجلّياتها في كلّ موضع؛ **«حبّ الله إذا أضاء على سِرّ عبد أخلاه عن كلّ شاغل وكلّ ذكر سوى الله»**[6].

مراتب الإيمان والعلاقة مع الله

لكنّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: أنّى لنا أن نوطّد علاقة مع الله مع كلّ ما يُحيط بنا من مشاكل الدنيا، والصراعات، والتهالك على المال والجاه والمناصب؟ فكلّنا يرغب في أن يصيب شيئاً من هذه المراتب، فماذا نصنع من أجل أن يحلّ حبّ الله في قلوبنا، فننسى كلّ ما سواه، وتكون كلّ أفعالنا في سبيله تعالى؟ وقد قلنا مراراً، بأنّ للقيم الإلهيّة، المذكورة في القرآن والسنّة، والتي تؤيّدها الأدلّة العقليّة أيضاً، مراتب عدّة. فإنّ للإيمان درجات، وإنّ قلوبنا لتهفوا إلى بلوغ تلك الدرجات والتشبّه بأولياء الله بمقدار ما نتمتّع به من إيمان بهذه الحقائق. والأمثلة التي ذكرناها تشير إلى أنّ للمحبّة درجات كثيرة؛ فإحدى درجاتها هي أن نستطيع نحن على الأقلّ ادّعاءها. والدرجة الأُخرى هي محبّة إبراهيم (عليه السلام) وإنّ بين هذا المبدأ وذاك المنتهى مراتب كثيرة لا يمكن إحصاؤها بدقّة. فإذا ادّعى أحدهم أنّه مادام كلّ امتداد قابلاً للقسمة إلى ما لانهاية فإنّه يمكن أن تصل هذه المراتب إلى ما لانهاية، فإنّه لم يُلقِ قوله على عواهنه. فالسير من هذا المبدأ إلى ذاك المنتهى، والذي نعلم إجمالاً أنّه ممكن وإنّ لم نعلمه تفصيلاً، يتطلّب سيراً تدريجيّاً وطويلاً، وليست القضيّة أنّ الإنسان يُحقن بمادّة وإذا به قد وصل فجأة إلى ما وصل إليه إبراهيم (عليه السلام). فلابدّ من المكابدة، ومعرفة الطريق، والكدح، والهمّة لطيّ مراحل من هذا الكمال. فما الذي نصنع من أجل أن نمضي في هذا السبيل ونزيد من حبّنا لله ولأوليائه؟

محبّة أولياء الله شعاع من محبّة الله

إنّ محبّة أولياء الله هي شعاع من محبّة الله عزّ وجلّ؛ فنحن نحبّ الإمام الحسين (عليه السلام) لكونه عبد الله وحبيبه. يروى أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سلّم عليه [في الطريق] غلامٌ دون البلوغ وبشّ له وتبسّم فرحاً بالنبيّ (صلّى الله عليه وآله) فقال له: « **أتحبّني يا فتىٰ؟ فقال: إي والله يا رسول الله. فقال له: مثل عينيك؟ فقال: أكثر. فقال: مثل أبيك؟ فقال: أكثر. فقال: مثل أمّك؟ فقال: أكثر. فقال: مثل نفسك؟ فقال: أكثر والله يا رسول الله. فقال: أمثل ربّك؟ فقال: الله الله الله يا رسول الله، ليس هذا لك ولا لأحد فإنّما أحببتك لحبّ الله**»[7]. تخيّلوا البيئة الثقافيّة التي كانت سائدة في ذلك العصر! وكيف تمكّن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) من تربية الناس يا ترى كي يتحدّث حَدَثٌ لم يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من عمره بهذا المنطق؟! فحبّ الإمام الحسين (عليه السلام) وكلّ ما قدّمه الناس له من تضحيات هو لأجل أنّه حبيب الله وعبده الصالح.

فمن أجل أن نسلك طريق محبّة الله سبحانه وتعالى يتحتّم علينا أن نمتلك المعرفة وأن نعلم ما الذي علينا صنعه كي نضاعف من حبّنا لله. بالطبع نحن نعلم إجمالاً بأنّ جميع الكمالات هي بيده عزّ وجلّ، وأنّه هو من ينبغي أن يفيضها علينا، ولكن نحن بدورنا علينا أيضاً أن نهيّئ في أنفسنا الأرضيّة والأهليّة لذلك.

المعرفة أوّلاً، أم المحبّة؟

أحياناً يُطرح السؤال التالي: هل المعرفة هي مقدّمة للمحبّة، أم العكس هو الصحيح؟ بتعبير أبسط: عندما نقول إنّه ينبغي لنا أن ننمّي محبّتنا لله فهذا يعني أنّه حتّى وإن كنّا نشعر بقليل من المحبّة، فإنّنا نرغب في زيادتها، ومن أجل زيادة المحبّة لابدّ أن نسعى وراء المعرفة. وبناءً على ذلك فالمحبّة مقدّمة على المعرفة. لكنّ الإنسان – من ناحية أُخرى – لا يحبّ شيئاً إذا لم يعرفه، وإذن فلابدّ من معرفةٍ لحصول هذه المحبّة ابتداءً. إذن يتبادر إلى الذهن هنا سؤال: هل المعرفة هي مقدّمة، أم المحبّة؟

ولا بأس أن نطرح السؤال بشكل أشمل: فنحن جميعاً نعلم أنّ هناك عاملَين مؤثّرين في أفعال الإنسان الإراديّة هما: المعرفة والإرادة. لكن هل ينبغي حصول المعرفة أوّلاً كي تنبثق الإرادة، أم لابدّ من وجود الإرادة ابتداءً كي تحصل المعرفة؟ والجواب هو أنّ العلاقة بين هذه المسائل هي علاقة متماسكة ومتصاعدة؛ فالله سبحانه وتعالى يعطي الإنسان مرتبة من مراتبها مجّاناً. فإن أفاد الإنسان منها على النحو الصحيح، ترتّبت عليها نتائج، وإذا ما أحسن استغلال هذه النتائج أيضاً، فإنّه يصار إلى تدعيم الطرف الآخر من القضيّة، وهكذا. وهذه العلاقة تلاحَظ في الطبيعيّات أيضاً؛ فلابدّ لأوراق الشجرة –

على سبيل المثال — أن تستعمل الهواء، والضوء، والحرارة كي تبقى الشجرة على قيد الحياة. فأوراق الشجرة، لاسيّما في وقت المطر، تمتصّ الرطوبة لتنقلها إلى الساق التي تنقلها بدورها إلى الجذور، لتحصل هناك عمليّة صنع الغذاء النباتيّ. ثمّ ينتقل هذا الغذاء من الجذور عبر الساق إلى الأغصان والأوراق لتنمو، فتُزهر الشجرة، وتعطي الثمر. فلولا نزول المطر لجفّت الشجرة ولم تعد الجذور تؤدّي وظيفتها ولجفّت شيئاً فشيئاً. فالمطر وضوء الشمس والهواء يصلون إلى الورقة من الأعلى ثمّ ينتقلون إلى الجذور، ثمّ تعود المواد الغذائيّة لتنتقل من الجذور إلى الأوراق ثانية. وتتكرّر هذه العمليّة مرّة أُخرى. وهذه العلاقة المتأرجحة تتحقّق غالباً فيما يتّصل بالكمالات والقيم الإنسانيّة أيضاً؛ أي إنّ إحداها تكون مقدّمة للأُخرى، فإذا توفّرت هذه تهيّأت الأرضيّة أكثر لنموّ الاولى. وإنّ علاقة الإيمان بالعمل هي نموذج آخر على ذلك؛ فالإنسان يؤمن أوّلاً ثمّ يعمل بمقتضى هذا الإيمان. فإن أنجز المرء عملاً، قَوِي إيمانه، وإنّ قوّة الإيمان ستدفعه إلى الإتيان بعمل أكثر وأفضل. وكلّما استمرّت هذه العلاقة زمناً أطول، فإنّها ستقود إلى مزيد من التكامل والنضج وبلوغ المرء كمالات أكثر. وقد تتحقّق هذه العلاقة تارةً بشكل واضح ومن دون واسطة، لكنّها لا تحصل تارةً أُخرى إلاّ بواسطة وحلقة خفيّة نوعاً ما.

المعرفة؛ شرط ضروريّ

على أيّة حال، فلابدّ لنا من معرفة السبيل إلى استكمال محبّتنا. وعلى هذا فإذا قلنا إنّه يتعيّن علينا تقوية معرفتنا من أجل مواصلة طريق التكامل، والتقرّب، والعبوديّة، والمحبّة، واكتساب جميع القيم الإلهيّة السامية، فإنّنا لم نتكلّم جزافاً. لكن لابدّ من الالتفات إلى أنّ العلم والمعرفة ليسا هما العلّة التامّة. فالمعرفة تهيّئ البيئة للنموّ والتكامل، بشرط أن يضيف إليها الإنسان الهمّة والإرادة ومن ثمّ الطلب، وإلاّ فقد تؤدّي مفعولاً عكسيّاً؛ كما هو الحال في النبات؛ فنفس ذلك الماء الذي يبعث الحياة في النبات فإنّه لا يقود – عند غياب العوامل الأُخرى – إلى عدم نموّ الشجرة فحسب، بل وإلى اندراس جذورها وتفسّخها أيضاً. لكنّ المرء، على أيّة حال، إذا رغب في سلوك سبيل الله وبلوغ ما يرضاه بارئه من الكمالات، فإنّ اكتساب المعرفة والازدياد في العلم يُعدّ شرطاً لازماً لذلك.

نسأل الله جلّ وعلا، ببركة سيّد الشهداء (صلوات الله عليه) وأصحابه المضحّين في سبيله، وكلّ من يعمُر حبُّ الحسين قلبَه، ويسير في مثل هذه الأيّام وغيرها من الأيّام على طريق محبّة الإمام الحسين، أن يتفضّل علينا بتنمية معرفتنا ومحبّتنا، ويعيننا على مواصلة الطريق التي نحظى فيها برضا ربّنا وبالزيادة في كمالنا.

محبّة الله

تعريف المحبّة

محبّة الله في نظر القرآن الكريم

ذكرنا أنّ إحدى القيم الساميّة في الثقافة الإسلاميّة وأهمّ عوامل التقرّب إلى الله تعالى وفق الآيات والروايات والأدلّة العقليّة هي المحبّة. لكنّ مثل هذا الموضوع لا يُولَى في محافلنا العلميّة والثقافيّة والأخلاقيّة ما يستحقّه من الأهمّية، بل إنّ ثلّة من الناس، وباللجوء إلى تأويلات معيّنة، وعلى الرغم من أنّ دلالة بعض الآيات لا تذر أيّ فسحة للتأويل والتبرير، يتصوّرون أنّ نسبةَ المحبّة إلى الله هي نسبة مجازيّة. في حين أنّ الباري عزّ وجلّ، من باب المثال، يقول في آية ترتبط بحياتنا المعاصرة ارتباطاً وثيقاً: «**يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه**»[1]؛ فالله عزّ وجلّ يحذّر في مقام الاستغناء قائلاً: نحن لسنا بحاجة لكم، ولا تتصوّروا أنّكم بإيمانكم تمُنّون على الله. وحتّى إن ارتَدَدتم عن دينكم، فإنّكم لن تضرّوا الله شيئاً، بل إنّه سبحانه سيأتي بقوم يحبّهم ويحبّونه. وهذه الآية تدلّ بصراحة على الحبّ المتبادل بين الله وبعض عباده، وتأبى التأويلات الواردة في هذا الباب. ولا تختصّ هذه الآية بالدلالة المذكورة، بل إنّ عشرات غيرها من الآيات، التي تنسب محبّة الله تعالى للصابرين، والصالحين، والتائبين، ...الخ، تشير إلى عين هذا المعنى.

محبّة الله من وجهة نظر الروايات

لقد وردت أحاديث كثيرة في محبّة الله، من جملتها الحديث التالي: «**المُحبّ أخلصُ الناس سرّاً لله**»؛ أي إنّ الذي يحبّ الله يخلص باطنَه بشكل كامل له عزّ وجلّ، ويخصّص أعماق قلبه له، ولا يدع محلاًّ لأيّ أحد غيره في قلبه. «**وأصدقُهم قولاً**»؛ فكلّ المؤمنين يتحدّثون عن محبّة الله وطاعته، والخشية من عذاب الله وسخطه، لكنّ ادّعاءاتهم تلك لا تترجَم في ميدان العمل، أمّا المحبّ لله فهو صادق في ادّعائه. «**وأوفاهُم عهداً**»؛ أي أوفى الناس في عهده مع الله تعالى. يقول عزّ من قائل: «**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ**»[2]؛ فجميع المؤمنين يعاهدون الله على امتثال أوامره ومجانبة أعدائه، لكنّ الذين يوفون بعهدهم ويصدقون فيه قلّة. «**وأزكاهُم عملاً**»؛ فعملهم أطهر وأنظف من الجميع. «**وأصفاهُم ذكراً**»؛ أي إنّ ذكرَه لله تعالى أنقى وأقلّ رتوشاً من ذكرِ غيره له عزّ وجلّ. «**وأعبَدُهُم نفساً**»؛ فهو يقف كلّ كيانه على عبوديّة الله ولا ينفق ذرّة من وجوده في غير ذلك. «**تتباهىٰ الملائكةُ عند مناجاته وتفتخر برؤيته**»؛ وهذا من آثار هذه المحبّة. «**وبه يعمُر الله تعالى بلادَه**»؛ فالله جل وعلا يعمر البلدان والمدن بوجود مثل هذا المرء ويُكرِم باقي الناس. «**وبكرامته يُكْرِم الله عباده**

يعطيهم إذا سألوه بحقّه ويدفع عنهم البلايا » .بواسطة ما يَكُنّ له من احترام ويقيم له من وزن ؛ فإن سأل الناسُ اللهَ شيئاً بحقّ هذا الإنسان، أعطاهم ما يطلبون، وهو عزّ وجلّ يدفع عنهم «**برحمته ولو علم الخلقُ ما محلّه عند الله ومنزلته لديه ما تقرّبوا إلى الله إلاّ** » .البلايا بما يُغدق عليه من رحمة .[3]«**بتراب قدمَيه**

ضرورة البحث في موضوع المحبّة

على الرغم من الأهمّية البالغة التي تتميّز بها محبّة الله في أقوال أهل البيت (عليهم السلام) فإنّنا قلّما نتطرّق إلى هذا الموضوع أو نفكّر فيه. وإنّ من آفات هذه الظاهرة هو جعل محبّة الله في مقابل محبّة أهل البيت (عليهم السلام) وعدم الاهتمام بالأُولى، وهذا من علامات ضعف الإدراك وضحالة المعرفة. فالحقيقة، على أيّة حال، هي أنّ الثقافة الدينيّة في مجتمعنا لم تنْمُ وتنضج كما ينبغي لتشقّ هذه المعارف طريقها في الأُمّة بقوّة وتغذّي أفئدة شباب هذا الجيل النقيّة بهذه الحقائق كي تصل إلى درجة رفيعة من التكامل. وفي واقع الأمر فإنّ تقصيرنا في مضمار اكتساب محبّة الله يعود إلى ضحالة معرفتنا. لذا نرى من المناسب أن نتحدّث بعض الشيء عن حقيقة المحبّة، وكيفيّة ظهورها، وما يطرأ عليها من شدّة وضعف. وحيث إنّ قضيّة الحبّ هي أمر يحتكّ الناس به ويتداولونه يوميّاً عشرات المرّات، ويدركون مصاديقه بالنسبة لأنفسهم وعوائلهم وأصدقائهم وما إلى ذلك حضوريّاً، فقد يبدو – للوهلة الأُولى – أنّ المحبّة ليست بحاجة إلى تعريف. لكن مع قليل من التمعّن نجد أنّ معرفتنا بهذه المسائل محاطة بالإبهامات ونحن .لا نملك تعريفاً واضحاً لها، بل وإنّنا كثيراً ما نخطئ في هذا المجال

آثار الحبّ

اعتماداً على الأُسلوب المتّبع في علم المنطق في تعريف مفهومٍ ما، حيث يتمّ أوّلاً تحديد خصوصيّاته ومحمولات مصاديقه، ثمّ يصار ثانياً، وعن طريق استقصاء الصفات العارضة عليه وبالإفادة من ذاتيّاته، إلى تشخيص ذلك المفهوم ثمّ نقوم بصياغة تعريف له من خلال ترك الصفات العارضة والاعتماد على .ذاتيّاته، فمن المستحسن أن نبدأ في تعريفنا للمحبّة من المصاديق التي نلمسها نحن حضوراً ووجداناً

ونستهلّ بحثنا بمصداق بسيط يُعدّ أفضل وأطهر مصاديق المحبّة، ألا وهو حبّ الأُمّ لأولادها. فإنّ من آثار محبّة الأُمّ لولدها هو اهتمامها به اهتماماً بالغاً. فالمرء إذا لم يحبّ شيئاً فإنّه لا يلتفت إليه، وسيتساوى عنده وجوده وعدمه، أمّا إذا أحبّه فإنّه سيهتمّ به بدايةً، وسيزداد اهتمامه به كلّما نَمَت محبّته له. ومن آثار المحبّة الأُخرى هي رغبة الحبيب المستمرّة في البقاء إلى جانب محبوبه، وهي الرغبة التي

تتجلّى في شوق الأُمّ إلى احتضان ولدها، وضمّه إلى صدرها، وتقبيله. كما أنّ من الآثار الأُخرى التذاذ المرء وإحساسه بالطمأنينة جرّاء اهتمامه وتعلّقه بحبيبه؛ فالأمّ عندما تضمّ طفلها تشعر بالطمأنينة والدفء، وما إن تنفصل عنه حتّى يساورها القلق.

محبّة؛ أم لذّة؟!

ما ذكرناه في الأمثلة آنفاً عن آثار المحبّة يرتبط بالحبّ بين موجودين. لكن أيمكن القول: إنّ المرء يحبّ نفسه؟ فقد نقول في حواراتنا المتعارفة: إنّني أحبّ نفسي. كما ويقال في البحوث العقليّة: إنّ أكثر ألوان المحبّة أصالة في الإنسان هو حبّ الذات. وهذه البحوث تمتدّ وتتوسّع كثيراً حتّى تصل في النهاية إلى مواطن دقيقة تثير الكثير من السؤالات والاستفسارات، من قبيل: لماذا نحن نحبّ الله؟ هل نحن نحبّه من باب أنّه يمنّ علينا بالنعم التي نحبّها ونلتذّ بها؟ فإذا كان الأمر كذلك، فإنّ ما نحبّه أصالةً هو لذّتنا. ولعلّنا نستطيع – إلى حدّ ما – الحديث عن هذا الضرب من المحبّة فيما يتّصل بالله أيضاً، بل إنّ هناك من الأحاديث الشريفة ما يؤيّد هذا الزعم. وقد أكون كرّرتُ هذه الرواية على مسامعكم مراراً في نفس هذا المجلس، وهي أنّ الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيّه موسى (عليه السلام) فقال: «**حبِّبني إلى خلقي وحبّب خلقي إليّ. قال: يا ربّ كيف أفعل؟ قال: ذكّرهم آلائي ونعمائي ليحبّوني**»[4]، فإنّني قد أودعت في بني آدم فطرةَ حبِّ مَن أحسن إليهم، فإنْ هم علموا مقدار إحساني لهم ونعمائي عليهم لأحبّوني.

حبّ الإمام السجّاد (عليه السلام) لربّه

وهذه طريقة بسيطة، وسنتطرّق في بحوثنا القادمة إلى قضيّة أنّ أسهل الطرق لتنمية حبّنا لله هي التفكّر في آلائه. أوليس الذي أنعم علينا بكلّ هذه النعم محبوباً؟! لكنّنا إذا حلّلنا هذا النمط من الحبّ جيّداً للاحظنا أنّنا في هذه الحالة إنّما نحبّ لَذّاتنا بدايةً، وإنّنا نحبّ الله من حيث إنّه يعطينا ما نلتذّ به من النعماء. لكن هل يمكن أن يبلغ المرء في هذا المضمار إلى مقام يحبّ فيه الله بما أنّه هو الله؟ فإنّنا نعثر فيما لدينا من تراث الأدعية والمناجاة على ما نصّه: «**إلهي! وعزّتك وجلالك لو قرنتني في الأصفاد... وأمرت بي إلى النار، وحُلْتَ بيني وبين الأبرار، ما قطعتُ رجائي منك... ولا خرج حبّك عن قلبي**»[5]. لكنّ إمامنا زين العابدين (عليه السلام) هو مَن يعلن هذا اللون من الحبّ، وليس في ميسورنا ادّعاء مثله بهذه البساطة. فلنتخيّلوا بدقّة أنّهم اقتادونا في أوّل ليلة بعد نزولنا في القبر أو في يوم القيامة إلى جهنّم، فهل يا ترى أنّنا سنحبّ الله ونحن في مثل تلك الحالة؟! لكنّ الآيات القرآنيّة وأحاديث أهل البيت (عليهم السلام) تحدّثنا عن أنّ هناك عباداً يحبّون الله تعالى من أجله هو

فحسب. ولعلّ بمقدورنا، من خلال التعمّق في الآيات والروايات والأدلّة العقليّة، أن نشمّ ولو نسمة من كيفيّة هذا الضرب من الحبّ، وصحيح أنّ المرء ما لم يصبح هكذا، فإنّه لن يدرك كُنْه هذا الحبّ، غير .أنّ مجرّد أن يبذل الإنسان جهداً لنيل ذرّة من هذه المحبّة فهو مَغْنَم عظيم

ابتهاج الله بذاته

نعود الآن إلى تعريف المحبّة ونقول: إذا كان المراد من المحبّة هو حُبّ المرء شخصاً أو شيئاً آخر، فإنّه لا يعود لمحبّة الذات معنىً حينذاك. ولابدّ أن نُذكّر هنا بأنّ قولنا: «نحن نحبّ أنفسنا» إنّما يعود إلى أنّنا نرى نوعاً من الاثنينيّة بيننا وبين أنفسنا؛ فمرادنا من «نحن» هو روحنا المدرِكة، أمّا ما نقصده من «أنفسنا» فهو أبداننا. لكن فلنطرح هذه الشبهة بشكل آخر وبصورة أدقّ، وهو أنّ عين هذا الشخص الذي يقول إنّه يحبّ ذاته، فإنّه يحبّها حتّى وإن لم يدرك شيئاً اسمه «بدن». وهذا التساؤل مطروح أيضاً في مراتب أعلى فيما يتعلّق بالله سبحانه وتعالى، وهو: هل يمكننا القول: «إنّ الله يحبّ ذاته»؟

لقد ذكر بعض العلماء وأهل المعقول في هذا الخصوص: انّ أسمى لون من ألوان الحبّ في الكون هو حبّ الله ذاتَه، وإنّ كلّ أشكال المحبّة الأُخرى إنّما هي شعاع من تلك المحبّة. يقول المرحوم الشيخ محمّد في باب الطلب والإرادة: إنّ أعظم ابتهاج عند «**كفاية الأُصول**» حسين الاصفهانيّ، في حاشيته على الله عزّ وجلّ هو ابتهاجه بذاته. ولعلّ التعبير بـ «الابتهاج» يسمو قليلاً على لفظة «المحبّة»؛ فهو لا يحبّ أجل! فقد ساق بعض عظمائنا تعابير من هذا القبيل. لكن .[6]ذاته فحسب، بل ويبتهج بها أيضاً بالطبع هناك أيضاً من يقول في المقابل: هذا كلام غير صحيح، ولابدّ من القول بوجود مضافٍ محذوف ، أي «**آسَفُونَا**» :أو بالمجاز. بل لقد ذكر قوم آخرون: كما جاء في الخبر بأنّ المراد من عبارة هو «أغضبوا أولياءنا»، فلابدّ من [7]«**فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**» :«أغضَبونا»، في قوله تعالى القول فيما يتّصل بمحبّة الله: إنّ المقصود هو محبّة أولياء الله تعالى، فالله ليس ممَّن يُحَبّ. لكنّه هناك مَن يؤمن أيضاً بأنّ أحَبَّ موجودٍ في الكون هو الله جلّ شأنه، وأنّ أرقى درجات المحبّة هي محبّته جلّ وعلا لذاته، وأنّ جميع أنماط المحبّة الأُخرى إنّما هي شعاع محدود من تلك المحبّة غير المتناهية التي يكنّها الله .لذاته

المحبّة والانجذاب

في ميسورنا القول إنّه: عندما يحبّ المرء شيئاً يتولّد في نفسه إحساس يجذبه نحو ذلك الشيء. ومن هذا المنطلق يمكننا اعتبار أنّ المحبّة هي شكل من أشكال الانجذاب الروحيّ. فكما يجذب المغناطيس الأشياء

الحديديّة، فإنّ المحبّة هي حالة من الانجذاب تصيب قلب الإنسان فتجذب روحه وقلبه باتّجاه محبوبه. وهنا يرد سؤال مفاده: كيف تحصل للإنسان هذه الحالة من الانجذاب إلى بعض الأُمور؟ وهل هي محض صدفة، أم إنّها تستبطن حكمةً ما؟

من الجليّ أنّ بعض الحالات لا تكون باختيار المرء؛ فحبّ الأُمّ لولدها مثلاً خارجٌ عن اختيارها كما يبدو، إذ ليست القضيّة أنّ الأمّ تفكّر بأنّه من الأفضل أن تحبّ ولدَها، ثمّ تقرّر الشروع بحبّه. فهي لا تستطيع أساساً أن لا تحبّه، بل وكأنّها هي غير مختارة في هذا الأمر. لكن هل يمكن أن يصنع المرء اختياراً ما يجعله يحبّ؟ وهل بالإمكان تقوية المحبّة أو إضعافها اختياراً؟ فعلى الرغم من أنّ الانجذاب القلبيّ هو أبسط تعبير يمكن استعماله بالنسبة للمحبّة، لكنّه لا يفصح أحياناً عن حقيقة المحبّة كما ينبغي، وهو لا يخبرنا عن حقيقة هذا الانجذاب وماهيّته أيضاً. فلو عثر المرء على سرّ هذا الانجذاب، لحصل على مفتاح .من شأنه أن يحلّ الكثير من المسائل الأُخرى التي سيأتي ذكرها لاحقاً

المحبّة وإدراك اللذّة

إنّنا عندما نحبّ شيئاً، مثلما إذا كان طعاماً أو لوحة فنّية أو زهرة جميلة مثلاً، فذلك يعني أنّنا سنشعر بالنشوة عند اتّصالنا بذلك الشيء أو اجتماعنا معه. فإذا كان الأمر كذلك فإنّنا سننجذب إليه، وإلاّ فلا. فلو افترضنا أنّ أحد شخصين يحبّ لوحة فنّية بينما لا يدرك الثاني، الذي لا يملك أيّ حسّ فنّي، مكمن الجمال فيها، فإنّ انجذاب الأوّل إلى اللوحة يعود إلى التذاذه بها، وسبب عدم انجذاب الثاني إليها هو عدم شعوره بهذه اللذّة. وهاهنا يُطرح سؤال: لماذا يلتذّ الأوّل باللوحة ولا يلتذّ الثاني بها؟ وهذا السؤال يُطرح بالنسبة لكلّ شيء يحبّه الإنسان. فالمرء سيبني مع ما يحبّه علاقة تؤدّي إلى التذاذه به. بالطبع إنّ محبّتنا محدودة بالأمور التي نعرفها نوعاً ما أو نشعر بالنشوة تجاهها. وذات الشيء يصدق على عدم حبّ الناس لأمرٍ ما، وهو أنّ شعوراً كهذا لا ينتابهم؛ فإمّا انّهم لا يدركون جماله، أو إنّه — من باب الصدفة – لا ينسجم مع ذوقهم، فلا يشعرون باللذّة تجاهه. إذن لابدّ من إضافة قيد اللذّة إلى تعريف المحبّة والقول: المحبّة هي انجذاب المرء إلى ما يلتذّ بوَصْله. ونُضيف أيضاً: إنّ الالتذاذ يقتضي وجود تناسب بين المُدرَك وبين قوى المرء الإدراكيّة. ففيما يتّصل بحاسّة الذوق مثلاً نرى أنّ بعض الناس يحبّون طعاماً معيّناً قد لا يحبّه آخرون. إذن فلابدّ من تناسبٍ بين حاسّة الذوق والطعام المُذاق كي تحصل اللذّة. وهنا مكمن التغاير بين الناس في فهمهم للجمال، وهي قضيّة تصدق حتّى على الحيوانات أيضاً؛ فبعض الحيوانات قد تبعث رؤيتها الاشمئزاز في نفوسنا، لكنّ بعضها يحبّ البعض الآخر، بل وتلتذّ لرؤية بعضها البعض. وعلى هذا فإنّ التعريف المبسّط للمحبّة هو الانجذاب إلى ما يتناسب مع قوى الإنسان .الإدراكيّة ويلتذّ المرء به

محبّة الله والانجذاب

التعريف الآنف الذكر يختصّ بألوان المحبّة العاديّة التي يمارسها المرء. لكنّ السؤال «ما معنى انّني أُحبّ نفسي؟» ما زال من دون إجابة، وهو سؤال يُطرح حتّى بالنسبة للباري جلّ وعلا. بل ثمّة سؤال آخر أيضاً هو: أساساً كيف يحبّ الله أمراً؟ أوَيمكن أن يشعر الله بالانجذاب؟ فالانجذاب هو انفعال وضعف وتأثّر، والله لا يقع تحت تأثير شيء ما. فالانجذاب يصدق عندما تكون ثمّة جاذبيّة تجذب الطرف الآخر نحو الجاذب. فلو أحبّ الله شيئاً بهذه الصورة، لحصل له الانفعال، وهو محال على الله. وشبيه بهذا المضمون نقرأه في دعاء عرفة للإمام الحسين (عليه السلام) حينما يقول: « **إلهي! تقدّس رضاك أن تكون له علّة منك، فكيف يكون له علّة منّي**»[8]؛ وهو مبحث غاية في علوّ المضمون. فطالما نقول في حواراتنا: نفعل كذا لنرضي الله! لكنّ الإمام الحسين (عليه السلام) يقول في يوم عرفة: إلهي! لا يسعني أن أقول: إنّك ترضي نفسك، فما بالك بالقول: إنّني أُرضيك! فإذا كانت المحبّة بمعنى الانجذاب، فهل إنّ حبّ الله شيئاً يعني تأثّره بذلك الشيء؟! وهل ينجذب الله إلى أمرٍ ما يا ترى؟! وللردّ على مثل هذه المفاهيم العقليّة الدقيقة هناك عادةً بضعة طرق متعارفة. أحدها هو قول بعضهم: نحن لا نفقه أيّ شيء في هذا المجال، وعلينا التزام الصمت. وقد أراح أصحاب هذا الرأي أنفسهم من عناء البحث وألغوا الموضوع من الأساس. أمّا أصحاب الطريق الثاني فيقولون: هذه التعابير مجازيّة. فهؤلاء يقولون بشكل من أشكال التجوّز في هذا الباب ويلجأون إلى نمط من الفنون الأدبيّة لحلّ مشكلة الألفاظ.

وأمّا أهل الدقّة والتمعّن في هذا الوادي فقد توسّعوا في بحث هذه المفاهيم وقالوا: ليس لنفس الإنجذاب موضوعيّة، بل إنّ المطلوب هنا هو الاتّصال. وحتّى الاتّصال فإنّه لا يحصل إلاّ عندما يكون ثمّة اثنينيّة، أمّا عند غياب الاثنينيّة، فتحلّ الوحدة محلّها. فالله هو وجودٌ واحد يتّسم بالكمال، وهو بذاته يحبّ ذاته.

عينيّة ذات الله وصفاته

إنّ صفات الله تعالى هي عين ذاته، وليست خارجة عنها، وإنّ ما نشاهده نحن من التعدّد في هذا المجال يعود إلى نقصٍ في وجودنا. فكلّما كمُل الوجود أكثر، صار أكثر انسجاماً وبساطةً، وأصبح علمه عين حياته، وحياته عين قدرته. فعلم الله، ومحبّته، وكماله كلّها شيء واحد.

إذن فالمحبّة هي ضرب من الانجذاب، أو الارتباط، أو الاتّصال بموجودٍ ما؛ سواء أكان هذا الموجود ذاته، أم هو موجود آخر يُعَدّ كمال الوجود. فإذا تحقّق الكمال، التذّ به كلّ موجودٍ يمتلكه، هذا إذا عرف أنّه

«كمال». من هذا المنطلق فإنّنا إذا رغِبْنا في محبّة الله، فما علينا إلا أن نتعرّف – على قدر ما ترقى إليه عقولنا – على كمالات الله عبر الطريق التي حدّدها هو نفسه، وأن نحاول اكتساب القدرة على إدراك الكمال. بالطبع هناك شروط أُخرى لذلك سنتعرّض لها فيما بعد.

هذه الأشكال من المحبّة هي اختياريّة. لكنّ الله، بطبيعة الحال، قد أودع معادنها في كياناتنا. أمّا إيصالها إلى مرحلة الوعي، وتفجيرها، والإفادة والانتفاع منها فقد تُرك لاختيارنا نحن، وإنّه يتعيّن علينا نيلها عن طريق تقوية المعرفة وتوفير الشروط.

رزقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

أقسام المحبّة

خصوصيّات أحبّاء الله في كلامه تعالى

ذكرنا أنّ لمحبّة الله منزلة هي غاية في الرفعة في ثقافة الإسلام والتشيّع، لكنّ قيمتها — مع شديد الأسف — غير معروفة كما ينبغي لها أن تُعرف. ولقد أوردنا في المحاضرتين السابقتين بضعة أحاديث عن أهمّية ومنزلة محبّة الله تعالى كي نستنير بضيائها، ونتأمّل، بعض الشيء، في كيفيّة حيازة هذه الجوهرة الثمينة، ونقف على شروطها وآثارها. أمّا اليوم فتعالوا ننهل معاً من معين حديث آخر رواه المرحوم العلاّمة المجلسيّ (رضوان الله تعالى عليه) عن كتاب «**مسكّن الفؤاد**» للشهيد الثاني[1] وهو: «**أوحى الله إلى بعض الصدّيقين**[2] [أي بعض الأنبياء] **أنّ لي عباداً من عبيدي يحبّونني وأُحبّهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم**»[3]. فإنْ أنت (والقول لله تعالى) هذه هي صفتهم. فإنّ لي عباداً، عرفت طريقهم واتّبعتهم، فسأحبّك. وأمّا إذا انحرفتَ عن سبيلهم فسأغضب عليك: «**فإنْ أخذتَ طريقهم أحببتُك، وإنْ عدَلتَ عنهم مقتُّك**».

فقال النبيّ الصدّيق: «**يا ربّ وما علامتهم**»؟ فذكر الله له من علاماتهم ما يُعدّ غاية في الغرابة بالنسبة لنا: «**قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الشفيقُ غَنَمَه، ويحِنّون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطير إلى أوكارها عند الغروب**»؛ فمَثَل هؤلاء كمَثَل الراعي الشفيق الرؤوف على غنمه، الذي يراقبها وهي ترعىٰ كي لا تغيب عن ناظريه، فإنّهم يراقبون الظلال طول النهار، حتّى إذا مالت الشمس نحو المغيب، وامتدّت الظلال إلى كلّ مكان، وخيّمت العتمة، استأنسوا بغروب الشمس كما تستأنس الطير

بأوكارها وتعود لتستقرّ فيها مطمئنّة عند الغروب. وكأنّهم كانوا طوال النهار ينتظرون قدوم المساء على أحرّ من الجمر ليلجأوا إلى ركن آمن. «**فإذا جَنَّهُم الليل، واختلط الظلام، وفُرِشت الفُرُش، ونُصبت** الأسِرّة، وخلا كلّ حبيب بحبيبه**» ؛ فعندما يتلاشى الضياء في أوّل الليل، ويخيّم الظلام، وتُفرَش الفُرُش «**الأسِرّة، وخلا كلّ حبيب بحبيبه**

نَصَبوا إليّ أقدامهم، وافترشوا إليّ »، ويخلو كلّ حبيب بحبيبه، [4]وتُعدّ الأسرّة استعداداً للنوم

؛ يقف هؤلاء العباد بين يدَيّ مصلّين، ويخرّون على أعتابي ساجدين، ممرّغين بالتراب «**وجوههم**

؛ أي «**وتملّقوني بأَنعامي**» .؛ فإذا هم قرأوا القرآن، مثلاً، خاطبوني بآياته«**وناجَوني بكلامي**» .جباههم

ما بين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوّهٍ » .ذاكرين ما أولَيتُ عليهم من النعم [5]يتحدّثون إليّ بتملّق

، **وبين راكعٍ وساجدٍ. بعيني ما** [يتفكّر في توجّه] ، **وبين قائمٍ وقاعدٍ**[من الصبر على فراقي] **وشاكٍ**

؛ فأنا غير غافل عمّا يتجشّمونه من العناء في سبيلي، وملتفتٌ إلى ما يتحمّلونه «**يتحمّلون من أجلي**

.؛ فأنا أسمع أنينهم وشكواهم من فراقي«**وبسمعي ما يشكُون من حبّي**» .من المشقّات لمحبّتي

سلوك الله مع أوليائه وأحبّائه

:وبعد أن اطّلعنا على علامات أحبّاء الله وأوليائه، تعالوا لننظر كيف يعاملهم جلّ وعلا. يقول تعالى

؛ أي «**أوّل ما أُعطيهم ثلاثاً؛ الأوّل: أقذف من نوري في قلوبهم فيُخبِرون عنّي كما أُخبِر عنهم**» إنّهم سيطّلعون على ما في قلبي كما أطّلع أنا على ما في قلوبهم. وكأنّ القلوب تغدو مرتبطة مع بعضها .فيطّلع كلّ واحد على قلب صاحبه

؛ أي لو أنّني «**والثاني: لو كانت السماوات والأرضون وما فيهما من مواريثهم لاستقلَلْتُها لهم**» وهبتهم كلّ ما في السماوات وما في الأرضين وما فيهما، لما استكثرتُه عليهم، ولو وضعت الوجود كلّه بين أيديهم لقلتُ: إنّهم يستحقّون المزيد. واللهُ لا يتكلّم بغير الواقع، والعياذ بالله. ألَم يهب كلّ ذلك !لأهل البيت (عليهم السلام)؟! ألم يعط جلّ شأنه سيّدَ الشهداء (عليه السلام) العالمَ بأسره؟

؛ أي ألتفت إليهم وأُعيرهم كلّ اهتمامي. وإذ أنّنا لا نفهم كيف يكون «**والثالث: أُقبِل بوجهي عليهم**» **أَفَتَرى مَن أقبلتُ عليه** » :التفات الباري تعالى لعبده وإعارتُه إيّاه اهتمامَه، يتبعُ عزّ وجلّ كلامه بالسؤال :؟! وهو سؤال استنكاريّ ومعناه: لا أحد يعلم؛ كقوله تعالى«**بوجهي يعلم أحد ما أُريد أن أُعطيَه** ولقد وردت إشارات ورموز عن ثمار هذا الإقبال .[6]«**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**» الإلهيّ في روايات أُخرى سنتطرّق إليها في المحاضرات القادمة إن شاء الله إذا مدّني الله تعالى بالحياة .والتوفيق

عودة إلى تعريف المحبّة

قلنا في المحاضرة الفائتة إنّه لابدّ، للبحث حول موضوعٍ ما، أن نملك تعريفاً للمفهوم والحقيقة التي نبحث عنها. وأفضل تعريف هو ما يُقتنَص من دراسة المصاديق، والوقوف على لوازمها الذاتيّة. وقد توصّلنا تقريباً، فيما يتّصل بالمحبّة، إلى نتيجة مفادها أنّ المحبّة هي انجذابٌ عن وعي يلتفت فيه القلب إلى المحبوب، ويطلب قربَه، حتّى لا تبقى أيّ مسافة تفصلهما. وضربنا لهذا التعريف من محبّة الأُمّ لولدها مثلاً، وهو أنّها إذا احتضنت طفلها فإنّها لا تقنع بأقلّ من ضمّه بقوّة إلى صدرها، وهي تلتذّ من هذا الاتّصال لذّةً لا يتسنّى قياسها باللذّات المحسوسة.

وقلنا إنّ المفروض من هذا التعريف للمحبّة هو أنّ المحبَّ غيرُ المحبوب؛ بالضبط كما هو الحال في المفهوم المتعارف للعِلم، فعندما يقول المرء: أنا أَعلم، فهو يعني أنّه يعلم شيئاً غير ذاته، وأنّه ثمّة نوع من التعدّد بين القوّة المدرِكة والشيء المعلوم. لكنّه، بفضل التحاليل العقليّة، والبراهين والأدلّة المستقاة من الوحي، فإنّ هناك ما يثبت أنّ الروح تحيط علماً بذاتها، بل ولنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول فيما يختصّ بالباري عزّ وجلّ: إنّ علم الله هو عين ذاته؛ فقد جاء في الخبر: « **وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه**»[7]. وهذا الأمر يجري أيضاً في مجال المحبّة؛ فالمحبّة التي نمارسها نحن البشر هي أن نحبّ الآخرين، لكنّ التحاليل تشير إلى إمكانيّة أن يحبّ المرء نفسَه، وأعلى مصاديق هذا النمط من المحبّة هي محبّة الله لذاته.

المحبّة بالذات والمحبّة بالعَرَض

إنّ سبب حبّ الإنسان لشيءٍ ما هو ما يجده فيه من ميزة. وبالتعبير المتعارف، فإنّ للمحبوب كمالاً قد يكون محسوساً وقد لا يكون، وقد يكون مرئيّاً أو مسموعاً، وهو يُدعى الجمال. وقد تبعث على المحبّة كمالاتٌ أُخرى كالعلم، والتقوى، وما إلى ذلك. فقد نحبّ عبداً معيّناً من عبيد الله حبّاً جمّاً في حين أنّه قد لا يملك ميزات ظاهرة، لكنّ تحلّيه بخصوصيّات معنويّة وروحيّة يجعلنا نرى فيه جمالاً معنويّاً فننجذب إليه.

والقضيّة المهمّة التي يتعيّن الالتفات إليها هي أنّنا أحياناً نحبّ أمراً لنفسه، وأنّنا نستمتع بذاته، لكنّنا في أحيان أُخرى قد نحبّ شيئاً من باب كونه الوسيلة التي توصلنا إلى محبوبنا. فنحن جميعاً – على سبيل المثال – نحبّ الذهاب إلى كربلاء. فإذا تعهّد أحدهم بنفقات سفرنا إليها، أو عرض علينا حملنا بسيّارته الخاصّة من باب منزلنا إلى هناك ومن ثمّ إرجاعنا إلى المنزل، فكم سنودّه؟ فلو أنّه لم يفعل ذلك لما

أحببناه إلى هذا الحدّ، لكن بما أنّه أصبح وسيلة لإيصالنا إلى محبوبنا الأساسيّ فنحن نحبّه هو أيضاً. هذا النوع من الحبّ، في الحقيقة، هو حبّ بالعَرَض؛ فالحبّ بالذات هو ذلك الحبّ الذي نكنّه للإمام الحسين (عليه السلام)، لكن بما أنّ هذا الشخص أصبح مقدّمة للوصول إلى المحبوب الرئيسيّ، فسنحبّه هو كذلك.

المحبّة الأصيلة والمحبّة بالتبع

نستطيع هنا أن نفترض تقسيماً آخر للمحبّة، وهو حبّ متعلّقات المحبوب. فمثلاً: بما أنّنا نودّ السيّدة فاطمة المعصومة فإنّنا نحبّ مدينة قمّ لإنّها (سلام الله عليها) مدفونة في أرضها. إذ من الواضح أنّه ليس في مدينة قمّ بحدّ ذاتها ما يجذبنا، وإذا كنّا نحبّها فلأنّ ترابها يضمّ الجسد الطاهر لهذه السيّدة الجليلة. وحتّى صحنها وحرمها فنحن نعشقهما لكونهما متعلّقين بها، وإنّ رغبتنا في تقبيل ضريحها أيضاً يرجع إلى تعلّقه بها (سلام الله عليها). وهذا النمط من المحبّة يذكّرنا بالأبيات المعروفة لمجنون ليلى التي يقول فيها:

أمُرّ عـلى الديـار ديار ليلىٰ   أُقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبّ الديار شغَفنَ قلبي   ولكن حبّ مَن سَكَن الديارا

فعندما يرتبط المرء بشخصٍ ما بعلاقة وثيقة وحميمة فإنّه سيحبّ – مضافاً لحبّه له – كلّ ما يتعلّق به من دار، وكُتب، وثياب، الخ. فإنّ من لوازم المحبّة أن يسطع على كلّ ما يتعلّق بالمحبوب شعاع من الحبّ. وبالطبع فإنّ هذه المحبّة تختلف باختلاف المراتب والدرجات؛ فكلّما كان الشيء أشدّ إظهاراً للمحبوب، كان أكثر محبوبيّة. لكن، على أيّة حال، فإنّ أقلّ انتساب إلى المحبوب يوجب المحبّة بما يتناسب مع مقدار هذا الانتساب. ويقال لهذا الصنف من المحبّة محبّة بالتبع؛ بمعنى أنّ المحبّ يحبّ ثياب المحبوب حقّاً، لكن ليس لذاتها، بل لكونّها ثياب المحبوب. فإنّ حبّ الشيعة لأهل البيت (عليهم السلام)، وتقبيلهم لأبواب مقاماتهم وجدرانها، ومسح رؤوسهم وعيونهم بترابها، هو أمر طبيعيّ. فالذين لا يدركون هذا المعنى لا يفقهون من الحبّ شيئاً، بل ويتّصفون بقلّة الشعور وقسوة الروح وجفافها. فكلّ مَن يمتلك عاطفة جيّاشة سليمة يدرك أنّ هذا النوع من المودّة طبيعيّ، بل ويستحيل أن لا يكون.

وسنصل في البحوث القادمة، إن شاء الله، إلى نتيجة مفادها أنّ أعلى وأكثر مراتب الحبّ أصالة ينبغي أن تُوجَّه لأكثر المحبوبين أصالة والذي يمتلك أكثر الكمالات أصالة، ألا وهو الذات القدسيّة المتمثّلة بالباري عزّت آلاؤه، وكلّ ما عداه فهو محبوب بالتبع. ولقد طرقت مسامعكم مراراً قصّة الحوار الذي دار بين ذلك الصبيّ والنبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) حيث قال الأوّل مقارناً حبّه للنبيّ بحبّه لله تعالى:

؛ أي: هذه المحبّة [8]«**الله الله الله يا رسول الله! ليس هذا لك ولا لأحد، فإنّما أحببتُك لحبّ الله**» هي من مختصّات الله، ولا صلة لها بك ولا بأحد غيرك على الإطلاق. فإذا حظينا بالمعرفة الصائبة فيتعيّن أن نكون هكذا، وأن نحبّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) لكونه نبيّ الله عزّ وجلّ. فإن لم نكن على هذه الصورة، فذلك راجع لنقص في معرفتنا؛ حيث إنّنا أحللنا المحبّة بالتبع محلّ المحبّة الأصيلة. إذن علينا أن نصحّح معرفتنا، وأن نسعى جاهدين لمعرفة الكمال الأساسيّ، وأن نبحث عمّن هو محبوبٌ ذاتاً، وأن .نعلم بأنّ الآخرين إنّما يكونون محبوبين تبعاً له

مقام الفناء واللذّة

إنّ شدّة المحبّة وعمقها يرتبطان باللذّة التي يحسّها المحبّ، وإنّ حبّ المحبّ لِلَذّته هو الذي يدفعه إلى حبّ متعلَّق هذه اللذّة أيضاً. وحبّ اللذّة هذا قد يكون عن وعي، وأنّ المرء يعلم أنّه يسعى وراء لذّته؛ كألوان المحبّة المجازيّة التي يعلم المرء فيها أنّ الطرف المقابل إنّما يفتّش عن لذّته ومرحه بحبّه، وإذا كان يلتذّ الآن برؤيته، فإنّه سيتركه غداً ويحبّ شخصاً آخر. لكنّ المحبّ يكون أحياناً على جانب من الفناء في محبوبه، والالتفات الكامل إليه بحيث إنّه لا ينتبه إلى أيّ شيء آخر سواه، حتّى نفسه. وهذه حالة يطلق عليها بعض أرباب المعرفة اسم «حالة الفناء». ولابدّ من القول: إنّ الفاني هنا لا ينعدم، بل إنّ حالة تطرأ على المحبّ لا يلتفت معها لأيّ شيء آخر. وباستعراضنا لهذه الحالة، وسبرنا لأعماق قلب هذا المحبّ سنستنتج أنّه هو الآخر طالب لذّته، لكنّه غير ملتفت إلى نفسه، ولا إلى لذّته. ولعمري فإنّ هذه لمقامات وحالات تحيّر مَن هم من أمثالنا حتّى في خطوتها الأُولى. فإنْ وُجدَت مثل هذه المقامات حقّاً، !وكان باستطاعتنا نيل نفحة منها، لكنّنا – مع ذلك – فرّطنا بها، فإنّنا لمغبونون غبْناً ما بعده غبْن

شدّة المحبّة وضعفها

شدّة المحبّة وضعفها

تُصنَّف المحبّة تصنيفاً آخر حسب شدّتها وضعفها. فكلّنا قد جرّب هذه الحالة؛ وهي أن نحبّ أُموراً، لكن ليس إلى درجة أن يشغل حبّها قلوبنا ونديم التفكير فيها، بل أن يقتصر على ابتهاجنا عند رؤيتها، وميلنا إلى الأُنس بها، وعدم كُرهنا إيّاها. لكنّ المحبّة تكون أحياناً على درجة من الشدّة بحيث تستحوذ :على قلب المرء بتمامه فلا يعود يفكّر إلاّ بما تعلّق حبّه به. يقول القرآن الكريم في وصف المؤمنين

، والشدّة هي في مقابل الضعف؛ فعندما تصبح محبّة البعض لله أشدّ، [1]«**الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ**» يغدو حبّهم لما سواه أضعف. فإنّ احتواء القدح على الماء يجعله لا يتّسع لشيء آخر، وإذا أُلقي فيه **مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ** » :شيء أثقل من الماء، مثلاً، فإنّ الماء يفيض وينسكب خارج القدح. يقول تعالى ، فليس للإنسان غير قلب واحد. فإنْ شغلَتْ محبّةُ شيءٍ ما قلب المرء لم يعد [2]«**مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** فيه مجال لشيء آخر. وإذا أُودع في القلب شيئان، شغل الشيء ذو الحجم الأكبر مجالاً أوسع، وكلّما .اشتدّ أحدهما، ضعف الآخر

أسباب اشتداد المحبّة

وهنا سؤال: كيف لمحبّة شيءٍ ما أن تضطرم، وكيف لمحبّة شيء آخر أن تخبو؟ ولماذا يَكُنّ شخصان لامرئ واحد درجتين من المحبّة، بل وقد يحبّه أحدهم ويبغضه الآخر؟ فأخو يوسف (عليه السلام) الشقيق كان يَكُنّ له مقداراً من الحبّ، أمّا إخوته الآخرون فكانوا لا يودّونه حسداً له، بل وكانوا على **لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ** » :استعداد لإهلاكه أيضاً. وكانت علّة حسدهم ليوسف (عليه السلام) قولهم ؛ فبما أنّ أبانا يحبّ يوسف وأخاه أكثر منّا، فيتحتّم علينا قتله! وللوقوف على هذا اللون [3]«**أَبِينَا مِنَّا** .من الاختلاف يتعيّن النظر في كيفيّة تولّد المحبّة، والعوامل المساهمة في إيجادها

قلنا سلفاً إنّه ينبغي للمحبّ أن يرى فضيلة أو كمالاً في المحبوب لتظهر المحبّة تجاهه، وهذا يعني أنّه لابدّ من وجود كمال في متعلَّق المحبّة. لكنّه قد يكون للمرء كمال من دون أن يطّلع عليه الناس. ومن هنا فإنّه يتحتّم أن يدرك الطرف المقابل هذا الكمال لتنشأ المحبّة. إذن فمن الواضح أنّ للمعرفة أثراً في تولّد المحبّة، وأنّه كلّما كانت المعرفة أعظم، كان الحبّ أقوى وأشدّ. وكذا، كلّما اشتدّ الكمال في المحبوب، أثار .في قلب المحبّ محبّة أكبر

يُفهم من ذلك أنّ العامل الأوّل المؤدّي إلى اختلاف مراتب المحبّة هو اختلاف مرتبة الكمال الموجود في المحبوب، وأنّ العامل الثاني لذلك هو اختلاف معرفة المحبّ بكمال المحبوب. كما أنّه لابدّ للمحبّ – علاوة على المعرفة – أن يعتقد بكماليّة هذه الصفة في المحبوب، وإلاّ فإنّ عدم اعتقاده بكونها فضيلة فيه سوف لا يدفعه إلى حبّ صاحبها. فالمتديّنون يحبّون الشخص المتّقي لاعتقادهم بأنّ في التقوى حُسناً للمرء، أمّا الفسّاق، الذين لا يرون في التقوى فضيلة، فإنّهم يرمون عمل الشخص المتّقي بالجهل وقلّة .الفهم

كما أنّه لابدّ — بعد كلّ ذلك — من التمعّن والتركيز؛ فكلّما دقّق المرء أكثر في كمال شيءٍ ما، زاد حبّه له. فضياء الشمس لا يحرق الورقة في الأحوال العاديّة، لكنّه إذا رُكِّز على الورقة بواسطة عدَسَة فإنّه سيولّد حرارة تحرقها. ومِثله حال الروح، فهي إذا تمعّنت في فضيلة معيّنة بشكل كامل، فسوف تتأجّج فيها المحبّة، وسيؤول الأمر إلى الشغف، ومراتب العشق العليا، والخ.

الاختيار عند التزاحم دليل على شدّة الحبّ

يتّضح ممّا سبق أنّ اشتداد أو ضعف أيّ واحد من هذه العوامل سيؤدّي إلى اشتداد أو ضعف في المحبّة. ومن المواطن التي يمكن عندها قياس نسبة المحبّة تجاه القضايا المتنوّعة بكلّ سهولة هو تزاحم لوازم المحبّة. فإذا دُعي شخص من قبل صديقين له في آن واحد فرجّح دعوة أحدهما على دعوة الآخر بلا تردّد، كان ذلك دليلاً على رجحان محبّته لهذا الصديق على محبّته للآخر. وحتّى الأطفال فإنّهم يدركون، من خلال تصرّف أبويهم، أيُّ واحد من الإخوة محبوب لدى الأبوين أكثر، ولهذا ينبغي على الوالدين أن يسيطرا على سلوكهما تجاه أطفالهما كي لا يشعروا بالتمييز، وإلاّ فسيمهّدان لبوادر الحسد والأذى والعذاب النفسيّ.

يقول الله عزّ وجلّ في الآية الرابعة والعشرين من سورة التوبة: «**قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**». فالله تعالى يضع الأب والأمّ، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والدور، والقصور، والتجارة والأموال في كفّة، ويضع نفسه [ورسوله] والجهاد في سبيله في الكفّة الأُخرى، ثمّ يقول: أيّ واحدة من الكفّتين تفضّلون؟ فمعظمنا يزعم: أنّ حبّي لله أكبر، لكن ما إنْ يواجه مفترق طريقين حتّى يُعلَم إلى أيّ الأمرين يميل قلبه أكثر. فليس ثمّة «جبهة» أو جهاد في الوقت الحاضر ولكلٍّ منّا أن يدّعي أنّ حبّه لله وللجهاد لا ينازعه أيّ حبّ ويصرّ على ادّعائه. لكنّ ظروف الحرب والقتال هي التي من شأنها أن تكشف مدى صدق هذا الادّعاء، فإنْ أنا توجّهتُ إلى الجهاد حينها، عُلِم أنّ حبّي لله أعمق، أمّا إذا التمستُ الأعذار واتّخذتُ الذرائع، فسيصبح معلوماً أنّني أُحبّ ما سوى الله أكثر. نفهم من ذلك أنّ من أمارات شدّة الحبّ هي استعدادنا للعطاء والتضحية في سبيل المحبوب؛ وهذا المعنى نقرأه في زيارات أهل البيت (عليهم السلام)؛ فنحن نزعم أنّ كلّ ما عندنا هو [4]: عندما نقول: «**بأبي أنتم وأمّي ونفسي وأهلي ومالي وولدي**» فداء لكم! لكن ما هو مدى إيماننا بذلك؟ وإلى أيّ درجة نحن مستعدّون لأن نُظهر عمليّاً أنّنا نحبّ الله وأولياءه أكثر من أموالنا وأنفسنا؟!

العلاقة بين ذكر الله وحبّه

ذكرنا أنّه يجب علينا أن نركّز انتباهنا على المحبوب كي تتحوّل هذه الحالة إلى محبّة ثابتة، وإلاّ فإنّها سوف لا تتعدّى حدّ اللذّة العابرة التي ستخبو وتُنسى بعد حين. فالمحبّة الراسخة من دون نسيان هي رهن بمقدار التفات الإنسان إلى المحبوب، وكلّما عظُم الاهتمام بالأخير وزاد ذكره، اشتدّ حبّه. والعلاقة بين الذكر والمحبّة هي علاقة متبادلة أيضاً؛ فالمحبّة تبعث على الذكر أوّلاً، لكنّ الإنسان إذا استمرّ في الذكر اختياراً، فستزداد محبّته، وهي بدورها ستقود إلى المزيد من الذكر، وهكذا. والعكس أيضاً صحيح؛ فقد يصرف الإنسان نفسه عن ذكر المحبوب فتضمر محبّته في قلبه تدريجيّاً. وهذا يكشف لنا علّة تأكيد القرآن الكريم والسنّة الشريفة على ذكر الله؛ يقول عزّ من قائل: « **وَاذْكُرُواْ اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**»[5]. فليس هذا الإصرار عبثاً، لأنّ لكلّ قول أثره على القلب وهو يساعد على تشديد الالتفات إلى الله جلّ شأنه والتوجّه إليه. فمع كلّ تكرار – سواء أقَوِيَ أم ضَعُف – التفات جديد. فإذا وُفِّق المرء إلى ذكر مستمرّ وثابت لله تعالى، دامت محبّته له مدّة أطول.

المزيد من الكمال يورث المزيد من المحبّة

وهذه هي آليّة ظهور المحبّة ونموّها، أو ضمورها وزوال أثرها. ولا بأس أن نفتّش في أنفسنا لنرى هل نحن نحبّ الله أم لا، وما هي طبيعة محبّتنا له عزّ وجلّ؟ فهل نحن نحبّ الله أكثر من غيره؟ وهل إنّ رُجحان محبّتنا لغير الله يخضع لمعيار صحيح، أم إنّه بسبب جهلنا؟ إنّ تأمّلنا في هذه المسائل يساعدنا على قياس نسبة محبّتنا لله سبحانه وتعالى. فنحن – في الحقيقة – نقع في أخطاء كبيرة في اختيارنا لما نحبّ ومَن نحبّ. فلو فكّرنا بشكل صحيح وتلمّسنا الطريق الصواب في ذلك، لأحببنا الله أكثر من غيره.

لقد قلنا سابقاً إنّ ممّا يورث ازدياد المحبّة هو الالتفات إلى شدّة كمال المحبوب. فهل ثمّة في هذا الكون شيءٌ يفوق الله تعالى في كماله يا ترى؟! كلّنا يعلم أنّه ما من شيء في هذا الكون إلاّ وقد أُوجِد بأمر واحد من الله عزّ وجلّ: «**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**»[6]. فلقد شعّ من ذلك المصدر غير المتناهي شعاع ظهَرَ في أثره كلّ هذا العالم: « **وَمَا أَمْرُنَا إِلاّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**»[7]؛ وإلا فإنّه ما من جمال في هذا العالم يمكن أن يمثّل طرف النسبة مع جمال الباري جلّ وعلا.

علم الرياضيّات في فهم غير المحسوسات

لقد بحث علماء الرياضيّات في قضيّة أنّه: هل يمكن رفع قيمة ما لانهاية إلى قوّة ما لانهاية؟ فلنبدأ أوّلاً بالضرب؛ ففي الرياضيّات يمكن افتراض ضرْبِ قيمةٍ ما لانهاية بمثلها؛ كأن يكون هناك خطّ غير متناهٍ في الطول له عرض غير متناهٍ أيضاً، فتُكتب صيغته: (ما لانهاية × ما لانهاية). والآن إذا أردنا استخراج حجمه فإنّنا سنضرب حاصل الضرب بما لانهاية أيضاً؛ أي: (ما لانهاية × ما لانهاية × ما لانهاية)، وهي عمليّة ذات ثلاثة مُعامِلات. لكنّ السؤال هو: هل يمكننا افتراض أنّ قيمة المعامِل لا نهاية لها؟ هذا مجرّد فرض. وعلى الرغم من أنّه بعيد عن الواقع، ولا يمكن تمثيله في هذا العالم، لكنّه يساعد كثيراً على تقريب بعض المسائل العقليّة إلى الذهن.

في إحدى سفراتي إلى الخارج قبل بضع سنوات كنتُ في ضيافة أحد النوابغ الإيرانيّين من طلبة الدراسات العليا في فرع الرياضيّات في جامعة «اكسفورد» البريطانيّة، فسألته السؤال التالي: كنّا نفترض للكون ثلاثة أبعاد: الطول والعرض والارتفاع، حتّى جاء «اينشتاين» فأثبت كون الزمن هو البعد الرابع للعالم، الذي يُعدّ — بشكل من الأشكال — من لوازم «الحركة الجوهريّة» التي قال بها «الملاّ صدرا» أيضاً. فهل يجوز افتراض أبعاد أُخرى للعالم يا ترى؟ فانطلاقاً من مقولة كون العالم ذا أربعة أبعاد، فإنّه ثمّة أربعة خطوط تلتقي في نقطة مركزيّة، فهل لنا أن نفترض خطّاً خامساً مثلاً؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فإلى أيّ حدّ يمكن أن تزداد هذه الأبعاد؟ أوَلَيس ثمّة عدد لا نهاية له من الخطوط يمكن أن تلتقي في نقطة واحدة؟ إذن فلماذا لا نقول: إنّ للكون أبعاداً لا تدركها عقولنا؟! فقال هذا الشخص في جوابه: من محاسن الصُدَف أنّ هذا البحث مطروح فعلاً، وقد توصّل بعضهم إلى الآن — كفرضيّة قابلة للقبول — إلى افتراض سبعة أو حتّى اثني عشر بعداً ممكناً، لكن ليس هناك أدنى دليل على عدم إمكانيّة زيادتها عن هذا العدد.

وعلى الرغم من أنّ تصوّر مثل هذه المسائل صعب إلى حدّ ما، لكنّ بعض المسائل الرياضيّة تسهّل لنا فهم الكثير من المباحث العقليّة والدينيّة. فكلّ أصحاب الأديان في العالم يقرّون بحقيقة أنّ الحياة الدنيا متناهية وأنّ الحياة الأُخرى غير متناهية. فإذا أردنا مقارنة الدنيا بالآخرة، فإنّ غاية ما تصل إليه عقولنا هو القول: إنّ الآخرة أزيد من الدنيا ألف مرّة. لكنّ النسبة بين الواحد والألف هي نسبة بين قيمتين متناهيتين، وإذا كانت الآخرة غير متناهية، فلا يوجد أيّ تناسب بين عمر الدنيا وعمر الآخرة. وهي مسألة يمكن إدراكها بسهولة بالغة من خلال صيغة رياضيّة بسيطة مفادها أنّه لا تناسب بين المتناهي وغير المتناهي.

ذكرنا أنّه إذا زاد كمال شيءٍ فسيزداد اقتضاء تعلّق المحبّة بهذا الشيء بنفس المقدار. فإن كان لدينا شيئان وكان للأوّل وحدة كمال واحدة وللثاني وحدتان، لاستوجب ذلك أن تتعلّق بالثاني ضعف ما للأوّل من

المحبّة. فماذا لو بلغ كمال الثاني إلى مائة أو ألف ضعف؟ ولو وصل مُعامِل هذا الكمال إلى ما لانهاية له، فكم سيستحقّ هذا الشيء من حبّ حينئذ؟ لكنّ حبّ هذا الشيء هنا مشروط بإدراكنا هذا الكمال، وعلمنا بأنّ هذا الشيء يملك هذا الكمال. فالطفل مثلاً يحبّ لُعَبه كثيراً، لكنّه لا يعير اهتماماً لكثير من الكمالات الأُخرى، بل وحتّى الجواهر النفيسة. فمن المسلَّم أنّ للطفل عينين وأنّه يرى جمال حبّة الماس، لكنّه يأنس بالحجر الذي يستخدمه في لعبته أكثر من أُنسه بهذه الماسة الثمينة، ولذا فهو لا يهتمّ بها، بل وإنّه مستعدّ لأن يستبدل بها بضع خرز عاديّة. بتعبير آخر فالطفل لا يدرك كمال الماسة، ولو أنّه أدرك هذه الميزة فيها لأحبّها هي الأُخرى، لكنّ إدراكه في هذه المرحلة منحصر بخرز لَعِبه.

إنّ مشكلتنا هي عدم قدرتنا على إدراك الله تعالى. فأغلب ما نأنس به هو مدركاتنا الحسّية. نعم، إذا أَعمَلنا غاية براعتنا فإنّنا سنُسعف إدراكنا بقوّة الخيال لندرك بعض الأُمور الإضافيّة. فالطفل مثلاً يفهم أنّ أُمّه تحبّه، وهو لذلك يتغنّج عليها ويرتمي في أحضانها. إنّه يدرك هذا النمط من المحبّة بواسطة قوّة الوهم[8]. وبعد، فالذات الإلهيّة وحتّى صفات الله وكمالاته غير قابلة للإدراك والمشاهدة، لكنّ العقل، وبعد تعب ونَصَب لعشرات السنين وتركيز على المسائل العقليّة والصفات الإلهيّة، يمكنه أن يتوهّم أُموراً في هذا المجال. فقد جاء في الخبر: «**كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مصنوع مثلكم مردود إليكم**»[9]. فإنّ فهمنا قاصر جدّاً، لكنّه بالنسبة لمن لا يدرك أبداً يُعدّ كنزاً ثميناً.

على أيّة حال فإنّ السبب في كوننا لا نحبّ الله كما ينبغي عائد لكوننا لا ندرك كمالاته، بل ولا نعرف حتّى كمالات أوليائه، مثل النبيّ (صلّى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين وسائر الأئمّة الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين) وأبنائهم، بل وقد نبتعد عنهم، للأسف، إلى درجة تثير في أذهان البعض تساؤلات عمّا إذا كان العالِم أو المجتهد أو الفيلسوف الفلانيّ – والعياذ بالله – يعرف الله أفضل أم السيّدة المعصومة (سلام الله عليها) مثلاً.

طريقة سهلة لنيل محبّة الله

الطريق الأسهل لاكتساب محبّة الله هي نيلها بالواسطة، وهي طريقة وردت فيها روايات كثيرة تنتهي جميعها إلى حديثين قدسيّين، أحدهما هو: «**أوحى الله تعالى إلى موسى (عليه السلام): أَحِبني وحَبِّبني إلى خلقي. قال موسى (عليه السلام): يا ربِّ إنّك لتعلم أنّه ليس أحد أَحَبَّ إليّ منك**، [فأنت أحَبّ موجود عندي] **فكيف لي بقلوب العباد؟**»، فقلوب الناس ليست في يدي، فكيف أجعلهم يحبّونك؟ «**فأوحى الله إليه: فذكِّرهم نعمتي وآلائي، فإنّهم لا يَذكُرون منّي إلاّ خيراً**»[10]. فإنّهم قد جُبِلوا على محبّة مَن علموا بحبّه لهم.

أمّا حبّ الله بلا واسطة ضمن تلك الحدود المتاحة للمخلوق فهي تتمثّل بما يملكه شخص النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) والأئمّة المعصومين (عليهم السلام) من معرفة شهوديّة بالله تعالى. ونحن نعلم أنّ هذا النمط من المعرفة هو ممكن، وأنّهم (عليهم السلام) يمتلكون أعلى مراتب المعرفة[11]. وإنّ توقُّعَنا اكتساب هذه الدرجة من المعرفة هو توقّع ليس في محلّه؛ فهذا الرداء ليس هو على مقاسنا، وإنّ مسافة شاسعة تفصلنا عن هذا المقام، لكنّ ضمير الإنسان – على الأقلّ – يدفعه إلى الشعور بالحبّ نحو مَن أسدى إليه خدمة، وهو بودّه أن يعرب له عن شكره كلّما رآه، خصوصاً إذا كانت هذه الخدمة في ساعة عسرة، فإنّ المرء لن ينساها ما دام حيّاً. هذا هو مقتضى فطرة الإنسان، وقد أودع الله أساس ذلك في طينة جميع بني البشر، فإنّهم ما إن يعلموا بصدق المرء في حبّه لهم وعدم انتظاره شيئاً منهم في المقابل، فإنّهم سيحبّونه. فالله تعالى يقول لنبيّه موسى (عليه السلام): «**فذكّرهم نعمتي وآلائي**»! السبب في عدم حبّ الناس لي على قدر ما يعلمون وما يستطيعون هو عدم التفاتهم إلى آلائي. وقد ذكرنا أنّ الشرط الأخير في تولّد المحبّة هو الالتفات؛ فكلّما بذلنا جهوداً أكبر في التعرّف على نِعم الله عزّ وجلّ، وأدركنا قيمتها على نحو أفضل، وعلمنا أنّه سبحانه وتعالى قد أولانا إيّاها مجاناً من دافع لطفه وكرمه ومحبّته، فستتنامى محبّتنا له جلّ شأنه.

وفّقَنا الله وإيّاكم إن شاء الله

محبّة الله وحبّ الإنسان لصفات الكمال

محبة الله ورضوانه تعالى في الأحاديث الشريفة

ذكرنا سلفاً أنّه من أجل اكتساب الدافع لمحبّة الله تعالى فإنّه لابدّ من الوقوف على قيمة هذه الفضيلة. ومن حيث إنّ أفضل السبل لمعرفة هذه الفضيلة هي كلام المتحلّين بأعلى مراتبها، نرى من المناسب بدايةً أن نستعرض رواية عن أهمّية هذا النمط من المحبّة.

يروى عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) أنّه قال: « **إذا صار أهل الجنّة في الجنّة ودخل وليّ الله إلى جنّاته ومساكنه واتّكأ كلّ مؤمن [منهم] على أريكته حفّته خدّامه**»[1]؛ أي: إذا دخل المؤمن الجنّة واستقرّ فيها وانهالت عليه آلاء ربّه ممّا أُعِدّ لكلّ مؤمن من بساتين وقصور واتّكأ على أريكته، جاء عدد غفير من الملائكة وتحلّقوا حوله وجعلوا أنفسهم في خدمته. « **وتهدّلت عليه الثمار، وتفجّرت**

حوله العيون، وجرت من تحته الأنهار، وبُسِطت له الزرابيّ، وصُفِّفَت له النمارق، وأتته الخدّام بما ؛ أي بُسط من تحته فراش الجنّة الذي هو من أفضل السجّاد، «**شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك ويخرج عليهم** » .وصُفِّفت له الوسادات للاتّكاء عليها وأتّته الملائكة بما اشتهى قبل أن يطلبه منهم ؛ أي تبقى عنده أزواجه من الحور العين إلى المدّة «**الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله** .التي يشاء

حتّى إذا توفّرت للمؤمنين كلّ تلك النعم واستقرّوا هناك بشكل كامل يشرف عليهم الله عزّ وجلّ **ثمّ إنّ الجبّار يُشرِف عليهم فيقول لهم: أوليائي، وأهل طاعتي، وسكّان جنّتي في** » :ويخاطبهم **جواري! ألا هل أُنَبِّئُكم بخير ممّا أنتم فيه؟ فيقولون: ربّنا وأيّ شيء خير ممّا نحن فيه؟! [نحن]** وإذ أنّه] **.فيما اشتهت أنفسنا ولذّت أعيننا من النعم في جوار الكريم. قال: فيعود عليهم القول فيقولون: ربّنا نعم، فأتنا** [خلاف الأدب أن يقولوا: لا نريد أن تنبّئنا، ولا يوجد شيء أفضل ممّا نحن فيه **بخير ممّا نحن فيه، فيقول لهم تبارك وتعالى: رضاي عنكم ومحبّتي لكم خير وأعظم ممّا أنتم** ثمّ يقرأ (عليه .«**فيه. قال فيقولون: نعم يا ربّنا، رضاك عنّا ومحبّتك لنا خير لنا وأطيب لأنفسنا ثمّ قرأ عليّ بن الحسين** » :السلام) الآية المرقّمة ٧٢ من سورة التوبة التي تسرد في مستهلّها آلاء الجنّة **(عليه السلام) هذه الآية «وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ** .«»**فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**

تُنبئنا أمثال هذه الروايات أنّه ثمّة نِعم تفوق الآلاء المحسوسة، وأنّ المؤمنين – بعدما ينعمون بكافّة النعم والآلاء – إذا أحسّوا بأنّ الله يحبّهم وأنّه راضٍ عنهم فسيشعرون بلذّة تفوق كلّ ما يشعرون به من لذّات جرّاء ما هم فيه من النعم. لذلك فلا ينبغي أن نقصر همّتنا على الأُمور المادّية والنعم الدنيويّة والأشياء .المرتبطة بالبدن والمحسوسة بالحواسّ الظاهرة

آية الله بهجت ولذّة الصلاة

ينقل أحد الأصدقاء أنّه سمع المرحوم آية الله الشيخ بهجت (رضوان الله تعالى عليه) يقول في ليلة بعد صلاته: «لو علم الملوك ما في الصلاة من لذّة لكانوا على استعداد للتخلّي عن مُلكهم من أجل أن يصيبوا لذّة الصلاة». ولعمري إنّها لأُمور خارجة عن إدراكنا. فنحن نشعر أثناء الصلاة وكأنّنا محبوسون في قفص ننتظر لحظة الخلاص منه. لكن من حيث انّ آية الله بهجت لم يتعوّد إلقاء الكلام على عواهنه، وانّه ليس في مقدور المرء التفوّه بكلام كهذا ما لم يذق بنفسه طعم هذه اللذّة، فإنّ من الواضح .أنّ لذّة من هذا القبيل هي موجودة فعلاً

يقول استاذ آية الله بهجت، المرحوم آية الله القاضي (رضوان الله تعالى عليه) جواباً على سؤال حول ما إذا كانت هناك صلاة في الجنّة أو لا: «أيّ جدوى في الجنّة يا ترى إذا كانت بلا صلاة»؟! فمضافاً إلى اللذّة التي يحسّها هذا الرجل في الصلاة في الحياة الدنيا فإنّه يطمح أن يتمكّن من الصلاة في الجنّة أيضاً. فاللذّة التي يشعر بها في صلاته لا يمكن لعقولنا تصوّرها. وصحيح أنّنا لا نفهم ماهيّة هذه اللذّة، لكن علينا أن نعلم أنّه ثمّة أشياء من هذا القبيل فعلاً.

نسأل الله تعالى ببركة قائل هذه الرواية ونورانيّتها أن يغمر قلوبَنا الاستعدادُ لطلب مثل هذه المحبّة؛ وهي المحبّة التي تنطوي على كلّ هذه القيمة، والتي تتضاءل أمامها جميع أشكال المحبّة الدنيويّة.

آثار التفكّر في آلاء الله التي لا تُحصى ولا تُعدّ

لقد قلنا سلفاً إنّ أبسط السبل لاكتساب محبّة الله هي التفكّر في نعمائه عزّ وجلّ. فعندما يشاهد المرء أنّ أحداً قد أسدى إليه خدمة لا يمكن مقارنتها بخدمات الآخرين من دون انتظار شيء في المقابل، فإنّه سيحبّه فطريّاً. ومن أجل إدراك هذا الموضوع على نحو أفضل فإنّ من المناسب أن نتذكّر في خلواتنا خدمةً جليلةً أسداها أحدهم إلينا في وقت الحاجة. فالإنسان يتذكّر هذه الخدمة على الدوام وفي كلّ حين. والآن فلنقارن بين خدمات الباري الجليل وخدمات الآخرين. فأيّ كمّ هائل من الخدمات يمنّ بها الباري تعالى في كلّ لحظة على كلّ شخص! وهي نعماء لا يستطيع المرء إحصاءها حتّى آخر عمره؛ لقوله تعالى: «**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا**»[2].

قبل بضع سنين تحدّث قائد الثورة المعظَّم آية الله الخامنئيّ (دام ظلّه) في اجتماع مع مسؤولي النظام الإسلاميّ عن شكر الله تعالى قائلاً: إنّني أُكابد ألماً مستمرّاً في يدي اليمنى، وقد أخبرني الأطبّاء بعد سنوات من العلاج بأنّ هناك عدّة حزم عصبيّة – تتألّف كلّ واحدة منها من ملايين الخلايا العصبيّة — مرتبطة مع بعضها ولابدّ أن تتعاون فيما بينها لتحرّك إصبعاً واحداً. فهناك عدّة مجموعات من الأعصاب تمتدّ من الدماغ إلى أطراف الأصابع يتوقّف أداء كلّ منها على الأُخرى، وإنّ كلّ واحدة منها تتكوّن من ملايين الخلايا العصبيّة الحيّة، وإنّ على جميع تلك الخلايا أن تتكاتف مع بعضها كي يتمكّن المرءِ من تحريك إصبع واحد! فنحن نتحرّك في كلّ لحظة كما نشاء وإنّ جميع هذه الأعضاء هي تحت تصرّفنا، لكنّنا لم نفكّر يوماً أن نحصي كم من النعم قد اجتمعت لتمكّننا من التفوّه بكلمة واحدة، أو شرب جرعة من الماء. فجميع هذه الآلاء هي من الله عزّ وجلّ ونحن كلّما تعرّفنا عليها أكثر وفكّرنا فيها مليّاً، ازداد حبّنا لواهبها. لكنّ هذه المحبّة تتعلّق ذاتاً باللذّة الناجمة عن النعمة.

وإذا حلّلنا هذه المحبّة تحليلاً عقليّاً نستنتج أنّ الإنسان — في الحقيقة — يحبّ النعمة، وهو يحبّ المنعِم بالعَرَض. ومع أنّ هذه المحبّة تُعدّ نفيسة وقيّمة للغاية مقارَنةً بالعبادات الممارَسة بسبب الخوف من ، لكنّه ثمّة أُناس يحبّون الله من أجله هو؛ هذا وإن كان لهذه المحبّة [3]العذاب أو الأمل في نعيم الجنّة أيضاً مراتب ودرجات. فقد نقول أحياناً إنّنا نحبّ امرأ، لكنّنا في الواقع نحبّ صفاته. غير أنّ هناك أشخاصاً تتعلّق محبّتهم بذات الله تعالى، ومن ثمّ تسري منها إلى غيرها. وهذه هي نفس تلك المحبّة التي سَرَت بدايةً إلى النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) ومن ثمّ إلى الأئمّة الأطهار (عليهم السلام) والوجود المقدّس لصاحب العصر والزمان (أرواحنا فداه) ومن ثمّ إلى أوليائه من بعده. فالمحبّة التي نشعر بها نحن تسري من المخلوقات إلى الله تعالى، لكنّه ثمّة أُناس قد ألقى الله محبّته في قلوبهم، أو بالأحرى: إنّه تعالى .قد أراهم جماله وجلاله

نيل المحبّة عبر الالتفات إلى الصفات

إذا أردنا أن نتسامى ونصعد فوق هذه الدرجة من المحبّة التي تتعلّق ذاتاً بنعم الله عزّ وجلّ فإنّ علينا التفتيش عن محبّة تتعلّق بصفاته. فالإنسان مفطور على الشعور بالتعلّق قلباً بالموجود الذي يملك الكمالات حتّى وإن لم يره أبداً، أو أنّه لا يرجو رؤيته على الإطلاق. فكلّنا — على سبيل المثال — نحبّ حاتم الطائيّ ونثني عليه مع أنّ أحداً منّا لم يره، بل ولا نتوقّع أن يصيبنا من عطائه وكرمه شيء. فنحن — في الحقيقة – في هذا النمط من المحبّة إنّما نحبّ ما في حاتم من صفة السخاء والكرم فنشعر أنّنا نحبّ مثل هذا الإنسان حتّى وإن لم ننل من كرمه شيئاً. وهذا الأمر يصدق أيضاً على الفدائيّين والأبطال الوطنيّين الذين قدّموا خدمات جليلة وسطّروا بطولات جسيمة. إذ أنّنا معاشر البشر تغمر قلوبَنا محبّةٌ تجاه أمثال هؤلاء مع أنّنا لا نصيب منهم شيئاً. وإنّ باستطاعتنا تطبيق نظير ذلك على الله عزّ وجلّ، .ولابدّ – من أجل ذلك — من السعي والاجتهاد للتعرّف أكثر فأكثر على صفات الباري تعالى

آيات القرآن الكريم تلفت الأنظار إلى صفات الله

إنّ من الطرق التي يستخدمها القرآن الكريم لبناء الإنسان وتهذيبه هي ذكر صفات الله عزّ وجلّ .[4]وتكرارها. فالعديد من الآيات القرآنيّة تحتوي على صفات الله، بل إنّ بعضها مليء بهذه الصفات فلو تمعنّا قليلاً في كلّ واحدة من هذه الصفات وقارنّا آثارها مع غيرها من الأوصاف التي يمتلكها الكُمَّل .من الناس فسنكتشف كم انّ هذه الصفات محبوبة

إنّ من الصفات الإلهيّة التي يسعنا أن نبني معها علاقة أكثر من غيرها، ونأمل أن نُفيد منها في هذه الدنيا، أو في الآخرة على أقلّ تقدير، هي صفة انّ الله تعالى غفور؛ إذ يقول عزّ من قائل: « **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[5]. فأيّ عظمة تنطوي عليها هذه الصفة! فقد يقضي الإنسان عمراً كاملاً في الخطيئة، والمعصية، والغفلة، وعدم المبالاة، والجهل، بل وحتّى السلوك مع ربّه بجرأة وسوء أدب، فيمهله الله عشرات السنين، ومع كلّ ذلك يعود عزّ وجلّ ليقول له: إذا تُبت فسأغفر لك ذنوبك جميعاً. فالله عزّ وجلّ لا يدع يوم القيامة أحداً غيره يطّلع على ذنوب التائبين، بل ويمحوها حتّى من أذهان الملائكة. وأكثر من ذلك، فإنّ بعض الروايات تذكر أنّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) يطلب من ربّه أن لا يجعل حساب أُمّته يوم القيامة في يد أحد غيره (صلّى الله عليه وآله) كي لا تطّلع الملائكة على معاصيهم، لكنّ الله عزّ وجلّ يقول له: حتّى أنت لا تطّلع على ذنوبهم عندما أغفرها لهم.

أليس من المناسب أن يتفكّر الإنسان طيلة عمره بأكمله بهذه الرواية، ويجسّد أمام ناظريه جمال صفة أنّ الله تعالى غفور؟! أَوَلا يكون هذا الربّ محبوباً؟! فمن الواضح أنّ صفة كهذه هي صفة محبوبة، بل إنّ فطرة الإنسان تدعوه لمحبّة مثل هذا الموجود إلى حدّ العبادة. فكلّما تأمّلنا أكثر في صفات الله — لاسيّما تلك التي نشعر بآثارها أكثر — فسيزداد حبّنا لله جلّ شأنه. وهذه المحبّة تتعلّق – في الحقيقة – بصفات الله. لكنّه لما كانت صفات الله هي عين ذاته[6]، فإنّها تختلف عن المحبّة التي نكنّها لباقي الناس على خلفيّة صفاتهم.

حبّ صاحب الزمان وقائد الثورة

من هذا النمط من المحبّة يمكننا تسمية بعض أشكال المحبّة المقدّسة تجاه بعض الأشخاص. فإنّ منتهى المنى لدى بعض الناس هو رؤية قائد الثورة [الإمام الخامنئي (دام ظله)] لمرّة واحدة. هذا النمط من العشق يُعدّ بالنسبة لنا عشقاً أُسطوريّاً، لكنّنا نشاهد نماذج منه مراراً. فنحن نعرف أشخاصاً تُعدّ رؤية سماحته أُمنية حياتهم، وبمجرّد أن تقع أعينهم على جمال وجهه فإنّهم ينقلبون، مع أنّهم لا يطلبون منه شيئاً، بل عندما يُسألون عن مطلبهم فيما إذا رأوه فهم يجيبون: لقد بلغنا كلّ ما أمّلنا؛ فقد كنّا نودّ رؤيته ورأيناه، ولا نريد شيئاً آخر.

كما وتطرق أسماعنا أحياناً قصص عن عشّاق صاحب الزمان (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف) ممّن لا يبغون نيل شيء آخر غير الوصول إليه. بل لا يريدون حتى أن يسأل (عليه السلام) اللهَ قضاء حاجتهم

بحيث يجعلونه وسيلة لبلوغ أمانيهم. فهذا الكلام غير موجود في قاموسهم. فهم يقولون: سواء أكنتُ موجوداً أم غير موجود، فإنّ رأسي وروحي فداء له! «**بأبي أنت وامي ونفس وأهلي ومالي و**...».

ومن هنا فإن بالإمكان حبّ امرئ بسبب كمالاته حتّى من دون رؤيته. فقد يقول قائل: رأيت فلاناً وأحببته من أوّل نظرة. فهذا الحبّ ليس غريباً جدّاً؛ فإنّه قد رآه ولو لمرّة واحدة وعَشِقه. لكنّ فطرة الإنسان تقضي بأنّه إذا أدرك كمالاً ما في امرئ إدراكاً جيّداً فسيحبّه حتّى وإن لم يره، وإنّ منتهى أمله هو الوصول إليه.

والمحصّلة هي أنّ الطريقة الاخرى لاكتساب محبّة الله سبحانه وتعالى هي التفكير بصفاته، وانّ الثواب الحاصل جرّاء معرفة الله ومعرفة صفاته هو بسبب هذه البركات. فالبعض يتصوّر أنّ طلب العلوم الدينيّة منحصر في تعلّم المسائل الشرعيّة وما إلى ذلك، لكنّ الروايات تصرّح بأنّه ما من نعمة في العالم توازي نعمة معرفة الله تعالى.

اللهمّ بحقّ مَن تحبّهم، مُنّ على قلوبنا المفعمة بالنقص وعدم الأهليّة بنفحة من تلك النعم المعنويّة!

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

طريقة لاستجلاب المحبّة

المحبّة حاجة سامية

يؤكّد بعض علماء النفس، لاسيّما أتباع النزعة الإنسانيّة والكماليّة، على أنّ إحدى الحاجات الفطريّة للإنسان هي أن يكون محبّاً ومحبوباً. ويمكننا نحن أيضاً أن نخوض هذه التجربة. بالطبع إنّنا — وبسبب تعلّق خاطرنا، في أغلب مراحل حياتنا، بأشخاص كالأب والأمّ والأقرباء والأصدقاء — لا ندرك جيّداً الفراغ الناجم عن غياب المحبّة، لكنّ من شأن إجراء دراسة تحليليّة لأحوال بعض الأشخاص المصابين بضروب الشعور بالانعزال والاكتئاب وبعض الأمراض النفسيّة، والذين يصل بهم الأمر أحياناً إلى الانتحار، يبيّن أنّ من جملة الأسباب الرئيسيّة لذلك هو عدم تعلّقهم بالآخرين، وعدم تعلّق الآخرين بهم. ولعلّكم سمعتم في المقابلات التي تُجرى مع المدمنين وأمثالهم بأنّ أشدّ دواعي الانتحار لديهم هي شعورهم بأنّه لا أحد يحبّهم ولا هم يحبّون أحداً. وهذه الشواهد تدلّ على فطريّة هذه المسألة. ولعلّ هذا

الأمر هو أحد الجذور الفطريّة لمعرفة الله وعبادته، حيث تسوق فطرة الإنسان صاحبَها إلى معرفة الله ومعرفة صفاته الكماليّة، فيحبّه ويعبده عن حبّ. ومن هنا فإنّه ليس ببعيد أبداً أنّ أصل نزوع المرء إلى أن يكون محبّاً ومحبوباً هو نزوع إلهيّ، الغاية منه هداية الإنسان إلى الله تعالى بصفته المحبوب الحقيقيّ.

فإنّ ميلنا إلى أن نكون محبّين ومحبوبين هو حاجة نشعر بها عادةً، لاسيّما عندما تُسَدّ سائر حاجاتنا الطبيعيّة. وبما أنّ مستوى هذه الميول يفوق مستوى الحاجات المادّية والفيزيائيّة، فإنّ المرء قلّما يهتمّ بها أثناء حالات المرض والجوع والفقر وأمثال ذلك. فالحاجات التي تأتي في الدرجة الأُولى لاهتمامات الإنسان هي تلك المرتبطة بحياته. فالطفل — على سبيل المثال — يبكي عند الإحساس بالجوع، لكنّه يبدأ بالأُنس بأُمّه – شيئاً فشيئاً – ويستمتع حينما تحتضنه وتلاطفه، وهو ينزعج جدّاً إذا لم تلاطفه أو إذا غضبت عليه. ولقد صنّف بعض علماء النفس حاجات الإنسان وسَمّوا تلك الحاجات التي تقع في المستويات الأعلى بالحاجات السامية أو العالية. والمحصّلة هي أنّ الإنسان يتألّم من العزلة ويرغب في أن يأنس بشخص آخر وأن تربطه معه رفقة ومحبّة.

آفات المحبّة الدنيويّة

لقد أشرنا في المحاضرات الماضية إلى أنّ من جملة علل حبّ الإنسان للآخرين هو إدراكه شكلاً من أشكال الكمال في المحبوب. وهذه الحاجة موجودة في كيان الإنسان، وهو لذلك يكنّ لبعض الناس مشاعر الحبّ. فالطفل – بدايةً – يحبّ والديه من حيث إنّ كلّ وجوده متعلّق بهما. وشيئاً فشيئاً يضاف الأقارب والأصدقاء إلى القائمة حتّى يصل الأمر إلى حبّ أشخاص على خلفيّة ما يتمتّعون به من كمال. لكنّ جميع هذه الأشكال من المحبّة تنطوي على آفات عديدة. فليس من بين هذه الأشكال ما يدوم؛ ذلك أنّ الأب والأُمّ والأرحام سيرحلون يوماً عن هذه الدنيا. كما أنّ كمال المحبوب وجماله ليسا بالأمرين الدائميّين. وناهيك عن هذه الآفة فإنّ جميع الذين يحبّهم المرء لكمالهم يملكون — في الغالب — عيوباً أيضاً. فالإنسان في بداية المطاف لا يلتفت إلى هذه العيوب، لكنّ الأخيرة تبدأ بعد برهة بالظهور تدريجيّاً، الأمر الذي يقود إلى خفوت المحبّة، بل وقد يصل الأمر إلى أن يحلّ البغض والعداء محلّها، إلى درجة محاولة المحبّ قتل من كان يحبّه. وهذه من جملة آفات المحبّة الدنيويّة. وحتّى في يوم القيامة فسيتحوّل الذين كانوا يودّون بعضهم في الدنيا إلى أعداء لما يرونه من ارتكابهم – بسبب حبّهم – أعمالاً ما كان ينبغي لهم أن يرتكبوها؛ كَأَن يتغاضوا — في حالة المحبّة – عن عيوب الطرف المقابل فيعمدوا — من أجلهم – إلى فعل أُمور لا يرضى بها الله عزّ وجلّ. أي إنّهم يشعرون بأنّ محبّتهم تلك قد غدت سبباً في عذابهم، وعندها ستتحوّل محبّتهم إلى عداوة؛ كما في قوله تعالى: « **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ**

؛ أي إنّ جميع الأصدقاء والأحبّة سيصبحون أعداء لبعضهم [1]«**بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاّ الْمُتَّقِينَ**
.البعض إلا الذين كانت محبّتهم قائمة على التقوى

!سبيل إلى استجلاب محبّة الحبيب

البحث الذي خضناه إلى الآن كان يدور حول قيمة محبّة الله وسبل نيلها. وانّ إحدى هذه السبل هي الإفادة من النماذج الطبيعيّة والعاديّة للمحبّة. إذ علينا أن ننظر ما الذي يفعله المرء عندما يريد إقامة علاقة حبّ مع شخص آخر؟ إنّ أفضل لذّة يشعر بها المحبّ تجاه محبوبه هي عندما يبادله المحبوب الحبّ أيضاً. إذن يتحتّم على المرء أن يفعل ما يدفع المحبوب لإقامة علاقة حبّ معه أيضاً، وأن يتصرّف — من أجل ذلك — وفقاً لما يُرضيه. فإذا أراد المرء تكوين علاقة حبّ مع أحد ثمّ بدر منه سلوك لا يحبّذه المحبوب فسوف لن تقوم بينهما علاقة قويّة على الإطلاق؛ إذ لا تقوم علاقة عاطفيّة بين شخصين إلا إذا رضي كلّ منهما — في اتّجاه معيّن – على صاحبه. وبالطبع فإنّ لهذه الرغبة حالات من الإفراط أيضاً؛ كَأَن يرغب الإنسان في أن يحبّه محبوبه أكثر من الآخرين أو أن لا يحبّ أحداً سواه. وهذه هي عين الآفة التي ابتُلي بها إخوة يوسف (عليه السلام) في محبّتهم البشريّة؛ إذ وَدّ كلّ واحد منهم أن يحبّه أبوه أكثر من يوسف (عليه السلام) لكنّهم شاهدوا أنّ أباهم يحبّ يوسف أكثر منهم. وهذا ما دفعهم إلى الإقدام على قتله حتّى انتهوا إلى إلقائه في البئر. فعلى الرغم من أنّ الحقّ كان يستدعي منهم أن يَكنّوا ليوسف — الذي يتمتّع بكلّ هذه الفضائل والكمالات — أشدّ محبّة، لكنّ أنانيّتهم وحبّهم لذواتهم وصفة الاستئثار فيهم قد دفعهم ليس إلى عدم محبّة أخيهم فحسب، بل وإلى محاولة قتله أيضاً.

والمحصّلة هي أنّ الطريق الطبيعيّة للارتباط عاطفيّاً بالآخرين هي أن يفعل المرء ما يجلب رضاهم. فجميع الناس يدركون هذا الأمر فطريّاً ويحاولون جاهدين عدم إظهار ما يؤذي محبوبهم كي لا يشكّل عائقاً أمام إقامة العلاقة العاطفيّة معه. فإنْ رغبنا في إقامة صلة محبّة مع الله تعالى فلابدّ من اتّباع نفس الطريقة. فإذا أتينا بما يرضي الله عنّا، فإنّه تعالى سيحبّنا لا محالة، وسيُصار — تبعاً لذلك – إلى تقوية هذه العلاقة بشكل متصاعد. وقد ذكرت الأخبار التفاتات غاية في اللطف في هذا الصدد لا بأس أن نذكر بعضاً منها من باب التيمّن والتبرّك.

آثار الأُنس بالله

لقد امتاز نبيّ الله داوُد (عليه السلام) من بين سائر الأنبياء في مناجاته مع الله عزّ وجلّ، وعندما كان (عليه السلام) يشتغل في الدعاء والذكر وتنمية الحبّ مع ربّه كانت الجدران والجمادات والطيور تردّد

بل حتّى الكتاب الذي تركه نبيّ الله داوُد (عليه السلام) فإنّه يحتوي على هذه الحوارات .[2]معه المشحونة بالحبّ بين الله جلّ شأنه وداوُد. بالطبع داوُد هذا هو نفس ذلك الرجل الذي قتل جالوت في حرب طالوت ضدّ الكفّار، وهو عين ذلك الشخص الشجاع اللامع الذي تميز من بين سائر الجند بهذه المهارة؛ حيث تمكّن من قتل قائد جيش العدوّ وهزم جيشه شرّ هزيمة. فلقد اصطفاه الله بعد ذلك للنبوّة وأعطاه منصب القضاء والحكم في الناس. أمّا الملاحظة التي ينبغي التنبّه إليها هنا فهي أنّه خلافاً لبعض الفِرَق التي تدّعي العبادة والتقرّب إلى الله، والتي تزعم أنّ الإنسان إمّا أن يكون محبّاً لله عابداً له، أو أن يكون ناشطاً اجتماعيّاً، فإنّ الله تعالى اسمه يقدّم لنا أُنموذج داوُد (عليه السلام) الذي يظهر — من ناحية – بمظهر البطل المغوار الذي يقتل قائد جيش الكفر ويكون سبباً في النصر، ثمّ يمنحه الله بعد النبوّة منصب الحكم والقضاء، ثمّ تكون له — من ناحية اخرى — مثل هذه العلاقة مع الله بحيث يتجاذب معه :(أطراف حديث ملؤه التفاني والمحبّة. ونتلو الآن نموذجاً من كلام الله تعالى مع نبيّه داوُد (عليه السلام

، فإنْ رغب امرؤ في بناء علاقة مودّة معي فأنا على «**يا داود أبلِغ أهل أرضي أنّي حبيب مَن أحبّني**» .فأُخرِجُه من عُزلته ووحشته «**وجليس مَن جالسني، ومؤنسٌ لمَن أنِس بذكري**» .استعداد لذلك **لِمَن اختارني، ومطيع لمَن أطاعني، ما [3]ومختار**» .فأنا حاضر لرفقته «**وصاحب لمَن صاحَبَني**» ؛ أي «**أحبّني أحد أعلَمُ ذلك يقيناً من قلبه إلا قبِلتُه لنفسي وأحببته حبّاً لا يتقدَّمُه أحد من خلقي** ثمّ .«**مَن طلبني بالحقّ وجدني ومَن طلب غيري لم يجدني**» .لا يسبقه أحد من الخلق في محبّتي له **فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها** » :يبعث الله سبحانه وتعالى رسالة إلى الناس فيقول ؛ فأسباب الخداع والغرور هذه ليست هي «**وهلمّوا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ومؤانستي** ؛ فإن أنتم أنستم بي فإنّني لا أكون [4]«**وآنسوني أؤانسكم وأُسارِع إلى محبّتكم**» .ضالّتكم الحقيقيّة .أنيساً لكم فحسب، بل سأُخرجكم من وحشتكم وعزلتكم، بل وسأُحبّكم أيضاً

!الله خاصّة للمحبّين

لقد ذكر كتاب «عدّة الداعي» ضمن أخبار نبيّ الله داوُد (عليه السلام) عبارةً تثير العجب. وإنّ قراءتها – وإنْ كنّا لا نستوعبها جيّداً — لا تخلو من فائدة كي نعلم أنّه – مضافاً إلى الخبز والماء والجاه .والمناصب التي نبذل من أجلها جهوداً جبّارة ونقدّم في سبيلها الغالي والنفيس – فإنّه ثمّة أُمور أُخرى

؛ فإذا أنتم ذكرتموني، فأنا أيضاً سأذكركم. فقد ورد في «**يا داوُد! ذكري للذاكرين**» :يقول ربّ العزّة بعض الأخبار [ما مضمونه] أنّكم إذا ذكرتموني في خلواتكم، فإنّني سأذكركم في عرشي ومقامي، وإنْ .ذكرتموني بين الناس، فإنّني سأذكركم وأُنوّه بأسمائكم أمام الملائكة وسكّان السماوات والملأ الأعلى

؛ أمّا بالنسبة للذين يكنّون لي حبّاً [5]«**وجنّتي للمطيعين، وحبّي للمشتاقين، وأنا خاصّة للمحبّين**»
خالصاً، والذين وقفوا قلوبهم عليّ فقط، وطردوا كلّ أنواع الحبّ الأُخرى منها، فإنّني لهم. ولعمري فإنّ
هذا المقطع ينطوي على مبحث غاية في علوّ المضمون؛ فإنّك عندما تحبّ امرأً فإنّك تقول له: إنّ أموالي
تحت تصرّفك. فإن أحببته أكثر فستقول له: في أيّ وقت تطلبني فستجدني في خدمتك. أمّا في المرحلة
الأخيرة فإنّك ستقول له: روحي فداك. فإنّ آخر ما يتسنّى لامرئ هبته لغيره هو نفسه وروحه. يقول عزّ
وهذه الدرجة تخصّ الذي يحبّ الله حبّاً خالصاً، وهي، وإن كان !«**وأنا خاصّة للمحبّين**» :من قائل
التلفّظ بها جميلاً، لكنّ تحقّقها عمليّاً ليس بالأمر اليسير، وهي تتطلّب شخصاً كعليّ بن أبي طالب
!(عليه السلام) مثلاً. نسأل الله تعالى ببركة محبّته (عليه السلام) أن يشملنا بنفحة من هذه الدرجات

آثار الاعتصام بالله

أيُّما عبدٍ أقبَلَ قِبَل ما يحبّ الله » :وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق (عليه السلام) ما نصّه
؛ أي: أيّما عبد أقبل على ما يحبّ الله فإنّ الله سيقبل على ما يحبّ «**عزّ وجلّ أقبَلَ الله قِبَل ما يحبّ**
هذا العبد ويوليه اهتمامه. وبعبارة اخرى: فإنّ مَن يهتمّ بما يحبّه الله ويبذل جهده في سبيل تحقيقه فإنّ
؛ أي حفظه. والاعتصام والاستمساك هنا هو «**ومَن اعتصم بالله عصمه الله**» .الله سيقابله بالمثل
كالإمساك بحبل أو عمود بالنسبة لمن سقط من مرتفع إلى الأرض ليحول دون سقوطه. فإذا شعر المرء
بهذه الحالة مع الله وأحسّ بأنّه مُعرَّض لخطر السقوط في جهنّم وفي هاوية الهلاك والضلال والغفلة
.والرذيلة، وعَلِم بأنّه ما من أحد قادر على إنقاذه إلا الله تعالى، فاعتصم بالله، فإنّ الله سيعصمه ويحفظه
.؛ فهو مطمئنّ بحفظ الله له«**ومَن أقبَل الله قِبَلَه وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض**»
بالتقوى من كلّ بليّة. **[6]أو كانت نازلة نزلَت على أهل الأرض فشملتهم بليّةٌ كان في حزب الله**»
؛ فالذي يعتصم بالله يكون من [8]«[7]«**أليس الله عزّ وجلّ يقول**: «**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**
.، فلا يشعر بالخطر«**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**» :المتّقين المشمولين بقوله تعالى

منهج عمليّ للوصول إلى الله

إنّ انتهاج المرء منهاجاً يجعله لا يروم إذا أفاق من نومه صباحاً إلاّ فعل ما يحبّه الله جلّ شأنه، لهو أمر
يتطلّب أهليّة عظيمة وهمّة عالية لسنا نحن من أهلها. لكن لا ينبغي – في هذا المضمار – أن نيأس تماماً
فنحرم أنفسنا من هذا اللطف الإلهيّ. ويبدو أنّه لابدّ للمرء من وضع برنامج لحياته وأن يبدأ بالأُمور
البسيطة؛ كأن يقول: سأُكرّس اليوم هذا المقدار من وقتي لله سبحانه وتعالى فلا أطلب أثناءه غير
مرضاته. فهذا أمر مقدور عليه؛ إذ باستطاعة الإنسان تخصيص ربع ساعة أو نصف ساعة يوميّاً لهذا

الأمر. فإذا تمكّن منه، بادر إلى تمديده شيئاً فشيئاً. وفي المرحلة التالية سيبادر الله سبحانه وتعالى إلى
مَن تقرّب إلَيّ شبراً » :إعانة هذا العبد ويمدّه بالمزيد من الموفقّية والقدرة على إنجاز ما هَمّ به؛ إذ أنّه
وبغضّ النظر عن هذا، فحتّى الخطوة الأُولى هذه فإنّها لا تتمّ إلا بعناية من الله .[9]«**تقرّبتُ إليه ذراعاً**
عزّ وجلّ؛ إذ أنّه: «ما لم يبادر المحبوب إلى جذب المحبّ فإنّ مساعي المحبّ المسكين ستبوء
، فحتّى في هذه الخطوة فإنّه هو عزّ وجلّ مَن يعينه عليها لكنّه تعالى لا يتظاهر أمام [10]«بالفشل
الإنسان بذلك. لكن حتّى هذا العمل، وهو تخصيص المرء لربع ساعة يوميّاً لفعل ما يرضي الله فقط من
دون القيام بأيّ شيء آخر، فإنّ له مراتب؛ فإنّ فيه ثواب الجنّة وأمثال ذلك على الأقلّ ولا ينبغي أن
نحرم أنفسنا منه ونصاب باليأس. بيد أنّه إذا استطاع الإنسان أن ينجز عملاً صغيراً ليس لشيء سوى
لأنّ الله يحبّه، فإنّه سيحظى – تدريجيّاً – بالقدرة على فعل ما هو أكثر وأفضل وأشدّ خلوصاً. كأنْ
يصلّي يوميّاً – على سبيل المثال – نافلة بركعتين ويخاطب ربّه قائلاً: إلهي! حتّى وإن ألقيتني في جهنّم
.فإنّني سأُصلّي هاتين الركعتين ليس لشيء سوى لأنّك تحبّ ذلك

وفّقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

آثار المحبّة

المحبّة وآثارها

إنّ للمحبة آثاراً وإنّ كلّ محبّ يفهم فطريّاً ما الذي يجب عليه صنعه تجاه المحبوب. إذ من جملة ما يرغب فيه المحبّ هو فعل ما يُرضي المحبوب وما يجعله يحبّه. وكما قد مرّت الإشارة إليه مسبقاً فإنّ العلاقة بين المحبّة وآثارها هي علاقة متصاعدة ثنائيّة الجانب؛ فالمحبّة – من ناحية – هي منشأ لآثارها، ولابدّ من المحبّة لظهور هذه الآثار، ومن ناحية أُخرى فطالما أنّ هذه الآثار هي أفعال اختياريّة فإنّها نفسها تبعث .على ازدياد المحبّة أيضاً

ومن جملة آثار المحبّة هي مناجاة المحبوب. إذ أنّ المحبّ يسعى دوماً إلى اغتنام الفرصة لإظهار محبّته لمحبوبه. وهذا الأمر يصدق أيضاً على الله سبحانه وتعالى، فإن كانت هذه المحبّة عن صدق فستظهر هذه الآثار بشكل من الأشكال. وإنّ ظهور الأخيرة يؤدّي إلى نموّ المحبّة، وهكذا تنشط هذه العلاقة المتصاعدة المتناوبة في هذا المورد أيضاً. فكلّما بالغ العبد في القيام بلوازم الحبّ، زادت المحبّة، وكلّما .ازدادت المحبّة، تضاعفت رغبة العبد في توطيد الصلة ببارئه أكثر

آثار المحبّة في نظر الروايات

تؤكّد الأحاديث الشريفة على قضيّة أنّ محبّة الله تقتضي أن تنتاب العبدَ حالةٌ من الخشوع وذرف الدموع والمناجاة معه سبحانه. وقد تضمّنت رواية قرأناها في إحدى المحاضرات الماضية هذا المعنى؛ وهو كيف أنّ الله قد أوحى إلى أحد الصدّيقين بأنّ: لي عباداً يحبّونني وأحبّهم وأنّهم يحنّون أثناء النهار إلى غروب .[1]الشمس حتّى إذا جنّ عليهم الليل هرعوا إلى مناجاتي

يا ابن عمران! هَبْ لي من » :وفي خبر آخر يوحي الله عزّ وجلّ لنبيّه موسى (عليه السلام) فيقول له **عينك الدموع، ومن قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ثمّ ادعُني في ظُلَم الليل تجدني قريباً** وبناءً على هذه الرواية فإنّ الله جلّ وعلا ينصح موسى (عليه السلام) بثلاث نصائح: .[2]«**مجيباً** إذ أنّ ممّا يحبّه المحبّ هو تقديم هديّة إلى !«**هَبْ لي من عينك الدموع**» الأولى هي: إن كنتً تحبّني ف **ومن بدنك** » :؛ أي كن خاشع القلب مكسورَهُ تجاهي. والثالثة«**ومن قلبك الخشوع**» :محبوبه. والثانية ؛ فينبغي – من بعد خشوع القلب – أن يكون بدنك خاضعاً لي. وفي خطاب لنبيّه عيسى «**الخضوع** **واعلم أنّ سروري أن تُبَصبِص** » :(عليه السلام) يستخدم الله تعالى لفظة «تُبَصبِص» فيقول فإنّ للكلب — على الرغم من كونه نجس العين — صفاتٍ هي غاية في الروعة حتّى أنّ بعض .[3]«**إلَيّ** الروايات تنصح بتعلّمها منه. فمن هذه الصفات — مثلاً – سجيّة الوفاء. كما أنّ من صفات الكلب الأُخرى هي منتهى الخضوع في مقابل صاحبه؛ فهو يمرّغ وجهه في التراب أمام صاحبه، ويحرّك ذنَبه، ويحوم حوله. ويقال لحالة الكلب هذه «تَبَصبُص». وإنّ تأكيد الأحاديث على تمريغ الوجه بالتراب بعد سجدة الشكر إنّما هو تجسيد لحالة التبصبص هذه. بالطبع إنّ الله عزّ وجلّ لا يشكو من نقص كي يتداركه بإظهار الخضوع والعبادة له أو من خلال البكاء والمناجاة بين يديه. فالإمام الحسين (عليه **إلهي تقدّس رضاك أن تكون له علّة منك فكيف** » :السلام) يخاطب الله تعالى في دعاء عرفة قائلاً ؛ أي: إلهي! إنّ رضاك أسمى من أن توجِد له أنت العلّة، فكيف لي أنا أن أفعل [4]«**يكون له علّة منّي** ما يكون سبباً في رضاك عنّي. فأيّ شيء هو أنا وما الذي أملك كي أفعل ما يُحدِث تغييراً في حالك !فأُرضيك؟

ولابدّ أن نذكر هنا أنّ عبارة: «ابتغاء مرضاة الله» وأنّ الله يمكن إرضاؤه هي عبارة صحيحة، لكنّ حقيقتها هي أسمى وأرفع ممّا نظنّ، فإنّ رضى الله ليس معلولاً لعملنا نحن. فمن كلام أمير المؤمنين (عليه فالله جلّ وعلا ليس بمتغيّر الحال؛ فلا حاله عزّ .[5]«**الذي لم تسبق له حالٌ حالاً**» :السلام) قوله وجل يتغيّر، ولا أنّنا نكون علّة في إيجاد حالة له. فكلّ ما نملك نحن هو فقر محض، وليس لدينا شيء

لنعطيه تعالى. لكنّ التعبير الذي يمكن أن نفهمه نحن فيما يتعلّق بالصلة مع الله وبهذه العبادات فهو أن نفعل ما يجعل الله مسروراً. ومعنى هذا الكلام هو أنّه: ما دام كمالك في هذه الأمور، فإنّ الله يحبّها، وإلا فما من نفع يصل إلى الله منها. وعندما يقول البارئ عزّ وجلّ لموسى (عليه السلام): « **هَبْ لي من عينك الدموع**»، فلا يعني ذلك أنّ الله هو بحاجة إلى دموع عيوننا، بل إنّ كمالنا هو في أن نتذلّل في مقابل ربّنا.

أقسام البكاء

1. بكاء الخوف

«**هب لي من عينك الدموع**»: لا بأس أن نقدّم هنا بعض التوضيح حول كلامه تعالى.

إنّ تصوّرنا عن البكاء بين يدي الله وعبادته ومناجاته هو – عادةً – بكاء الخوف. فعندما يفكّر المرء بنار جهنّم وعذاب الآخرة الأليم ويتجسّدان أمام ناظريه تنتابه حالة من الخوف والخشية ممّا يدفعه إلى أن يسأل الله أن يتجاوز عن سيّئاته ولا يعذّبه. فهذا ما يتصوّره عامّة الناس بخصوص البكاء بين يدي الله تعالى. أمّا أولياء الله فإنّ بكاءَهم ليس محدوداً في هذا الضرب من البكاء، بل لعلّ الأخير هو أوطأ درجة من درجاته. بالطبع فإنّ مقام البكاء من شدّة الخوف هو – بحدّ ذاته – مقام سامٍ وقيّم، وهو مؤشّر على إيمان المرء بيوم القيامة وما فيه من وعد ووعيد، وأنّه لا يرى في تعابير القرآن الكريم والأحاديث الشريفة في هذا الخصوص مبالغة؛ كقوله تعالى: « **خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ**»[6]؛ حيث يأمر الله ملائكته وزبانية جهنّم بأن يأخذوا هذا المذنب العاصي، ويغلّوه في سلسلة طولها سبعون ذراعاً ثمّ يُسحَبُ إلى نار جهنّم. فهذا صريح القرآن [7] الكريم. فعندما يجسّد المرء هذه الآيات في مخيّلته فإنّه يحدّث نفسه: إنّني لا أُطيق لمس مدفأة حتّى لِلَحظة، فكيف لي أن أتحمّل هذه النيران؟! بطبيعة الحال إنّ تصوّر الإنسان لهذه المضامين ومن ثمّ بكاءه بين يدي ربّه كي يخلّصه من النار لهو أمر حسن جدّاً، لكن لا ينبغي أن نظنّ أنّ الأمر منحصر في هذه القضيّة.

2. بكاء الخسران

من ألوان البكاء الأُخرى هو ذلك الذي يكون عند الشعور بالخسران. ولا يدور الحديث هنا عن الخشية من العذاب وما يحصل في المستقبل، بل إنّ الإنسان يئِنّ ويذرف الدمع من شدّة الحسرة والعجز والفاقة. ولعلّ أفضل ما يمكن سوقه للتعبير عن هذه الحالة هو الإحساس بالخسارة. فإذا تجسّدت في مخيّلة

الإنسان فكرة أنّه خسر عمره، وأنّه كان يملك ثروة وكان بإمكانه أن يصنع بها الكثير؛ ثروة تفوق قيمة كلّ ساعة منها مليارات المسكوكات الذهبيّة! فإذا فكّر الإنسان مليّاً وقال لنفسه: لقد كانت لي في أفضل أيّام حياتي – وهي أيّام شبابي، عندما كنت أتمتّع بالنشاط، والقوّة في الجسم، والاستعداد في الذهن، وسلامة الفكر والبدن —كانت لي ثروة كان بإمكاني جني أرباح طائلة منها. لكن أين أنفقتُها يا ترى؟ إذ لم تكن عديمة الربح لي فحسب، بل لقد ابتُليت الآن بضَعف في البدن، ولعلّ ذلك قد جرّ عليّ أمراضاً أُخرى أيضاً. والآن فقد خسرت هذه الثروة ولا أعلم كم سأُعَمَّر بعد الآن، بل وقد يأتي .مَلَك الموت هذه الساعة فيقبض روحي! هذه هي حالة الخسران

ولعلّكم شاهدتم في التقارير الرياضيّة كيف أنّ الخاسرين في السباق يبكون أحياناً. فرغم أنّ الخاسر بطل من الأبطال، لكنّه يستسلم للبكاء عندما يخسر النزال! فهذا النوع من البكاء لا يكون جرّاء الخوف من العذاب؛ إذ لا أحد ينوي ضربه مثلاً. هذا البكاء ناجم عن الشعور بالخسران؛ فهو يشاهد بأُمّ عينيه كيف أنّه فرّط بثروته؛ فقد تمرّن لسنوات عديدة على أمل الفوز في هذا النزال لكنّه فشل. فمن الطبيعيّ .أن تنهمر الدموع من مقلتيه. وهذا هو ضرب آخر من الدموع، ولعلّه يحظى بأهمّية أكبر من النوع الأوّل

بكاء الحياء .3

النمط الآخر من البكاء هو عندما يتأمّل المرء قُبحَ خطيئته. فعندما يفكّر: أي شيء هو أنا، ومَن هو الله عزّ وجلّ؟ وكم تفضّل عليّ بنعمائه وترحّم عليّ برأفته. فكم أنا عديم الحياء إذ أعصي مثل هذا الربّ الذي أمرني ببعض الأوامر لا لشيء إلا لخيري ومصلحتي! فلا كلام في هذا النوع من البكاء عن التفريط بنعمة، بل القضيّة هنا هي: كم انّني دنيء وعديم الحياء! وهذا الشعور يفوق النمطين السابقين. فنحن **ربِّ إنّي استغفرك** » :(نقرأ في الدعاء المرويّ بعد زيارة الإمام عليّ بن موسى الرضا (عليه السلام **استغفار حياء**»[8]. فهذه الحالة بالنسبة لأُولئك الذين يتمتّعون بمراتب أعلى من المعرفة هي أشدّ وأقسى. وإنّ قيمة هذه الدموع أكبر بكثير من تلك المذروفة خوفاً من العذاب. فالمسألة هناك هي خوف العذاب، وغاية المرء من البكاء هي أن لا يحيق به هذا العذاب، أمّا هذه الحالة فهي عبارة عن .علاقة مباشرة مع الله يستحي فيها الإنسان من الله ذاته من دون أيّ واسطة

بكاء المحبّين .4

أمّا هذا اللون من البكاء فهو خاصّ بالمحبّين والمشتاقين. فالذين يلجون في وادي المحبّة تنتابهم منذ البداية حالة المناجاة والتضرّع، وتعذّبهم لوعة الفراق، فتجري — لذلك – دموعهم على وجناتهم. وإنّ من أبلغ الجُمَل المعبّرة عن هذه الحالة هو هذا المقطع من دعاء كميل بن زياد، حيث يقول أمير المؤمنين (عليه

فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي صبرتُ على عذابك فكيف أصبر على » :(السلام
فراقك«[9]؟!

بكى » :ينقل المرحوم الصدوق في كتابه «علل الشرائع» عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال
شعيب (عليه السلام) من حبّ الله عزّ وجلّ حتّى عَمِي، فردّ الله عزّ وجلّ عليه بصرَه. ثمّ بكى
حتّى عمي، فردّ الله عليه بصره. ثمّ بكى حتّى عمي، فردّ الله عليه بصره. فلمّا كانت الرابعة أوحى
إن يكن [إلى متى تستمرّ في بكائك هذا] **يا شعيب! إلى متى يكون هذا أبداً منك؟** :**[10]الله إليه**
هذا خوفاً من النار فقد أجَرْتُك، وإن يكن شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتك. قال: إلهي وسيّدي! أنت
تعلم أنّي ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنّتك، ولكن عَقَدَ حبّك على قلبي فلست أصبر
فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأُخدِمُك .[حتّى أراك] **أو أراك**
، فكان من نتيجة ذلك أن فرّ موسى (عليه السلام) من مصر وقَدِم [11]«**كليمي موسى بن عمران**
إلى مَديَن ورأى بنتي شعيب فأقام هناك ثمانية أعوام أو عشر سنين. كان ذلك هو الأجر الذي أعطاه
الله تعالى شعيباً في الدنيا وهو أن أخدمه نبيّاً من أُولي العزم كموسى (عليه السلام) ليرعى له غنمه. وهذا
هو عين ذلك البكاء الذي طلب الله من نبيّه موسى (عليه السلام) أن يهبه إيّاه. والرواية التي تلوناها في
أنا خاصّة » :المحاضرة الفائتة كانت بخصوص نفس هذا النمط من الأشخاص حيث يقول جلّ وعلا
فأشخاص كهؤلاء ليس لهم في ليلهم ونهارهم سوى الله، ولا تلهج ألسنتهم بغيره، يعيشون .«**للمحبّين**
هَبْ لي من عينك » :نهارهم منتظرين حلول الليل كي يعكفوا على عبادته. وعندها يقول عزّ وجلّ
؛ «**الدموع، ومن قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ثمّ ادعُني في ظُلَم الليل تجدني قريباً مجيباً**
.فإذا دعوتني في جوف الليل فستجد أنّني قريب منك، وسأُجيبك

اللهمّ إنّنا نقسم عليك بحقّ مَن كانت قلوبهم رهن محبّتك، أن تتفضّل على قلوبنا القاصرة أيضاً بنفحة
!من هذه المعاني السامية

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

الخلوة الليليّة بالله ضروريّة لمحبّته

المناجاة الليليّة

:لقد تلوتُ على مسامعكم في إحدى المحاضرات الفائتة رواية يوحي الله عزّ وجلّ فيها لأحد الصدّيقين
ثمّ يقول سبحانه في الرواية نفسها ردّاً على سؤال .«**أنّ لي عباداً من عبيدي يحبّونني وأُحبّهم**»
بالنهار كما يراعي الشفيقُ غنَمَه، ويحِنّون [1]يراعون الظلال» :الصدّيق عن علامات هؤلاء العباد
فعندما تمتدّ الظلال وتغيب «**إلى غروب الشمس كما تحنّ الطير إلى أوكارها عند الغروب**
.الشمس يتوجّهون إلى ركن يناجون الله فيه كما تتوجّه الطيور إلى أوكارها

لقد أَولَت الآياتُ القرآنيّة والروايات الشريفة مناجاةَ الله تعالى والصلةَ به في جوف الليل اهتماماً بالغاً.
وبمطالعتنا الأحاديث القدسيّة الموحاة إلى الأنبياء الماضين نكتشف أنّ هذا الأمر كان مطلوباً أيضاً حتّى
في الديانات السابقة. يقول عزّ من قائل في مستهلّ سورة «المزمّل» التي نزلت على نبيّنا الكريم (صلّى
يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ الَّيْلَ إِلاّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً » :الله عليه وآله) في أوائل أيّام رسالته
؛ أي: قم الليل واعكف أثناء نصفه أو ثلثيه أو على الأقلّ ثلثه [2]«* **أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً**
إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ الَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ » :على العبادة. ثمّ يقول تعالى
؛ فالله يعلم أنّك تقوم كلّ ليلة ما بين ثلثها إلى ثلثيها. فعندما يكون لديك متّسع من [3]«**الَّذِينَ مَعَكَ**
الوقت، فإنّك تقوم ثلثَي الليل، وأحياناً نصفه، لكنّ عبادتك لم تنقص في يوم من الأيّام عن ثلث الليل.
؛ فأنت لست وحدك الذي تعبدني بهذه «**وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ**» :والملفت أنّه جلّ وعلا يقول
كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ » :الكيفيّة، بل إنّ جماعة ممَّن آمنوا بك يصنعون ما تصنع. ويقول تعالى في آية أُخرى
؛ فهم لا يستريحون إلا في شطرٍ من الليل أمّا في [4]«**الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**
الجزء الأكبر منه فإنّهم يمارسون العبادة. وعلى أيّة حال فإنّ للّيل مكانة خاصّة. بالطبع إنّ العبادة
مطلوبة دوماً، بل لابدّ لبعض العبادات من أن يُؤتىٰ بها نهاراً، كفريضة الظهر والعصر ونوافلهما
.وأدعيتهما، لكنّ هذه العبادات تُعدّ باهتة أمام عبادة الليل وانّ الاهتمام بالأخيرة أكبر

يا ابن عمران! » :(وروي في موضع آخر أنّ الله تعالى أوحى لنبيّه موسى (على نبيّنا وآله وعليه السلام
أَليس كلّ مُحبّ » :ولم يذكرني. ثمّ يقول تعالى «**كذب مَن زعم أنّه يحبّني فإذا جنّه الليل نام عنّي**
فهل يعقل أن تتهيّأ للمرء فرصة الخلوة بحبيبه ثمّ يفوّتها؟! فهل يُعقل من .[5]«**يحبّ خلوة حبيبه**
الإنسان الذي يحبّ شخصاً ويطول انتظاره لفرصة الاختلاء به ومجاذبته أطراف الحديث وبثّه ما يعتلج
في صدره من هموم – هل يعقل، إذا سنحت له فرصة الخلوة به وليس ثمّة أيّما ضوضاء، أن يتركه ويخلد
!إلى النوم؟

وقد وردت في كتب الأدعية وأمثالها ألوان من المناجاة الخاصّة باولئك الذين يُحيون أسحارهم ويحتوي
بعضها على مضامين رائعة جدّاً تؤكّد على نفس هذا المعنى؛ وهو أنّ الواجبات الشرعيّة والاجتماعيّة

ومشاكل الحياة اليوميّة في ساعات النهار لا تذر للإنسان مجالاً للمناجاة مع الله والتوسّل به، أمّا الليل، فهو الوقت الذي تهدأ فيه الأصوات ويحلّ السكون وتحلو الخلوة. وعلى الرغم من أنّ الليالي في هذه الأيّام صارت كالنهار وأنّ البعض ينام نهاره ويخرج ليلاً للتجوال والتسلية، غير أنّه — على أيّة حال – لا زالت هناك ساعات من الليل مخصّصة للنوم والاستراحة والخلوة.

في مناجاة منسوبة للإمام زين العابدين (عليه السلام) يصف فيها ساعات الليل بهذا الوصف: «**إلهي! غارَت نجوم سماواتك، ونامت عيون أنامك... وغلَّقَتْ ملوك بني أُمَيّة عليها أبوابها، وطاف عليها حرّاسها**»[6]؛ إلهي! لقد تغيّرت مواضع النجوم واقتربت إلى الأُفق بعد أن كانت في كبد السماء، ونامت أعين الناس، وهيمن الصمت والسكون على العالم. وغلّق الملوك أبواب قصورهم ووضعوا عليها حرّاسهم كي لا يَغِير عليهم أحد ليلاً. فكلّ الأبواب مغلّقة ولا يؤذَن لأحد بالدخول، أمّا بابك فمفتوح وليس عليه من حاجب أو مانع: «**أبواب سماواتك لمَن دعاك مفتَّحات، وخزائنك غير مغَلَّقات، وأبواب رحمتك غير محجوبات**». وأنت تدعو أولياءك، وتوصيهم بإصرار أنْ: هلمّوا إليّ، فإنّني على استعداد لغفران ذنوبكم، وقضاء حوائجكم، والأُنس معكم.

ما هي حقيقة مناجاة الليل، ولماذا نهتمّ بها؟

وهنا يكمن سؤال: ما هي الخصوصيّة التي تتمتّع بها العبادة والمناجاة في الليل؟ وما الضرورة لاختلاء المرء بربّه، وعبادته أثناء الليل؟ لماذا كلّ هذا الإصرار على صلاة الليل، وأنّه إذا لم تستطع الإتيان بإحدى عشرة ركعة، فأتِ بثلاث ركعات (الشفع والوتر) على الأقلّ، وإن لم تقدر على الثلاثة، فصلّ ركعة الوتر وحدها. بل إذا لم تُصَلّ هذه الركعة بأكملها، فاكتَفِ – على أقلّ تقدير – بالحمد والسورة، أو حتّى بالحمد فقط؟ فما هي الخصوصيّة في الاستيقاظ في السحر والإفادة من وقت الفراغ في الليل؟ لقد دأب النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) في سنّةٍ لَه على الاستيقاظ ثلاث مرّات في الليل؛ فكان يستيقظ في الأُولى فيأتي بأربع ركعات، ثمّ يستيقظ بعد استراحة قصيرة فيصلّي أربع ركعات أُخريات. ثمّ يعود للاستراحة حتّى يستيقظ للمرّة الأخيرة فيصلّي ثلاث ركعات هي الشفع والوتر. وقد كان بعض عظمائنا وعلمائنا ممّن التزموا بسنّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) هذه يسلكون نفس هذا السلوك.

يقول أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) في حديث مرويّ عنه: «**أَليس كلّ مُحبّ يحبّ خلوة حبيبه**»[7]. ألا يحبّ كلّ عاشق أن يخلو بمعشوقه؟! ألا يرجّح الإنسان الخلوة بمحبوبه على الاجتماع به بحضور الآخرين؟ قد تكون لهذا الموضوع بالنسبة لمختلف الناس أسباب وعللٌ شتّى، لكنّ العلّة الأساسيّة والعقلائيّة — ناهيك عن البُعد النفسيّ — هي أنّ مقتضى المحبّة هو أنّ المحبّ يودّ أن تربطه بمحبوبه

علاقة خاصّة ليبثّه همّه، ويحاوره، ويُظهر له حبّه. كما أنّ القضيّة الرئيسيّة في هذا المطلب هي أنّ الإنسان يرغب في أن يبادله حبيبه نفس العاطفة، وهو يريد – من أجل تقوية هذه العلاقة العاطفيّة الثنائيّة الجانب – أن ينصبّ كلّ اهتمامه على محبوبه، ويركّز محبوبُه كامل اهتمامه عليه. فلا يخفى على أحد أنّ المحبّ إذا تحدّث إلى محبوبه أحبّ أن يلتفت محبوبُه إليه، فإذا أعرض الأخير عنه وتكلّم مع شخص آخر، استاء وانزعج. كما أنّ السبب الآخر في رغبة الإنسان في الخلوة بمحبوبه هو أنّه ليس ثمّة في هذه الحالة مَن يزاحمه على محبوبه، وما من شيء يحرِف انتباهه عنه، بل وقد يُجتَنَب أحياناً حتّى الضياء والضوضاء. ولعلّكم شاهدتم كيف أنّ بعض المطاعم تضيء مصابيح خافتة، بل شموعاً، ويحرص الأصدقاء الذين يرتادونها على أن لا ينتبه إليهم أحد. ولعلّ السبب من وراء الاهتمام الخاصّ الذي توليه القصائد الغزليّة والقصص الرومانسيّة لموضوع «المنافِس» هو هذا أيضاً. بالطبع إنّ هذا الأمر قد يكون بسبب الحسد أحياناً، غير أنّ له سبباً عقلائيّاً أيضاً وهو أنّ وجود المنافِس يستقطب نصف اهتمام المحبوب. فالمحبّ يوَدّ لو أنّ اهتمام المحبوب موجّه له فحسب، وإذا شاهد أنّ قلب المحبوب يميل لشخص آخر وأنّه يحبّه أيضاً، أو أنّ شخصاً ثالثاً يضايق حوارهم، فسينزعج.

الفارق بين الخلوة بالله والخلوة بالإنسان

بما أنّ الناس لهم تعلّقات شتّى، فإنّه لا مفرّ لهم من هذه المعضلة. فقد لا نعثر في هذا العالم على عاشق ومعشوق يركّزان كلّ التفاتهما على بعضهما، ولا ينتبهان إلى شيء آخر قطّ. أمّا محبّة الله عزّ وجلّ فتختلف. فعلى الرغم من أنّ لله مليارات المخلوقين، فإنّهم لو أحبّوه جميعاً فهو جلّ وعلا يسلك مع كلّ واحد منهم وكأنّه ليس له عبد سواه. إذ أنّه: «**لا يشغَلُه شأنٌ عن شأن**»[8]. فالتفات الله تعالى لا يتجزّأ ليعطي مقداراً منه لأحد ويعطي مقداراً آخر لثانٍ. فالإنسان لا يخشى من اهتمام الله بغيره إذا علم أنّه تعالى مهتمّ به، وذلك لعلمه بأنّ التفات الله عزّ وجلّ لسواه لا ينقص من التفاته إليه. فالقلق ينشأ من قلّة اهتمام المحبوب بالمحبّ وخفوت العلاقة القائمة بينهما. لذا فلا مجال للمنافسة فيما يتّصل بالباري تعالى، إذ حتّى لو كان لله تعالى مليارات من المحبّين فسيتصرّف معهم جميعاً كما لو أنّه ليس له سوى عبد واحد، فيستطيع الجميع الاختلاء به واستقطاب اهتمامه من دون أن تضرّ كثرة المحبّين بذلك.

وحيث إنّنا معاشر البشر نقيس هذه الأُمور بأنفسنا، فإنّ استيعابها بالنسبة لنا أمر صعب. فنحن إن أحببنا شخصين فسنمنح نصف قلبنا لهذا ونصفه الآخر لذاك، ومن هنا نتصوّر أنّ حبّ الله هو أيضاً بهذه الطريقة وأنّه تعالى عندما يحبّ جميع عباده فإنّه – والعياذ بالله – يقسّم قلبه بينهم جميعاً. لكنّه ليس الله وحده المنزّه عن ذلك، بل حتّى بعض عباده الخاصّين فإنّهم ليسوا على هذه الشاكلة أيضاً.

فعندما ندخل إلى حرم السيّدة فاطمة المعصومة (سلام الله عليها) نشاهد جموعاً غفيرة من الناس يخاطبونها بشتّى الألسن، ويسألونها مختلف الحوائج، فهل إنّها لا تسمعهم يا ترى؟!

إنّ فهم هذا الأمر صعب بالقياس بنا نحن البشر العاديّين. فلو تحدّث إلينا ثلاثة أو أربعة أشخاص في آن واحد فإنّنا لا نستطيع فهم كلامهم جميعاً ولا نستطيع توجيه الخطاب إلا لواحد أو اثنين منهم، وبمشقّة. صحيح أنّ الخبراء يقولون إنّ الإنسان إذا تمرّن وتدرّب فسيتمكّن من سماع سبعة أصوات كحدّ أعلى في آن واحد. لكن أين هذا من الاستماع إلى آلاف الناس معاً، والردّ عليهم أيضاً؟! ليس هذا فحسب، بل إنّ أولياء الله يعلمون أيضاً السبيل إلى قضاء حاجة كلّ فرد، فيسألون ذلك من ربّهم، فيتفضّل الله عليهم بقضائها. وهذا ما يتّصل بالسيّدة المعصومة (سلام الله عليها)، وهي ليست نبيّاً ولا إماماً، بل هي بنت عظيمة الشأن من ذرّية هذا البيت الطاهر. فأمر المعصوم مختلف؛ فلو نادى أهل العالم أجمع الوجود المقدّس لصاحب العصر والزمان (أرواحنا فداه) في آن واحد، لسمعهم قاطبة.

ذكرنا أنّ مُنية الإنسان هي في أن لا يلتفت محبوبه إلا إليه وأن يملأ وعاءَه. وهذه الحالة تتحقّق عادة في الخلوة. وهو أن يرغب الطرفان في تحقّق الوصل في الخلوة كي لا يلتفتا إلا إلى بعضهما وتقوم بينهما علاقة روحيّة بأكمل وجوهها. ففي مثل هذه الأحوال، حتّى الضياء قد يشكّل لهما مصدر إزعاج، فلا يُفيد المحبّ من النور إلا بالمقدار الذي يتيح له رؤية وجه حبيبه. بل وقد يصل الأمر إلى درجة لا يرغب المحبّ فيها حتّى في رؤية وجه الحبيب، إذ بمجرّد أن يعلم أنّ اهتمام الطرف الآخر منصبّ عليه فإنّه سيشعر باللذّة. ولهذا فمن الطبيعيّ أن يرغب الإنسان في الخلوة بحبيبه.

مناجاة الليل أداء حقّ المحبّة

السؤال هنا: هل إنّنا نحبّ الله حقّاً؟ فهل يصحّ أن نُعرض عن الربّ – الذي أسبغ علينا كلّ هذه النعم، ولا زال يحوطنا بلطفه ورحمته وكرمه، على الرغم من كلّ مساوئنا وأقذارنا — ونُسلِم أنفسنا للنوم طول الليل من دون أن نذكره ولو لمرّة؟! فلا بأس أن يتأمّل الإنسان في هذا الأمر قليلاً. فقد أكّدت الروايات أيضاً على أنّه: إذا كُنتَ طالب محبّة، فتفكّر. إذ أنّ التفكّر في آلاء الله جلّ شأنه، وصفات كماله، وألطافه، وتجاوزه، وتفضّله يبعث على ازدياد محبّة الإنسان لربّه.

وبالطبع ليست القضيّة هي أنّ الذين ينامون ليلهم حتّى الصباح ولا يستيقظون لصلاة الليل – مثلاً – لا يحبّون الله، لكنّهم — على أقلّ تقدير — لا يؤدّون حقّ المحبّة، وقد شغلت قلوبهم مشاغل الحياة الأُخرى، فلم تَعُد محبّتهم بالمقدار الذي يغلب عليهم. إذ يجب أن نعلم أنّ حدّ نصاب المحبّة هو أن يخصّص الإنسان – على الأقلّ – نصف ساعة من مجموع ساعات ليله لمناجاة ربّه. لاسيّما وأنّه عزّ وجلّ

يدعوه، ويصرّ عليه، ويرسل له الرسل، وينزل عليه عدداً من الآيات في أهمّية هذا الأمر. فلعمري إنّ إهمال هذا الأمر لهو جفاء، وإنّ على الإنسان أن يبذل غاية وسعه كي يغترف من معين المحبّة هذا غُرفة. وليعلم أنّ نِعم الباري تعالى لا تنحصر في المأكولات والمشروبات.

تزاحم الواجب والمستحبّ

ثمّة سؤال آخر قد يتبادر إلى الأذهان، لاسيّما إلى أذهاننا نحن طلبة العلوم الدينيّة، وهو: صحيح أنّنا نحبّ الله، وأنّنا لا ندّعي ذلك كذباً، لكنّه ثمّة تكاليف قد أوجبها الله علينا؛ فطلب العلم بالنسبة لنا واجب، وعلينا أن نتباحث ونذاكر ونقوم بالبحوث العلميّة ونبلّغ الدين وما إلى ذلك. فهذه كلّها تكاليف واجبة، أمّا الاستيقاظ عند السحر وأمثال ذلك فمستحبّ. فهل يجوز، من أجل عمل مستحبّ، أن نترك بعض واجباتنا؟ فهذا السؤال قابل للطرح – لفظاً – ومن الواضح أنّ جميع الفقهاء سيجيبون قطعاً بأنّ الواجب مقدّم على المستحبّ، ولابدّ – عند التزاحم – من ترك المستحبّ وأداء الواجب. لكنّ الحقيقة هي أنّ الأمر ليس بهذه الصورة؛ فما عدا الساعات التي ننفقها طيلة النهار على طلب العلم والمباحثة وأداء الواجبات فإنّ لدينا أوقاتاً أُخرى بحيث إنّنا لو برمجنا وقتنا بشكل جيّد لتسنّى لنا الاستيقاظ ولو لربع ساعة قبل الفجر وتخصيصها لعبادة السحر، فإنْ أصابنا بعض التعب، ففي ميسورنا الاستراحة قليلاً بعد صلاة الصبح. صحيح أنّ النوم بين الطلوعين فيه كراهية، لكنّه إذا دار الأمر بين الاستيقاظ في السحر وترك النوم بين الطلوعين، لكان الأوّل أَولَى.

يُنقل أنّ أحد طلاب العلوم الدينيّة قد طرح على الشيخ الأنصاريّ (رضوان الله تعالى عليه) هذه المسألة فقال: إنّنا نرغب في أداء المستحبّات، لاسيّما نافلة الليل، غير أنّ لدينا دروساً وبحوثاً؛ فهل يجوز أن نُنقص شيئاً من مذاكرة الدروس لنتفرغّ – عوضاً عنها – لنافلة الليل؟ [9] فسأله الشيخ الأنصاريّ: شيخنا! هل تدخّن النرجيلة؟ ولما أجاب الطالب: نعم يا شيخنا، فأنا ادخّنها كما يفعل الآخرون [10]، قال الشيخ الأنصاريّ: أُترك واحدة منها وصلّ صلاة الليل بدلاً عنها. فتدخين النرجيلة يتطلّب بعض المقدّمات، فتحضير التبغ وإعداد الفحم يستغرق وقتاً. إذن قم بحذف إحداها وصلّ صلاة الليل بدلاً عنها، فثواب الأخيرة أكبر من تدخين النرجيلة، وعندها لن يكون ثمّة تزاحم.

وفّقنا الله جميعاً إلى العمل بما يرضاه، وبما فيه سعادتنا إن شاء الله.

مناجاة الله إلى جانب التكاليف الاخرى

إشارة

وصلنا في محاضرتنا الماضية إلى أنّه من جملة علامات أحبّاء الله وأوليائه أنّهم ينتظرون حلول الليل ليهرعوا إلى الخلوة بربّهم ومناجاته. وقد ذكرنا في علّة اختيار الليل لمناجاة الله سبحانه أنّه إلى جانب أنّ الليل هو وقت السكينة وهدوء الأصوات وذهاب الجميع إلى مضاجعهم، فإنّ الظلمة تساعد الإنسان على التركيز أكثر. وقد أُشير في آيات الذكر الحكيم إلى هذه القضيّة في قوله تعالى: إنّ سبب إصرارنا على أن تقوم ثلثَي الليل أو نصفه هو أنّ عبادة الليل هي أشدّ أثراً: **«إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً»**[1]. كما ويشير تعالى إلى نقطة أُخرى في قوله: **«إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً»**[2]. فليس لديك في النهار متّسع من الوقت للعبادة المطوّلة، لأنّك مكلَّف فيه بتكاليف جمّة ومرتبط بأعمال ومشاغل كثيرة تمنعك من الخلوة بربّك. وقد أكثرَت الروايات من توصياتها بإحياء الأسحار بالعبادة وطول السجود. ومنها رواية نوف البكاليّ التي يصف فيها أمير المؤمنين (عليه السلام) حال المتّقين في الليل والنهار، حيث يقول: **«أمّا الليل فصافّون أقدامهم، تالون لأجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلاً**... **وتارةً يفترشون جباههم وأكفّهم وركبهم وأطراف أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم»**[3]. وعلى أيّة حال فإنّه لا نظير للتأكيدات الواردة على قيام الليل والسحر، ويندر أن نجد في المصادر الدينيّة تأكيداً على شيء بهذا الحجم.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: لو أنّنا رغبنا بالعمل بتعاليم القرآن الكريم، من قيام ثلثي الليل للعبادة، وعدم النوم بين الطلوعين، وتأدية التعقيبات بعد الصلوات، فكيف سننجز باقي أعمالنا يا ترى؟ لاسيّما وأنّ هناك مستحبّات واردة للنهار أيضاً، بل وهناك دعاء لكلّ ساعة من ساعات النهار أيضاً، ولا نكاد ننتهي من هذه الأدعية حتّى يحين وقت نوافل وفريضتي الظهر والعصر وما ورد بعدهما من أدعية. فالذي يسهر ثلثي الليل لا تبقى لديه رغبة ونشاط للعمل؛ فإذا كان طالباً جامعيّاً، فسيغفو في الصفّ، وإذا كان عاملاً أو مزارعاً، فإنّه لا يجد في نفسه القدرة على العمل. كما وأنّ الروايات قد وصفت هؤلاء الأشخاص بأنّ وجوههم صفراء، وألوانهم شاحبة، وشفاههم ذابلة[4]. ففي هذه الحالة سوف لا يُنجَز عمل قطّ. بل إنّ شخصاً كهذا سوف لا يكون لديه النشاط حتّى لعبادات النهار. فإذا كان هذا هو النموذج المثاليّ للمؤمن، فكيف سنقوم بمهامّنا الاجتماعيّة؟ وأنّى لمجتمع مكوّن من هذا النمط من الأشخاص أن يحظى بالتطوّر العلميّ ويمارس النشاطات الاجتماعيّة والسياسيّة ؟ فالقضيّة ليست منحصرة بقيام السحر، إذ أنّ هناك الكثير من التكاليف الأُخرى ممّا لو عمل المرء بها فإنّه لا تعود ثمّة فرصة ولا قدرة على إنجاز باقي الأعمال. فإذا كان مقتضى العمل بهذه التعاليم هو الخروج

بمجتمع ضعيف عديم النشاط والحيويّة، وهو ممّا لا يرضى به الإسلام، إذن فلماذا كلّ هذا الإصرار والتوصية على العمل بهذه الأُمور؟

الإفادة من المصادر الدينيّة تحتاج لمتخصّص

من أجل تهيئة الأذهان لتقبّل الإجابة نشبّه المصادر الدينيّة بالكتب الطبّية. إذ يكرَّس جانب من هذه الكتب عادةً للأعشاب، والعقاقير، والأملاح، والأغذية، وما إلى ذلك. ومن الواضح أنّ كتباً من هذا القبيل تبيّن خواصّ الأعشاب والعقاقير، وانّ العمل بموجبها لا يعني بالضرورة التوصية بتناول جميع ما ذُكر فيها من أعشاب وعقاقير. كما أنّ الكتب الأكثر تخصّصاً تتناول أضرار ومحاسن هذه الموادّ. ويتعيّن – من أجل العمل بهذه الكتب – مراجعة الطبيب والعمل بوصفته التي يحرّرها بعد الفحص وإجراء التحاليل المختبريّة. وكلّما كان الطبيب أشدّ حذقاً وتجربة واطّلاعاً على أنواع الأدوية والأغذية، كانت وصفته أفضل. وهذه المسألة تصدق أيضاً على تعليمات المصادر الدينيّة. فقد يتصوّر بعض عوامّ الناس، استناداً إلى الروايات التي تتحدّث عن ثواب البكاء على أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) أنّ بإمكانهم ارتكاب ما يحلو لهم من الذنوب طيلة العام، فإذا حلّ يوم عاشوراء ذرفوا بعض الدموع فيُغفر لهم! غير ملتفتين إلى أنّ الروايات المذكورة هي لبيان أنّ ذرف الدموع في عزاء سيّد الشهداء (عليه السلام) له مثل هذه القدرة، لكنّ أثراً كهذا يتطلّب تحقّق بعض الشروط. لذلك يتعيّن الالتفات إلى أنّ استحسان الروايات (أو ذمّها) لشيءٍ ما لا يعني ترخيصاً مطلقاً للعمل به. فكما أنّ علينا – في الأحكام الفقهيّة — الرجوع إلى الفقيه المجتهد الذي يضع جميع الأدلّة الفقهيّة إلى جانب بعضها، وبعد ملاحظة المطلق والمقيّد، والناسخ والمنسوخ، والعامّ والخاصّ، يخرج بفتوى ليدلّنا على تكليفنا الشرعيّ، فإنّه يتعيّن – في المسائل الأخلاقيّة أيضاً – الرجوع إلى المتخصّص فيها، لاسيّما وأنّ معظم هذه المسائل تُعدّ من الواجبات المهمّة للغاية وانّ المتخصّص المتبحّر في هذه الأُمور سيأخذ جميع الأدلّة بنظر الاعتبار، .فيرخّص الشخص المقابل للقيام بعمل معيّن اعتماداً على حاجته وقابليّاته

يروى أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) كان له صديق نصرانيّ وقد سعى — شيئاً فشيئاً – في هدايته حتّى دخل الإسلام. ذات ليلة طرق هذا المؤمن باب صديقه الحديث العهد بالإسلام سحراً ليصطحبه إلى المسجد لصلاة الليل. وبعد الانتهاء منها قال له: لقد اقترب الصبح، فلنصبر حتّى نصلّي الصبح. ثمّ حبسه بعد الصلاة حتّى طلوع الشمس لأداء التعقيبات. وفي نهاية المطاف عاد الرجلان إلى دارهما. لكنّ هذا المؤمن عاد سحراً إلى منزل رفيقه ليدعوه مرّة أُخرى إلى صلاة الليل. فقال له المسلم الجديد: يا فلان! إنّ دينكم حسَن، لكنّه ينفع العاطلين، فإنّ لي عيالاً وأنا لا أُطيق هذه الحياة، لقد كان ديني السابق أفضل لي. فأشار الإمام الصادق (عليه السلام) بعد ضربه هذا المثل إلى أنّ

ومن هنا فإنّه لا يجوز وصف منهاج .[5]هذا المؤمن قد أخرج رفيقه من الإسلام من حيث أدخله فيه عمليّ لامرئ من دون معرفة قابليّته، وظروف حياته، ومقدار معرفته، وسنّه، وقدرته البدنيّة، وواجباته الأُسريّة والاجتماعيّة المختلفة.

تقسيم العمل

وبناءً على ما ذكرنا فإنّ الفقيه المحيط بهذه المسائل يوصي بضربٍ من تقسيم العمل. وبعبارة أُخرى فإنّ العمل بتعاليم الدين لا يعني أداء جميع الأعمال في كلّ حين، بل يتعيّن تقسيم العمل. إذ تدلّ بعض الروايات على ضرورة أن يكون للمرء في يومه وليلته عدّة أنواع من العمل. فقد أكّدت بعض الأحاديث على تقسيم ساعات الليل والنهار إلى ثلاثة أقسام: قسم للنوم وتلبية حاجات البدن، وآخر لكسب الرزق، وآخر للعبادة. وقد أضافت رواية أُخرى قسماً لمعاشرة الإخوان والتمتّع بالحلال جاعلةً من الأخير ضماناً لأداء باقي التكاليف بشكل صحيح .[6]ولا نفهم ممّا ذكر أنّ هذه الروايات تقسّم ساعات اليوم والليلة إلى ثلاثة أو أربعة أقسام متساوية، بل إنّها – إجمالاً – في مقام النهي عن رتابة الحياة.

أقسام التكاليف

ما نستشفّه من مصادر الدين – سواء الآيات أو الروايات أو سيرة أهل البيت (عليهم السلام) – هو أنّ أعمالنا تنقسم إلى مجموعتين عامّتين: فرديّة واجتماعيّة. إذ انّ لدينا واجبات اجتماعيّة تجاه الأب والأُمّ، والزوج، والولد، والجار، والأُستاذ، والتلميذ، وصولاً إلى إمام الأُمّة ومسؤولي البلاد، وحتّى الدول الصديقة والعدوّة. كما وأنّه ثمّة مجموعة أُخرى من التكاليف ترتبط بالشخص نفسه ويتعيّن عليه إنجازها، سواء أوُجد شخص آخر أم لم يوجد. كما أنّ المسائل الفرديّة تنقسم هي الأُخرى إلى ثلاثة أقسام: هي ممّا [7]الحاجات الضروريّة للبدن، والحاجات النفسيّة، والعلاقة مع الله. فالحاجات الضروريّة للبدن يحتاجه جميع الناس وليس من مفرّ عنها؛ فجميع البشر هم بحاجة إلى الطعام واللباس والسكن. ولا يدور الكلام في مثل هذه الحاجات حول ما إذا كانت تلبيتها – شرعاً – واجبة أو محرّمة أو مستحبّة في حدّ ذاتها، إذ يتعيّن على كلّ إنسان تأمينها من أجل البقاء. بالطبع إذا نوى المؤمن القيام بهذه الأعمال طاعةً ومرضاةً لله، فستُحسب عبادة أيضاً، لكنّها ليست من التكاليف الواجبة، وإنّها لَمِن مهارة المؤمن أن يستطيع إنجاز جميع هذه الأعمال – حتّى أشدّها حيوانيّة – بقصد طاعة ربّه وتحويلها إلى عبادة عظيمة (واجبة أو مستحبّة)).

أمّا الحاجات النفسيّة فإنّها لا ترتبط بالجسم، لكنّ إنسانيّة الإنسان وروحه هما بحاجة لها. فكلّ امرئ يحتاج لأن يكون عزيزاً وذا كرامة. بالطبع من الممكن أن يبقى الإنسان على قيد الحياة بالتسوُّل، لكن ليس هذا شأن الإنسان المحترم.

وأخيراً فإنّ المجموعة الثالثة من الحاجات هي ما يتّصل بالعلاقة مع الله وعبادته، وهي ما يمكن تصنيفه – بشكل من الأشكال – ضمن حاجات الإنسان النفسيّة أيضاً.

كما وتنقسم المسائل الاجتماعيّة أيضاً إلى قسمين أساسيّين: مادّي، ومعنويّ. وعلاوة على ذلك كلّه فإنّنا معاشر البشر بحاجة إلى شيء آخر ألا وهو طلب العلم. ومن الواضح أنّ طلب العلم هو أمر واجب لكلّ من القضايا الفرديّة والاجتماعيّة. وليكن في علمنا – بالطبع – أنّ بإمكاننا إنجاز جميع هذه الأعمال بنيّة التقرّب إلى الله وطاعته، فتصير كلّها عبادة.

ومن المطالبات الأُخرى أيضاً هو ما يتّصل بالدفاع والأمن. فإذا تآمر العدوّ – الداخليّ أو الخارجيّ – على الإخلال باستقرار المجتمع، فلابدّ من وقوف جهاز الأمن والقوّة الدفاعيّة بوجهه. وليس بوسع شخص واحد سدّ هذه الحاجة، بل إنّها تتطلّب جهازاً منظّماً وضخماً.

فكلّ ما ذكر يمثّل ما نحن بحاجة إليه في هذه الحياة الدنيا، وقد طالَبَنا الإسلام بأن نكون أُنموذجاً وقدوة لغيرنا في جميع ذلك. فيتعيّن ممارسة كلّ هذه النشاطات، لكن يتحتّم أن تتّخذ جميعها وجهة إلهيّة.

الحاجة إلى المناجاة مع الله

يتخيّل البعض أنّ المراد من العبادة، التي يوصَىٰ بممارستها على مدى ثلثي الليل أو نصفه، هو كلّ ما يقوم به المرء في سبيل الله، مستندين في ادّعائهم هذا إلى الحديث القائل: « **العبادة عشرة أجزاء، تسعة أجزاء في طلب الحلال**»[8]. لكنّ القضيّة ليست بهذه الصورة؛ إذ أنّ الروايات التي تدعو الإنسان إلى تخصيص ساعات من يومه لعبادة الله والمناجاة معه لا تقصد شيئاً آخر.

إنّ من أهمّ الأعمال عند العقلاء هي قضيّة إدارة المجتمع، إذ أنّها تطغى على جميع الشؤون الأُخرى. وهذه الأهمّية هي على جانب من الكِبَر والضخامة حتّى أن بعض الأخبار قد عدّت فائدة تنفيذ حدّ واحد من حدود الله أكثر من فائدة المطر لأربعين يوماً متوالية. فعندما أرسل أمير المؤمنين (عليه السلام) مالك الأشتر إلى مصر بعد أن عيّنه والياً عليها كتب له عهداً شرح فيه بالتفصيل جميع أركان الحكومة وكيفيّة التعامل معها وواجب كلّ منها. لكنّه (عليه السلام) طالبه ضمن هذه الأوامر أن يخصّص أفضل

واجعل لنفسك فيما » :أوقات يومه لعبادة الله عزّ وجلّ. والملفت أنّه (عليه السلام) يقول في هذا العهد
لله إذا [الأعمال] **بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزَل تلك الأقسام، وإنْ كانت كلّها صلحَت فيها النيّة وسلِمت منها الرعيّة... فأَعطِ الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووفّ ما تقرّبتَ** ؛ أي: على الرغم من أنّ كلّ عمل تقوم به لله [9]«**به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص** ويأمَن الناس ضرَرَه فهو عبادة، لكن عليك أن تخصّص أفضل أوقات يومك وليلتك لعبادة ربّك والمناجاة معه! ثمّ يوصيه بأن لا تثلم هذه العبادة أو تنقصها! فإنّ عبادتك ربَّك في أفضل ساعات ليلك ونهارك .عبادة كاملة غير منقوصة هي التي ستعينك على القيام بسائر المهمّات

، [10]وطبقاً لتصنيف آخر عامّ فإنّ كلّ واحد من الأُمور المذكورة أعلاه تنقسم إلى واجب ومستحبّ حيث ينبغي — في حالة التزاحم بينها — التخلّي عن المستحبّ لصالح الواجب. وهذا أمر واضح. لكنّ المشكلة هي عندما يحصل التزاحم بين الواجب المرتبط بالشخص، مع الواجب المتعلّق بالأُسرة أو المجتمع. فالحفاظ عل السلامة — على سبيل المثال — واجب وعلى المرء أن يهتمّ بسلامة طعامه وتعقيمه من المكروبات. أمّا في الخطّ الأماميّ من جبهات القتال، فلا تعود هذه القضيّة محطّ بحث؛ إذ قد يضطرّ المرء هناك أحياناً إلى الاكتفاء بكسرة خبز شعير أو شقّ تمرة. لكنّ السؤال المطروح هنا هو: إذا حصل التزاحم بين سلامة المرء وواجب شرعيّ أو عباديّ كاحترام الوالدين أو الصلاة، فما الذي ينبغي صنعه؟ .نفهم من ذلك أنّه حتّى فيما يخصّ الواجبات فإنّ علينا — عند التزاحم — تشخيص ما هو الأوجب

اختلاف الظروف يمهّد لاختلاف التكليف

إنّ بعض العوامل تكون مشتركة بين جميع الناس فيكون للجميع – في ظروف معيّنة – نفس الواجبات الفرديّة والاجتماعيّة، لكنّه ثمّة عوامل تكون مثاراً لاختلاف التكليف. فعلى سبيل المثال فإنّ تكليف البنت التي بلغت تسع سنوات من عمرها يختلف عن تكليف الشباب الذين بلغوا النضج والرشد الكافيين؛ إذ لا يمكن تعليم البنت ذات السنوات التسع أحكام واجبات أو مستحبّات الصلاة – لاسيّما ما يرتبط بالنيّة – بشكل دقيق، بل قد يتعيّن أحياناً وَعْدُها بهديّة لتشجيعها على أداء الصلاة. أمّا بالنسبة للشباب فهل ستُقبل صلاتهم يا ترى إذا أتوا بها أملاً بالجائزة؟! وهذا الاختلاف في التكليف ناشئ عن اختلاف السنّ. لكنّ قد يكون الاختلاف أحياناً بسبب الجنس أيضاً؛ فهناك تغاير بين الرجل والمرأة وإنّ بعض الأحكام تخصّ أحد الجنسين دون الآخر. كما وقد ينجم اختلاف التكليف عن القابليّات والمواهب الإلهيّة، بل حتّى إنّ بعض القدرات المكتسَبة قد توجب فارقاً في التكليف أيضاً؛ فتكليف الكادّ من أجل لقمة عيشه مثلاً يختلف عن تكليف مَن يكون فقره بسبب الكسل والتقاعس أو لأسباب غير هذه. وأخيراً فإنّ بعض المسائل قد تُستحدث نتيجة بعض الظروف الاستثنائيّة كالحرب

أو الزلزال أو أمثال ذلك؛ إذ من الواضح أنْ يطرأ في مثل هذه الظروف تكليف جديد على الأشخاص وهو ما يكون في الغالب بصورة واجب كفائيّ؛ فإذا توفّر مَن به الكفاية، سقط عن الآخرين، أمّا إذا لم يتوفّر فإنّ على الجميع مدّ يد العون فلا يسقط التكليف عن كاهل أيّ امرئ.

ولما كان من الضروريّ – بغية إعداد منهاج سلوكيّ للمرء – أخذ جميع العوامل المذكورة بنظر الاعتبار فإنّه لابدّ — في هذه القضية – من استشارة مَن له إحاطة علميّة من جهة، وقادر على فهم ظروف الناس من جهة أُخرى. فمن غير الممكن أن نتوقّع من المبتدئ — لاسيّما الحدَث — أن يأخذ جميع هذه الامور بنظر الاعتبار فيشخّص الواجب من الأوجب والمهمّ من الأهم. إذ يتحتّم على المتخصّصين في مجال التربية والأخلاق أن ينهضوا بهذه المهمّه ويرشدوا من سواهم.

هذه الأُمور تشير بمجموعها إلى أنّ تكليف الناس يختلف باختلاف الظروف. فقد يكون الاستيقاظ قبل صلاة الصبح بربع ساعة لأداء صلاة الليل كافياً لامرئ، في حين تكون العبادة لمدّة ثلثي الليل أو حتّى قيام الليل كلّه حَسَنة جدّاً لمن ليس في ذمّته عمل مهمّ أو تكليف واجب.

والمحصّلة هي انّ لدينا تكاليفَ وواجباتٍ مختلفة، وعلينا أن نحدّد مهامّنا ومكانتنا الاجتماعيّة، وأن نحيط علماً بما تعهّدنا به من مسؤوليّات وما ينبغي أن نتعهّد به؟ علينا أن ننظر أيّ الأعمال والمسؤوليّات مهمَلة ونحن نملك القدرة على إنجازها، ثمّ نختار من بينها ما هو أهمّ لننهض به.

وفّقنا الله وإياكم إن شاء الله

الأعمال المحبوبة عند الله

تذكير بالنعمة العظيمة المتمثّلة بانتصار الثورة الإسلاميّة

لقد قال بعض حواريّي عيسى له (عليه السلام): كم هو جميل أن ينزّل علينا ربّنا مائدة سماويّة لنأكل منها وتكون عيداً لأهل هذا الزمان ومَن سيأتي في المستقبل! بالطبع لم يكن أُسلوبهم مؤدّباً في طرح السؤال؛ فقد قالوا له: « **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ**... *...* ...**تَكُونُ لَنَا** **عِيداً لأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا**»[1]. لكن نبيّ الله عيسى (عليه السلام) أصلح تعبيرهم حينما سأل الله ذلك

؛ آيةً تدلّ على «**اللّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا... وَءَايَةً مِّنكَ**» :فقال في دعائه .قدرتك وعظمتك! فكان أنْ أنزَلَ الله عليهم المائدة

وبالالتفات إلى هذه القصّة يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: إذا كان إنزال مائدة طعام من السماء من موجبات احتفاء الأوّلين والآخرين، أفلا يكون من المناسب أن نحتفي بهذه الأيّام المباركة التي تصادف ذكرى انتصار الثورة الإسلاميّة وذلك بما أنزل الله تعالى فيها على أُمّتنا من البركات ممّا يفوق مائدة الطعام آلاف آلاف المرّات؟! فينبغي أن نتذكّر هذه النعم الإلهيّة. وإنّ إقامة الاحتفالات والأفراح والتضرّع إلى الله بالدعاء وممارسة الأعمال العباديّة شكراً لهذه الآلاء الجسيمة لهي أقلّ واجب يمكن القيام .به في هذا المجال. أسأل الله تعالى أن يمنّ علينا جميعاً بمعرفة النعم والتوفيق لشكرها أيضاً

تذكير بالمباحث الفائتة

لقد قلنا إنّه لحصول المحبّة تجاه الله عزّ وجلّ فإنّه لابدّ من توفير أرضيّات روحيّة ونفسيّة. إذ لابدّ أن يعلم المرء أنّ الله هو أحبّ موجود في هذا العالم كي تترسّخ محبّته في قلبه شيئاً فشيئاً وينخرط في زمرة محبّيه ومريديه جلّ وعلا. ثمّ أشرنا إلى جانب من آثار ولوازم هذه المحبّة استناداً إلى ما يستفاد من القرآن والسنّة وقلنا إنّ حيازة الكثير من هذه الآثار هو أسهل من حصول نفس المحبّة، وإنّ ترتّب الأُولى على مراتب أدنى من المحبّة يوجب تقوية الأخيرة تدريجيّاً. وقد قلنا أيضاً إنّ من الآثار الطبيعيّة للمحبّة هو رغبة المحبّ في أن يبادله المحبوبُ الحبَّ أيضاً، وهو أثر على جانب من الأهمّية بحيث إنّ المحبّ أحياناً ينتشي من إحساسه بمحبّة المحبوب نشوةً هي أسمى وأنفس من أيّ شيء آخر، بل وتهوّن عليه كلّ ما يتحمّله في .سبيلها من مِحَن ومكاره

الأعمال المحبوبة عند الله

من الأساليب التربويّة التي يتبنّاها القرآن الكريم هي أنّه إذا أراد الإطراء على صفة معيّنة والحثّ عليها فإنّه يقول: هذا ما يحبّه الله، وإن أراد ردع الناس عن أمر ما يقول: هذا ما لا يحبّه الله. وهذا النمط من الآيات يحاول أن ينبّهنا إلى هذه الحقيقة، وهي: انّ فطرتكم تطالبكم بفعل ما يجعل الله يحبّكم، كما وأنّ عليكم أن تعلموا أنّكم إن فعلتم كذا وكذا فإنّ الله تعالى سوف لا يحبّكم. مضافاً إلى أنّ الأدب القرآنيّ ينتهج أُسلوباً فذّاً حيث إنّ معظم الآيات القرآنيّة تحرص على توطيد علاقة متبادلة بين العبد وربّه؛ كقوله وإنّ الالتفات إلى مثل .[3]«**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه**» :، وقوله[2]«**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ**» :تعالى هذه الآيات يساعدنا كثيراً على تنمية محبّتنا لربّنا من جهة والاطمئنان من محبّته لنا من جهة اخرى.

ونرى من المناسب هنا أن نحصي ما عدّه الله حسناً من الصفات وأن نسعى لتقويتها في أنفسنا، إذ سنضاعف – بذلك – من محبّتنا لربّنا من جهة، وستزداد محبّته عزّ وجلّ لنا من جهة ثانية.

1. الجهاد

قد يتبادر إلى أذهان البعض – استناداً إلى الأبحاث الماضية التي ركّزت أكثر على العبادة والمناجاة والذكر والبكاء – أنّ الإنسان المثاليّ الذي يطلبه الله عزّ وجلّ ويريده الإسلام هو ذلك الذي يتجشّم يوميّاً عناء السهر من أوّل الليل حتّى السحر، ويواظب على الإمساك بالمسبحة وذكر الله وتبدو عليه أمارات الشحوب والإنهاك، غافلين عن أن نفس هذا الإسلام يقول في الآية الرابعة من سورة الصف: « **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** »[4]. إذ لا يقول الباري عزّ وجلّ هنا: قاتلوا كالبنيان المرصوص، أو: إذا كنتم كذلك فهذا حسن والله يحبّ ذلك؛ بل يقول: إنّ هناك أُناساً يقاتلون في سبيل الله من دون أدنى تزعزع، ويصمدون أمام عدوّهم ويقاومونه بصلابة كصفّ مرصوص فلا يُهزمون أبداً. كما ويقول عزّ من قائل في محلّ آخر: « **فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً** »[5].

هذا وانّ سيرة النبيّ الأعظم والأئمّة الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين) تحكي فضيلة وأهمّية الجهاد. وإنّ الأُنموذج الكامل لهذه الفضيلة بالنسبة لنا نحن الشيعة هو سيّد الشهداء (عليه السلام)؛ فهو الأُنموذج الذي لا يشوبه نقص أو عيب. ولم يكن (عليه السلام) من صُفر الوجوه والمنشغلين بالذكر والـمُجهَدين الذين لا يتنفّسون إلا بصعوبة. لقد كان شخصية أعطت كلّ ما عندها في سبيل الله، وكان كلّما قُتِل له ابن أو أخ في ميدان القتال فقد كان يزداد وجهه إشراقاً ويصير أكثر حيويّة، ومن حيث إنّه كان يزداد قرباً من محبوبه لحظة بعد لحظة، فقد كانت تشتدّ عزيمته ويتألّق جماله.

وبناءً عليه ينبغي أن نضع كلّ أبعاد الإسلام في نظر الاعتبار، وأن نستعين في منهاجنا العمليّ بأُولئك المحيطين بجميع معارف الإسلام، وليس بذوي الأُفق الضيّق الذين ينظرون إلى الإسلام من زاوية واحدة، ويقتصرون على مجموعة واحدة من الروايات غافلين عن المواضيع الاخرى. بالطبع فإنّ الناس مختلفون جدّاً من حيث المعرفة والهمّة والإيمان والتقوى، لكنّه يوجد – في النهاية – أشخاص يتمسّكون ببُعد واحد من الإيمان ويغفلون عن الأشياء الاخرى، إمّا نسياناً أو انّهم يتغافلون عنها لأنّها لا تلائم مزاجهم. وعلى أيّة حال فالقرآن الكريم يقول: «إنّ الله يحبّ أُولئك المتأهّبين للجهاد والمقاتلين في سبيل الله بهذه الكيفيّة»، بل وقد سُمّيت سورة قرآنيّة باسم «الصف» انطلاقاً من هذه الآية.

بالطبع إنّ الناس قد رُغّبوا في القرآن الكريم بصور شتّى بالجهاد والقتال في سبيل الله، لكنّ الحرب ليست هي مما يكون التمهيد لها بأيدينا، كما وأنّ إشعال الحرب ليس بالأمر المطلوب. لكن ما يهمّنا في الوقت الحاضر هو تقوية هذه الروح في نفوس الناس بحيث إذا أصدر اليوم صاحب الزمان (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف) أو نائبه أمراً بالتوجّه إلى جبهات القتال، فإنّ الجميع سوف يُهرع لتلبية هذا الأمر بكلّ فخر وولع؛ بالضبط كالعشق الذي اشتعل في قلوب الناس تجاه الإسلام والثورة في السني الأُولى من فترة الدفاع المقدّس، إذ كانوا يتركون عيشهم وأزواجهم وأبناءهم ويهرعون إلى ميدان الحرب بإشارة واحدة من الإمام الراحل (رحمة الله عليه). فهذه الروح هي المهمّة. إذ ينبغي أن يكون الإنسان على أُهبة الاستعداد حتّى إذا قيل لهم: إلى الأمام! فإنّهم لا يتلكّؤون لحظة واحدة. إذ يُحكى عن أحوال العلماء الماضين أنّهم كانوا ينطلقون أيّام الجمعة في الصحاري ليتمرّنوا على ركوب الخيل والضرب بالسيف ليكونوا على أُهبة الاستعداد فيما إذا ظهر صاحب الأمر (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف) فجأة وأصدر الأمر بالجهاد.

فالتحلّي بهذه الروح مهم، لكن – بالطبع – هناك شروط للتحلّي بها؛ فإنّ التعلّق ببعض شؤون الحياة — حتّى تلك المطلوبة في الجملة — يُنقص من هذه الروح. فحبّ الوالدين والزوج ليس محظوراً في الإسلام، لكنّه إذا شكّل عقبة أمام الاستعداد للجهاد في سبيل الله، فإنّه لا يتناسب مع الإيمان؛ يقول تعالى:
«قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ»[6]. وهو تحذير يدلّ على أنّ الله لا يحبّ هذه الحالة؛ أي: حذار من أن تمنعكم هذه الأمور عن الجهاد! لأنّها إن منعتكم فهو دليل على أنّ حبّكم لهذه المسائل أكثر من حبّكم لله. وهذه الحالة هي من الحالات السيّئة التي لا تنسجم مع الإيمان؛ فالحدّ الأدنى من الإيمان هو أن يحبّ المرء الله أكثر من أيّ شيء آخر. بالطبع إن سقف الإيمان هو أن لا توجَّه المحبّة الأصيلة إلا إلى الله وأنّ يحبّ المرء جميع الأشياء من أجله جلّ وعلا. لكنّ هذه الدرجة من الحبّ تفوق مستوانا وهي تتطلّب شخصاً كالإمام الحسين (عليه السلام) الذي يقول:

تركتُ الخلقَ طُرّاً في هواكا وأيتمتُ العيالَ لكي أراكا

فأقلّ ما ينبغي أن يقتصر عليه سعينا هو أن نبذل غاية جهدنا لكي لا تمنعنا التعلّقات الدنيويّة عن أداء التكليف. إذ أنّ أكبر آفات محبّة الله والجهاد والشهادة في سبيله هو حبّ الدنيا. فهذان الأمران لا ينسجمان مع بعضهما، فقد جاء في الخبر أنّه كما أنّ العالم ليس له إلهان وأنّ وجود معبودَين وإلهين أمر محال، فإنّه لا معنى لحبّ إلهين اثنين؛ فلا يمكن أن نحبّ الله تعالى ونحبّ ما يبغضه في آن معاً. وبناء عليه فإذا كان المرء محبّاً لله فلا يمكن أن يحبّ الدنيا أيضاً، فإنّ التعلّق بالسرّاء والدعة والراحة والرفاهية لا

يتناغم مع حبّ الله عزّ وجلّ. إذن فلابدّ لنا من السعي لتقوية هذه الروح في أنفسنا كي نُغَلِّب حبّ الله في قلوبنا على غيره من التعلّقات. لكن بالطبع قد يحصل تزاحم عند أشخاص معيّنين بين واجب كفائيّ وواجب أهمّ. فلمّا كانت قيادة الأُمّة والمجتمع بالنسبة للإمام الخمينيّ الراحل (رضوان الله تعالى عليه) — مثلاً — أوجب من ألف جهاد، فإنّه (رحمه الله) لم يحضر بجسده في حرب الدفاع المقدّس التي دامت ثمان .سنوات

لكنّ السؤال المطروح هنا هو: ما السبيل إلى تقوية هذه الروح؟ فإنّ الجوّ والوضع اللذين يسودان أثناء الحرب العسكريّة كفيلان لوحدهما بأن يساعدا على تقوية هذه الروح. فعندما كان يؤتَى بأجساد الشهداء الطاهرة من جبهات القتال إلى المدن كانت تثور ثائرة الناس، وتتأجّج مشاعرهم وأحاسيسهم فيغدون أكثر استعداداً وتأهّباً. ويزداد عزم الناس على المشاركة في الجهاد خصوصاً عندما يكون جثمان الشهيد المشيَّع من أصدقائهم أو أرحامهم. فإنّ توجيهات الإمام الراحل (قدّس سرّه) وما كان يستشهد به من آيات وأحاديث مضافاً إلى انقياد العلماء والعظماء الآخرين له كانت قد بلورت ذلك الجوّ .الملكوتيّ الذي تلاشى في ضوئه ما كان من آفات وشوائب

أنواع الجهاد

بناءً على ما تقدّم فإنّ أجواء الحرب هي بحدّ ذاتها أجواء بنّاءة. وهنا يتعيّن القول بأنّ الحرب بين الحقّ والباطل قائمة باستمرار ولا تنتهي. لكنّ شكلها وهيئتها هي التي تتغيّر؛ فتارة تكون الحرب عسكريّة، وطوراً فكريّة، وحيناً اقتصاديّة، وزماناً سياسيّة. فالقرآن الكريم يقول في هذا الصدد: « **إِنَّ اللهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**»[7]. بمعنى أنّه ثمّة فبذل المال هو أيضاً ضرب من الجهاد؛ جهاد اقتصاديّ أيضاً. كما أنّ هناك جهاداً فكريّاً كذلك، وهو المتمثّل بالحرب الناعمة التي يُعدّ خطرها أكبر وأهمّ بكثير من الحرب الخشنة العسكريّة. فكلّ ما قلنا بخصوص الجهاد فإنّ له مصداقاً في هذه المجالات أيضاً. فقد حوصر المسلمون في صدر الإسلام لبضع سنين في شعب أبي طالب، وقد منع الأعداء عنهم حتّى الماء والخبز. وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) برفقة عدد من الأشخاص يتسلّلون لجلب قربة من الماء وبعض الطعام للمحاصَرين. لقد كان هذا امتحاناً عظيماً. وهذه هي سنّة الله في .الحياة، فهو عزّ وجلّ يُخضِع اولئك الذين يريد ترقيتهم لمثل هذه الامتحانات

الضرّاء وأرضيّة التضرّع في حضرة الباري عزّ وجلّ

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ » :يقول الله سبحانه وتعالى في الآية المرقّمة ٩٤ من سورة الأعراف ؛ أي: إنّنا ما أرسلنا إلى قوم من نبيّ إلا وابتليناهم «أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ بالشدائد والمكاره لعلّهم يتوجّهون إلى الله بسبب ذلك ويتضرّعون إليه ويبكون بين يديه. فعندما يكون الناس في دعة وطمأنينة فإنّ لذائذ العيش تجعلهم ثملين، أمّا البأساء والضرّاء فإنّها تصقل الإنسان وتكسبه التواضع وتوجهه نحو الله. فالله عزّ وجلّ يعرف عباده، فإذا أرسل لهم رسولاً فإنّه يعرّضهم للشدائد ليهيّئ لهم أرضيّة التضرّع بين يدي ربّهم. وقد ورد هذا المضمون في الآية المرقّمة ٤٢ من سورة ثمّ بيّن عزّ وجلّ بعد ذلك أنّ السبب من وراء عدم التضرّع هو قسوة [8]«الأنعام بلفظة «يتضرّعون فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ » :القلب .[9]«يَعْمَلُونَ

وهذه القضيّة مستمرّة؛ فيومٌ جهاد عسكريّ، ويوم حصار في شعب أبي طالب، ويومٌ تحدث فيه واقعة في صحراء كربلاء، ويوم يُسجن فيه موسى بن جعفر (عليه السلام). هذه هي الدنيا، ففي كلّ يوم يرى الناس لوناً من ألوان الفتن والبلايا، فالمبرّؤون من قسوة القلب يقعون تحت تأثير هذا العامل، فيندمون ويتوبون إلى الله ويقبلون نصائح الأنبياء (عليهم السلام)، أمّا القاسية قلوبهم فإنّهم يقولون للأنبياء: ما هو دوركم؟ ما لكم ولنا أساساً؟ فشعيب (عليه السلام) كان ينصح قومه بعدم التطفيف بالميزان وعدم فهل يوجد ما هو .[10]«وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً» :الغش في البيع أبسط من هذا الكلام وأكثر مقبوليّة عند الناس وأنفع لهم؟ كان يقول لهم إن مساوئ عملكم هذا ستحيق بأنفسكم؛ فإن طففتَ بالميزان اليوم، فسيغشّك غيرك إذا اشتريت منه غداً! فعندما تتفشّى حالة عدم مراعاة الإنصاف والعدل في المجتمع، فإنّ من تعامله اليوم بلا إنصاف سيعاملك غداً بنفس الاسلوب. وعندها سيحصل التضخّم والغلاء ممّا سيحيق بضعاف الحال لاسيّما أصحاب الدخل :الثابت الذين يتقاضون راتباً شهريّاً. فكان جواب قوم شعيب (عليه السلام): هذا ليس من شأنك إذهب واشتغل .[11]«أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَٰؤُا» بصلاتك، فما دخلك بهذه الامور؟! إنّك غير متّخصص في القضايا الاقتصاديّة والسياسيّة! يعني: إذهبوا !يا علماء الدين واشتغلوا بدروسكم ولا تحشروا أُنوفكم بهذه المسائل

!ولكن لا تحبّون الناصحين

إنّكم تتّهمون الناصحين بالأمّية وقلّة الفهم وفساد الفكر وما إلى ذلك ولا تحبّون أن يسدي أحد إليكم النصيحة. تدّعون كذباً أنّكم تحبّون النقد وأنّ الحقّ دائما مع الطرف الآخر، إذ أنّكم لا تطيقون الإصغاء حتّى إلى النقد الهادئ. لقد بادر العلماء والعظماء وورثة هذه الثورة وأُسر الشهداء إلى نصحكم

بأن لا تأكلوا الطعم الذي وضعته أميركا ولا تلهثوا وراء راحة وهميّة! بل إنّكم لن تبلغوا هذه الرفاهية الزائفة التي يعدونكم بها. وحتّى لو بلغتموها، فإنّها لا تستحقّ منكم أن تبيعوا عزّة هذا الشعب ومجده، وتنسوا دماء آلاف الشهداء التي سالت على مدى بضع وثلاثين سنة ، كي يعيدوا إليكم بضعة دولارات هي أساساً من أموالكم! أيّ حماقة هذه! لا تنسوا القيم الإلهيّة! فمن أجل أيّ شيء ثار هذا الشعب؟! ولأي سبب نهض الإمام الراحل (رحمه الله)؟! ولأيّ هدف قدّم الشعب كلّ هؤلاء الضحايا؟ أمِن أجل تخفيض سعر الخبز يا ترى؟ ومن أجل ماذا ألبسَتْ تلك الأمّ شبّانها الثلاثة أكفانهم بيدها وبعثت بهم إلى جبهات القتال من دون أن تدَعَ حتّى دمعة واحدة تفرّ من مقلتيها؟! أمن أجل إشباع بطنها؟! فلماذا نتناسى القيم؟ والأمَرّ من ذلك أنّنا ننسب ما نفعله إلى الإمام الراحل (قدّس سرّه) وقائد الثورة المعظّم (دام ظله) قائلين: إنّ ما نفعله هو اتّباع للإمام الراحل وامتثال أوامر قائد الثورة!

أعاذنا الله وإيّاكم إن شاء الله

عوامل محبّة الله وموانعها

إشارة

ذكرنا أنّ محبّة الله لا تأتي لوحدها بل يتعيّن توفير المقدّمات والأرضيّات الكفيلة بظهورها والتي تُكسب المرء الاستعداد والقابليّة لتلقّي هذه الرحمة الإلهيّة، فيفيضها الله تعالى عليه. وقد أُشير في القرآن والسنّة إلى أنّ لمحبّة الله عزّ وجلّ آفاتٍ وموانعَ إمّا أن تمنع الإنسان من أن يحبّ ربّه منذ البداية أو أن تزيل المحبّة من قلبه بعد حصولها. فكلّنا يعلم أنّه إذا أردنا أن نكون محطّ اهتمام أحدٍ ما فعلينا أن نعمل ما يحبّه. أمّا إذا صنعنا ما يُبغضه، فمن الطبيعيّ أن لا نحظى بحبّه. إذن فإنّ صنع ما يحبّه الله يساعدنا على طريق الاستعداد للحظوة بمحبّته جلّ وعلا. وقد أشرنا في المحاضرة الفائتة إلى وجود الكثير من الآيات التي تتناول الأشياء التي يحبّها الله سبحانه وتعالى وتلك التي يبغضها. وسنشير فيما يلي إلى مصاديق أُخرى من هذه الأُمور.

التواضع للمؤمنين والشدّة مع الكافرين

يطرح الله عزّ وجلّ في الآية المرقّمة ٥٤ من سورة المائدة قضيّة الارتداد خصوصاً قائلاً: « **يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ». فلقد أرسل الله رسوله (صلّى الله عليه

وآله) ليدعو الناس إلى الإسلام والقيم الإسلاميّة والتقرّب إلى الله. وقد آمن به في البداية نزر يسير من الناس فتعرّضوا لأذى الأعداء وتعذيب المشركين. وبعد معاناتهم من ألوان المحن وصنوف العذاب ظهر في المدينة المنوّرة مجتمع فتيّ سُمّي بالأُمّة الإسلاميّة. ومن الطبيعيّ أن يحتاج أفراد هذه الأُمّة إلى المواساة وتقوية العزيمة، فجاءت آيات قرآنيّة جمّة تعدهم بالنصر والعبور من هذه المخاوف والشدائد. لكنّ الله تعالى يطرح – في خضمّ هذه الأحداث – مسألة الارتداد قائلاً: لا تظنّوا أنّنا سنتضرّر إذا ارتددتم عن دينكم، بل إنّ الله سيستبدل بكم أُناساً هم أفضل منكم، وانّ أهمّ صفة يتحلّى بها هؤلاء هي أنّ الله يحبّهم وأنّهم أيضاً يحبّون الله جدّاً: «**يحبّهم ويحبّونه**». فإنّ مجيء هاتين العبارتين إلى جانب بعضهما يستبطن مضموناً عميقاً جدّاً، حيث إنّ المحبّة المتبادَلَة هي غير تلك التي تكون من طرف واحد.

الخصوصيّة الأُخرى التي تميّز هؤلاء هي أنّهم أشداء جدّاً في مقابل الكفّار واعداء الله ولا يبدون أمامهم أيّ لين في العريكة أو مرونة في التعامل، أمّا بالنسبة للمؤمنين، وعلى الرغم من أنّ الأخيرين تبدو عليهم في الظاهر أمارات التخلّف والفقر، فإنّهم يعاملونهم باحترام بالغ: « **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**»؛ ففي الوقت الذي يكونون أذلاء على المؤمنين فإنّهم شديدوا الصلابة أمام الكفّار؛ بحيث انّهم لا يُبدون أيّ مرونة تجاههم، ليس هذا فحسب بل إنّهم يَظهرون أمامهم بمظهر القوّة والقدرة والاستغناء وعدم المبالاة.

أمّا ميزتهم الأخيرة فهي انّهم يحبّون الجهاد في سبيل الله إلى درجة أنّهم لا يخشون ملامة أيّ امرئ في هذا السبيل: «**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**». فالمجاهدون وأُولئك الذين يُظهرون الشدّة والعزّة أمام الكافرين لا يخافون لومة أيّ لائم، بل إنّهم يقولون لهم: «قولوا ما شئتم، فإنّنا قد حدّدنا طريقنا وسنمضي فيه قُدُماً».

هذه الآية تلهمنا هذا الدرس، وهو أنّنا إذا أردنا أن نصنع ما يجعلنا مورداً لمحبّة الله فعلينا بالتواضع بين يدي المؤمنين. فالمحبوبون عند الله يكونون أذلاء ومتواضعين أمام المؤمنين من حيث إنّهم مؤمنون، فلا يتعاملون معهم بأنانية أبداً. أمّا في مقابل الكفّار فإنّهم شديدو الصلابة ولا يظهر عليهم أمامهم — بما أنّهم كفّار – أيّ خضوع أو تطبيع أو استسلام. فإن رغبنا في أن يحبّنا الله جلّ شأنه وأن يمنّ علينا بحبّنا له أيضاً فيتعيّن أن نربّي أنفسنا بهذه الطريقة. بالطبع فمن حيث إنّ مناط التواضع هو الإيمان، فإنّه يتغيّر شدّة وضعفاً بالتناسب مع مراتب الإيمان؛ فكلّما زاد الإيمان، تواضَعْنا أكثر، فإنّ الذي يكون في أعلى درجات الإيمان سيواجَه بأقصى درجات التواضع. وهذا أمر ممكن؛ فباستطاعة الإنسان أن يعزم على هذا الأمر وينجزه، فإذا تكرّر منه، أصبح ملَكَة من ملكاته. أمّا إذا أردنا أن نتحوّل إلى عشّاق لله دفعة واحدة، فهذا محال.

يروي المرحوم آية الله بهجت (رضوان الله تعالى عليه) عن والد المرحوم السيّد الكشميريّ – الذي أمضى مدّة من حياته في قمّ المقدّسة ودُفن في مسجد «بالاسر» (جهة الرأس) في حرم السيّدة فاطمة المعصومة (سلام الله عليها) — أنّه كان شديد الاحترام لأولاده، فعلى الرغم من أنّه هو نفسه كان سيّداً وأنّ [1] سيادة أولاده هي بسبب انتسابهم إليه، لكنّه لم يكن يسمح لهم أن يضعوا حذاءه أمام قدميه ليلبسه. وإذا حصل أن فعلوا ذلك صدفة فإنّه كان يستاء من ذلك ويقول: «أبناء السيّدة الزهراء (سلام الله عليها) يضعون أمامي الحذاء»! فعلماؤنا العظام كانوا يحترمون حتّى أبناءهم ويتواضعون أمامهم بسبب كونهم مؤمنين. ونحن أيضاً نستطيع أن نتمرّن على هذا الأمر، فليس هو بالأمر الصعب.

لكنّ هذه المسألة — بالطبع – تخضع لقيود وشروط. فلا ينبغي للمرء أن يتعدّى على أيّ كافر ويتكبّر عليه. فالمقصود من الكافر هنا هو الكافر المعاند الجحود؛ أي الذي عرف الحقّ ثمّ أنكره عن عمد. فلا ينبطق ذلك على الكافر الذي لم يعرف الحقّ أصلاً، وهو يسعى لمعرفته. كما أنّ هناك كفّاراً كانوا حقّاً طلاب حقيقة وقد بذلوا جهدهم للوصول إليها، فهؤلاء وإن كانوا كفّاراً في الظاهر لكن التعامل معهم بودّ وعطف وشفقة قد يدفعهم إلى اعتناق الإسلام؛ بالضبط كما دخل العديد من الكفّار إلى الإسلام في زمان النبيّ بسبب أخلاقه (صلّى الله عليه وآله). ومن هنا فعندما ينصحنا القرآن الكريم بأن نكون أعزّاء على الكفّار فلا يعني ذلك أن نتكبّر على كلّ غير مسلم حتّى وإن كان يسعى لإدراك الحقيقة ولم يدركها بعد، بل يتعيّن علينا أن نتمنّى له الخير ونتعامل معه بشفقة. فحتّى القرآن الكريم فإنّه قد خصّص سهماً من الزكاة للكفّار بغية تأليف قلوبهم. فلو بنينا أمرنا على معاداة كلّ كافر، لَما انتشر الإسلام، ولما رغب فيه أحد. لذا فإنّ المراد من «الكفّار» في قوله: «**أشدّاء على الكفّار**» هم المعاندون منهم.

حبّ الدنيا مانع من محبّة الله

يروى أنّ نبيّ الله عيسى (على نبيّنا وآله وعليه السلام) قال لحواريّيه: «**بحقّ أقولُ لكم: إنّ العبدَ لا يَقدرُ على أن يخدُم ربّين ولا محالةَ أنّه يُؤثِر أحدَهما على الآخر وإنْ جَهَدَ كذلك لا يجتمع لكم حبّ الله وحبّ الدنيا**»[2]. ويجسّد القرآن الكريم هذا المعنى في بيان جميل في قوله تعالى: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً**»[3]. إذ تقارن هذه الآية بين عبدين؛ أحدهما هو عبد لعدد من السادة السيّئي الخُلُق والصارمين فهم جميعاً يشتركون فيه. هذا العبد المسكين كلّما امتثل أمرَ أحد أسياده اصطدم معه الباقون، فهو في حالة تعارض باطنيّ مستمرّ ولا يدري كيف يطيع جميع أسياده معاً. أمّا العبد الثاني فله سيّد واحد وهو يحظى بالاحترام إن أطاعه؛ فهو يذعن لكلّ ما يقوله سيّده ولا يشكو أيّ تعارض في باطنه من أنّه أيّ سيّد يطيع. فمن الواضح أنّه لا يمكن أن يكون للمرء عدّة سادة وأن يحظى بقلوبهم جميعاً بشكل كامل. وكذلك فإنّه من غير الممكن أن يكون

لعبد واحد ربّان. فنبيّ الله عيسى (عليه السلام) يقول في هذا الحديث: كما أنّه ليس في ميسور المرء أن يخدم سيّدين، فإنّ حبّ الدنيا وحبّ الله لا يجتمعان في قلب واحد. فإن أردتَ أن تحظى بحبّ الله، فعليك أن تتخلّى عن حبّ الدنيا.

علينا أن نؤمن ونصدّق بأنّ الله لا يحبّ لعباده «الدنيا» بما أنّها دنيا. فهو تعالى يريد من عباده أن يلتفتوا إليه، أو أن يسعوا — على الأقلّ — وراء نعم الآخرة، وأن يحسبوا للآخرة حساباً. علينا أن نفهم أنّ الدنيا ليست هي إلاّ أداة ووسيلة لنيل سعادة الآخرة ولا أصالة لها ذاتاً. بالطبع قد يندر وجود مَن لا توجد في قلبه ولو ذرّة من حبّ الدنيا. فأولياء الله – فقط – هم الذين لا تساوي الدنيا عندهم أيّ قيمة. ليس هذا فحسب، بل حتّى الآخرة ونعماؤها فإنّها لا تساوي عندهم شيئاً في مقابل رضا الباري عزّ وجلّ. بالطبع هذه المسائل أعلى بكثير من مستوياتنا ولا تدركها عقولنا، لكن فلنعلم أنّ الله لا يريدنا أن نحبّ الدنيا لكونها دنياً. فإنّ مُؤَدّى كلام جميع الأنبياء والأولياء وآيات الذكر الحكيم هو تنبيهنا لقضيّة أنّ الدنيا هي مجرّد وسيلة وليست غاية، وأنّ من يظنّ أنّها غاية فهو مخطئ، وستظهر آثار هذا الخطأ في حياته. بالطبع جميعنا يعلم أنّ قلوبنا تنطوي على لون من ألوان حبّ الدنيا. كما أنّ الله لا يكلّف نفساً بما يشقّ عليها، ولا يطالب الجميع بما لا يقدر عليه إلاّ الأنبياء والأولياء، لكنّه عزّ وجلّ وضع حدّ نصاب لذلك، وهو أنّه إذا كان حبّ الدنيا ضمن هذه الحدود فلا إشكال فيه، أمّا إذا تجاوزها فسيشكّل خطراً. فالله نفسه يخاطبنا قائلاً: «**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**»[4].

حبّ الدنيا جوهر الكفر

من التعبيرات القرآنيّة التي تُلهم الدروس وتهزّ في نفس الوقت هي قوله تعالى: «**وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**»[5]؛ أي ويل لأُولئك الذين إذا دار عندهم الأمر بين الدنيا والآخرة تركوا الآخرة وفضّلوا الدنيا. فطالما لا يوجد تضادّ، فإنّ هناك مجالاً للاستفادة من المباحات، فلا إشكال في هذا المقدار وهو أضعف الإيمان. أمّا إذا رجّح الإنسان الدنيا عند التزاحم، فسيُبتلى بضلال بعيد.

وشبيه بهذا المعنى ما جاء في سورة النحل في الآية النازلة في حقّ عمار بن ياسر عندما أظهر الكفر في مقام التقيّة، وعندما جاء إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان في غاية القلق. فنزل قوله تعالى: «**مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**»[6]. فلا إشكال في إظهار الكفر بسبب الإكراه، لكنّ

الذين يكفرون عن طيب خاطر فإنّهم يستحقّون عذاباً عظيماً وينزل عليهم غضب من الله. ثمّ يبيّن الله سبحانه وتعالى أنّ سبب هذا الكفر هو ترجيح الحياة الدنيا على الآخرة وذلك في قوله: « **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**»[7].

ما يستفاد من الآيتين المذكورتين هو أنّ جوهر الكفر هو حبّ الدنيا. فإنّ السبب في إنكار الإنسان الحقَّ بعد معرفته هو سعيه وراء لذّات الدنيا. ولا شكّ أنّه إذا صار القلب محلاّ لما يقتضي الكفر، فإنّه لن يكون موضعاً لما هو جوهر الإيمان وفاكهته وكماله. فالكفر والإيمان لا يجتمعان. وكما أنّه محال أن نعبد إلهين اثنين، فإنّنا لا نستطيع أن نجمع بين محبّة الله ومحبّة الدنيا. فإذا رغبنا في أن نكون محبّين لله، فعلينا أن نُنقص من حبّنا للدنيا حتّى يصل إلى مستوىً لا يتعارض مع آخرتنا ولا يدفعنا إلى ترك العمل بالتكليف.

خطر العالِم الراغب في الدنيا

لقد بُيّنت هذه القضيّة في العديد من الآيات والروايات، وهي على جانب من الأهمّية بحيث إنّ الله تعالى يوحي لأنبيائه (عليهم السلام) باجتناب العالِم المحبّ للدنيا. إذ رُوي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: « **إذا رأيتم العالِم محبّاً لدنياه فاتّهموه على دينكم فإنّ كلّ محبّ لشيءٍ يَحوط ما أحبّ**»[8]. أي: لا تكونوا مطمئنّين للعالِم المحبّ للدنيا[9]! فنحن نطلب العالم لنعرف منه معارف ديننا ولنتعرّف بواسطته على سبيل ربّنا. يقول أبو عبد الله (عليه السلام): «إذا وجدتم العالم طالباً للدنيا فلا تطمئنّوا له ولا تتّبعوه! إذ أنّ كلّ محبّ لشيء فهو يحتفظ به». فالمحبّ للدنيا يسعى لحفظ دنياه وحراستها وهو على استعداد للابتداع في الدين، وكتمان حقائقه، وغضّ الطرف عن قيمه صيانةً لمكانته. وإنّ المحبّ للدنيا يحرص على عدم التفريط بها، ولا يحترق قلبه على دينكم، وهو لا يخدم دينكم إلاّ إذا كان في ذلك ما يدرّ بالمنفعة على دنياه. فإذا افترق دينكم عن دنياه، فلا يعود له شغل بالدين.

وفي حديث قدسيّ آخر يوصي الله عزّ وجلّ نبيّه داوود (على نبيّنا وآله وعليه السلام) أن: لا تجعل العالم المحبّ للدنيا وسيطاً بيني وبينك؛ يقول: «**لا تجعل بيني وبينك عالِماً مفتوناً بالدنيا**». فإنّ ما يتوقّعه المرء من العالِم هو أن يتعلّم منه شيئاً. وهو – في الحقيقة – يقوم مقام الوسيط في تعريف الإنسان بربّه والتقرّب إليه. يقول عزّ وجلّ: إذا أردت أن تجعل شخصاً ما واسطةً بيني وبينك لتتعلّم منه دينك، وتتقرّب بواسطته إليّ، فحذار من أن تختار العالِم المفتون بالدنيا لهذه المهمّة. ثمّ يبيّن تعالى علّة هذا الحكم فيقول: «**فيصدّك عن طريق محبّتي، فإنّ أولئك قُطّاع طريق عبادي المريدين**»؛ وهو كلام غاية في القسوة والغلظة. يقول عزّ من قائل: هؤلاء قُطّاع طرق ولصوص يقطعون الطريق على كلّ عبد

إنّ أدنى ما أنا صانع بهم أنْ أنزِع حلاوة مناجاتي عن » .يطلبني ويقتادونه باتّجاه الدنيا ، فلا يشعرون بالرغبة في مناجاتي والتضرّع إليّ، وإذا ما أتوا بعبادة، فإنّهم يأتون بها على [10]«**قلوبهم** .[11]«**وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ**» كسل ومضض

.اللهمّ بحقّ مَن تحبّهم، تحنّن على قلوبنا القاصرة أيضاً بنفحة من تلك المواهب

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

محبّة أولياء الله من لوازم محبته تعالى

قلنا في المحاضرة الماضية عبر استشهادنا برواية نبيّ الله عيسى (عليه السلام) إنّ محبّة الله لا تجتمع مع محبّة الدنيا. لكن ما معنى هذا الكلام؟ هل يعني أنّ القلب الواحد لا يتّسع لمحبّتين؟ أي: هل إنّ محبّة الله لا تجتمع مع أيّ نمط آخر من الحبّ؟ أم انّ المراد هو المحبّة الكاملة التي إذا وصلت إلى حدّ العشق وهيمنت على القلب بأكمله لم يبق فيه محلّ لشيء ثان؟ أم انّ المعني هو شيء آخر؟ هل إنّ القلب المشحون بمحبّة الله لا يوجد فيه أيّ موطئ قدم للون آخر من الحبّ، أم انّ الأمر مختلف، وانّ بعض الأشكال الأُخرى من المحبّة يمكن أن تجتمع مع محبّة الله تعالى؟

نقول جواباً على هذا السؤال: إنّ أنواع المحبّة تختلف فيما بينها، وإنّ مثقال ذرّة من بعض أنواعها لا يمكن أن يجتمع مع المحبّة الحقيقيّة لله عزّ وجلّ؛ فلا يستطيع الإنسان أن يحبّ الله ويحبّ عدوّ الله في آن واحد. لكنّ هذا الأمر ممكن – بشكل من الأشكال – بالنسبة للناس؛ ففي ميسور المرء أن يحبّ شخصين يعادي أحدهما الآخر لكنّ في كلّ منهما حُسْناً معيّناً. أمّا مع محبّة الله جلّ شأنه فهذا الأمر محال. إذ لا يمكن تفكيك الله تعالى والقول: أُحبّ نصفه ولا أحبّ نصفه الآخر. فإنّ «التركيب» هو من صفات الله السلبيّة ولا معنى لـ «الجزء» بالنسبة له عزّ وجلّ. فالله هو حقيقة بسيطة وهو يملك جميع الكمالات بنحو البساطة، ولا يمكن الجمع بين محبّته ومحبّة عدوّه. ومن هنا فإنّ من يتصوّر أنّ في قلبه .هذين النمطين من المحبّة معاً فهو مخطئ، وهو لا يحبّ الله في الحقيقة، بل ولم يعرفه أساساً

النطاق المسموح لمحبّة غير الله

لكنّه يمكن جمع بعض أشكال المحبّة مع بعض مراتب محبّة الله تعالى، وهو عندما لا يكون لهذه الأشكال من المحبّة – في ذاتها – تضادّ مع محبّة الله؛ وبعبارة أُخرى: عندما يكون تضادّهما بالعرض. من هذا المنطلق فإنّ مَن يملك أوّل مراتب حبّ الله يمكنه أن يحبّ هذه الامور قليلاً أيضاً؛ بالطبع بشرط أن لا تتضادّ محبّتها مع محبّة الله وأن لا تغلب عليها؛ يقول تعالى: « **قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**»[1].

فبإمكان الإنسان أن يحبّ والديه وأولاده ومنزله ومعيشته بمقدار بحيث لا تطغى على محبّة الله. لكنّه إذا اقتضت محبّة الله تكليفاً معيّناً وشكّلت تلك الأنواع من المحبّة عائقاً أمام القيام بهذا التكليف، فلا تعود الأخيرة جائزة. ويمكننا العثور على أمثلة واضحة لذلك في حرب الدفاع المقدّس[2]. فإذا تعيّنت مشاركة شخصٍ ما في تلك الحرب ثمّ منَعه تعلّقه بالعيال والأولاد عن القيام بتكليفه، فهو يعني أنّ تعلّقاته تلك قد غلبت على محبّة الله وهي غير مجازة. فعلى الرغم من أصالة تلك الأنواع من المحبّة، فإنّها مسموح بها طالما لم تتعارض مع محبّة الله تعالى، أمّا إذا تعارضت معها وغلبت محبّة غير الله على محبّته جلّ وعلا، فإنّ الله لا يجيزها.

محبّة أولياء الله هي من لوازم محبّته تعالى

القسم الآخر من المحبّة هو ذلك الذي لا يكون مجازاً فحسب، بل ولازماً أيضاً. وهذا الحبّ لا يمكن فصله عن حبّ الله، وانّ على كلّ من يحبّ الله أن يملك هذه المحبّة في قلبه. وهذا الأمر يجري على الشؤون العاديّة أيضاً؛ فإنّ من يحبّ امرأً فإنّه سيحبّ أفراد أُسرته وأصدقاءه وزملاءه في العمل ومعاشريه أيضاً من أجله. فليس لنا – على سبيل المثال – في عصرنا هذا مَن نحبّه ونودّه أكثر من قائد الثورة المعظّم (مُدّ ظلّه)، ولذا فنحن نحبّ ثيابه، وبيته، وكُتبه، وحتّى صورته أيضاً. فإنّ حبّ المرء صورة محبوبه ووضْعَه إيّاها على عينه وقلبه وتقبيلها هو من باب انتسابها إلى محبوبه وحكايتها إيّاه. وإنّ حبّ الناس الضريحَ الذي صُنع للإمام الحسين (عليه السلام) لم يكن بسبب خشبه وذهبه وفضّته، إذ ليس لهذه الامور من قيمة ولا أحد يتجشّم كلّ هذا العناء بسببها. لكنّه عندما يكتسب نفس هذا الخشب وهذه المعادن عنوان ضريح سيّد الشهداء (عليه السلام) فإنّها تحظى بالقيمة وتعمل على إسالة أدمع الناس عند نظرهم إليها. وكلّنا قد شاهد أيّ كرامات ظهرت بسبب هذا المعدن وهذه الأعواد الخشبيّة، وكم قضت من حوائج الناس، وكم شُفيت من أمراض على طول المسير إلى كربلاء. فمن الواضح أنّ جميع هذه الآثار هي بسبب الشرف الذي اكتسبه هذا الضريح جرّاء انتسابه إلى سيّد الشهداء (عليه السلام). فلا يمكن أن يحبّ المرء الحسين ولا يحبّ ضريحه. فهذا هو معنى الحبّ.

:هذا النمط من الحبّ يحكي مضمون تلك الأبيات الجميلة المنسوبة لمجنون ليلى إذ يقول

أمُرّ على الديار ديار ليلى   أُقَبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبّ الديار شغفنَ قلبي   ولكن حبّ من سَكَن الديارا

فإنّني لست أُحبّ جدران الحيّ، بل أُحبّ تلك التي تسكن في هذا الحيّ. فإن كنت أُحبّ ليلى فلابدّ أن أُحبّ حيّها بل وجدران حيّها أيضاً. فإن أحبّ المرءُ اللهَ فهو لا يستطيع أن لا يحبّ أعزّ عباده، وإنّ مَن لا يحبّ هؤلاء فهو لا يحبّ الله أيضاً. إنّ شخصاً كهذا يكذب إذا زعم حبّ الله، بل إنّه يحبّ شيئاً ما في مخيّلته متصوّراً أنّه الله ويقول: إنّني احبّه. من أجل ذلك فإنّ مَن لا يحبّ رسول الله وأهل بيته (عليهم السلام) ليس له ادّعاء محبّة الله؛ لأنّ هذا محال. اللهمّ إلا إذا لم يكن يعرفه (صلّى الله عليه وآله) ولا يعلم أنّه نبيّ الله وأنّه أشرف عباده وأعزّهم لديه. إذن من الواضح أنّ هذا النمط من المحبّة ليس .أنّه مجاز فحسب، بل ولازم أيضاً ولا ينفكّ عن محبّة الله عزّت آلاؤه

لكنّه لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذه المحبّة ليست محبّة أصيلة. فقيس لم يكن يحبّ ديار ليلى من أجل طينها وآجرها، لكنّه شعاع محبّة ليلى الذي كان يشعّ على جدران وأبواب حيّها. فهذا هو عين ذاك وليس ثمّة شيء آخر. فإنّك عندما تعشق الإمام الخامنئيّ فإنّك تحبّ صورته أيضاً. فحبّ الصورة ليس شيئاً ثانياً، بل هو عين حبّ القائد قد سرى إلى هذه الصورة. فحبّ أولياء الله أيضاً هو من هذا الباب، ولهذا فليس أنّه غير مضادّ لمحبّة الله فحسب، بل لابدّ من وجوده ضرورةً، وإن لم يوجد فادّعاء حبّ الله .سيكون كذباً

المرء مع من أحبّ

تدلّ العديد من الأحاديث ممّا يرويه الفريقان على أنّ كلّ امرئ سيكون مع من أحبّ. بل إنّ هناك باباً وجاء في ذيل «**المرء مع من أحبّ**» :في كتب الحديث تشترك جميعها في مضمون واحد وهو أنّ يوم القيامة. بمعنى أنّ المحبّة تخلق حالة من [3]«**ولو أنّ رجلاً أحبّ حجَراً لَحشره الله معه**» :أحدها الاتّصال بين روح المرء ومحبوبه بحيث لا ينفصلان عن بعضهما وهذه الحالة تظهر في عالم الآخرة. فعندما يذكر الإنسان ربّه، يصير الله جليسه. بل إذا كتب كلمة: «الله» على ورقة فإنّه لا يستطيع لمسها من دون وضوء. فالورقة هي عين الورقة والحبر ذات الحبر وليس لأيّ واحد منهما قداسة خاصّة، لكنّك إذا كتبت بالحبر على الورقة بشكل يظهر الله ويذكّر به، فإنّهما سيكتسبان من القداسة ما يجعل في لمسهما .من دون وضوء معصية

كربلائي كاظم» ومشاهدة نور القرآن»

لعلّكم جميعاً قد سمعتم باسم «كربلائي كاظم»؛ ذلك القرويّ الأُمّي الذي حفظ القرآن بشكل غير طبيعي. يقول سماحة آية الله الخزعليّ: «كتبتُ على ورقة واوين، وقد كتبت أحدهما بقصد كونه واواً من إحدى سور القرآن الكريم. ثمّ وضعت الورقة أمام كربلائي كاظم وقلت له: ماذا ترى في الورقة؟ لقد كان أُمّياً ولا يعرف حروف الألفباء بتاتاً، لكنّه قال: أنا لا أعرف ما كتبت لكنّ هذا الحرف له نور أمّا الثاني فليس له نور. كما ويُنقل عن المرحوم آية الله الحائري (رضوان الله تعالى عليه) أنّه وضع كتاب «جواهر الكلام» أمام كربلائي كاظم وسأله: هل تستطيع أن تقرأ منه شيئاً؟ فأجاب: لا يا سيّدي! فأنا أُمّي. .لكنّه أشار إلى آيات وكلمات القرآن الموجودة في الكتاب وقال: في هذه المواضع يوجد نور

استناداً إلى ما ذُكر فإنّ لهذا العالم أسراراً قد لا ندركها نحن، لكن لا يحقّ لنا أن ننكرها. وقد يظهر الله عزّ وجلّ أحياناً أُموراً لتكون حجّة على الناس وليفهموا أنّه ثمّة أُمور أُخرى إلى جانب تلك القضايا .المادّية ولعب الدنيا ولهوها

جاء في الخبر الذي يرويه الفريقان: «عن أنس قال: جاء رجلٌ من أهل البادية، وكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية يسأل النبيّ (صلّى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله! متى قيام الساعة؟ فحضرت الصلاة [فقال النبيّ: الآن وقت الصلاة. سأُجيبك عن سؤالك بعد الصلاة]. فلمّا قضى صلاته قال **فما أعددتَ لها**؟ [وكان :**أين السائل عن الساعة**؟ قال أنا يا رسول الله. قال :((صلّى الله عليه وآله غرض النبيّ (صلّى الله عليه وآله) من سؤاله هذا هو لفت انتباهه إلى أنّ ما ينبغي أن تهتمّ به هو أن تعمل ما يفيدك يوم القيامة، فلا جدوى من فهم وقت قيام الساعة] قال: والله ما أعددتُ لها من كثير **المرء مع من** :(عمل صلاةٍ ولا صومٍ إلا أنّي أحبّ الله ورسوله. فقال له النبيّ (صلّى الله عليه وآله أي: إنّك ستكون معنا يوم القيامة]. قال أنس: فما رأيتُ المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيءٍ] **أحبّ** .[4]«أشدّ من فرحهم بهذا

محبّة أهل البيت لازمة لمحبّة الله

وينقل صاحب «كشف الغمّة» في رواية أُخرى عن عبد الله بن صامت ابن أخي أبي ذر أنّه قال: «حدّثني أبو ذرّ وكان صفوُه وانقطاعُه إلى عليّ وأهل هذا البيت، قال: قلت: يا نبيّ الله! إنّي أحبّ **يا أبا ذرّ! المرء مع مَن أحبّ وله ما اكتسب**؛ [أي: إنّ لكلّ :أقواماً ما أبلغ أعمالهم. قال: فقال وهي تعني أنّ «**وله ما اكتسب**» :امرئ ما عمل وهو يؤجر عليه. وكما تلاحظون فقد وردت هنا عبارة

قولنا: مع مَن أحبّ، لا يعني مساواته لهم في كلّ شيء، بل إنّه معهم ويراهم، لكنّه لكلّ امرئ ما عمل .**فإنّك مع من أحببتَ** :وسيُثاب عليه]. قلت [أبو ذر]: فإنّي أحبّ الله ورسوله وأهل بيت نبيّه. قال وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في ملإٍ من أصحابه فقال رجال منهم: فإنّا نحبّ الله ورسوله ولم يذكروا أهل بيته [وقد لا يكونون مغرضين في ذلك، إذ لعلّهم ذكروا الله ورسوله فقط من حيث إنّهما **أيّها** :ذُكرا في مواضع كثيرة من القرآن الكريم إلى جانب بعضهما]، فغضب (صلّى الله عليه وآله) و قال **الناس! أحبّوا الله عزّ وجلّ لما يغدوكم به من نعمه، وأحبّوني بحبّ ربّي، وأحبّوا أهل بيتي بحبّي؛** [أي: إن كنتم تحبّون الله فلابدّ من أن تحبّوا محبوبه، ولذا فيتعيّن أن تحبّوني، ولمّا كنتُ أحبّ أهل بيتي فيتحتّم عليكم أن تحبّوا أحبّائي أيضاً. وكلامه الأخير (صلّى الله عليه وآله) هذا كان تعريضاً بمن قال: نحبّ الله ورسوله ولم يذكروا أهل البيت (عليهم السلام). فوجّههم (صلّى الله عليه وآله) بأن يحبّوا كلّ أنفق عمره يعبد الله] **فَوَالذي نفسي بيده لو أنّ رجلاً صفن بين الركن والمقام** [:من يحبّ. ثم قال **صائماً وراكعاً وساجداً ثمّ لقي الله عزّ وجلّ غير** [بين الركن والمقام وهما أقدس محلّين في المسجد الحرام قالوا: ومَن أهل بيتك يا رسول الله أو أيّ أهل بيتك هؤلاء؟ [فذكر .**محبّ لأهل بيتي لم ينفعه ذلك** صلّى] **مَن أجاب منهم دعوتي، واستقبل قبلتي** :(صلّى الله عليه وآله) من صفاته ما يلي] قال فقالوا: نحن نحبّ الله ورسوله وأهل بيت رسوله. .**ومن خلقه الله منّي ومن لحمي ودمي** ،[معي ؛ أي: مرحى [5]«**بَخٍ بَخٍ فأنتم إذاً منهم. أنتم إذاً منهم. والمرء مع من أحبّ وله ما اكتسب** :فقال :الآن قد أصبتم. فالآن وقد اكتمل فيكم نصاب المحبّة، فستكونون إذن معهم. ثمّ كرّر هذه الجملة .«**المرء مع من أحبّ**»

تبويب واستنتاج

بناء على ذلك فليست جميع أنواع المحبّة تتنافى مع محبّة الله، فهناك فرق بينها. ففي مرتبة من مراتب محبّة الله يكون نمط من محبّة غيره مجازاً ضمن حدود معيّنة فيجوز للناس حبّ بعض الأُمور الدنيويّة إلى جانب حبّ الله، بالطبع بشرط أن لا تمنع الأُولى أداء بعض التكاليف الواجبة. أمّا أُولئك الذين يحظون بالمراتب العليا من المحبّة لله فإنّ محبّة غيره لا تجد محلاًّ لها في قلوبهم أساساً فإنّ محبّة الله تغمر قلوبهم بحيث لا تترك مجالاً لمحبّة غيره، اللهمّ إلاّ تلك المحبّة التي تكون متفرّعة عن محبّة الله ولازمة لها. فهذه المحبّة لا تشكّل .عائقاً أمام محبّة الله، ولا تكون مضادّة لها، بل إنّها لا تنفكّ عنها أصلاً

وفّقنا الله وإيّاكم

الحمد لله هو ذروة المحبّة

استعرضنا في المحاضرة السابقة العلاقة بين محبّة الله وغيرها من أشكال المحبّة، وذكرنا أنّ بعض هذه الأشكال –كمحبّة أعداء الله – لا تجتمع مع محبّة الله مطلقاً؛ أمّا البعض الآخر فقابل للجمع معها إلى حدّ ما. كما أنّ نفس هذه الأنماط من المحبّة تنقسم إلى عدّة مجاميع. فمنها ما لا تضادّ بينه وبين محبّة الله. ففي المراحل الأوّليّة لمحبّة الله فإنّه طالما لم يتعارض هذا النمط من الحبّ مع لوازم محبّته تعالى ولم يمنع الإنسانَ من أداء ما عليه من تكليف شرعيّ، فإنّه مسموح به، بل وقد يعمل أحياناً – من باب تقوية العاطفة – على ترقيق القلب ويساعد على ظهور المحبّة لله وزيادتها. وبناءً عليه فإنّ هذا النوع من الحبّ مُجاز طالما لم يزاحم أداء التكليف ولم يؤدّ إلى ارتكاب المعصية.

أمّا المجموعة الثانية من المحبّة فهي تُعدّ من لوازم محبّة الله وغير قابلة للانفكاك عنها. فعلى سبيل المثال إذا علم المرء أنّ شخصاً معيّناً محبوب من قبل الله، فإنّ من لوازم محبّة الله أن يحبّه هو أيضاً. ولا حاجة للدليل والبرهان لفهم هذا الأمر إذ أنّنا نمارسه في حياتنا اليوميّة. فكلّنا نحبّ كلّ ما يتعلّق بمن نحبّ، اللهمّ إلاّ إذا كان لهذه المتعلّقات من الخصوصيّات ما يتنافر مع أصل هذه المحبّة، حيث تصير المحبّة — في هذه الحالة – من جنس القسم الأوّل، أي انّها مذمومة ولا يمكن جمعها مع محبّته عزّ وجلّ.

المحبّة في الله

تحتوي الروايات الشريفة على مباحث جمّة تفصح عن عدم انفكاك محبّة الله عن محبّة أوليائه. بالطبع إنّ تحديد مصاديق ما ورد في الروايات في هذا الشأن يتطلّب بحوثاً موسّعة سنتناول بعضها — إن شاء الله — في المحاضرات القادمة، لكنّ المصداق الأبرز، والذي يعلمه ويعتقد به جميع المسلمين، هو محبّة أهل بيت النبيّ (صلوات الله عليهم أجمعين) والتي جُعلت في بعض هذه الروايات لازمة لمحبّة الله عزّ وجلّ، بل ووردت في حقّها أحياناً تعابير غاية في العمق والدلالة.

رُوي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنّه قال: « **المحبّ في الله مُحبّ لله والمحبوب في الله حبيب الله لأنّهما لا يتحابّان إلا في الله**»[1]. فإن أحبّ امرؤ أحداً في الله ومِن أجله تعالى، فهو في الحقيقة يحبّ الله، وفي هذه الحالة فإنّ محبوب هذا الشخص هو محبوب الله أيضاً. فإنّ مَن تتوفّر فيه الأهليّة ليكون محبوباً في الله فإنّ الله يحبّه أيضاً. فهذان الأمران هما بمثابة لازم وملزوم. فالمحبّ والمحبوب كلاهما في الله وإنّ محبّة كليهما هي محبّة إلهيّة؛ يقول: «**لأنّهما لا يتحابّان إلا في الله**». ثمّ يروي الإمام الصادق (عليه السلام) حديثاً عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إن لم نقل انّه متواتر فهو مشهور على الأقلّ وقد نقله الفريقان بشكل مكرّر؛ يقول: **قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): المرءُ مع** »

بمعنى أنّ المحبّة تؤدّي إلى شكل من أشكال العلاقة بين المحبّ والمحبوب وتتحقّق بينهما .«**مَن أَحَبّ**
.المعيّة

عاقبة ألوان المحبّة الدنيويّة

فعندما يحبّ المرؤ شخصاً في الله يتولّد بينهما نمط من المعيّة محورها الله عزّ وجلّ؛ فهذا يحبّ ذاك في الله، ومتابعةً للرواية .«**فمن أحبّ عبداً في الله فإنّما أحبّ الله تعالى**» .وذاك أيضاً يصير محبوباً لهذا في الله **قال رسول الله (صلّى** » :يستدلّ (عليه السلام) بحديث آخر لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيقول **الله عليه وآله): أفضل الناس بعد النبيّين في الدنيا والآخرة المُحبّون لله المتحابّون فيه، وكلّ حبّ** ؛ فالمحبّة «**معلول يورِث بُعداً فيه عداوَةً إلاّ هذين وهما من عين واحدة يزيدان أبداً ولا ينقصان أبداً** التي لا تكون في الله، كالمحبّة الدنيويّة، تكون محطّ تزاحم وتظهر آفاتها وتؤدّي — شئنا أم أبينا — إلى العداوة. فقد يظهر من شخص حُسنٌ حيناً فيكون سبباً في حبّ إنسانٍ له، لكن قد يظهر منه عيبٌ حيناً آخر فيكون مدعاة للعداوة معه. بناء عليه فإنّ كلّ أشكال المحبّة الدنيويّة مصيرها العداوة وتنتهي .بضرب من الفراق بين المحبّ والمحبوب وهو ما يستلزم العداوة والبغضاء

الأَخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ » :ويستدلّ إمامنا الصادق (عليه السلام) في هذا الجزء من الرواية بقوله تعالى ؛ فالذين كانوا أخلاّء وأصدقاء في الدنيا سيصيرون أعداءً لبعضهم البعض [2]«**لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاّ الْمُتَّقِينَ** يوم القيامة، أمّا المتّقون فإنّهم مستثنون من هذه القاعدة، وهم الذين يحبّ بعضهم البعض في الله، وليس من أجل أغراض ومآرب دنيويّة. ولذا فإنّ كلّ محبّة هي تؤدّي إلى عداوة إلاّ أن يحبّ المرء غيره في الله؛ **يزيدان أبداً ولا ينقصان** » :فيكون محبّاً في الله ويكون الآخر محبوباً في الله، وهي محبّة لا تزول أبداً فالمحبّة تقضي بأن يستغرق المحبّ في حبّ .«**أبداً... لأنّ أصل الحبّ التبرّي عن سوى المحبوب** محبوبه ويترك من سواه. فعندما يتبادل شخصان الحبّ في الله يكون الله المحور الأساسيّ لمحبّتهما، إذ أنّ كليهما يحبّ الله، كما أنّ هذا يحبّ ذاك لأنّ الله يحبّه، وذاك يصبح محبوباً لأنّ لديه من المحبّة والكمال .بحيث يحبّه الله

ثمّ يستند أبو عبد الله (عليه السلام) استطراداً في روايته إلى حديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) **قال أمير المؤمنين (عليه السلام): إنّ أطيبَ شيء في الجنّة وألَذّه حبّ الله والحبّ في** » :فيقول ؛ أي إنّ اللذّة التي يشعر بها أهل الجنّة بسبب هذه الأُمور تفوق تلك الناجمة عن جميع «**الله والحمد لله** .نعم الجنّة

الحمد لله» من أطيب نعم الجنّة»

تحدّثنا سابقاً عن لذّة محبّة الله وحبّ الآخرين في الله، لكنّه (عليه السلام) يعدّ الحمد لله هنا من ألذّ النعم إلى جانب هذين الأمرين وهو أمر يدعو إلى العجب بعض الشيء ويحتاج لتوضيح. فنحن البشر عندما نحمد الله نمرّ عليه — عادة – فنقول: «صحيح أنّ الله أنعم علينا هذه النعمة، لكنّنا حمدناه عليها وأدّينا حقّها» فلا نَعُدّ الحمد نفسه نعمة كي نلتذّ بها هي الاخرى. لكنّ السؤال المطروح هنا هو: ما ؟ «**إنّ أطيبَ شيء في الجنّة وألَذَّه حبّ الله والحبّ في الله والحمد لله**» (معنى قوله (عليه السلام **وَءَاخِرُ** » :فكيف يكون الحمد لله من أطيب الأشياء؟ بالطبع فقد استدلّ (عليه السلام) هنا بهذه الآية فعندما يستقرّ أهل الجنّة فيها وينتهي الأمر ويعلمون أنّهم .[3]«**دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي... الَّذِي أَحَلَّنَا** » :غير خارجين منها وباقون فيها إلى أبد الآبدين فإنّهم ينبرون بالقول ومن الواضح أنّ قول ذلك يمثّل منتهى العرفان بالجميل، لكن كيف يكون هذا الفعل .[4]«**دَارَ الْمُقَامَةِ** أطيب وألذّ نعمة؟

فلنفترض أنّ امرأ يحبّ شخصاً ما، فإنّ من لوازم هذه المحبّة هو أن يقيم مع محبوبه علاقة حوار رومانسيّ ويخبره بأنّه يحبّه، وهو يلتذّ من نفس هذا الإخبار أيضاً. وبتعبير آخر فإنّ غاية اللذّة عند المرء هو أن يستطيع أن يصارح صديقه بأنّه يكنّ له حبّاً جمّاً، وهو يفتّش عن الفرصة المناسبة لمصارحته بذلك. فمجرّد الحبّ القلبيّ هو حالة مريحة ومُرضية لكنّ لذّة إظهار المحبّة وإقامة العلاقة مع المحبوب تفوق الأُولى بكثير. فالمحبّة المُضمَرة هي كالبذرة المودَعة في التراب، فمع أنّ الموادّ الموجودة في براعم وأزهار وثمار الشجرة النابتة من هذه البذرة هي عين المواد التي كانت موجودة في البذرة، وهي الآن قد نمت وبلغت هذه المرحلة، لكنّ الفاصلة بين البذرة وثمرة هذه الشجرة كبيرة جدّاً. فصحيح أنّ هذه الشجرة قد نمت .من نفس تلك البذرة وظهر فيها ما كان مخفيّاً في البذرة من كمالات، لكنّ للثمرة لذّة مختلفة تماماً

وكذا أهل الجنّة فإنّهم يلتذّون بآلاء ربّهم. لكنّ بعضهم يحبّ نفس النعم ويأنس بها. فكلّنا يحبّ قصور الجنّة المشيّدة من اللؤلؤ والمرجان وفاكهة الجنّة وأطعمتها و[5]«**وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ**»، و**لَحْمٍ مِّمَّا** » لكنّنا لا نتذّكر أنّ الله قد وهبها لنا وأنّنا نحبّ الله لأنّه أسبغ علينا هذه النعم إلاّ بعد .[6]«**يَشْتَهُونَ** التمتّع بها. أمّا محبّو الله فإنهم ليسوا هكذا، فهؤلاء يحبّون نعم الجنّة من باب أنّ الله قد وهبها لهم. فلو اشترى صديقك كتاباً وأهداه لك، فإنّك ستحبّ هذا الكتاب جدّاً وستشكر صديقك على أن أهداك إيّاه. لكنّك قد تحبّ الكتاب بسبب أنّ صديقك هو الذي أهداه لك، وأنّه لو لم يكن منه، لما أعرتَه .أهمّية

فأحباب الله تعالى يلتذّون بنعيم الجنّة كما نلتذّ نحن به، لكنّ التذاذهم يختلف كثيراً عن التذاذنا؛ فنحن نفرح بنفس النعم، أمّا هؤلاء فينصبّ كلّ اهتمامهم على محبوبهم، وإذا نالوا نعمة فإنّهم سيحبّونها من جهة كونها منه. وهناك بون شاسع بين هذه اللذّة وتلك التي تأتي من نفس النعمة.

وحتّى أولياء الله فإنّهم يفيدون من نعم الجنّة ويلتذّون بها، لكنّ التذاذهم لا يشبه التذاذنا. فهؤلاء يعدّون هذه النعم لطفاً وعنايةً من الله عزّ وجلّ ويقولون: إنّنا لم نكن نستحقّ كلّ هذا، لكن أيّ كَرَم لله في أن يغفر لنا ذنوبنا، ويتجاوز عن سيّئاتنا، ويُدخلنا الجنّة، ثمّ لا يكتفي بهذا، بل ويغدق علينا كلّ هذه النعم باستمرار. فهؤلاء العباد تزداد محبّتهم لله يوماً بعد يوم وهم يلتذّون بالنعم من باب كونه هو الذي يمنّ بها عليهم. وهذا هو المراد من أنّ قول: «الحمد لله ربّ العالمين» يمثّل الحوار الرومانسيّ الذي يدور بين أهل الجنّة وربّهم. أمّا نحن، وانطلاقا من الحالة التي نحن عليها الآن، فإنّنا سنلهو في الجنّة بالورد والعطور والفاكهة وغيرها من النعم وسننسى أساساً أنّه ثمّة إله، وأنّه هو الذي أنعم علينا بكلّ هذا! أمّا قلوب أولياء الله فإنّها مُلتفتة إلى الله ومُنتظرة لعناياته منذ اليوم الذي فارقوا فيه هذه الحياة. وحتّى عندما يمنّ عليهم ربّهم بالاستقرار في جنّة الخلد فإنّ أكبر لذّة لهم هي أن يتلقّوا من يده نعمة.

كلّنا يعتقد بأنّ أهل الجنّة سيصلون في يوم القيامة إلى حوض الكوثر وسيشربون من يد أمير المؤمنين (عليه السلام) بكأسٍ شراباً فردوسيّاً سيمحو كلّ عيوبهم ويطهّرهم من كلّ دنس ورذيلة. ومن الواضح أنّ الإنسان إذا أحسّ بأنّ كلّ هذه الأدناس كانت فيه وأنّها مُحِيَت بيد أمير المؤمنين (عليه السلام) فإنّه سيشعر بلذّة ما بعدها لذّة، لكنّ عليّاً (عليه السلام) له أحباب يشعرون بالنشوة والدهشة لمجرّد أنّهم يشربون هذه الكأس من يده (عليه السلام).

الحمد لله هو ذروة المحبّة

يمارس بعض عباد الله هذا النمط من الحبّ مع محبوبهم. فعندما تكون جميع النعم في أيديهم ويتمتّعون بها يقولون: «الحمد لله»، وهم يلتذّون من هذا الحمد. ولو لم يُذكر ذلك في الروايات لما تجرّأتُ على نقله بكلّ هذه الصراحة وهذا الحزم. لكنّ الرواية التي ذكرنا تقول: **قال الله عزّ وجلّ: «وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» وذلك أنّهم إذا عاينوا ما في الجنّة من النعيم هاجَت المحبّة في قلوبهم فينادون عند ذلك: «أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين»**»[7].

كلّنا يعلم بأنّ لله آلاء عظيمة. فالماء البارد في الصيف – مثلاً – لذيذ جدّاً، لاسيّما إذا كان المرء تائهاً وقد مسّه العطش في وسط صحراء لاهبة، لكنّ الإنسان لا يجد الدافع إلى الشكر إلاّ حينما يتمتّع بالنعم. فنحن جميعاً نعلم بأنّ الله قد وهب لنا نعماً جمّة، فكلنا يملك عيناً وأُذناً ويداً ورجلاً و...الخ،

لكنّنا ننسى أنّها جميعاً نعم الله عزّ وجلّ، ولهذا فنحن لا نشعر باللذّة من استخدامها، بل ولا نلتفت إلى وجودها أساساً. بالطبع ينبغي الالتفات إلى كونها نعماً، ثمّ الانتباه إلى أنّها من عند الله. وعندها فأولياء الله عندما .«**هاجَت المحبّة في قلوبهم**» :ستحصل حالة هيجان المحبّة في قلوبنا عند تمتّعنا بها .«**الحمد لله ربّ العالمين**» :يتنعّمون بنعيم الجنّة تهيج المحبّة في قلوبهم فيقولون نتيجة هذا الهيجان وعندما يحصل هذا الهيجان، تنتابهم محبّة جديدة. وهذه المحبّة الجديدة أيضاً تقتضي أن تُشبَع بتوثيق .«**الحمد لله ربّ العالمين**» :العلاقة مع الله، وإشباعها إنّما يكون في قولهم

نسأل الله تعالى أو يمنّ علينا ببركة عنايات وليّ العصر (أرواحنا فداه) بالتوفيق لأن تجد قطرة من بحار معارف أهل البيت (عليهم السلام) تلك سبيلاً إلى قلوبنا فنطّلع أكثر على عظمة الله وكماله وجماله، ونعلم كم هو محبوب، ثمّ نحبّ — في ضوء محبّته — أحبّاءَه وأولياءَه، حتّى نقول: «الحمد لله ربّ العالمين» إنّ شاء الله.

العداء لأعداء الله لازم لمحبّته

ذكرنا في المحاضرات الماضية أنّه لا يمكن جمع محبّة الله مع حبّ ما يبغضه عزّ وجلّ. بل لقد ذكرَت بعض الروايات أيضاً أنّ السبيل لمحبّة الله هي خصومة أعدائه وبُغض ما لا يحبّه. فقد روي عن عيسى (على **تحبّبوا إلى الله وتقرّبوا إليه. قالوا: يا روح الله! بماذا** » :نبيّنا وآله وعليه السلام) أنّه قال للحواريّين ؛ أي: [1]«**نتحبّب إلى الله ونتقرّب؟ قال: ببُغض أهل المعاصي، والتمسوا رضا الله بسخطهم** .بغض أهل المعاصي – لمعصيتهم بالطبع — وإذا دار الأمر بين رضا الله ورضاهم، فأَسخِطوهم مرضاةً لله **قالوا: يا روح الله! فمَن نجالس إذاً؟ قال: مَن يذكّركم اللهَ رؤيتُه، ويزيد في علمكم منطقُه،** » .[2]«**ويرغّبكم في الآخرة عملُه**

وكما تلاحظون فإن المنهاج العمليّ الذي تطرحه الرواية لاكتساب محبّة الله هو خصومة أهل المعاصي وأعداء الله. طبعاً لا ينبغي أن نتصوّر أنّ علينا معاداة كل من ارتكب معصية. فالمراد بأهل المعاصي هم الذين بنوا أمرهم على المعصية، وإلاّ فالمعصية يمكن أن تصدر من أيّ شخص إلاّ المعصوم. والروايات مشحونة بمثل هذه التعابير، وكلّ مطّلع على المصادر الإسلاميّة يدرك هذا المعنى. وبتعبير أكثر علميّة فإنّ تكرار بعض السلوكيّات يؤدّي إلى إكسابها حالة من الثبات فتتحوّل إلى ملَكَة عند الإنسان، حتّى تصبح جزءاً من شخصيّته. إذن لابدّ من معاداة كلّ سارق ومتعاطٍ للرشوة وغشّاش وكلّ من صار الخداع

والكذب جزءاً لا يتجزّأ من شخصيّته وأن يكون العداء له بسبب هذه الصفات. أمّا أُولئك الذين غلبتهم شهوتهم صدفةً فنظروا نظرة حرام، أو تفوّهوا بكلمة نابية في حالة سيطرة الغضب عليهم فهم ليسوا من أهل المعاصي. لأنّ حالات كهذه هي حالات عرضيّة تحصل مرّةً ثمّ سرعان ما تنتابهم حالة .الندم فيتوبون

طلبتُ حبّ الله عزّ وجلّ » :ويُنقل عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أنه قال في حديث آخر نفهم من ذلك أنّ بغض أهل المعاصي يُعِدّ قلب الإنسان لمحبّة .[3]«**فوجدتُه في بغض أهل المعاصي** .الله تعالى

إيّاك أن تحبّ أعداء الله أو تصفي ودّك » :كما ويقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في رواية أُخرى وهنا توجد التفاتة مهمّة: فهو (عليه السلام) لم يقل: إيّاك أن تحبّ غير الله أو .[4]«**لغير أولياء الله** غير أوليائه. فقد تكون المحبّة أحياناً سطحيّة وتحصل للمرء في حالة معيّنة ثمّ تزول؛ كأن يرى المرء في شخص ما عملاً جميلاً أو صفة حسنة فيحبّها لكنّه ينساها بعد مدّة، وهذا النمط من المحبّة يختلف عن تلك المحبّة الصافية والنقيّة التي تستقرّ في قلب الإنسان وتترسّخ فيه. يقول (عليه السلام): اجعل محبّتك الصافية والنقيّة والراسخة خاصّة لأولياء الله، ولا تُكنّ مثل هذه المحبّة لغير أولياء الله**!** ثمّ يتابع (عليه وقد ذكرنا في المحاضرات الماضية أنّ هذا المضمون .«**فإنّ مَن أحبّ قوماً حُشر معهم**» :السلام) فيقول **ولو أنّ** » :إذا لم يكن متواتراً فهو على الأقلّ مستفيض. حتّى أنّه ورد بعد إحدى تلك الروايات ما نصّه نسأل الله تعالى أن يحشرنا يوم القيامة مع تربة .[5]«**رجلاً أحبّ حجراً لَحشره الله معه يوم القيامة** .(سيّد الشهداء (عليه السلام

محبّة أولياء الله لازمة لمحبّة الله

وعلى أيّة حال فإنّ من لوازم محبّة الله هي محبّة أوليائه، لكنّ هذه الأخيرة لها مراتب. فتارةً يحبّ المرء الإنسانَ العابد والمتّقي والمحسن والعالِم، ...الخ وهو يعلم أنّ الله تعالى يحبّه أيضاً. فإنّ الدافع لمحبّة مثل هذا الإنسان في هذه الحالة هو هذه الصفات، هذا على الرغم من أنّه إذا التفت المرء لمحبّة الله لهذا الإنسان لزاد حبّه له طبعاً. فقد جُبل الإنسان على حبّ كلّ ما هو حسَن حتّى وإن لم يلتفت إلى درجة إيمان المحبوب ومقدار ارتباطه بالله جلّ وعلا. أمّا إذا كانت المحبّة لله أكثر خلوصاً، فإنّها ستوصل المرء إلى درجة أنّه إذا أحبّ شخصاً آخر فلا يكون حبّه إلا لانتساب الأخير إلى الله من دون أن يكون في قلبه أيّ شيء آخر يدفعه لذلك. بالضبط كما لو أحبّ المرء إنساناً ما فإنّه سيحبّ صورته أيضاً، وهو – في هذه الحالة – لا يحبّ شيئين اثنين. فليس ثمّة في حبّ الصورة موضوعيّة، لكنّ حبّها يمثّل في الحقيقة

شعاعاً من محبّة صاحبها. فأُولئك الذين تصبح قلوبهم خالصة لله تعالى، فإنّهم سيحبّون – في الدرجة الأُولى – النبيّ الأكرم وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) من باب كونّهم مرايا له جلّ شأنه.

بالطبع بما أنّ محبّة الله تعالى لم تغمر تمام قلوبنا وبما أنّنا نحبّ الله إلى جانب آلاف الأشياء سواه، فنحن – أحياناً – قد نحبّ النبيّ الأعظم، أو الإمام المعصوم، أو أبا الفضل العبّاس (عليهم السلام) أكثر من الله نفسه! وهذا يعود إلى عدم معرفتنا الله جيّداً. أمّا الذين كملت محبّتهم لله فإنّهم — أساساً — لا يلتفتون إلى ما سواه التفاتاً رئيسيّاً ومستقلاً، ولا يرون لأنفسهم شيئاً سوى العبوديّة لله تعالى. ومثل هؤلاء إذا أحبّوا أشخاصاً غير الله فإنّهم سيحبّونهم من منطلق كونهم عباداً لله، والعبد لا يملك شيئاً وليس له شيء من نفسه.

فليس ثمّة أيّ تنافٍ بين حبّ الصالحين وحبّ الله تعالى. بل إنّنا معاشر البشر نعرف الله بأعماله ونعتقد بأنّه هو الذي خلقنا. وإنّ معرفتنا بأفعاله – التي هي من قبيل كونه رحيماً وغفّاراً ورزّاقاً، والتي تُعدّ سائغةً لنا وتتناغم مع مصالحنا – يدفعنا إلى حبّه عزّ وجلّ. ولعلّ هناك من الناس ممّن لو فكّر في بداية الطريق في غضب الله وعذابه لما تولّدت حتّى هذه المحبّة في قلبه. ولكن إذا كملت المحبّة، فلا يعود المرء يحبّ الله على خلفيّة أفعاله، بل إنّه سيقف على علمه وقدرته وحياته وصفاته الذاتيّة. ففي هذه المرحلة سيدرك المرء صفات الله الذاتيّة وكمالاته وسيعرف الله على هذه الخلفيّة فيحبّه. بل إنّ بعض عباد الله يَصِلون إلى مقام بحيث إنّ الله يريهم نفسه بنحو من الأنحاء؛ لقوله تعالى: « **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً**»[6]. فأمثال هؤلاء يحبّون ذات الله جلّ شأنه، ويدركون — في حدود معرفتهم — كمالاً لا نهاية له فيفنون في هذا الكمال والجمال. وتلك مراتب أعلى من مستوياتنا.

وعلى أيّة حال فإنّه ليس ثمّة تضادّ بين هذه الأنماط من المحبّة كما أنّها ليست محظورة أيضاً. فإنّ محبّة غير الله إنّما تكون محظورة إذا تعارضت مع محبّته عزّ وجلّ. فإنّ المرء في هذه الحالة إذا أطاع الله، عُلِم بأنّه يحسب لله حساباً أكبر ويحبّه أكثر. أمّا إذا طفح قلب الإنسان بمحبّة الله فاستوعبته بأجمعه فلا يعود حينئذ لمحبّة أولياء الله حساب منفصل عن محبّته تعالى، وسيصبحون كصورة المحبوب وثيابه حيث إنّ المرء يحبّها لمحبّته لصاحبها؛ فحبّ صورة المحبوب وثيابه هو شعاع من محبّة المحبوب يشعّ على هذه الأشياء.

درجات معاداة أعداء الله

ما ذُكر من مراتب ودرجات للمحبّة يصدُق أيضاً على البغض والعداء. فإنّ من لوازم محبّة الله هي محبّة أوليائه وبغض أعدائه. وإذا لم تكن المحبّة هكذا فهي ليست كاملة ولا تدوم. ومن هذا المنطلق تُعدّ معاداة أعداء الله واحدة من السبل لاكتساب محبّته جلّ وعلا. فإنّ محبّة أحبّاء الله ومعاداة أعدائه تشبه

– من الناحية العمليّة – قوّتَي الجذب والدفع اللتين تتوفّران في أيّ كائن حيّ. إذ أنّ لكلّ كائن حيّ صنفين من النشاطات التي تبقيه حيّاً؛ فهو يجتذب إلى نفسه – من ناحية – الأُمور المفيدة التي تتلاءم مع ذاته، ويدفع عنها – من ناحية أُخرى – الأشياء التي تتنافى مع وضعه وحاله. وهذا ينطبق أيضاً على المعنويّات؛ فمن أجل أن تنمو المحبّة في قلب الإنسان فلابدّ من تغذيتها. فكلّما فكّر الإنسان في صفات الله تعالى الحسنة وآلائه، نَمَت هذه المحبّة، وكلّما زادت محبّته لأولياء الله، نَمَا حبّه له جلّ شأنه أيضاً. والمثال الواضح على ذلك هو ثوب الشهيد؛ فكلّما اشتاق أهل الشهيد إليه نظروا إلى ثوبه وضمّوه إلى صدورهم وقبّلوه، فهم بذلك يحيون ذكراه في قلوبهم. فلو قُطِعت هذه العلاقة تماماً ولم يكن من آثار الشهيد في البيت شيء، فستخبو هذه المحبّة تدريجيّاً ويطويها النسيان. وبناء على ذلك فكلّما أظهر المرء المزيد من المحبّة لآثار محبوبه، ترسّخ، بل نَمَا، حبّه له. والأمر كذلك بالنسبة للبغض؛ فكلّما أبدى الإنسان المزيد من العداء لأعداء الله، زاد بغضه لهم ونَمَت – نتيجة لذلك – محبّته لله أكثر، ممّا سيحثّه على دفع كلّ ما يضرّ بمحبّة الله من قلبه. وهذه حقيقة قابلة للإثبات حسب قواعد علم النفس وعبر التجربة من جهة، وثمّة شواهد جمّة عليها في الآيات القرآنيّة والأحاديث الشريفة من جهة أُخرى.

ضرورة الفصل بين الصديق والعدوّ

لقد أكّد قائد الثورة المعظّم (دام ظلّه) في لقائه الأخير بأعضاء مجلس خبراء القيادة، استناداً إلى الآيات القرآنيّة – أكّد على هذه القضيّة، وهي أنّ من جملة واجباتنا هي تعيين الحدّ الفاصل بين الصديق والعدوّ، فإنّه: «**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**»[7]. يعني: إذا آمن المرء بالله وبيوم القيامة فمن غير الممكن أن يودّ أعداء الله. ثمّ يقول تعالى: «**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**». فعلامة حزب الله في القرآن هي أنّهم لا يوادّون أعداء الله جلّ شأنه. فمن الواضح أنّ مودّة الإنسان لأعداء الله هي من أجل نيل لمنفعة وإنّ النأي بالنفس عنها يحتاج إلى مجاهدة. فأوّل آثار هذه المجاهدة هو أنّ الله يرسّخ الإيمان في قلب هذ المرء. والجائزة الثانية التي يمنحها الله لأمثال هؤلاء هي تأييده إيّاهم بروح إلهيّة ورزْقهم في الآخرة والجنّة. وفي نهاية المطاف فإنّ منتهى ما يمنّ الله عليهم هناك هو حالة من الرضا المتبادل بين الله وبينهم وهو مقام غاية في العلوّ ولذّة ما بعدها لذّة.

عاقبة محبّة أعداء الله

سورة الممتحنة أيضاً تستهلّ آياتها بقوله تعالى: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**». فإنّكم – أيّها المؤمنون – تريدون أن تودّوا كفّاراً قد أنكروا ما نزل عليكم من القرآن والدين. وهم لم ينكروهما فحسب، بل إنّهم قد أخرجوا النبيّ (صلّى الله عليه وآله) وإيّاكم من دياركم وشرّدوكم بسبب إيمانكم هذا. أفتقيمون علاقات مودّة وصداقة مع أمثال هؤلاء؟! فإن كنتم تدّعون أنّكم تجاهدون في سبيل الله وتحبّونه وتبتغون مرضاته، فلا يجوز أن تفعلوا ذلك، إذ يستحيل الجمع بين هذين الأمرين. ثمّ يقول عزّ من قائل: « **تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ**»؛ فإنّكم تبادلونهم خفية علاقات الودّ والمحبّة متصوّرين أنّه لن يحيط أحدٌ علماً بذلك؟! فأنا أعلم أفضل من غيري بما أخفيتم وما أعلنتم. فإنّ من يفعل ذلك فقد ضلّ سواء السبيل.

استثناء في التأسّي بإبراهيم (عليه السلام)

في آية أُخرى من نفس السورة، والتي قد تلاها السيّد القائد (حفظه الله) أيضاً، يقول ربّ العزّة: « **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَحْدَهُ**»[8]. أي: يجب عليكم أن تتأسّوا بإبراهيم (عليه السلام)، حيث كان يعيش مع ثلّة قليلة في مدينة يعبد كلّ أهلها الأصنام. بل إنّ مهنة عمّه أو والد زوجه – الذي كان يعيش معه – كانت هي الأُخرى نحت الأصنام. لكنّ إبراهيم وأصحابه، وعلى الرغم من كلّ المضايقات، كانوا قد صمدوا أمام قومهم وقالوا لهم بكلّ صراحة: إنّنا بريئون منكم جميعاً على الرغم من سطوتكم وعظمتكم وحضارتكم وصناعاتكم وتقنيتكم، وليس منكم فحسب، بل وممّا تعبدون أيضاً. فنحن أعداء لكم إلى الأبد حتّى تؤمنوا بالله الواحد. ثمّ يستثني القرآن الكريم من حالة التأسّي بإبراهيم فيقول: «**إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ**». فقد كان إبراهيم (عليه السلام) يدعو آزر إلى عبادة الله الواحد ونبذ عبادة الأصنام، لكنّه لم يكن يصغي إليه. فقال له في نهاية الأمر: بما أنّنا نعيش معك وأنّ لك حقّاً في رقبتنا، فسأستغفر لك الله. تقول الآية الكريمة: حتّى هذه العبارة لا تقولوها لأعداء الله، ولا تَعِدوهم بالاستغفار أيضاً!

لكن لماذا استُثني هذا الاستغفار يا ترى؟ فقد يكون استغفارنا لهم من باب الدعاء لهم بالهداية والمغفرة. فلماذا لا ينبغي أن نفعل ذلك أيضاً؟!

وَمَا كَانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لأَبِيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ » :يوضّح الله عزّ وجلّ هذه القصّة في آية أُخرى فيقول فصحيح أنّ إبراهيم (عليه السلام) قد وعد آزر .[9]«**وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ** بهذا الوعد لكونه عمّه ولأنّه كان قد تكفّل بتربيته، لكنّه عندما علم أنّ آزر لا يتخلّى عن بغضه لله تبارك وتعالى فقد أعلن براءته منه. فقد يكون بغض الإنسان ناجماً عن الغفلة وسوء التفاهم والخطأ أحياناً فيبغض أحداً عن غير قصد. فشخص كهذا قد يبادر إلى الاعتذار إذا علم بخطئه. فمن منطلق أنّ الإنسان يرجو لمثل هذا الشخص الهداية ونبذ العداء فلا مانع من الاستغفار له. لكنّه إذا تمكّن العداء .والبغض من قلبه واستفحل فيه، فلا تعود هناك فائدة، بل لا يعود الاستغفار له جائزاً حينئذ

فلا يُنتظَر من زعماء الولايات المتّحدة أن يتحلّوا بخصال الآدميّين. فقد تمّ اختبارهم لمئتي سنة، ولقد اختبرناهم نحن على مدى ثلاثين أو أربعين سنة على الأقلّ وخبرنا بغضهم وعداءهم جيّداً. وأفضل اختبار لهم كانت هذه المفاوضات الأخيرة وما بدر منهم من كلام، حيث لم تزل المفاوضات في مراحلها الأُولى حتّى أجهزوا بأطماعهم على كلّ اتّفاق ولم يلتزموا بأيّ تعهّد. يقول القرآن الكريم: إذا بلغ الإنسان هذا الحدّ فلا يجوز لك حتّى أن تستغفر له، أو تُظهر له طلاقة الوجه. إذ حتّى إبراهيم (عليه السلام) فإنّه عندما علم أنّه ليس ثمّة من سبيل لهداية آزر وأنّ عداءه لربّه قد بات جزءاً لا يتجزّأ من شخصيّته، فقد تبرّأ منه. لكنّ الله تعالى في الوقت ذاته ينهانا عن التأسّي بإبراهيم (عليه السلام) في هذه القضيّة وأن لا نَعِد أعداء الله بالاستغفار. فصحيح أنّ الإنسان قد يبرم مع عدوّه صفقة لمصلحةٍ ما، ولا بأس في ذلك. لكنّه ينبغي أن أقول له: إنّني عدوٌّ لك، وإنّك عدوٌّ لي، وليس هناك أمل في الوفاق والوئام بيّننا. فبما أنّك بحاجة إليّ وأنا بحاجة إليك فإنّنا نبرم معاً هذه الصفقة؛ لكنّ – بالطبع – ينبغي أن تكون صفقة واضحة المعالم، ووفقاً للقوانين، وخاضعة لظروف متماثلة؛ لا أن تفتح لهم الباب للدخول إلى بلدنا متى ما شاءوا، والاتّصال بكلّ مَن يرغبون الاتّصال به، وارتكاب أيّ حماقة وحياكة أيّ مؤامرة تخطر في بالهم، في الوقت الذي لا يسمحون لدبلوماسيّينا حتّى باجتياز مجالهم الجوّي! فهذا ليس بتصرّف منطقيّ، .والإسلام لا يسمح بذلك

وقد نزلت سورة قرآنيّة كاملة في هذا الشأن. فسورة الممتحنة تستهلّ آياتها بالقول: إيّاكم ومودّة أعداء وهذه .«**وَأَنَا أَعْلَمُ**» :الله، فالله يعلم أنّ منكم من يذهب خفية للحوار معهم وإعطائهم الوعود. يقول من المواطن التي ينسب الله تعالى فيها العلم لنفسه من دون القول: «والله يعلم» أو: «إنّا نعلم». بل فحتّى لو .«**وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ**» .يقول: «أنا أعلم»؛ بمعنى: إنّ شأنكم مع شخصي أنا لم يطّلع أحد على ذلك، فأنا على علم بما تقيمونه في الخفاء مع أشخاص معيّنين من علاقات، وبما !تقدّمون لهم من وعود. فمَن يرتكب منكم هذه الحماقة فقد ضلّ

لقد وقف إبراهيم (عليه السلام) مع أنصاره القليلين بكلّ صلابة قائلين: نحن لا نمزح معكم ولا نجاملكم. ومع أنّه ليس بيننا من ثأر، فبما أنّكم مشركون بالله تعالى وأعداءٌ له، ونحن مؤمنون بالله وأحباؤه فإنّ العداوة والبغضاء بيننا لا تزول، اللهمّ إلاّ أن تؤمنوا بالله. فلابدّ أن يكون المؤمن صلباً وأن لا ينتابه الضعف أمام الكفّار، وأن يعلنها بوضوح: إنّني نذرت وجودي وكياني للدين ولله ولأوليائه، أمّا أنتم فقد كرّستم حياتكم لبغض الله وعدائه وتحاولون جاهدين إبادة الدين وإهلاك أولياء الله. إذن فلا يمكن أن تقوم بيننا علاقة صداقة وأُخوّة. هكذا ينبغي أن يكون المؤمن، وحتّى لو كانت قواه الظاهريّة والبدنيّة في منتهى الضعف، فلا يجوز أن يركع أمام الكافر؛ ذلك أنّه: «**لِلّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**»[10]

عوامل محبّة الله وموانعها

إشارة

لقد قلنا في تعريف المحبّة إنّه من الواضح أنّ ما نجده في أنفسنا وما نملك —كما يصطلح عليه – علماً حضوريّاً به ليس هو بحاجة إلى تعريف. وكذا هو الحال بالنسبة للمحبّة، فنحن جميعاً نمارسها ونعرف ما هي. لكن بما أنّه قد يحصل أحياناً خطأ في مقام تفسير المعطيات الحضوريّة والبحث فيها ونقلها فقد حاولنا طرح تعريف للمحبّة. وبالطبع فإنّ يد المعرِّف في مثل هذه التعاريف مبسوطة إلى حدٍّ ما وباستطاعته أن يتناول المفهوم بشكل موسّع أو مضيّق. وذكرنا في توضيحنا لمفهوم المحبّة أنّ المحبّ يشعر بانجذابه نحو المحبوب وأنّ المحبوب يفعل فعل المغناطيس في اجتذابه المحبّ نحوه. وتبعاً لذلك يشعر المحبّ بالميل إلى توطيد علاقة أعمق مع المحبوب وتقليص المسافة بينهما كي لا تبقى ثمّة أيّ واسطة بينهما. ولابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ هذا النمط من الانجذاب هو انجذاب عن إدراك، لأنّ الانجذاب من دون إدراك وعلم ليس هو بمحبّة. فقد وسّع البعض تعريف المحبّة ليشمل معظم الأشياء التي لا شعور لها؛ فالحكماء — على سبيل المثال — يقولون: إنّ «الهيولى الأُولى» تحبّ وتطلب الصورة وهي تحاول جذب الصورة نحوها. ومن الواضح أنّ الهيولى الأُولى ليست هي موجودةً بالفعل وليس لها شعور أو إدراك، ولا يصدق معنى المحبّة بالنسبة لها حقيقةً، إلاّ أنّه حصل هنا لون من توسيع المفهوم وحالة من التجوّز. وعلى أيّة حال فإنّ المرء يشعر في حالة المحبّة بأنّه ينجذب نحو شخص أو شيء ما وهو يحبّ – عن غير وعي منه – التقرّب إليه ويحسّ باللذة من ذلك.

متعلّقات المحبّة

إنّ كلّ كائن ذي شعور يحبّ — أصالةً وبالذات — نفسه أوّلاً وكمالاته ثانياً. وبالطبع فإنّ حبّ الكمال هذا ينشأ من نفس ذاك الحبّ للذات؛ فمن حيث إنّه يحبّ نفسه، فهو يودّ أن يصير كاملاً. وفي إثر هذه المحبّة تأتي محبّة كلّ شيء يكون سبباً في حصول هذا الكمال. فمن حيث إنّ الإنسان — مثلاً — يعتقد بأنّ في العلم كماله، فإنّه يحبّ العلم، ولـمّا كان المعلّم والكتاب والمدرسة وسائل لبلوغ هذا الكمال، فإنّه سيحبّ هذه الأمور أيضاً. فلو كان الإنسان كائناً بسيطاً وكان كماله منحصراً في شيء واحد لوجدناه محبّا لذلك الشيء دائماً ولما تعلّقت محبّته أصالةً بشيء آخر. لكنّ الإنسان كائن متعدّد الأبعاد وله أبعاد طوليّة وعرضيّة كثيرة، وهو لذلك يرى كماله فيما يتناسب مع هذه المراتب والمجالات الوجوديّة. فكمال قوّة الإنسان الجسديّة يختلف عن كمال قوّة الواهمة عنده وهذا لا يشبه كمال قوّة العقل لديه؛ ولهذا فإنّ إدراك المعاني العقليّة الكلّية ليس بكمال بالنسبة للعين مثلاً. لأنّ ما يرتبط بالعين هو المشاهدات، ولو كان الإنسان عيناً فقط، لأحبّ كلّ ما تلتذّ به العين، ولأصبح ذلك كمال عينه. إلا أنّ للإنسان قوى شديدة الاختلاف فيما بينها. وحتّى قوى الإنسان الجسديّة فهي تختلف فيما بينها .اختلافا كبيراً، بل وقد يحصل نوع من التضادّ بين هذه الأُمور

وهذه هي ميزة الإنسان. فنفس هذا الاختلاف في القوى والقابليّات والعوامل المختلفة يهيّئ الأرضيّة لأعمال شتّى، بل ويمهّد — في نهاية المطاف — للامتحان والاختيار. فالإنسان كائن يجب عليه أن يختار بنفسه ما الذي عليه صنعه وكم عليه أن يثابر. فلو أنّه أُكره على سلوك مسير معيّن، فهو لا يصل إلى فالله سبحانه وتعالى .[1]«**لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً**» :الكمال الإنسانيّ. فالله عزّ وجلّ يقول **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن** » :لا يهدي الناس بالإجبار، بل يهديهم بأُسلوب بحيث يبقى ثمّة مجال للاختيار فإنّ الميزة التي تؤهّل الإنسان لأن يكون خليفة الله في الأرض هي أنّ عليه أن .[2]«**شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** يصطفي بنفسه في حالة التزاحم ويختار — من بين الطرق المتعدّدة المتاحة أمامه – الطريق التي ينبغي عليه سلوكها. فإنّ شتّى أنواع اللذّات تُعرض على الإنسان وليس جميعها هو ممّا يوجب كماله. بل قد يكون ، لكن ليس كلّ نظرة إلى جميل [3]بعضها مضرّاً بالنسبة له أيضاً؛ فعيوننا تتمتّع بالنظر إلى كلّ جميل ستبلغنا الكمال المنشود. فإنّ النظر إلى بعض الأشياء يستلزم أُموراً ويجرّنا إلى حيث الحرمان من سعادة **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ** » :الدارين. ففي مثل هذه المواطن لابدّ من غضّ البصر؛ يقول تعالى فعلى الرغم من أنّ في رؤية الأشياء الجميلة متعة للبصر، لكن نحن الذين ينبغي أن نقرّر .[4]«**أَبْصَارِهِمْ** ما الذي علينا النظر إليه وبأيّ مقدار، وما الذي ينبغي ترجيحه على ماذا؟

القرب من الله هو الكمال الحقيقي للإنسان

وفقاً للمعرفة التي حبانا بها الدين فإنّنا نعلم بأنّ علينا إنفاق كلّ ما أُوتينا من قوى وإمكانيّات في سبيل التقرّب إلى الله جلّ شأنه. فكمالنا الحقيقيّ يكمن في قربنا من الله عزّ وجلّ. وحسب ما نتمتّع به من إدراك عقليّ فإنّ أسمى شيء نحبّه ينبغي أن يملك أقصى درجات الكمال. وبناءً عليه، واستناداً إلى الدليل العقليّ، فإنّ الهدف الرئيسيّ الذي يتحتّم علينا السعي لتحقيقه هو أن نحبّ الله تعالى، وننبذ كلّ ما يتعارض مع هذا الحبّ؛ إذ أنّ أمراً كهذا يتنافى مع كمالنا، بل ويولّد فينا النقص ويوجب السقوط. أمّا الذين لا يملكون مثل هذه المعرفة الإلهيّة، ويؤمنون – انطلاقاً من نزعاتهم الإنسانيّة المختلفة – بالأصالة للإنسان فيقولون: كلّ ما يملكه الإنسان فهو حسن، ولابدّ لكلّ شيء آخر أن يكون في سبيل الإنسان أيضاً، إلى درجة أنّهم أوجَدوا بعض النزعات المتطرّفة في المذهب الإنسانيّ. فمثل هذه النزعات ترى كلّ محبّة مقدّسة وأنّ محبّة الإنسان لأيّ شيء وبأيّ صورة هي مقدّسة أيضاً. أمّا في المذاهب التوحيديّة فالأمر يختلف، فإذا تعارض لون من ألوان الحبّ مع محبّة الله تعالى فهو مذموم، بل وإذا استلزمت محبّة الله تعالى بغض بعض الناس، فيتعيّن اكتساب هذا البغض. لكنّنا نلاحظ أنّنا – حتّى بعد اكتسابنا للتربية الدينيّة وما سمعناه من كلمات عظمائنا – لسنا كذلك. وهنا يُطرح السؤال التالي: لماذا نحن هكذا؟ وأين هو مكمن النقص؛ بحيث إنّنا لا نستطيع أن نحبّ الله طبقاً لما يأمرنا به العقل، وما تقرّ به تعاليم القرآن والسنّة؟

اكتساب المقدّمات الاختياريّة للمحبّة

القضيّة الأُخرى تتعلّق بكون المحبّة اختياريّة أو غير اختياريّة. فعندما نرجع إلى أنفسنا نرى أنّ الأمر ليس على هذا النحو بحيث إنّ باستطاعتنا أن نحبّ أيّ أحد كان متّى ما شئنا أو أن نبغض أيّ شخص كان متّى ما لم نشأ محبّته، بل — وفقاً لما يصطلح عليه أهل المعقول — فإنّ المحبّة هي كيفيّة نفسانيّة تأتي عن طريق المقدّمات والأسباب. بناءً على ذلك فإنّنا إذا علمنا من خلال العقل أو الشرع بأنّ المحبّة كمال ويتحتّم اكتسابها، فإنّ علينا أن ننظر أوّلاً ما هو السبيل لكسب هذه المحبّة وما هي الأُمور التي يمكن أن تثيرها في أنفسنا. وبعبارة أُخرى: صحيح أنّ المحبّة ليست في أيدينا بحيث نحبّ ما نشاء متّى نشاء ونبغض ما نشاء متى نشاء، لكنّ بعض أسباب إيجاد المحبّة هي في متناول أيدينا، ومن هذا المنطلق فإنّنا مكلَّفون في اكتساب المحبّة وإنّ تكليفنا يكمن في تهيئة المقدّمات الاختياريّة للمحبّة، وهذه المقدّمات هي في أيدينا، وإلاّ فإنّه لا يمكن أن نكلَّف بتوفير الأسباب غير الاختياريّة للمحبّة.

لقد ذكرنا أنّ الإنسان — وبدافع الفطرة — يحبّ نفسه ويحبّ كماله أيضاً، فإنْ علِم بأنّ كماله في شيءٍ ما فسيحبّ ذلك الشيء. فكيف إذا علمنا بأنّ محبّة الله عزّ وجلّ هي الإكسير النفيس والكمال الأعظم الذي يمكن أن يناله إنسان؟ عند ذاك فمضافاً إلى معرفة السبيل لاكتساب هذه المحبّة فإنّه ينبغي الوقوف

على موانعها؛ إذ ليس ثمّة من جدوى من سلوك الطريق مع وجود الموانع والعراقيل. إذن فيتعيّن تشخيص كلّ ما يقف حجر عثرة في طريق اكتساب الكمالات والعمل – مبدئيّاً – على النأي بالقلب عنه، ثمّ تهيئة أنفسنا لنيل كلّ ما هو مطلوب وقيّم.

نيل المحبّة عن طريق الإحاطة بآلاء الله

إنّ إحدى السبل الطبيعيّة لاكتساب المحبّة، والتي أكّدت عليها الأحاديث الشريفة أيضاً، هي التفكّر في أفعال الله والتعرّف على نعمه عزّ وجلّ. فإنّ علاقة الإنسان بما يوجب كماله هي علاقة فطريّة، وإنّ نعم الله عزّت آلاؤه هي من موجبات بقاء وجود الإنسان ونموّه، ومن ثمّ كمال روحه. من أجل ذلك فكلّما أدركنا قدر هذه النعم أكثر فسيزداد حبّنا لله تعالى بشكل طبيعيّ. فالله سبحانه وتعالى يطالب بعض أنبيائه في جملة من الأحاديث القدسيّة بأن: «**أحِبَّني وحبّبني إلى خلقي**»؛ أي واجعل الآخرين يحبّونني. (وحينما قال له هذا النبيّ (عليه السلام): «**يا ربّ! إنّك لَتعلم أنّه ليس أحبّ إليّ منك، فكيف لي بقلوب العباد؟ فأوحى الله إليه: فذكّرهم نعمتي وآلائي**»[5]. فلقد خلقتُ هؤلاء وجبلتهم على حبّ مَن أنعم عليهم. فإن علموا بأنّ الله هو الذي وهبهم كلّ ما هو محبوب، وأنّ باستطاعته أيضاً أن يعطيهم كلّ ما له الأثر في سعادتهم في الدنيا والآخرة، فإنّهم سيحبّونني.

لماذا يحبّ الله أن نحبّه؟

لكنّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن لدى الاطّلاع على مثل هذه الروايات هو: ما حاجة الله لمحبّتنا كي يأمرنا بحبّه؟ فقد يعتقد بعض ذوي المعرفة الضحلة بالله وأوليائه بأنّه كما أنّنا معاشر البشر نرغب في أن يحبّنا الناس ويحترمونا ويهتفوا باسمنا فإنّ الله هو كذلك. لكنّ كلّ مَن يعرف الله فإنّه سيدرك على الأقلّ بأنّه تعالى ليس بحاجة إلى شيء؛ فهو ليس بحاجة إلى عبادتنا ولا إلى محبّتنا. فمحبّتنا لا تزيد على ذات الله شيئاً، وبسبب أعمالنا لا ينال جلّ وعلا مقاماً. بالطبع إنّ كلّ موحّد يعلم بذلك إجمالاً، لكنّ الذين تلقّوا المزيد من العلم واتّسع تبحّرهم في هذه الأُمور وزاد اطّلاعهم على معارف أهل البيت (عليهم السلام) فإنّهم واقفون أكثر من غيرهم على قضيّة أنّ ذات الله تعالى لا تشكو من أيّ نقص وأنّه ما من شيء باستطاعته أن يكون ذا أثر فيها، بل وما من أمر يمكنه أن يُدخل السرور إليه جلّ شأنه أو يثير سخطه. وإنّ ما يَرِد من تعابير من أنّ الله غضب على قوم أو رضي عن آخرين فإنّها تُساق بما يتناسب مع فهمنا، ولاستنهاض هممنا، أمّا روحها وحقيقتها فهي أسمى من هذا المعنى بكثير. فمثل هذه التعابير هي من التعابير المتشابهة التي ينبغي تجريدها من لوازم النقص ثمّ إسنادها إلى الله تعالى. وقد أُشير في بعض الروايات وحتّى في طائفة من الأدعية والمناجاة وخطب نهج البلاغة إلى أنّ سَوق مثل هذه

إلهي تقدّس » :التعبيرات هو ضرب من المجاز. ولعلّ أشهر ما يدلّ على ذلك هذا المقطع من دعاء عرفة فوجود الرضا في الذات الإلهيّة ليس .[6]«**رضاك أن تكون له علّة منك، فكيف يكون له علّة منّي** معلولاً بعلّة أوجدها الله نفسه، فما بالك بأن أصنع أنا ما يوجب حصول الرضا في ذاتّه تعالى! فمَن أنا وما الذي في يدي كي أُوجب الرضا في ذات الله؟! فإنّ رغبة الله في أن نحبّه هي من باب أنّ كمالنا هو .في حبّنا لله وأنّ الله يحبّ أن نصير من الكاملين

فإنّ من لوازم كمال ذات الله عزّ وجلّ هي حبّه لكمالات آثار ذاته. فالمحبّة هي كالنور، حيث إنّ للنور في النقطة التي صدر منها أقصى درجات الإضاءة، ثمّ يشعّ – شيئاً فشيئاً – على ما حوله ويذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حتّى قد ينتقل إلى الغرفة المجاورة أيضاً. فهذا هو الضياء أساساً. فذات النور هي إذا وُجِد [7]أنّه إذا سطع من مبدأ معيّن فإنّه سيضيء ما حوله وما يتعلّق به. وكذا المحبّة، فهي نور أضاءَ كلّ متعلّقاته. وهذا كلام مجرَّب بالكامل؛ فعندما يحبّ المرء أحداً، فإنّه سيحبّ ثيابه وبيته واسمه وكتابه، وكلّما اشتدّت هذه المحبّة، سرت إلى متعلّقاته الأبعد. بل إنّ ميزة المحبّة هي هذه، وإذا لم تتّصف .بهذه الميزة فإنّها لا تكون محبّة أساساً

فالله عزّ وجلّ يحبّ نفسه أكثر من أيّ شيء آخر، بل إنّ محبّته لذاته لا نهاية لها، ذلك أنّ كمال الله ليس له نهاية. ومن هنا فإنّه ليس ثمّة ما هو أشدّ محبوبيّة من الله سبحانه، ولا ريب أنّ محبّة الله لذاته – وهو العالِم بكلّ شيء والعارف بذاته أكثر من أيّ شيء آخر – تسمو على محبّته للأشياء كلّها، وبما أنّ المحبّة تسري إلى الآثار أيضاً، فإنّ محبّة الله تكون أزيد لكلّ ما هو أقرب منه. وعلى هذا الأساس فإنّ أكثر مخلوقات الله محبوبيّة لديه هو الوجود المقدّس المتمثّل بالنبيّ الأعظم (صلّى الله عليه وآله). فمحبّة الله ترتبط بذاته هو، وعندما تشعّ على آثاره فستشمل كلّ ما له أكبر قدر من الكمال الحقيقيّ، بل حتّى .أبعد الأشياء من الله من حيث الكمال فإنّها لا تكون محرومة من محبّته بالكامل

وبتعبير آخر: فبما أنّ الله يحبّ ذاته، فإنّه يحبّ أيضاً الكمالات المرتبطة بذاته والتي هي كمالات حقيقيّة، وإنّ محبّته تزداد لكلّ موجود يحوز على أكبر قدر من كمالاته تعالى. ومن هنا فإنّ محبّة الله جلّ وعلا تكون أكبر لكلّ مَن هو أقرب إليه وأكثر علاقة معه واتّصالاً به. فإنّ قول الله لنا: أحبّوني، هو من باب أنّ محبّتنا إيّاه تؤدّي إلى قربنا منه وإنّ حبّه تعالى يشتّد لكلّ ما هو أشدّ قرباً منه. وهذا هو عين الكمال المنشود الذي هو شعاع من الكمال الإلهيّ. فالله يحبّ نفسه ويحبّ كلّ تلك الكمالات أيضاً ويريد منّا أن نحظى بهذه الكمالات ونحبّه ونعبده ونشكره كي نكون أكمل. وأبسط تعبير عن هذا :المضمون هو ما عبّر به هذا البيت لجلال الدين الروميّ حيث قال

[8] لم أخلق الخلق طلباً للمنفعة بل لكي أجود على العباد

فهو تعالى ينشد كمالنا. فعندما يقول: اشكروني، واعبدوني، وأحبّوني فهو من باب أنّه يرغب في أن نتكامل نحن، لا أن يضاف شيء ما إلى كمالاته هو. فكلّ ما هو ممكن الوجود فهو مُلك لله تعالى، وما من شيء يضاف إليه. وإنّ كلّ ما يَخلُقه هو فإنّه سيحظى بالوجود.

نابع من أنّ كمال العباد هو في حبّهم «**حبّبني إلى خلقي**»: بناءً عليه فإنّ طلب الله تعالى من نبيّه بأن لي، وبما أنّني أودّ أن يبلغوا الكمال فإنّني أُوصيك بأن تفعل ما يزيد في حبّهم لي.

هذا الموضوع من شأنه أن يمهّد لنا الأرضيّة لكي نطيل التفكير في سبل محبّة الله تعالى، والعراقيل التي تواجهها، وأن نفيد أقصى درجات الإفادة من توصيات وتوجيهات أهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين).

وفّقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

سبل تلقّي محبّة الله

دور الالتفات والتركيز في ترسيخ المحبّة

لقد قلنا إنّ التأمّل في حالات وتجارب الإنسان الباطنيّة مفيد لفهم كيفيّة نموّ المحبّة وتكاملها. بل ويمكن القول إجمالاً إنّ الإنسان لا يحبّ شيئاً إلاّ إذا لمس فيه جاذبيّة أو كمالاً أو وجد فيه ما يجعله محبّذاً ومرغوباً. وهذا الكمال هو مفهوم عامّ يدلّ على كلّ أمر وجودي يمكن أن يترك آثاراً محبَّذة ومطلوبة، وهو يشمل الجمال وسائر الفضائل الإنسانيّة الأُخرى. لكنّ هذا الكمال بمفرده لا يكفي لدفع الجميع لحبّ حامله، بل يتعيّن معرفة حامل هذا الكمال والعلم بأنّه أمر محبوب ومطلوب. بالطبع لابدّ هنا أيضاً من الالتفات المستمرّ إلى هذه المعرفة؛ ذلك أنّها قد تُنسى بعد حصول التفات عابر. فالمحبّة – بوصفها حالة ثابتة ومستقرّة – إنّما تتحقّق عندما يلتفت المرء إلى هذا الكمال.

فهناك فرق بين مجرّد علمنا بوجود الشيء، وبين التفاتنا إلى وجوده. فكلّنا يعلم – مثلاً – أنّ الله حاضر في كلّ مكان، لكنّ هذا العلم غير كاف لترك الأثر المطلوب، فهو لا يكون مؤثّراً إلاّ إذا التفتنا إلى

حضور الله سبحانه وتعالى. وكذا هو الحال في سائر الامور. فمجرّد علمنا بأنّ لله كمالاً لا يثير محبّة راسخة ولا يترك أثراً. فمحبّة كهذه هي بحاجة إلى التفات وتركيز، وكلّما كان هذا التركيز أشدّ، زاد ثبات المحبّة ورسوخها. وهذه هي الحالة التي يعبّر عنها بالأُنس، وهو أن يكون المرء ملتفتاً إلى محبوبه في اليقظة والنوم، وعند الجلوس والقيام، وأثناء العمل، وعند العبادة، ولدى المطالعة، و...الخ. وهي حالة من الميسور حصولها، وما قصص الحبّ التي يضجّ بها تراث مختلف الثقافات إلا نماذج لمثل هذه المسائل. وبناء عليه فمن أجل رسوخ المحبّة فإنّه يتحتّم – مضافاً إلى العلم بوجود الكمال وإدراك أنّه محبّذ ومرغوب فيه – الالتفات إلى وجود هذا الكمال، وإنّ التركيز على هذا الالتفات يقود إلى حالة لا يمكن أن تفارق الإنسان حتّى تجعله دائم التفكير في صاحب هذا الكمال والالتفات إليه دونما اختيار منه تقريباً.

مراتب الأُنس

فإن حصلت لدينا مثل هذه الحالة تجاه الله جلّ وعلا، فهي حالة ذات قيمة عالية جدّاً. فإنّنا نتلو – بشقّ الأنفس – بعض الأذكار كي تعيننا على الالتفات إلى ربّنا. وإذا خطر ببالنا، فإنّنا نأتي بتسبيح فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) بعد الفراغ من الصلاة، وهو الذي إن التفتنا إلى معانيه تذكّرنا الله بعض الشيء. لكنّه في ميسور الإنسان أن يصل إلى مقام بحيث يحصل لديه التفات وتوجّه ثابت إلى الله عزّ وجلّ إلى درجة أنّه لا يعود قادراً على نسيانه إطلاقاً. وهذا أمر ممكن؛ فعندما يكون مثل هذا النمط من الحبّ ممكناً بين إنسانين، فلماذا لا يكون ميسوراً مع من لا نهاية لكماله وجماله؟!

يقول نوف البكاليّ، وكان من أخصّ أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام): « **رأيتُ أمير المؤمنين** [صلوات الله عليه موليّاً] **مبادراً** [عن الناس] [على عجلة من أمره] **فقال: فقلتُ: أين تريد يا مولاي؟** **فقال: دعني يا نوف إنّ آمالي تَقَدَّمُني في المحبوب**». أي: اتركني وشأني فإنّ لديّ في محبوبي آمالاً تتقدّمني وتدعوني إليها. « **فقلت: يا مولاي! وما آمالك؟ قال: قد علِمَها المأمول واستغنيتُ عن تبيينها لغيره**». فإنّ الذي عقدتُ آمالي عليه يعلم بها، ولا حاجة لذكرها للآخرين. لكن لمّا كان (عليه السلام) يودّ نوفاً ولا يحبّ أن يخيّب أمله في الإجابة فقد قال له: « **كفى بالعبد أدباً أنْ لا يُشرِك في نعمه وإرَبه غير ربّه**»[1]؛ أي: إنّ مقتضى أدب العبوديّة هو أن لا يرى العبد النعمَ إلاّ من ربّه ولا يطلب حاجاته إلاّ منه عزّ وجلّ. فإذا كان عبداً حقّاً، فما شأنه بالآخرين؟ « **أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**»[2]؛ أي: أليس الله كافياً لعبده؟!

أعلى مراتب محبّة الله

فأمير المؤمنين (عليه السلام) ليس ممّن يتلاعب بالألفاظ أو ينشد شعراً فيه مبالغة. هذا مع العلم أنّ ما يقوله هو في حدود إدراك السامع، وإنّ ما يدركه هو وما وصل إليه هو أسمى من ذلك بكثير. فقد تحصل مثل هذه الحالات لمن تربّوا في مدرسة أهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) أو الذين قطفوا ثماراً من شجرتهم. بل قد يكون ثمّة أُناس يمضون كلّ عمرهم على هذا النحو، فهنيئاً لهم!

أراك ولا أرى فيها سواكا	أجول بناظري برّاً وبحراً
ترى عيني جمالَك لا عداكا	وفي كلّ البلاد وفي البوادي
[3]معا لمَ قدّك الجذّاب ذاكا	فكلّ صغيرة في الكون تحكي

فقد يكون «بابا طاهر» قد أنشد هذه الأبيات تعبيراً عن واقع يعيشه أو حالة مرّت به أو ملَكَة يتمتّع بها، الله العالم. أمّا أصل وجود مثل هذه الحالة فهو أمر واقع وإن لبعض عباد الله مثلَ هذه العلاقة مع ربّهم. فإنّ أسمى درجات المحبّة التي يمكن أن يشعر بها المرء تجاه الله تعالى هي أن يكون كلّ التفاته وجميع حواسّه منصبّة على الحضرة الإلهيّة بحيث يرى كلّ حُسن وجمال وكمال شعاعاً من كمالات الله تعالى ونافذة لمشاهدة كمال وجمال المعبود. بالطبع إنّ التحدّث بمثل هذه الأُمور شيء يسير وممتع، وقد نقع على أمثالها في كلمات العرفاء وأشعار الشعراء. نسأل الله أن يكون هؤلاء من الواصلين. فنحن نعترف أنّنا لا نملك من هذه الحقائق شيئاً، لكنّ الذين بلغوها يملكون جوهرة ثمينة ونفيسة للغاية. فالذين هم من أمثالي لا يمكنهم أن يطمعوا بمثل هذه الدرجة، بيد أنّه من الممكن أن نحظى بمراتبها الأدنى والأخفّ. والسبيل إلى ذلك –كما قلنا – هو أن يعرف المرء كمالات محبوبه كي تكون محبّته له ثابتة راسخة.

أولياء الله هم وسائط تلقّي محبّة الله

بالطبع إذا فكّر الإنسان لوحده بالله وبكمالاته فلا يترتّب على ذلك أثر يذكر. فإنّ من ألطاف الباري عزّ وجلّ هي أنّه قد جعل لمن هو من أمثالي طرقاً إذا ما سلكها وصل في النهاية إلى الكمال. ومن هذه الطرق هي أن يفكّر الإنسان بالأشياء المحبوبة عند الله أو الأشخاص الذين يحبّهم تعالى والذين باستطاعة الإنسان التعرّف عليهم وإدراك كمالاتهم أكثر. فقد روي أنّ رجلاً طلب من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يعلّمه ما يصنع ليكون محبوباً عند الله وعند أنبيائه (وكأنّه كان يشكو ممّا نشكوه نحن؛ إذ أنّه يعلم أنّ هذا الأمر هو كمال رفيع وقيّم جدّاً لكنّه لا يعرف السبيل إليه) فأوصاه (صلّى الله عليه وآله) أن يحبّ ما يحبّه الله ويبغض ما يبغضه الله! فلمّا كانت مخلوقات الله ونعمه أقرب إلينا فإنّنا نستطيع

أن ندرك كمالاتها ونلتفت إليها بشكل أفضل. فإذا استمرّ الإنسان في السير في هذا الطريق فإنّه سينال المحبّة لله بمعونة هؤلاء العظماء شيئاً فشيئاً.

ولعلّ هذا هو أحد أسرار جعل الله تعالى أجر رسالة نبيّنا (صلّى الله عليه وآله) في مودّة ذوي القربى[4]، لاسيّما وأنّ الآية تستخدم لفظة «المودّة» وليس «المحبّة». فقد يكون الإنسان محبّاً من دون أن يترك هذا الحبّ أثراً على سلوكه، لكنّه إذا كانت محبّته هذه على مستوى العمل أيضاً، قيل إنّها مودّة. فأجر رسالة النبيّ الأعظم (صلّى الله عليه وآله) هي أن نحبّ أهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) حبّاً يترك بصماته على تصرّفاتنا. فلعلّنا جميعاً نلاحظ أنّ مَن يحبّ شخصاً فإنّه يرغب – عن غير وعي — في أن يتشبّه به. فأنا أذكر عندما كنّا نحضر درس الإمام الخمينيّ الراحل (قدّس سرّه) كان أحد زملائنا يحاول تقليد الإمام حتّى في مشيته. فقد كان الإمام يمسك بعباءته أثناء المسير بطريقة خاصّة. وقد كان زميلنا ذاك يحاول تقليد الإمام في مشيته ويمسك بعباءته كما يمسكها ويتكلّم كما يتكلّم. فمن الطبيعيّ أنّ الإنسان إذا أحبّ أحداً فإنّه يرغب في أن يتشبّه به.

وقد أشرتُ في المحاضرات الفائتة أيضاً إلى أنّ أحبّ المخلوقات إلى الله هم النبيّ وأهل هذا البيت الطاهر (صلوات الله عليهم أجمعين). فإنْ سعَينا إلى تنمية محبّتنا لهم (عليهم السلام) بحيث تترك تلك المحبّة أثراً على سلوكيّاتنا وحاولنا التشبّه بهم، فقد عثرنا على طريق جيّد جدّاً للتعرّف على الله أكثر، وإنّ هذا لممّا يُعِدّ الإنسان ويمهّد له الطريق ليفيض الله تبارك وتعالى عليه محبّته.

طريق إلى التهيّؤ لتلقّي المحبّة الإلهيّة

إنّ من جملة المواضيع المطروحة في هذا السياق هي أنّنا غير قادرين على صبّ كلّ التفاتنا وتركيزنا على الله تعالى وأوليائه. فحياتنا في هذه الدنيا لا تتيح لنا ذلك. بالطبع إذا توصّل البعض إلى معرفة أنّ كلّ الوجود هو شعاع من إرادة الله جلّ وعلا لاستطاع أن يشاهد الله في كلّ مكان، ويرى كلّ شيء في الوجود مظهراً ومرآةً له سبحانه. فهذا أمر ممكن وليس بالمحال. لكنّنا لسنا على هذا النحو. ففي حياتنا آلاف القضايا التي ينبغي الالتفات إليها. فهذه حقيقة لا تُنكر وهي أنّ الإنسان في بداية سيره — سواء في صلواته أو في سائر عباداته — لا يستطيع التركيز على نحو كامل، فضلاً عن أن يستطيع أن يكون دائم الالتفات في الليل والنهار وأثناء النوم واليقظة. فإنّ مسائل من هذا القبيل هي أشبه بالأساطير بالنسبة لأمثالنا، لكن لا يجوز إنكارها. فلقد خلق الله لهذه الآفاق الرفيعة رجالاً. ولكنّنا — على أيّة حال — لسنا هكذا.

وقد يحصل بين هذه الاهتمامات تضادّ أحياناً، بحيث لا يمكن الجمع بين الالتفات إلى أمرين في آن واحد، ولا يمكن التعلّق بكليهما معاً. فإذا حضر أحدهما طردَ الآخر، أو جعله باهتاً على الأقلّ؛ بالضبط كالخلّ والعسل إذا خُلطا سويّة، إذ سيقضي الخلّ على حلاوة العسل وسيزيل العسل حموضة الخلّ، فيتأثّر كلّ منهما بالآخر ويؤثّر فيه. بل وقد يزول أحدهما كلّياً ويترك الساحة للآخر. وكذا هو الحال مع الانشداد إلى بعض الأشياء حيث إنّه لا ينسجم مع التعلّق بالله تعالى ولا يمكن الجمع بين الاثنين. فلو كان بين صديقين من أصدقائنا عداوة شديدة فلا يمكننا أن نحبّ الاثنين حبّاً جمّاً. بالطبع إنّ بين هذا المثال وقضيّة محبّة الله بوناً شاسعاً جدّاً. فإنّ لكلّ واحد من صديقينا جهاتٍ متعدّدة ولنا أنْ نحبّ كلّ واحد منهما من جهة معيّنة، لكن من المستحيل أن يكون لدينا نفس التعلّق بالاثنين وأن تربطنا بهما علاقة حميمة.

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ » إذن فما معنى أن يحبّ الإنسان — الذي يَنشُد حبّ الله — أعداءَ الله عزّ وجلّ؟ فمحال أن يكون المرء مؤمناً بالله واليوم الآخر ثمّ .[5]«**بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ** يبادل من عادى الله المحبّةَ. ومن هنا فإنّه إذا أراد المرء أن يحبّ الله، فعليه أن يُخرج محبّة عدوّه من قلبه، وطالما بقيت الأخيرة فيه، فإنّ الاولى لن تدخله. فكلّ شيء قد نهى الله تعالى عنه، فهو مبغوض من حيث إنّه منهِيّ عنه. فالذنوب، لاسيّما الكبيرة منها، يبغضها الله. فإن كانت محبوبة لدى الإنسان، فطالما بقي حبّها في قلبه، فإنّه لا يدخله حبّ الله، وإن دخله فسيكون باهتاً جدّاً ولا يثبت ولا يدوم. وعليه، فإن كان الإنسان ممّن يفتّش عن محبّة راسخة لله، فعليه أن يطرد من قلبه كلّ ما يبغضه جلّ وعلا؛ فحبّ المعصية لا يجتمع مع حبّ الله.

بالطبع ثمّة درجات أدنى من ذلك لا يحصل فيها مثل هذا التضادّ، لكن حتى هذه الامور لا يمكن الجمع **قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ** » :بينها بالكامل. يقول تعالى **اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي** فهو أمر خطير أن يحبّ الإنسان كلّ هذه الأمور (الآباء .[6]«**سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ** والأبناء والأزواج، ...الخ) أكثر من الله! وعلامة ذلك هو أنّ هذا الحبّ لا يتناغم مع الخروج للجهاد. ونشير هنا إلى أنّ الجهاد — بالطبع — لا يقتصر على الجهاد المسلّح العسكريّ، فالجهاد العلميّ والثقافيّ هو أيضاً ضرب من الجهاد. فمن الواضح أنّ أُموراً من قبيل محبّة الزوج والأولاد والمنزل والأموال ليست محرّمة بذاتها، لكنّ الله عزّ وجلّ يهدّد بالقول: إذا فضّلتم لذائذ الدنيا على العمل بما يحبّه الله وبما أمر به !«**فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**» وكان حبّكم لها يفوق حبّكم لله ولما كلّفكم به من واجبات

فقد أودع الله – بحكمته – في كلّ أُمور الدنيا لذّة لينتفع الإنسان منها ويؤمّن مصالح حياته المادّية. فلو لم يكن في الطعام لذّة لما تناوله، ولنسيه، ولمرِض، بل ومات من أثر الجوع. فهذه اللذّة المودَعَة في الطعام وفي سائر الأُمور اللذيذة هي السبب في البقاء. فوجود هذه اللذائذ أساساً هو من حِكَم الله تعالى، ولابدّ أن تكون، لكنّه إذا انشدّ الإنسان إليها بحيث تشغل كلّ اهتمامه وتركيزه، وتسيطر على كلّ أفكاره وكلامه، وتتزاحم مع واجباته وتكاليفه، فهاهنا مكمن الخطر، وإنّ إنساناً كهذا لا ينال محبّة الله تعالى.

فإذا رام المرء محبّة ربّه تعيّن عليه أوّلاً أن يطرد من قلبه بالكامل كلّ ما يبغضه الله، ويحاول جهده أن لا يحبّ الذنوب والأعمال التي يكرهها جلّ شأنه. وإذا صادف أن ارتكب إثماً، فعليه أن يتوب من فوره. وفي المرحلة التالية عليه أن لا يتعلّق بالمباحات تعلّقاً يحول بينه وبين القيام بتكاليفه. فإنّ العمل بمقتضى ذلك يمهّد الأرضيّة للإنسان كي يحبّ نِعم الله تعالى وكمالات أوليائه عند التفكير بها. وبهذه الطريقة يُهيَّأ قلب الإنسان تدريجيّاً ليكون مؤهَّلاً لكي يُلقي الله جلّت آلاؤه فيه نور محّبته.

وفّقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

الحبّ في الله

أحبّ عمل إلى الله

وصلنا في المحاضرات الماضية إلى نتيجة مفادها أنّ محبّة الله عزّ وجلّ لا تجتمع مع محبّة أعدائه، لكنّها تجتمع مع محبّة ما يحبّه الله أو محبّة ما لا يحبّه ولا يبغضه (على فرض وجوده). وبالطبع فإنّ مراتب مطلوبيّة هذه المحبّة مختلفة. ونأمل هنا أن نفيد من الآيات القرآنيّة والأحاديث الشريفة في التوسّع في هذا المبحث.

لقد حثّت روايات كثيرة على حبّ المؤمنين عبر تعابير شتّى من قبيل «الحبّ في الله»، و«حبّ المؤمن»، و«حبّ أحبّاء الله»، و«المتحابّين في الله». فقد روي عن إمامنا زين العابدين (عليه السلام) قوله: «**إذا جمع الله عزّ وجلّ الأوّلين والآخرين قام منادٍ فنادى يُسمِع الناس فيقول: أين المتحابّون في الله؟ قال: فيقوم عُنُق من الناس فيُقال لهم: اذهبوا إلى الجنّة بغير حساب. قال: فتلقّاهم الملائكة**

فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنّة بغير حساب. قال: فيقولون: فأيّ ضرب أنتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابّون في الله«[1].

وقد وردت في .[2]«**وجبَتْ محبّتي للمتحابّين فِيَّ**» :كما ويقول الباري عزّ وجلّ في حديث المعراج بعض الأحاديث القدسيّة أيضاً مضامين نادرة تتضمّن نقولاً غاية في الروعة. فقد أوحى الله عزّ وجلّ في **هل عملتَ لي عملاً قطّ؟ قال**: » :بعض هذه النقول إلى موسى (على نبيّنا وآله وعليه السلام) فقال **إلهي صلّيت لك، وصمتُ وتصدّقتُ وذكرتُ لك. فقال: إنّ الصلاة لك برهان، والصوم جُنّة،** ، **فأيّ عمل عملتَ لي**؟ [بمعنى أنّ جميع ما ذكرتَ من أعمال فهو لك] **والصدقة ظلّ، والذكر نور** **فقال موسى (عليه السلام): دُلّني على عمل هو لك. فقال: يا موسى! هل واليتَ لي وليّاً وهل** ؛ أي إنّ ما يكون لي هو أن تحبّ أحداً من أجلي أو أن تبغض شخصاً بسبب [3]«**عاديت لي عدوّاً** **فعَلِم موسى أنّ أحبّ الأعمال الحبّ في الله** » :بغضه لي. وقد جاء في ختام هذه الرواية ما نصّه .«**والبغض في الله**

أوحى الله إلى بعض الأنبياء: أمّا زهدك » :كما ونُقل عن الإمام الجواد (عليه السلام) في حديث آخر **في الدنيا فتَعَجُّلك الراحة، وأمّا انقطاعك إليّ فيُعَزِّزُك بي، ولكن هل عاديت لي عدوّاً وواليت لي** فإنّ عدم تعلّقك بأمور الدنيا وانتهاجك الزهد يخلّصك من بعض الهموم، فلا ينبغي أن تَعدّ [4]؟«**وليّاً** الزهد لحسابي، بل إنّه من أجل دَعَتك وراحتك، وإنّ انقطاعك إليّ وقطع آمالك بغيري فهو يهبك ؟ فالمحبّة والمعاداة هما من أجلي أمّا الأعمال «**ولكن هل عاديت لي عدوّاً وواليت لي وليّاً**» .العزّة .الأُخرى فهي من أجلك

وهنا يطرح السؤال التالي: ما ميزة المحبّة في الله كي يقول تبارك وتعالى: إنّ الصلاة والصيام وباقي العبادات هي لك، لكن أن تحبّ فيَّ فهو لي؟ فما الذي يميّز هذه المحبّة عن غيرها من العبادات؟

يبدو أنّ الدليل على ذلك هو أنّ محبّة الإنسان الآخرين في الله هي — في الحقيقة – عين محبّة الله وليست عملاً مستقلاً. فكلّ من الصلاة والصيام والزكاة وسائر العبادات هي أعمال مستقلّة عن غيرها وعندما ينجز المرء أيّ واحدة منها فهو يتوقّع منها المثوبة، لكن من الواضح أنّه عندما يحبّ الإنسان الله تعالى فإنّه سيحبّ أولياءه أيضاً. فحينما يحبّ المرء أحداً حبّاً جمّاً فإنّه سيحبّ كلّ ما يتعلّق به أيضاً. فحبّ الإنسان لصورة المحبوب – على سبيل المثال – ليست منفصلة عن حبّه للمحبوب نفسه، فكلّ امرئ يحبّ صورة حبيبه. ومن هنا فإنّ حبّ الإنسان مخلوقاً من مخلوقات الله من أجل الله يمثّل امتداداً .لمحبّة الله يشعّ على محبوبه وليس شيئاً آخر. وهذا هو ما يحبّه الله كثيراً وما يبعث على تكامل الإنسان

من هذا المنطلق فقد جاءت روايات كثيرة في حبّ المؤمن تؤكّد على أنّ هذا العمل هو من أسمى العبادات وهو لا ينافي محبّة الله. ليس هذا فحسب بل إنّه محطّ تأكيد الله أيضاً، فهو تعالى ينتظر من الإنسان المؤمن أن يتحلّى بهذه الفضيلة إلى جانب ممارسته باقي العبادات. هذا وقد جاء في بعض الأحاديث أنّه إذا التقى المؤمنان فإنّ أفضلهما هو أشدّهما حبّاً لصاحبه: «**إنّ المسلمَين يلتقيان فأفضلهما أشدّهما حبّاً لصاحبه**»[5].

محبّة المؤمنين الفقراء هي محبّة لله!

ومن جملة روايات هذا الباب هي تلك التي تحثّ على محبّة الفقراء. فقد روي عن النبيّ الأعظم (صلّى الله عليه وآله) أنّ الله تعالى قد أمره بحبّ المؤمن الفقير. كما ورد في حديث المعراج أنّ الله أوحى إلى نبيّه (صلّى الله عليه وآله): «**يا أحمد! محبّتي محبّة الفقراء**»[6]. ويقول أيضاً في فقرة أُخرى من الحديث ذاته: «**فادن الفقراء وقرّب مجلسهم منك، وأبعد الأغنياء وأبعد مجلسهم عنك**»!

ومن جملة ما ورد في هذا الباب هو ما قاله رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين (عليه السلام): «**يا عليّ! إنّ الله تبارك وتعالى وهَب لك حبّ المساكين والمستضعفين في الأرض فرضيتَ بهم إخواناً ورضوا بك إماماً**»[7]. وهذا التأكيد يطرح هذا التساؤل: ما هي الميزة التي تدعو الإنسان إلى حبّ المؤمنين الفقراء أكثر من سائر المؤمنين؟

التقرّب إلى الله هو مقتضى الفقر

يبدو أنّ أحد أسباب التأكيد على حبّ الفقراء هو استحقاقهم للحبّ أكثر من غيرهم. فمناط كون المرء محبوباً هو قربه من الله وإنّ إمكانيّة تقرّب الفقراء إلى الله هي أكثر ممّا عند غيرهم. فالثراء بطبيعته يقضي بغفلة المرء عن ربّه وابتلائه بالغرور والتكبّر. فأمثال هؤلاء المصابين بالآفات والابتلاءات والذين تملأ طريقهم الموانع والعقبات قد لا يصلون إلى الهدف أو يبلغونه متأخّرين على الأقلّ. فقد ذكرت الآيات القرآنيّة أنّ الإنسان إذا شعر بالغنى والقدرة فإنّه لا يذعن للحقّ ويصاب بالغرور والعصيان: «**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ**»[8]. بالطبع هذا لا يعني أنّ الثروة هي العلّة التامّة للابتعاد عن الله جلّ شأنه. فكما هي الأعراض الجانبيّة التي تذكرها الكتب الطبّيّة للأدوية فإنّ هذه المسائل هي من قبيل الاقتضاءات وهي تعني أنّها قد تؤثّر في بعض الظروف وقد لا تؤثّر في ظروف أُخرى. فإنّ شعور الإنسان بالاستغناء يقتضي حالة الطغيان والغرور. لكنّه من الممكن أن لا يُبتلى المتربّي في مدرسة الأنبياء بالغرور والكبر، بل قد يكون أكثر تواضعاً من غيره بكثير أيضاً. ولهذا فمن حيث إنّ

الفقراء هم عادةً أقلّ ابتلاء من غيرهم بالغرور والتكبّر والطغيان وأمثال ذلك فإنّهم أقلّ مرضاً من غيرهم، وإنّ ما يكون أقلّ مرضاً يحظى بمحبوبيّة أكبر.

الإخلاص في محبّة الفقراء

الدليل الآخر على كون محبّة الفقراء مطلوبة يرتبط بالمحبّ نفسه. فقد لا تنطوي محبّتنا للفقراء على ما تحتويه محبّتنا للأغنياء من الأغراض؛ إذ قد يكون حبّ المرء لذوي الامتيازات من قبيل أصحاب المناصب والعناوين والثروات وما إلى ذلك بدافع الإفادة من امتيازاتهم، ممّا لا يجعل محبّتهم خالصة لوجه الله. أمّا في محبّة الفقير فلا نعثر على هذا الدافع؛ إذ ليس لدى الفقير ما يُسيل لعاب الإنسان. وعلى هذا فإنّنا عندما نحبّ المؤمنين الفقراء تكون محبّتنا أكثر خلوصاً، أمّا إذا تدخّلت عوامل أُخرى في هذه المحبّة كالثروة ولوازمها، من قبيل المنصب والمكانة الاجتماعيّة، فقد يكون حبّ المرء لأمثال هؤلاء لأمله في أنّهم قد ينفعونه في ساعة العسرة ممّا يجعل حبّه لهم مشوباً بدوافع نفسانيّة ودنيويّة.

معيار معرفة الحبّ في الله

قد جاء في جميع الروايات «**في الله**» الملاحظة الأُخرى التي تسترعي الانتباه في هذا المجال هي أنّ قيد «**المتحابّين في الله**» :التي تشير إلى كون محبّة الآخرين مطلوبة؛ كقوله. وهنا يكمن السؤال التالي: ماذا «**في الله**» يعني هذا القيد؟ وما هو المعيار لمعرفة إن كان حبّ المرء للآخرين في الله أم ليس فيه؟

فمن المؤكد أنّه ثمّة دوافع عديدة للحبّ. وإنّ بمقدور الإنسان أن يختبر بعض هذه الدوافع بنفسه. فإذا كانت المحبّة لله مثلاً لم تؤثّر تصرّفات الطرف المقابل فيها؛ فإذا أحبّ الإنسان الشخص الفلانيّ في الله ولأجله، سيكون الأمر عنده سيّان إن قابله هذا الشخص بالوفاء أو بالجفاء.

المعيار الآخر الذي باستطاعة الإنسان قياسه بنفسه نوعاً ما هو أنّه إذا كانت محبّته في الله فإنّها ستكون أكبر لكلّ من هو أكثر قرباً من الله، وإلاّ فعليه أن يشكّ في كون هذه المحبّة لله أو لأمر آخر.

لقد ذكرت الأحاديث الشريفة خصوصيّات لأُولئك الذين يحبّون الآخرين في الله، ومن جملتها ذلك الحديث المعروف الذي يقول فيه الحواريّون لعيسى (على نبيّنا وآله وعليه السلام): « **يا روح الله مَن نجالس؟ قال: مَن يُذَكّركم اللهَ رؤيتُه ويزيد في عِلمكم منطقُه ويُرَغّبكم في الآخرة عملُه**»[9]. فمن الواضح أنّ المرء سوف يحبّ مثل هذا الشخص في الله؛ فرؤيته تذكّرك بالله لا بالشيطان والهوى، وكلامه

يزيد في علمك ولا يجرّك إلى الغفلة ويلهيك بلغو لا طائل تحته، بل وحتّى إذا صمت فإنّ مشاهدة سلوكه يُرَغّبك في الآخرة والعمل لها. ولابدّ أنّكم رأيتم من العظماء من هم على هذا النحو.

آية الله المشكينيّ كان رمز التقوى

المرحوم الشيخ المشكينيّ كان هكذا، فهو حتّى في فصل الشتاء كان يرتدي عباءة رقيقة ورخيصة الثمن. فما كانت الألبسة الفاخرة والزينة وأمثال ذلك لتخطر في بال المرء أبداً عند رؤيته. فعلى الرغم من أنّني عاشرته قرابة الأربعين عاماً، فإنّني لم أسمع منه يوماً كلاماً في غير محلّه أو غير نافع، فكلامه كان إمّا في العلم والتقوى أو في المسائل الاجتماعيّة لمعرفة التكليف. ويندر أن يوجد شخص لا يتأثّر من مجلسه.. أذكر أنّه أثناء لقاء أعضاء مجلس خبراء القيادة مع السيّد القائد (حيث كنّا نتشرّف بلقاء سماحته مرّتين في السنة) كان سماحته يأمره بوعظ الحاضرين فكان المرحوم المشكينيّ يعظ أعضاء المجلس في حضرة السيّد القائد. كان يطرح في موعظته روايات عالية المضامين ومباحث مفيدة ونفيسة وما كان من أمثالي إلاّ ويقع تحت تأثير كلامه ويشعر بالتحوّل. فمن الواضح أنّ المرء يحبّ أشخاصاً كهؤلاء، وأنّ حبّه لا يكون من أجل أُمور دنيويّة. فهذا الحبّ نابع من أنّ رؤية الشيخ المشكينيّ، وسلوكه، والاستماع إلى كلامه، ومعرفته بالحقّ، وعرفانه بالجميل وتواضعه كانت جميعها تذكّر الإنسان بالله. لكنّه ثمّة أمثلة أُخرى غير الشيخ (رحمه الله) تكون مشتبهة وقد تتدخّل فيها دوافع أُخرى.

تأثير العمل الخالص

من المناسب أن يسعى الإنسان إلى معرفة دوافعه عن كثب ويحاول نبذ الأُمور التي تنطوي على طابع دنيويّ وشخصيّ. فعندما يكون العمل خالصاً لوجه الله، يكون أثره عميقاً جدّاً؛ وهو أثر لا يمكن مقارنته حتّى بالعمل الذي يشوبه واحد بالمائة من الشوائب. فالخلوص بالنسبة لتأثير الأعمال هو إكسير لا يمكن قياسه بأيّ شيء آخر. إذ يقول الباري عزّت آلاؤه: «**أنا خير شريكٍ مَن أشركَ معي غيري في عملٍ عمِلَه لم أقبله إلاّ ما كان لي خالصاً**»[10] هذا وسأُسلّم سهمي لهذا الشريك قائلاً له: أيضاً لك! بالطبع إنّ الله لا يبخل في تقبّل هذا أيضاً ولا يدعه من دون أثر، لكنّ ما يكون ذا أثر أصيل وعميق كالكيمياء التي تحوّل النحاس إلى ذهب فهو العمل الخالص. فإن كان العمل كذلك فسيكون ذا أثر في دنيا فاعله وفي آخرته أيضاً. رزقَنا الله وإيّاكم ورزق الجميع من ذلك.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

تذكُّر أنعم الله هو السبيل لمحبّته تعالى

تحدّثنا في المحاضرات الماضية قليلاً عن سبل اكتساب محبّة الله وقلنا إنّ الحياة الدنيا تقتضي ممّن هم في المراتب الدنيا من المعرفة أن يحبّوا الأشياء المادّية والمحسوسة بحيث تمثّل الأخيرة لذّة لهم بشكل أو بآخر. لكنّه بعد أن يمنّ الله تبارك وتعالى علينا بمعرفته، كلٌّ بحسب استحقاقه، فإنّ أرضيّةً لمحبّته ستتهيّأ في أنفسنا شيئاً فشيئاً. وفي مثل هذه المراتب، وكما أوصت به الروايات، فإنّه من أجل نيل محبّة الله عزّ وجلّ يتعيّن – عادةً – التفكّر في آلائه جلّ وعلا. فإنّ الإنسان قد جُبل بشكل فطريّ وطبيعيّ على حبّ كلّ من يسدي إليه خدمة أو ينعم عليه. ومن هنا فإنّنا كلّما أطلنا التفكير في أنعم الله وآلائه وتعمّقنا في إدراك قيمتها، فإنّه سيتهيّأ في قلوبنا مناخ أوسع لمحبّته. ولحسن الحظّ فإنّ الكثير من آيات الذكر الحكيم تنهض بهذا الدور وتذكّر بأنعم الله سواء تحت شعار «آيات الله» أو تحت عنوان ذكر النعم الخاصّة، !وهي تحاول أن تجعلنا نستوعب مدى نفاسة هذه النعم التي منّ الله بها علينا

لكنّنا معاشر البشر، وبسبب ما ابتلينا به من صنوف الضعف وألوان النقص، لا نفكّر بقيمة آلاء الله **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** » :كما ينبغي. والقرآن الكريم في هذا المجال يخاطبنا بهذه اللهجة ؛ فهو يقول لنا: يجب أن تفكّروا بهذه النعم وتتمعّنوا في مدى قيمتها ونفاستها [1]«**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** كي تشكروها. لكنّنا، وعلى الرغم من أنّنا نقرأ هذه الآية عشرات المرّات، فإنّنا وبكلّ بساطة ننبذها في كلّ مرّة وراء ظهورنا ولا نفكّر حتّى لبضع دقائق بمدى عظمة هذه النعم. ونحن لا ننتبه إلى أنفسنا ولا نصاب بالصدمة إلاّ عندما تتعرّض إحدى هذه النعم للخطر وعندها نكتشف مدى أهمّية هذه النعمة. لكن لما كان الله تعالى يعلم بأنّ سلّم رقيّنا وتسامينا يكمن في محبّتنا إيّاه فإنّه يتغاضى عن تقصيراتنا ويعيد تذكيرنا بآلائه ويوعز لأنبيائه بأن ذكّروا الناس بأنعمي كي يحبّوني. وقد يشتكي الله من البشر ومع كلّ هذا التأكيد من قبل الله على الشكر فإنّ .[2]«**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**» :أحياناً بقوله .الشاكرين قليلون

المحبّة الأصيلة والمحبّة التابعة

من الواضح أنّ هذا النمط من المحبّة يتعلّق أصالةً بالنعم؛ فنحن ابتداءً نكتسب محبّة غير الله ثمّ ننفذ من خلالها إلى محبّة الله. فمثلاً عندما يفكّر المرء بعينه يكتشف أنّه يحبّها وأنّه على استعداد لبذل الملايين بل المليارات من أجل سلامتها. فإذا أدركنا مدى حبّنا لهذه العين فإنّنا سنحبّ مَن وهبنا إيّاها. وهذا النمط

من الحبّ هو بسبب قصورنا وضعفنا، ولكن ما في اليد حيلة. وحتّى بالنسبة لمعرفة الله فإنّنا نتعامل معها بنفس الطريقة. لكنّه ثمّة نمط آخر من الناس في مجال اكتساب معرفة الله وهم الذين يخاطبون ربّهم قائلين: «**بك عرفتُكَ وأنت دللتَني عليك**»[3] ؛ أي: إلهي! لقد عرفتك عن طريقك وليس عن طريق مخلوقاتك. فأنت مَن أخذتَ بيدي ودللتني عليك. وحتّى فيما يخصّ المحبّة فقد رُوي عن أئمّتنا (صلوات الله عليهم أجمعين) أنّهم يخاطبون ربّهم بمضامين من قبيل: إنّي أُحبّك أنت لا غيرك، ولا أُحبّ غيرك إلاّ فيك. وهي مضامين غاية في الروعة، لكنّنا لا ندرك معانيها جيّداً. بيد أنّه بمقدورنا أن نصدّق إجمالاً بأنّ لله عبيداً يدركون أُموراً هي أعلى من مستوى فهمنا بكثير.

فنحن – بشكل طبيعيّ – نعرف النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ابتداءً، لكنّنا كلّما أطلنا التفكير في عظمة نعمة وجوده (صلّى الله عليه وآله) والبركات التي حظينا بها بسببه ازداد حبّنا له. لكن النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) نفسه يقول: أحبّوني في الله، وأحبّوا أهل بيتي وعترتي فيَّ. بمعنى أنّ المحبّة تبدأ من الأعلى؛ فمحبّة الله هي البداية، ثم تسري هذه المحبّة من الله إلى نبيّه (صلّى الله عليه وآله) ومن الأخير إلى أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء وأولادهما المعصومين (سلام الله عليهم أجمعين)، ثمّ إلى أوليائهم من بعدهم. وهذا هو شكل من أشكال سريان المحبّة الذي لا نعرفه جيّداً.

وللتقريب إلى الأذهان نقول: تنقسم المحبّة إلى نمطين: أصيلة وتابعة. وقد تحدّثنا في المحاضرة السابقة بعض الشيء عن علّة كون المحبّة في الله من أفضل العبادات، حيث ذكرنا أنّ هذه المحبّة ليست فعلاً مستقلاً، بل إنّها شعاع من نفس محبّة الله عزّ وجلّ. إذ لابدّ من وجود دافع لأفعالنا نحن البشر، أيّاً كانت هذه الأفعال. لكنّنا عندما نحبّ الله تعالى، فإنّنا سنحبّ أولياءه بشكل عفويّ. وليس لهذه المحبّة سبب وعلّة، فإنّ محبّة المقرَّبين إلى الله لا تمثّل فعلاً منفصلاً عن محبّة الله نفسه. وهذا بالضبط كحبّنا لضريح السيّدة فاطمة المعصومة (سلام الله عليها) وباب حرمها وتراب صحنها على خلفيّة حبّنا لها (سلام الله عليها). ويطلق على هذا النمط من المحبّة: المحبّة التابعة.

إذا كان للإنسان محبوب واحد أصيل فقط وهو الله، فإنّه النموذج المثاليّ للمحبّة في الله. إذ لابدّ أن يكون للإنسان محبوب واحد، وأن لا يحبّ باقي الأشياء إلاّ لكونها من متعلّقات وأشعّة هذا المحبوب. فهذا سيّد الشهداء (عليه السلام) يخاطب ربّه في يوم عرفة قائلاً: «**أنتَ الذي أزلتَ الأغيار عن قلوب أحبّائك حتّى لم يحبّوا سواك**»[4]. ففي هذه الحالة تكون محبّة رسول الله وأهل بيته المنتجبين (عليهم السلام) شعاعاً من محبّة الله تبارك وتعالى، وليس شيئاً آخر. وهذا اللون من المحبّة له قيمة عظمى. فإذا أصبح الإنسان بهذه الصورة فسيكون مصداقاً للرواية القائلة: «**فلو عَلِم الخلقُ ما محلّه**... [المحبوب] **عند الله ومنزلته لديه ما تقرّبوا إلى الله إلاّ بتراب قدميه** [عند الله]»[5].

تحويل المحبّة التابعة إلى محبّة أصيلة

إنّ الواصلين إلى محبّة الله عن طريق محبّة المخلوق تكون محبّتهم للآخرين مستقلّة في بداية الأمر؛ بالضبط كما يحبّ المرء وردة بسبب جمالها ورائحتها العطرة، إذ قد لا يخطر بباله بدايةً أنّه ثمّة ربّ قد خلقها. لكنّه إذا فكّر بالذي منح هذه الوردة كلّ هذا الجمال، وتأمّل بكيفيّة نشوء هذه الألوان الزاهية والعطور الفوّاحة من تراب ملوّث وأسمدة قذرة، وبمن دبّر كلّ ذلك، فإنّه ستتهيّأ له سبيل للتحوّل من هذه المحبّة .إلى محبّة الله جلّ شأنه

فهذه المحبّة ستحدّ تدريجيّاً من استقلاليّة محبّة المخلوق وتحوّلها إلى محبّة تابعة. فالفنّ الذي مارسه الله عزّ وجلّ في عمليّة خلق روح الإنسان هو فنّ مدهش للغاية؛ فالمحبوب الذي يكون – بادئ ذي بدء – محبوباً للمرء بالأصالة يفقد بريقه وتتلاشى أصالته! فالمتمعّن في كلام أئمّتنا المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) يلاحظ كيف أنّهم يرسمون للإنسان هذا الطريق بغية تربيته؛ فهم يحثّونه – بدايةً – على **ما التقى مؤمنان قطّ فتصافحا إلاّ كان أفضلهما إيماناً أشدّهما حبّاً** » :حبّ الصديق المؤمن ومن الواضح أنّ قيمة هذه المحبّة تنبع من إيمان المحبوب، وأنّ أنواعها الأُخرى ليست هي .[6]«**لصاحبه** .ذات قيمة، بل وقد تكون أيضاً مثاراً للمتاعب وعقبة أمام محبّة الله عزّ وجلّ

وقد نقلت الروايات ما مضمونه أنّ المؤمنَين إذا تصافحا شعّ نور أحدهما على الآخر وكان لقاؤهما سبباً **إنّ ملَكاً مرّ برجل على باب فقال له: ما يقيمك** » :في ازدياد نورانيّتهما. كما وجاء في الخبر أيضاً **على باب هذه الدار؟ فقال: أخٌ لي فيها أردتُ أن أسلّم عليه. فقال له الملَك: بينك وبينه قرابة أو نزعَتكَ إليه حاجة؟ فقال: لا ما بيني وبينه قرابة ولا نزعتني إليه حاجة، إلاّ أُخُوَّة الإسلام وحُرمَتُه فأنا أسلّم عليه وأتعهَّدُه لله ربّ العالمين. فقال له الملك: أنا رسول الله إليك وهو يُقرئك السلام ويقول لك: إيّايَ زرتَ ولي تعاهدْتَ وقد أوجبتُ لك الجنّة وأعفيتك من غضبي وأَجَرتُك من** ؛ أي: إنّك لم تأت لزيارة أخيك المؤمن هذا بل أتيت لزيارتي وعليّ ضيافتك. وجاء في [7]«**النار انّ المؤمنَين إذا التقيا فتصافحا أنزل الله عزّ وجلّ بينهما مائة رحمة تسعة وتسعون** » :حديث آخر وبالطبع فإنّه لا تكون لهذه المحبّة كلّ هذه الميزات إلاّ إذا كانت في .[8]«**منها لأشدّهما حبّاً لصاحبه** .الله وليس لأجل حبّ الدنيا

محبّة المؤمن جسر لمحبّة الله

إنّ محبّة المؤمن لأخيه هي السبيل الممهّدة لنموّ المعرفة والمحبّة والكمال والتقوى ومن ثمّ التقرّب إلى الله تعالى، وهذا هو الداعي من وراء كلّ هذا الحثّ من قبل الله تعالى عليها. فعندما يلتقي المؤمنُ بالفاسق يشعر وكأنّ رائحته النتنة قد زكّمت أنفه، أمّا إذا التقى بالمؤمن وتجاذب معه أطراف الحديث — حتّى وإن لم يقصد من ذلك شيئاً — انبعث في قلبه نور وأحسّ برغبة أكبر في القرآن وأهل البيت (عليهم السلام) وذكر الله تعالى.

وعلى الرغم من كون هذا النمط من المحبّة متعلّقاً بالمخلوقات، غير أنّه إذا لم يتعارض مع محبّة الله سبحانه وتعالى وكان عنصر الإيمان داخلاً في متعلَّقه — ولو بعنوان جزء العلّة — فإنّه سيؤدّي تدريجيّاً إلى اشتداد إخلاص المحبّة لله وازديادها، وهو ما سيقود شيئا فشيئا إلى سلب الأصالة من المخلوقات المحبوبة. وفي هذه المرحلة لا تعود ثمّة محبّتان، بل محبّة الله فحسب. وبتعبير آخر فإنّ الإنسان في هذه الحالة لا يعود يرى في وجود أخيه المؤمن غير الأمور الإلهيّة وهو يحبّه لأجلها. وهنا تتحوّل هذه المحبّة الأصيلة إلى محبّة تابعة. وهذا لعمري شيء عجيب، وإنّ المرء إذا ما اهتمّ به فسوف يتولّد عنده بسبب هذا الضرب من المحبّة للأُمور الدنيويّة وبتوفيق من الله عزّ وجلّ وعبر التوسّل بأهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام)، مزيد من الالتفات والتوجّه إلى الله تعالى.

ومن هنا فلابدّ لنا من الاهتمام بمحبّة أحبّاء الله وأن نحبّ بالدرجة الأُولى كلّ مؤمن. فإن كان المؤمن من ذرّية رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فستناله محبّة أكبر لأنّ انتسابه لأولياء الله أشدّ. ثمّ تنمو محبّة الإنسان لكلّ مَن فاق الآخرين في التقوى والعلم حتّى يصل به الأمر إلى حبّ أعظم العلماء لا لسبب إلاّ لأنّه خادم متواضع من خدّام صاحب الزمان (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف)؛ فإمامنا الخمينيّ الراحل (قدّس سرّه) كان يقول عند ذكره الوجود المقدّس المتمثّل بصاحب الزمان: «روحي وأرواح العالمين لتراب مَقدَمه الفداء».

تعجّب الاستاذ المصريّ من كلام الإمام الراحل

يروي أحد فضلاء الحوزة العلميّة الكبار عندما تشرّف بحج بيت الله الحرام في السنوات الأُولى بعد انتصار الثورة الإسلاميّة: في يوم من الأيّام كنت جالساً في المسجد الحرام وإذا بشخص كان يجلس إلى جواري يقول لي بالعربيّة: أأنتَ إيرانيّ؟ قلت: أجل. قال: أنا استاذ جامعيّ من مصر أحبّ الإمام الخمينيّ ولديّ سؤال. فقلت: تفضّل. قال: في الحقيقة إنّني كنت أتصوّر أنّ العالم الإسلاميّ لم ينجب بعد النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) شخصيّة بعظمة الإمام الخمينيّ، لكنّني أحياناً أسمع في كلامه عبارة تثير عجبي، فهو أحياناً ينوّه باسم شخص ثمّ يقول: روحي لتراب مقدمه الفداء! فمن هو هذ

الشخص؟ قلت: هذا الشخص هو نفسه المذكور في كتبكم. ثم نقلتُ له رواية أو روايتين عن صاحب الزمان (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف).

لاحظوا أنّ هذا الاستاذ المصريّ قد نال حبّ صاحب الأمر (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف) من خلال حبّه الإمام الخمينيّ (رحمه الله). فالاختلاف الموجود بين الوجود المقدّس المتمثّل بالإمام الراحل (رضوان الله تعالى عليه) والوجود المبارك لصاحب العصر والزمان (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف) هو بحيث إنّ نفس الإمام الخمينيّ يقول: إنّ تراب قدمه أشرف من روحي، وإنّ روحي هي فداء لهذا التراب! وهذه لنعمة عظمى قد وهبها الله لنا نحن الشيعة على وجه الخصوص. بالطبع إنّ الكثير من أهل السنّة قد بلغوا مراتب من محبّة أهل البيت (عليهم السلام)، لكنّ هذا الفخر قد حظينا به نحن الشيعة خاصّةً وهو أنّنا نحبّ أهل البيت (عليهم السلام). لكنّ الشيطان لا يكفّ عن الكيد لنا حتّى في هذه القضيّة.

علامة المحبّة الحقيقيّة

عندما نطّلع على الروايات التي تتحدّث عن أهمّية محبّة أهل البيت (عليهم السلام) ونشعر بالحبّ تجاههم، فإنّ الشيطان يبعث في أنفسنا الغفلة والغرور حتّى نتصوّر أنّنا بلغنا مرامنا، وأنّه ما دمنا نحبّ الإمام الحسين (عليه السلام) فلنفعل ما يحلو لنا! فإنّ الحسين سيشفع لنا وتصبح أفعالنا مقبولة. وقد اهتمّ أهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) أنفسهم بهذه القضيّة وحذّروا أصحابهم من الابتلاء بهذه الغفلة. إذ يروي المرحوم الشيخ الطوسيّ حديثاً عن الإمام الباقر (سلام الله عليه) يخاطب فيه جابر الجعفيّ قائلاً: « **يا جابر! بلّغ شيعتي عنّي السلام، وأَعلِمهم أنّه لا قرابة بيننا وبين الله عزّ وجلّ، ولا يُتقرَّب إليه إلاّ بالطاعة له. يا جابر! مَن أطاع الله وأحبّنا فهو وليّنا، ومن عصى الله لم ينفعه حبّنا** »[9]. وقد روي عنه (عليه السلام) أيضاً: « **والله ما معنا من الله براءة، ولا بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله حجّة** »[10]؛ أي: ما لنا حجّة تُكره الله على قبول قولنا؛ إذ أنّه: « **فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ** »[11]، وليس لأيّ أحد على الله حجّة. ثمّ يقول (عليه السلام): « **ولا نتقرّب إلى الله إلاّ بالطاعة فمَن كان منكم مطيعاً لله تنفعه وَلايتنا ومَن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا، ويحَكم لا تغترّوا، ويحَكم لا تغترّوا** »؛ أي لا تخدعوا أنفسكم، فسبيل السعادة هو العبوديّة لله، وإنّ محبّتنا إنّما تنفعكم إذا سرتم في هذا الطريق، لكنّها لا تحلّ محلّها.

كما وجاء في أُصول الكافي عن أبي جعفر الباقر (سلام الله عليه)[12] أيضاً: « **أيكتفي مَن انتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت** »؟! وهل يستقيم أمره بمجرّد ذلك؟! ثمّ يقول (عليه السلام): « **فلو قال: إنّي أُحبّ رسول الله، فرسولُ الله (صلّى الله عليه وآله) خير من عليّ (عليه السلام** »؛ فلو

كان الأمر بالقول والحبّ، فليقلْ إنّي أُحبّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فهو أفضل من عليّ (عليه السلام). أي: لو كان مجرّد القول والحبّ نافعاً فليقل: إنّي أحبّ محمّداً (صلّى الله عليه وآله) عوضاً عن قوله: إنّي أُحبّ عليّاً (عليه السلام). فمجرّد هذه الادّعاءات لا تجدي نفعاً، إذ أنّه (يتابع عليه السلام): «**ليس بين الله وبين أحد قرابة**»[13]، وإنّ سبيل المدّعِي لحبّنا ليست هي سبيل المعصية. وحتّى لو ارتكب الخطيئة وزلّت قدمه فعليه أن يتوب من فوره ويهرع إلى التوسّل، ويستحي منّا بأنّه كيف يكون من شيعتنا ثمّ يأتي بهذه الفعلة، وذلك كي يتدارك أمره بسرعة.

فلابدّ أن يكون للمحبّة عمق. فإن أحببنا رسول الله وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) فمن منطلق أنّهم محبوبون عند الله. فيتعيّن أن تكون هذه المحبّة فرعاً لمحبّة الله كي يتحقّق منها الأثر الذي نصبو إليه. ومن هنا يتحتّم أن نعيش دوماً حالة التأرجح بين الخوف والرجاء وأن لا نتصور بأنّ المحبّة في قولهم: إنّ محبّة أهل البيت (عليهم السلام) تحلّ كلّ معضلة، هي من ذلك النمط الدنيويّ! فهذا ضرب آخر من المحبّة عبّر عنه أئمّتنا (عليهم السلام) بما مضمونه أنّ: مَن أحبّنا لم يخالفنا.

بالطبع لا ينبغي أيضاً أن ندع اليأس يتسلّل إلى أنفسنا بأنّه ما دمنا من أهل المعاصي فإنّه ليس ثمّة سبيل للنجاة. فقد كان هناك ممّن أمضوا سنين طويلة من أعمارهم غارقين في المعاصي ومقترفين لأفظع الذنوب، لكنّ حبّ أهل البيت (عليهم السلام) كان مستقرّاً في أعماق قلوبهم، حتّى برز في نهاية المطاف فأصلح أمرهم في لحظة الامتحان والاختبار. والنموذج البارز لأمثال هؤلاء هو المرحوم طيّب (رحمه الله)[14].

درجات محبّة الله

19

إشارة

سبق أن ذكرنا أنّ لمحبّة الله درجات وأنّ الناس مختلفون في هذا المضمار، بل قد يشكّ البعض حتّى في إمكانيّة حبّ الله أساساً. ويرى البعض الآخر بأنّه لا معنى لمحبّة الله ويفسّرها بأنّها ضرب من محبّة أنعمه ورحمته تبارك وتعالى. لكنّ الإنسان إذا أدرك في الجملة بأنّه إذا أحبّ نعمة أحبّ وليّها ومنعمها أيضاً فإنّه سيقتنع شيئاً فشيئاً بأنّه بالإمكان حبّ الله عزّ وجلّ.

المحبّة الراقية

إنّ مشكلتنا الأساسيّة نحن معاشر البشر هي أنّ إدراكنا، في المراحل الابتدائيّة، هو إدراك مادّي وحسّي؛ فلا يتوفّر لنا التصديق والإيمان بغير المحسوسات بسهولة، ولا نستطيع – تبعاً لذلك – أداء حقّها. فكلّنا — مثلاً – يعتقد بأنّ الله حاضر في كلّ مكان، لكنّنا مادمنا لا نرى الله بأبصارنا فإنّنا لا نرتّب على اعتقادنا هذا ما ينبغي من الأثر، بل وننساه أحياناً بالكامل. وهذه المشكلة تنطبق على كلّ ما يتعلّق بالله بما في ذلك محبّته سبحانه تعالى.

فأغلب أصناف الحبّ الذي نمارسه إنّما هو متعلّق بالمحسوسات؛ فبدءاً من أشكال المحبّة الطبيعيّة والفطريّة بين الأمّ وولدها، ووصولاً إلى ألوان المحبّة الاكتسابيّة، وغيرها من أنواع المحبّة المتداولة فإنّ لجميعها منشأ حسيّاً وإنّ الاتّصال بالمحبوب والأُنس به يتمّ فيها عبر الأدوات الحسّية. وهذا بالتحديد هو ما يجعلنا نواجه المشاكل عندما نحاول الرقيّ والتسامي من الحسّيات إلى ما فوقها. ومن هنا فإنّه يتعيّن علينا، من أجل نيل هذه المعارف، الاستعانة بالواصلين إلى هذه المراتب والدرجات، ونخصّ بالذكر الأنبياء والمعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) الذين قد بلغوا ذروة الكمال بأنفسهم. ولا ينطبق ذلك على المحسوسات. فعندما يواجه المرء أمراً سارّاً فإنّه يميل إليه في بادئ الأمر. فإذا تكرّرت هذه العلاقة مرّتين أو أكثر فإنّه سيبدأ بالأُنس بهذا الشيء أكثر فأكثر ويلتذّ بمعاودة الارتباط به. وليس الإنسان في مثل هذه المواطن بحاجة إلى كثير من العناء، فعندما تتوفّر جاذبيّة المحبّة في امرئ فإنّ الإنسان يشعر بالحبّ تجاهه عفويّاً حتّى يبلغ هذا الحبّ تدريجيّاً درجة بحيث لا يكون في ميسور الإنسان نسيانه إذا أراد ذلك.

أمّا فيما يختصّ بالله جلّت آلاؤه فعلى الرغم من كلّ هذا التأكيد على ذكره فإنّه يتحتّم علينا أن نُجهد أنفسنا ونطيل التمرّن إذا ما أحببنا أن نكون ذاكرين له. والحال أنّه إذا نشأت في قلوبنا محبّة جادّة تجاه الله تعالى فسوف لا نعود بحاجة إلى بذل جهد كبير من أجل ذكره. فالذين ذاقوا لطائف حبّه جلّ وعلا فإنّهم يعدّون ذلك سرّاً بينهم وبين ربّهم ويبذلون قصارى جهدهم في أن لا يذكروا الله كثيراً أمام الآخرين كي لا يلتفت أحد إلى حالهم. فإذا ما أدركنا – بفضل أحاديث المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين)، لاسيّما ما ورد عنهم من أدعية ومناجاة — بأنّ هناك – حقّاً – أُموراً من هذا القبيل، فإنّنا سنلتفت حينها إلى التفكير بما ينبغي صنعه لننال نحن أيضاً غرفةً من هذا المحيط المترامي الأطراف.

الغرور يقطع طريق الرقيّ

القضيّة الأُخرى هي ما قد نصاب به من غرور بسبب هذا الحبّ فنخال أحياناً أنّنا قد بلغنا غاية الكمال وأنّه ليس ثمّة فوق ما وصلنا إليه من قمّة. فالإنسان في مثل هذه الحالة يحدّث نفسه بأنّ الآخرين لا يفهمون مثل هذه الأمور، فهم يلهثون وراء لذائذ الدنيا المادّية ويسأمون من صلاتهم، أمّا أنا

فإنّ لي مع الله أُنساً وفي صلاتي لذّة. فهنا تكمن معضلة أُخرى وهي: كيف لنا أن ننتشل أنفسنا من حبائل الشيطان هذه ونقف على حقيقة أمرنا وما هو محلّنا من الإعراب أساساً؟

فلقد أكّدت بعض الروايات على ضرورة عدم تناول الطُعم الذي أعدّه لكم الشيطان وأن لا تتصوّروا، إذا أحسستم بمحبّةٍ تجاه الله وأوليائه، بأنّكم قد حلّقتم في الأعالي وأصبحتم خيرة البشر. فلابدّ أن نفهم أنّه، على الرغم من أنّ هذا النمط من المحبّة العابرة والسطحيّة حقيقيّ ولسنا كاذبين في ادّعائنا إيّاها، فإنّ ثمّة بوناً شاسعاً بين هذه المحبّة وتلك التي بلغها عباد الله الصالحون الكُمَّل. لكنّنا — مع شديد الأسف — نغفل أحياناً ويخدعنا الشيطان الرجيم فنكتفي بما لدينا من محبّة سطحيّة. وقد اهتمّت بعض الأحاديث بهذه القضيّة وهي ضرورة عدم التوقّف عند هذه الأشكال السطحيّة والضحلة من المحبّة، وأن يعرف المرء – ابتداءً – المقدار الحقيقيّ الذي يحمله من الحبّ، ثمّ يعلم أنّه ثمّة أُناس يفوقونه في مراتب الحبّ، كي لا يصاب بالغرور والكِبْر.

آثار المحبّة

إنّنا عندما نحبّ شخصاً ما فإنّنا — في المرحلة الأُولى — نُسرّ لرؤياه لكنّ عدم رؤيته لا تضيرنا. أمّا إذا نمت محبّتنا له بعض الشيء فإنّنا سنحسّ بنقص إذا لم نره ليوم واحد. فإن اشتدّت هذه المحبّة أكثر فإنّنا سننزعج كثيراً من عدم رؤيا المحبوب وسنعجز عن أداء واجباتنا الأُخرى حتّى نراه. كما أنّ من آثار المحبّة الأُخرى هي محاولة المرء إسداء خدمة لمن يحبّ. فإن زاد حبّه له قليلاً فإنّه سيرغب في تقديم كلّ ما يملك له. فهل نحن – الذين ندّعي حبّ الله تعالى وأوليائه – هكذا حقّاً؟! هل إنّنا نشعر بالنقص يا ترى إذا لم نذكرهم يوماً؟! وهل سنحس بفراغ إذا لم نقرأ زيارة سيّد الشهداء (عليه السلام) ليوم واحد، إذا كنّا قد عقدنا العزم على قراءتها يوميّاً مثلاً؟! فالمرء يحسّ بذلك مع أصدقائه العاديّين، وإذا شعر بأنّ شيئاً ما يسرّهم فإنّه سيفعله لا محالة؛ فإن لم يكن لديه مال، اقترض كي يصنع ما يُدخل السرور على محبوبه. بل إنّ مجرّد شعور المرء بأنّ محبوبه راضٍ عنه يُعدّ أعظم لذّة بالنسبة له. فهل إنّنا كذلك في علاقتنا مع الله عزّ وجلّ وأوليائه؟!

مع شديد الأسف فإنّنا نقصّر أحياناً في القيام بأمر ما حتّى مع علمنا بأنّه يسرّ صاحب الزمان (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف). وعلى الرغم من علمنا أحياناً بأنّه (عليه السلام) يستاء من بعض التصرّفات ويشتكي من قيامنا بها لكنّ الشيطان يخدعنا فنعمد إلى ممارستها. إذن لـمّا كان الله قد حبانا بدرجة من محبّته ومحبّة أوليائه فإنّه يتعيّن علينا أوّلاً أن نقيس الدرجة التي نحتلّها نحن وما هو مقدار محبّتنا، ثمّ نحاول تطويرها، وأن ندرك كيف كان أحبّاء الله الحقيقيّون وأين وصلوا.

علامات محبّة الله

القلب المحبّ لله يحبّ كثيراً النصب لله، والقلب » :روي عن أمير المؤمنين (سلام الله عليه) أنّه قال فإنّ من جملة علامات محبّة الإنسان شخصاً ما هي رغبته في تقديم .[1]«**اللاهي عن الله يحبّ الراحة** خدمة له وتحمّل المتاعب لأجله، بالضبط كالأمّ التي تلتذّ بعنائها مع ولدها وسهرها على راحته. وهذه الرواية تشير إلى هذه القضيّة؛ فهي تقول: إنّ القلب الذي يحبّ الله يرغب في أن يتعب لأجله، أمّا القلب الغافل الخالي من محبّته تعالى فهو يفتش عن الدعة والراحة. فإنّ المحبّ لله يكون دائم الاجتهاد في تحقيق ما يحبّه ربّه، أمّا الذي لا يحظى بهذه المحبّة فإنّه يكتفي بالصلاة الواجبة كحدّ أعلى، فليس هو من .أهل المثابرة والعمل وبذل الجهد، بل من طلاب الراحة

فإنّ من أمارات عدم مصداقيّة ادّعاء حبّ الله تبارك وتعالى وأهل بيت الرسول (صلوات الله عليهم أجمعين) هي إعفاء النفس من المسؤوليّة ساعة العمل وتحويله إلى الآخرين. فحبّنا لهم لا يتجاوز رغبتنا في رؤيتهم والكون إلى جوارهم، في حين أنّنا لا نتحمّل العمل من أجلهم. وفقاً للرواية أعلاه يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): إنّ علامة قلب المحبّ لله هي حبّه للعمل وبذل الجهد في سبيله إلى حدّ التعب ؛ فلا تظنّن أنّك قادر على «**فلا تظنّ يا ابن آدم أنّك تدرك رفعة البرّ بغير مشقّة**» :والإعياء. ثمّ يقول بلوغ المقامات العالية من دون تعب ونصب. فبعض الناس يتجشّمون عناء التفكير بأنفسهم ولا يكلّون من المطالعة، لكنّهم ليسوا من أهل العمل والمثابرة في سبيل الله، فهم لا يطيقون طرق باب فقير ليلاً أو **فإنّ الحقّ ثقيل** » .قضاء حاجة صديق لهم. وهم ليسوا ممّن يخطون خطوة واحدة في طريق هداية امرئ فإذا رُمت بلوغ المقامات العالية فعليك الاستعداد لتحمّل الأعباء الثقيلة من ناحية وتذوّق المرارات .«**مُرّ** من ناحية أُخرى. فلا تتصوّرنّ أنّ بالإمكان قضاء عمرك كلّه بالحلاوة والسرّاء والابتسامة. فالأمر ليس !على هذا المنوال. فإنْ رغبت في الوصول إلى مكانة مرموقة فلابدّ من الكدّ وتحمّل المرارات

درجات محبّي الله

وجاء في خبر آخر أنّ أعرابيّاً سأل أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يبيّن له درجات المحبّين (وهو لأمر عجيب حقّاً؛ فنحن المتعلّمون لا نسعى إلى معرفة درجات المحبّين، لكنّ أعرابيّاً يأتي إلى أمير المؤمنين **أدنى درجاتهم مَن استصغر طاعتَه،** » :(طالباً منه بيان هذه الدرجات له). فأجابه (عليه السلام ؛ فأدنى درجات المحبّ هي أنّه لا [2]«**واستعظم ذنبَه، وهو يظنّ أنْ ليس في الدارين مأخوذٌ غيرُه** يرى لخدماته وطاعاته قيمة؛ فكلّ ما أتى به من عمل فإنّه يراه قليلاً ولا يليق بالله تعالى. بالطبع إنّ المراد من هذا المحبّ هو ذلك الذي نفذت المحبّة إلى أعماق قلبه، وإلاّ فيمكن الحصول على أشكال المحبّة

السطحيّة من دون ذلك. فالمحبّون يعلمون أنّ المحبّة الخالصة هي شعور المحبّ بعدم أداء حقّ المحبوب وأنّه لابدّ من فعل المزيد مهما فعل من أجله.

العلامة الثانية هي: «**واستعظم ذنبه**»؛ فإنْ أتى المحبّ بما لا يرضي المحبوب لم يعد قادراً على النظر في وجهه. فهو يخشى أن يؤنّبه بالقول: تدّعي محبّتي ثمّ تتصرّف معي بهذه الطريقة! لقد خُنتني! فلقد فعلتَ ما نهيتك عنه! لكنّنا – مع الأسف – ندّعي حبّ الله تعالى ثمّ نذنب من الصباح حتّى المساء بكلّ سهولة. فليست هذه هي المحبّة الحقيقيّة. فالمحبّة الحقيقيّة هي أن يرى المرء ذنبَه – مهما كان صغيراً – على جانب من الضخامة بحيث لا يستطيع رفع رأسه في حضرة ربّه.

أمّا العلامة الثالثة فهي أصعب من الثانية بعض الشيء؛ وهي قوله: « **وهو يظنّ أنْ ليس في الدارين مأخوذٌ غيرُه**»؛ فهو لا يستعظم ذنبه فحسب، بل يتصوّر أنّه ليس في هذه الدنيا من سيؤاخَذ على فعلته غيره. فهو يقول: إنّ ذنبي أعظم من ذنوب الجميع، فذنب الجميع قابل للغفران، لكنّني سيّئ إلى درجة أنّ ذنبي لا يغتفر. وهذه لعمري منتهى ما يمكن أن يستشعر الإنسان في حضرة محبوبه من ذلّة ومهانة. وسبب ذلك هو أنّ ذروة المحبّة هي أن يفنى المرء في محبوبه. وهي حالة لا يشعر المحبّ فيها بالأنانيّة لنفسه، وأنّه يفدي كلّ ما لديه لمحبوبه. فالمحبّة تقتضي مثل هذه الأُمور. فالذي يحبّ الله حبّاً حقيقيّاً والمبتلى – بطبيعة الحال – ببعض الزلاّت يتعيّن عليه أن يستاء من هذه الزلاّت ويرى نفسه مستحقّاً لأقسى درجات التوبيخ.

حينما وصل أمير المؤمنين (عليه السلام) في كلامه إلى هنا انقلب الأعرابيّ ووقع مغشيّاً عليه، حتّى إذا أفاق قال: هل [ثمّة] درجة أعلى منها؟ فمن العظمة بمكان أن يصل الإنسان إلى مرتبة يرى نفسه أكثر إثّما من الجميع وأكثر استحقاقاً للمؤاخذة والتوبيخ منهم، فهل من درجة أعلى من ذلك؟ فقال (عليه السلام): «**نعم سبعون درجة**»؛ فهذه المرتبة التي قلتها لك هي أُولى مراتب المحبّة، وهناك ثمّة سبعون درجة أعلى منها أيضاً وإنّ المسافة بين كلّ منها هي كالمسافة بين هذا المحبّ والناس العاديّين.

على هذا الأساس فمن أجل أن نخطو في طريق محبّة الله وننال – على الأقلّ – درجتها الأُولى يتعيّن علينا أن لا ندع إلى قلبنا سبيلاً لما لا يحبّه الله تعالى، وهذا هو الذي سيدفعنا للمضيّ قُدماً في هذا الطريق. إذ يقول إمامنا جعفر الصادق (عليه السلام) في هذا الخصوص: « **إذا تخلّى المؤمن من الدنيا سَما ووجدَ حلاوة حبّ الله**»[3]؛ أي: إذا فرغ قلب المؤمن من الدنيا فإنّه سيحظى بالرفعة والعلوّ حتّى يتذوّق حلاوة محبّة الله تبارك وتعالى. لكنّ قدرة الإنسان على إنقاذ نفسه من الانشداد إلى الدنيا سهلة على اللسان، ذلك أنّ لدينا آلاف الأصناف من التعلّق بلذّات الدنيا. لكن لنعلم أنّنا إذا رُمنا تذوّق

وكان عند أهل » :حلاوة محبّة الله فما علينا إلاّ أن نطرد محبّة الدنيا من قلوبنا. ويتابع (عليه السلام) قوله ؛ فإذا رآه الناس قالوا: فقَد عقله. ولعلّكم قد شاهدتم أو سمعتم عن بعض من «**الدنيا كأنّه قد خُولِط** تنتابهم حالات غير طبيعيّة في الحبّ حيث لا يستطيعون السيطرة على أنفسهم جيّداً فيقول فيهم **وإنّما خالط القوم حلاوةُ حبّ الله فلم يشتغلوا** » .الآخرون: كأنّهم قد خولطوا وفقدوا صوابهم ؛ لكنّ الحقيقة هي أنّ محبّة الله قد تمكّنت من أعماق قلوبهم إلى درجة أنّها لم تُبق مجالاً لشيء «**بغيره** آخر فيها فلم يعودوا قادرين على الاشتغال بشيء آخر أساساً، فإنّ ما ذاقوه من المحبّة لا يدعهم يلتفتون .إلى أمر آخر بتاتاً

مقدار المحبّة

مَن أحبّ أن يعلم كيف منزلته عند الله » :وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أيضاً في حديث آخر فإنّ أَحَبّ شيءٍ عند المحبّ هو أن يبادله المحبوب الحبّ. فعندما .[4]«**فلينظر كيف منزلة الله عنده** يحبّ امرؤ شخصاً ما فإنّه يودّ أن يعرف شعور المحبوب تجاهه، وإلى أيّ درجة يحبّه، وما الذي يجول في قلبه بخصوصه. فإذا انطوى قلبنا على محبّة صاحب العصر والزمان (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف) فإنّ رغبةً ستحدونا لمعرفة رأيه (عليه السلام) فينا؟ فإذا أحبّ أحدٌ أن يعرف موقف الله منه وإلى أيّ مدىً يحبّه، فعليه أن ينظر إلى المكانة التي يحتلّها الله جلّ وعلا في قلبه. فكما أنّ ذكرنا متلازم مع ذكر الله، فإنّ هذين أيضاً متلازمان؛ فإنّ منزلتنا ومقامنا عند الله وأوليائه يعتمد على ما نكنّه لله ولأوليائه في قلوبنا .من منزلة ومقام

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هو: ما السبيل إلى معرفة منزلة الله عندنا؟ فنحن نكثر التنويه بعظمة الله ومنزلته على مستوى الكلام، ونسجد على الأرض ونمرّغ جبيننا في التراب بين يديه، لكنّ هذا كلّه لا يشير إلى مدى عظمة ومكانة الله عندنا. فلو دار الأمر بين شيئين، أحدهما أُخرويّ يريده الله تعالى، والآخر دنيويّ تهفو إليه نفوسنا، فأيّهما سنرجّح على الآخر؟ فلو كنّا نشاهد في بيتنا الفلم الذي نحبّه على شاشة التلفزيون فحان وقت الصلاة، فهل سنميل إلى متابعة الفلم يا ترى أم سننتظر قول المؤذّن: «الله أكبر» كي نهرع إلى الصلاة؟ ففي مثل هذا الموقف إذا ترك الإنسان مشاهدة التلفزيون وقام للصلاة .عُلم حينها أنّ له مكانة كبيرة عند الله عزّ وجلّ

فلنعلم أنّ حياتنا برمّتها مليئة بمثل هذه الامتحانات. فهل إنّنا نقوم بما نقوم به يا ترى بدافع رغبتنا فيه أم على خلفيّة أنّ الله يطلبه منّا؟ وهل إنّنا ندرس لأنّنا نحبّ ذلك أم لأنّ صاحب الزمان (عجّل الله تعالى فرَجه الشريف) يريد منّا ذلك؟ وهل إنّنا نذهب لتبليغ الدين لما يعود علينا ذلك بالمصلحة والنفع أم لأنّه

يُدخل السرور إلى قلب إمامنا (عليه السلام)؟ فهذه الأُمور تشير إلى مكانة الله في قلوبنا، وهي تخبرنا أيضاً بمنزلتنا عند الله. ثمّ يقول (عليه السلام): « **فإنّ كلّ من خُيِّر له أمران: أمر الدنيا وأمر الآخرة فاختار أمر الآخرة على الدنيا فذلك الذي يحبّ الله، ومَن اختار أمر الدنيا فذلك الذي لا منزلة لله عنده**» وإنّ ما يريده الله لا يحظى عنده بأهميّة. وإنّ في ذلك امتحاناً لنعلم مدى عمق ما نحمله من صنوف الحبّ ولنعرف ما هي قيمتنا ومنزلتنا عند الله عزّ وجلّ.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

مراتب محبّة الله

20

كما أشرنا فيما مضى فقد يكون سبب المحبّة اللذّة التي يشعر بها الإنسان من علاقته بالمحبوب. فإنّ مشاهدة زهرة أو سماع تغريد بلبل مثلاً يبعث على لذّة آنيّة في نفس الإنسان ممّا يدفعه إلى حبّ منشئهما. فإذا تكرّرت هذه العلاقة فإنّها سترسخ بشكل من الأشكال ممّا يؤدّي إلى أُنس المرء بالمحبوب. وفي مثل هذه الحالة فإنّ المحبّة ترتبط بما يحسّه الإنسان من لذّة تجاه المحبوب، فإذا اختفت هذه اللذّة، تلاشت المحبّة أيضاً. لكنّ المرء أحياناً يحبّ شخصاً لصفة أو لكمال ثابت فيه. فقد يحبّ الإنسان عالِماً لعلمه وتقواه ومعرفته. فمثل هذا الإنسان سيستمرّ في حبّ هذا العالِم حتّى وإن لم يره لمدّة من الزمن، إلاّ إذا طرأ تحوّل على نفس هذا العالِم.

فقد خلق الله تعالى الإنسان في هذا العالم وأودع فيه قابليّة التحوّل. وقد ضرب القرآن أمثلة على ذلك كي ننتبه ولا نتخيّل أنّ الإنسان إذا حافظ لمدّة على سلوك حسن وكمال خاصّ فإنّه سيبقى هكذا حتّى أبد الآبدين. فالله عزّ وجلّ يقول: « **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**»[1]. لقد كان هذا الرجل عالماً من علماء بني إسرائيل وكان عابداً ومستجاب الدعوة، لكنّه بات يفقد تدريجيّاً روح التقوى والإخلاص ويميل إلى الدنيا ولذائذها، حتّى وصل به الأمر شيئاً فشيئاً إلى درجة قول القرآن الكريم: «**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ**»[2]. هو فإنّ مقتضى المسير المنطقيّ والعقليّ في مثل هذه الحالات هو أن تتغيّر المحبّة إذا تغيّر المحبوب؛ فإذا كنّا نحبّ امرأ لكونه عبداً لله ومن أهل التقوى والإخلاص والعبادة، فلا يعود ثمّة معنىً لحبّنا إيّاه إذا تحوّل إلى منافق وصار عبداً للدنيا.

بيد أنّه قد يكون لموجود صفة ثابتة لا تقبل الزوال. فإن عَلِم الإنسان بثبات هذا الكمال في المحبوب، فسيدوم حبّه له ويظهر هذا الحبّ – بالتناسب – على أعماله؛ فسيذكره دوماً، ويتلفّظ باسمه باستمرار، ويحبّ كلّ سلوك منسوب إليه؛ اللهمّ إلاّ إذا ظَهَرَ في المحبّ نفسه إشكال معيّن حال دون استمرار محبّته له؛ وإلاّ فإنّ مقتضى الكمال الراسخ في المحبوب هو دوام المحبّة له. فالإنسان نفسه قد يصاب أحياناً .بآفة كالنفاق مثلاً فإذا به – بعد أن كان يحبّ امرأً لإيمانه – يبغضه لنفس هذا الإيمان

المحبّة من أجل منفعة للمحبّ

إنّ أخفض درجة من المحبّة يمكن أن نكنّها لله تعالى هو حبّه من أجل آلائه التي أسبغها علينا. بالطبع إذا اقتصر سبب محبّتنا على هذه النعمة الآنيّة، فإنّها ستزول بزوالها. فلو أحبّ العليل اللهَ لمجرّد أنّه شفاه من علّته، فإنّ هذه المحبّة ستخبو إذا عاوده المرض ثانية أو أنزل الله عليه – لمصلحة ما – مصيبة أو بلاءً آخر. وهذا ما يجعل بعض الناس يُظهرون الحبّ لله تعالى حيناً ولا يشعرون بأيّ محبّة له عزّ وجلّ حيناً آخر. أمثال هؤلاء كانوا يتوقّعون من الله أُموراً لكنّ الله لم يرَ المصلحة في إعطائهم إيّاها أو أنّه قد امتحنهم ببعض المصائب. فإذا علموا أنّ كلّ ما يحصل لهم هو من عند الله لم تصمد محبّتهم له تعالى. هذه الآفة تتعلّق بالمرتبة النازلة من المحبّة التي يكنّها الإنسان لربّه؛ فلمّا كانت العلّة المسبّبة لها ضعيفة .وقابلة للتغيير كان معلولها (أي المحبّة) ضعيفاً أيضاً

الحبّ لكمال المحبوب

لكنّ الإنسان عندما يكون في مستوى أعلى من المحبّة فإنّه يحبّ الله لكمالاته. فكما أسلفنا فإنّنا إذا أحببنا شيئاً فهو بسبب ما يملكه هذا الشيء من الكمال. بناءً على ذلك فكلّما صدّقنا أكثر بأنّ كلّ كمال فهو موجود بشكل غير نهائيّ عند الله سبحانه وتعالى، فإنّ حبّنا له عزّ وجلّ سيزداد أكثر. لكنّه، .وكما عبّر الإمام الراحل (رحمه الله)، فإنّ قضيّة تمتّع الله بهذه الكمالات لم تدخل إلى قلوبنا

المرتبة الأعلى من المحبّة هي أنّه إذا اقتضت بعض صفات الله هذه – وهي صفات كماليّة – ضررَنا في بعض الأحيان فإنّنا نستمرّ في إنجاز واجباتنا الإلهيّة والثبات على إيماننا. فبالنتيجة إنّ نفس صفة الحكمة الإلهيّة هذه هي التي تقضي بأن نُمتَحن: « **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**»[3]. فالله عزّ وجلّ يسلب منّا بعض الأُمور ويبتلينا ببعض المصائب كي يمتحننا. وفي مثل هذه الحالة إذا كان الإيمان والمعرفة، وتبعاً لهما المحبّة، ضعيفة، فقد ينتهي الأمر إلى البغض أيضاً. فإنّ سبب خروج بعض الأشخاص من الدنيا كفّاراً وعدم استعدادهم للتلفّظ

بالشهادتين ساعة الاحتضار هي أنّ لهم تعلّقات وهم يرون أنّ الله يفرّق بالموت بينهم وبين ما يحبّون. يرون كيف أنّ الله يبعدهم عن الأشياء التي بذلوا من أجلها على مدى سنين طويلة جهوداً مضنية وأحبّوها حبّاً جمّاً، ولهذا فهم غير حاضرين لنطق الشهادتين. بيد أنّ الإيمان إذا كان أكمل فسيلتفت الإنسان إلى أنّ كلّ ما يجري حوله ينمّ عن حكمة، وإنّ ملاحظة ذلك ستكون بحدّ ذاتها سبباً لنشوء المحبّة في قلبه. وهذا ما يفسّر سبب عدم انخفاض محبّة الأولياء لربّهم عند نزول النوازل، بل إنّ الأخيرة تدعوهم إلى المزيد من الالتفات لربّهم. فهم يخاطبون ربّهم بالقول: إلهي! لك الحمد أنّك أنت الذي وهبتنا هذه النعمة، ولك الحمد على أن سلبت منّا ما رأيت صلاحنا في سلبه منّا؛ ونحن نعلم أنّك ستعطينا بسبب ذلك أفضل منه في الجنّة. لك الحمد أن ألهمتنا الصبر كي نكون شاكرين لك في هذه المصيبة. ولهذا فإنّ نفس هذه المصيبة تدفع أولياء الله إلى ممارسة المزيد من العبادة لربّهم.

محبّة الله وخشيته

قد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: كيف يكون الله محبوباً مع كلّ هذا الإنذار بالعذاب وبجهنّم؟ فإنّ ربّاً كهذا هو مخيف أكثر منه محبوباً! وإنّ كثرة ما ورد في الشرع المقدّس من الأمر بالخوف من الله وخشيته يدلّ على ضرورة الخوف من الله، وإنّ الإنسان لا يحبّ من يخشاه.

أمّا الجواب على هذا السؤال فهو لا شكّ أنّ المحبّة البسيطة والسطحيّة تكون متزعزعة، فهي توجَد يوماً وتنعدم يوماً آخر. وفي مثل هذه الحالة فإنّنا سنحبّ الله تعالى حيناً، ونبغضه – والعياذ بالله – حيناً آخر: «**وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**»[4]. فقد يصل الأمر بابن آدم إلى أن يكره سماع اسم الله عزّ وجلّ، وهي حالة تأتي من سطحيّة المعرفة. أمّا إذا فكّرنا في كمالات الله سبحانه وتعالى، فسوف لا نكون هكذا. فإنّ لله جميع الكمالات بصورتها غير المتناهية، ولا يمكن قياسها بأيّ مقياس. فإن آمن الإنسان وصدّق بأنّ موجوداً ما يتمتّع بكلّ هذه الكمالات فهو لا يقدر إلاّ أن يحبّه، وكلّما زادت معرفته به، زاد حبّه له بنفس النسبة. فهو في حالة كهذه سيعدّ المصيبة والبلاء امتحاناً من قبل الله تبارك وتعالى وهو ما يهيّئ له المناخ للمزيد من التكامل. وكذا الحال مع إنذارات الله عزّ وجلّ فسيراها من دافع رحمته. يقول لنا: اخشوا جهنّم فإنّ نارها تفعل كذا وكذا، كي لا نفعل ما نستوجب به جهنّم؛ فجهنّم هي نتيجة أعمالكم؛ أي إنّ أعمالكم الدنيويّة تتحقّق في عالم الآخرة بهذه الصورة، وإنّكم أنتم الذين توقدون هذه النار بأنفسكم. فإنذار الله لنا هو لردعنا عن الوقوع في ورطة. فهو يريد منعنا عن فعل ما نستوجب به العذاب. وبناء على ذلك فإنّ نفس هذا الإنذار لابدّ أن يدعونا إلى حبّ الله أكثر.

كما أنّ من جملة الصفات التي توجب محبّة الله هي التفكير بأنّه تعالى قد أرسل إلى البشر رسلاً كي لا يؤول الناس إلى التعاسة والشقاء، وهو يحذّرنا باستمرار من أن نضلّ الطريق. فما هو الداعي من وضع علامات المرور مثلاً؟ أهي لمصلحة الناس أم للإضرار بهم؟ من الواضح أنّ وجود هذه العلامات هو لصالح الناس وهي موضوعة في الطرقات لتفادي الأخطار؟ فإن أدرك الإنسان أنّ الإنذارات الإلهيّة هي كعلامات الطريق وُضعت لتنبيه الناس إلى الأخطار ولئلاّ يضلّوا الطريق، فسيزداد لربّه حبّاً. وفي النهاية إذا علم المرء أنّ كلّ هذه الأُمور، حتّى الإنذار من العذاب الأبديّ، صادرة عن حكمة، فإنّه سيحبّ الله أكثر. فالحكمة هي صفة كماليّة، وإنّ كلّ كمال هو محبوب. ولما لم يكن للحكمة الإلهيّة من نهاية، فلابدّ من حبّها حبّاً لا نهاية له.

انتقال المحبّة إلى أولياء الله

سبق أن قلنا في المحاضرات الفائتة إنّ من جملة العلامات على كون محبّة الله حقيقيّة هي أنْ نرى كم نحن نحبّ أولياءه جلّ وعلا، ومدى اهتمامنا بالسلوكيّات التي ينصحنا الله تعالى بها. علينا أن نعلم أنّ محبّة النبيّ الأكرم وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) واتّباعهم في مقام العمل تُعدّ من لوازم محبّة الله عزّ وجلّ: «**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**»[5]. وقد مررنا في المحاضرة الماضية على رواية تذكر هذا المعنى؛ وهو أنّه إذا خُيّر الإنسان بين عملين أحدهما دنيويّ والآخر أُخرويّ فقدّم الأُخرويّ على الدنيويّ فهو دليل على حبّه لربّه، أمّا إذا فضّل العمل الدنيويّ فهو علامة على أنّ محبّته للدنيا أكبر. فعندما تحبّون الإمام الخامنئيّ (حفظه الله) فلابدّ أن تُكنّوا لولده الحبّ أيضاً لانتسابه إليه. فإنْ عشق الإنسانُ امرَأً فإنّه سيعشق حتّى الزقاق والمنزل الذي يعيش فيه. فهذه الأُمور هي من لوازم المحبّة. وبناءً عليه فإذا كنّا نحبّ أهل البيت (عليهم السلام) فيتعيّن أن نحبّ كلّ ما يتعلّق بهم. وأوّل مرتبة من هذا الحبّ هو حبّ السادة من أولادهم. وهذه أوّل نسبة. فإذا ارتكب شخص علويّ معصية فإنّ علينا أن نحبّه أيضاً لعَلَويّته. بالطبع لابدّ من بغض ما أتى به من معصية، لكنّ انتسابه هذا هو انتساب ثابت ويتعيّن محبّته لهذا السبب.

الفناء في المحبوب

إذا أحبّ المرء عليّاً (عليه السلام) فإنّه سيحبّ صفاته أيضاً، وإنّ من جملة صفات كماله، والتي يعرفه العالم بأسره بها، هي عدله. فما بالنا لو أنّنا كنّا في زمان عليّ (عليه السلام) فأصابنا بسبب عدله ضرر، فما كنّا سنصنع حينها؟ هل كنّا سنحبّه أيضاً؟ من الواضح أنّ ذلك سيخلّف في نفوس ذوي الدرجات الضعيفة من المحبّة – شاءوا أم أبوا – أثراً سلبيّاً وسيخفض من مستواها. لكنّ التاريخ يحدّثنا عن أُناس

زاد حبّهم لعليّ (عليه السلام) بسبب عدله ذاك، بل وعندما كان يصيبهم ضرر مادّي فإنّ حبّهم تجاهه . لم يكن يخفّ. ليس هذا فحسب، بل كان يتضاعف أيضاً

روي أنّ غلاماً أسودَ دخل على أمير المؤمنين (عليه السلام) وأقرّ أنّه سرق، فلم يقبل منه أمير المؤمنين ذلك حتّى سأله ثلاث مرّات وقال: «يا أمير المؤمنين طهّرني فإنّي سرقتُ». وحيث إنّ المجرم إذا اعترف ثلاث مرّات كان على القاضي إجراء الحدّ عليه، أمَر (عليه السلام) بقطع يده (أربع أصابع من يده). فحمل الأسود أصابعَه ومضى فاستقبله ابن الكوّاء فقال: «من قطع يدك؟ فقال: ليثُ الحجاز وكبش العراق ومُصادم الأبطال، المنتقم من الجُهّال، كريم الأصل، شريف الفضل، مَحِلّ الحرمين، وارثُ المشعرَين، أبو السبطين، أوّل السابقين، وآخر الوصيّين من آل يٰس، المؤيَّد بجبرائيل، المنصور بميكائيل، الحبل المتين، المحفوظ بجند السماء أجمعين، ذاك والله أمير المؤمنين..». فتعجّب ابن الكوّاء وقال له: «قطَع يدك وتثني عليه؟! قال: لو قطّعني إرباً إرباً ما ازددتُّ له إلاّ حبّاً. فدخل [ابن الكوّاء] على أمير المؤمنين وأخبره بقصّة الأسود. فقال (عليه السلام: **يا ابن الكوّاء إنّ محبّينا لو قطّعناهم إرباً إرباً ما ازدادوا لنا إلاّ حبّاً، وإنّ في أعدائنا من لو ألعقناهم السمن والعسل ما ازدادوا لنا إلاّ بغضاً**». ثمّ قال للحسن (عليهما السلام): «**عليك بعمّك الأسود**» أي إذهب وأحضره إلى هنا. «فأحضر الحسن الأسود إلى أمير المؤمنين وأخذ [أمير المؤمنين] يده ونصبها في موضعها... وتكلّم بكلمات يخفيها فاستوت يده»[6]؛ أي شُفيت ببركة دعاء أمير المؤمنين (عليه السلام). فمن الواضح أنّ محبّة من هذا القبيل لم تكن بسبب مال أعطاه إيّاه أمير المؤمنين أو لاحترامه له. لقد كانت نابعة من كون عليّ عبّداً لله ومظهراً لعدله وحبّه ولطفه و... عزّ وجلّ. وحيث إنّ هذه الصفات ثابتة فإنّ المحبّة في هذه الحالة تكون راسخة أيضاً ولا تتغيّر. أمّا لو كان سبب الحبّ مثلاً بعض الدنانير التي أعطاه إيّاها أمير المؤمنين، لَذَهب حبّه .عندما يسترجع منه المال

علينا أن نسعى لأن نُخرج محبّتنا من حالتها السطحيّة والطفوليّة وأن نعطيها عمقاً أكبر. فلابدّ أن يكون للمحبّة دعامة قويّة. يجب أن تكون لنا بالله وبأوليائه معرفة راسخة لا تهزّها الرياح وأن لا نكتفي بمجرد نقلٍ أو كلام أو شعر في وصفهم. يقول المرحوم العلاّمة الطباطبائيّ (رحمة الله عليه): قمت – امتثالاً لنصيحة أُستاذي المرحوم العلاّمة القاضي – بمطالعة مجموعة كتاب «بحار الأنوار» لمرّة واحدة لأستخرج منه سنن النبيّ وما كان يحبّه (صلّى الله عليه وآله) وأُحاول العمل بها ولو لمرّة واحدة على الأقلّ. فوصلت أثناء البحث إلى رواية تقول إنّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) كان يحبّ جراد البحر. يقول العلاّمة: فقرّرت أن أتناول هذا الطعام ولو لمرّة واحدة في عمري لمحبّة النبيّ له. ففتّشتُ عنه كثيراً حتّى عثرت عليه وتناولته

في النهاية. هكذا تكون المحبّة؛ فالمحبّ يجتهد في مجال التشبّه بالمحبوب، واقتفاء أثره، والفناء فيه ما أمكنه ذلك.

مراتب محبّي أهل البيت (عليهم السلام)

جاء في الخبر أنّ رجلاً دخل على أبي عبد الله الصادق فقال (عليه السلام) له: «**ممّن الرجل**»؟ أي: من أيّ طائفة من الناس أنت؟ فقال: من محبّيكم ومواليكم؟ فقال له الإمام (عليه السلام): «**لا يحبّ الله عبدٌ حتّى يتولاّه، ولا يتولاّه حتّى يوجِب له الجنّة**»؛ فإنّ الذي يحبّنا يحبّ الله والذي يحبّ الله تعالى يقبل الله ولايتَه ويصير وليّه، وإذا قبل الله ولاية امرئ فسيدخله الجنّة لا محالة. ثمّ قال له (عليه السلام): «**من أيّ محبّينا أنت**»؟ أي: من أيّ طائفة من محبّينا؟ فلم يحر الرجل جواباً. فبادر سدير الصيرفيّ، وكان من خواصّ أصحابه (عليه السلام)، الإمامَ بالسؤال: «وكم محبّوكم يا ابن رسول الله»؟ أي: كم هي أصناف محبّيكم؟ فقال: «**على ثلاث طبقات: طبقةٌ أحبّونا في العلانية ولم يحبّونا في السرّ**» فهم يظهرون لنا المحبّة لكنّهم لا يحبّوننا في الباطن. إنّهم يلهجون باسمنا في الظاهر، أمّا فكرهم وسلوكهم ومنهاجهم فمنهاج الطواغيت: «**أحبّونا في العلانية وساروا بسيرة الملوك، فألسنتهم معنا وسيوفهم علينا**». ولعلّ الإمام (عليه السلام) قد قصد بهذا المقطع بني العبّاس الذين كانوا يظهرون محبّة أهل البيت (عليهم السلام) أمام بني أميّة لكنّهم لم يقلّوا عن الأخيرين في تجاسرهم على أهل البيت (عليه السلام) وما أنزلوه فيهم من المصائب.

«**وطبقة يحبّوننا في السرّ ولم يحبّونا في العلانية**» فهم لأنّ الظروف لم تسمح لإظهار محبّتهم لنا. «**ولعمري لئن كانوا أحبّونا في السرّ دون العلانية، فهم الصوّامون بالنهار، القوّامون بالليل، ترى أثر الرهبانيّة في وجوههم، أهلُ سلمٍ وانقياد**» يسايرون الناس في الظاهر لكنّهم يُكنّون لنا في أعماق قلوبهم الحبّ؛ فهم ينصاعون لنا دون نقاش.

أمّا الطبقة الثالثة: «**وطبقةٌ يحبّوننا في السرّ والعلانية. هم النمط الأعلى، شربوا من العذب الفرات[7] وعلموا تأويل الكتاب، وفصل الخطاب، وسبب الأسباب، فهم النمط الأعلى؛ الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل، مسّتهُم البأساء والضرّاء وزُلزلوا وفُتنوا، فمن بين مجروح ومذبوح، متفرّقين في كلّ بلاد قاصية، بهم يشفي الله السقيم، ويُغني العديم، وبهم تُنصَرون، وبهم تُمطَرون، وبهم تُرزَقون، وهم الأقلّون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً وخطراً**»[8].

إنّ لمحبّينا في السرّ » :(وهنا قال الرجل: فأنا من محبّيكم في السرّ والعلانية. قال جعفر (عليه السلام والعلانية علامات يُعرفون... خلالٌ أوّلها أنّهم عرفوا التوحيد حقّ معرفته، وأحكموا علم توحيده وعملوا «والإيمان بعد ذلك بما هو وما صفته، ثمّ علموا حدود الإيمان وحقائقه وشروطه وتأويله .بها، فصاروا من محبّينا الخُلَّص بعد اجتيازهم هذه المراحل

وفّقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

(درجات محبّة أهل البيت (عليهم السلام

21

محبّة الله ومحبّة الآخرين

لقد ذكرنا أنّ لمحبّة الله مراتبَ مختلفة وأنّها في مرتبتها النهائيّة تغمر قلب الإنسان تماماً ولا تذر لمحبّة غيره .[1]«**أنت الذي أزلتَ الأغيار عن قلوب أحبّائك حتّى لم يحبّوا سواك**» :جلّ وعلا موطئ قدم
وهنا تتبادر الشبهة التالية إلى الذهن وهي: إذا كان الحال هذا فأين هو موضع حبّ أهل البيت (عليهم السلام) وأولياء الله والمؤمنين وغيرهم من الذين ورد الثناء على محبّتهم؟ وهل إنّ الواصل إلى المحبّة الكاملة لله تعالى لا يعود يحبّ رسول الله وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين)؟ وهل إنّه لا يعود يحسّ بالحبّ تجاه أبويه وأولاده وزوجه؟! وقد وصلنا في ردّنا على الشبهة المبيّنة أعلاه إلى النتيجة التي مفادها أنّ هذه الأنماط من المحبّة لا تتحقّق بشكل مستقلّ إذا اكتملت المحبّة لله، أمّا في المراتب الأقلّ كمالاً من محبّة الله، فمن الممكن أن تتحقّق تلك الأشكال من المحبّة بصورة مستقلّة ولا يتعيّن حينها إلاّ بذل الجهد بالطبع حتّى المحبّة .[2]«**وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ**» :لتغليب محبّة الله عليها؛ حيث يقول تعالى الكاملة التي يكنّها الإنسان لربّه لا تتنافى مع محبّته لأهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) وهذا يرجع إلى كون الأخيرة هنا غير مستقلّة بذاتها وأنّها تُعدّ من شؤون محبّة الله تبارك وتعالى. وقد أشرنا مراراً وتكراراً إلى أنّ حقيقة المحبّة هي بحيث إنّ الأخيرة إذا تحقّقت سطع نورها على لوازم المحبوب وآثاره أيضاً. ومن حيث إنّ أهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) ليسوا مستقلّين بحدّ ذاتهم، وإنّ كمالهم يكمن في

كونهم عباداً كاملين لبارئهم، فإنّه بالإمكان حبّهم إلى جانب المحبّة الكاملة لله العليّ القدير. وهذا الحبّ الأوّل ليس فقط لا ينافي الحبّ الكامل لله عزّ وجلّ، بل إنّه مطلوب وواجب أيضاً.

حصّة المحبّة في ثمن الجنّة

جاء في الخبر عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عن أبيه (عليهما السلام) عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ أنّه قال: «**جاء أعرابيّ إلى النبيّ** (صلّى الله عليه وآله) **فقال يا رسول الله، هل للجنّة من ثمن** [يدفعه الإنسان ليحصل عليها]؟ **قال: نعم. قال ما ثمنها؟ قال: لا إله إلا الله، يقولها العبد الصالح مخلصاً بها**» أي: كلمة التوحيد بشرط أن يقولها عبد صالح عن إخلاص. **قال: وما إخلاصها** [كيف تكون عن إخلاص]؟ **قال: العمل بما بُعثتُ به في حقّه، وحبّ أهل بيتي. قال: وحبّ أهل بيتك لَمِن حقّها** أي إذا قلت لا إله إلا الله عن إخلاص واستوفيت العمل بالتوحيد فهل لابدّ من محبّة أهل بيتك أيضاً؟ **قال: أجل، إنّ حبّهم لأعظم حقّها**»[3]، وذلك لقوله تعالى: «**قُل لاّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**»[4]؛ فالأجر الحقيقيّ الذي طالب به النبيّ (صلّى الله عليه وآله) هو مودّة أهل بيته (عليهم السلام) ليس غير وهو في الواقع ثمن الجنّة. فقد أوجب النبيّ على الناس الاعتقاد بالجنّة في مقام التشريع، وفي مقام التكوين فإنّه هو (صلّى الله عليه وآله) من يقسّم الجنّة بين الناس. وهذا ما يفسّر كون أخيه عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) «**قسيم النار والجنّة**»[5]. من هذا المنطلق فإنّ محبّة أهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) ليست فقط غير زائدة إلى جانب محبّة الله، بل إنّ الثانية لا تكتمل من دونها وإنّه من المتعيَّن على الإنسان أن يعرف هذا الحقّ ويؤدّيه لأهله.

لقد روينا في المحاضرة الماضية حديثاً عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) يقسّم فيه محبّي أهل البيت إلى ثلاث طوائف: فطائفة من الناس يحبّونهم بالسرّ والعلانية، وآخرون يحبّونهم بألسنتهم أمّا قلوبهم فمع غيرهم، وأمّا القسم الثالث منهم فيحبّونهم بقلوبهم لكنّهم يفتقدون همّة إظهار هذه المحبّة والسعي والمثابرة في هذا الطريق. وعند التأمّل في كلامه (عليه السلام) نكتشف أنّ هؤلاء الذين يُظهرون المحبّة ليسوا هم من محبّي أهل البيت في الحقيقة؛ فهم يتظاهرون بحبّ أهل البيت (عليهم السلام) لكنّ قلوبهم مع غيرهم، بل وإنّ سيوفهم قد تكون عليهم أيضاً. فهؤلاء هم كالمنافقين الذين يُظهرون الإيمان إذا اجتمعوا مع المؤمنين، أمّا إذا التقوا بأصحابهم فيقولون: لقد كنّا نستهزئ فقط: «**وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُواْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**»[6]. وبناءً عليه فإنّ أصحاب هذه الطائفة ليسوا في الحقيقة من المحبّين، والمَقْسَم في الرواية هم مُدّعُو المحبّة؛ وكأنّه (عليه السلام) يقول: المدّعون لمحبّتنا هم ثلاثة، فبعضهم منافق وهو لا يحبّنا حبّاً حقيقيّاً أبداً. وانطلاقاً من هذه الرواية فإنّ المحبّين الحقيقيّين لأهل البيت هم على صنفين؛ فصنف منهم تكون قلوبهم، بالإضافة إلى أيديهم

وألسنتهم، مع أهل البيت (عليهم السلام)، أمّا الصنف الثاني فهم الذين قلوبهم فقط مع أهل البيت أمّا على مستوى العمل فلا يقدّمون أيّ تضحية في سبيلهم. بالطبع هناك من الروايات ما يقسّم محبّي أهل :البيت إلى ثلاثة أقسام سنورد هنا نموذجين منها

درجات الجنّة والنار

قال رسول الله (صلّى الله عليه » :يروي أبو حمزة الثماليّ عن إمامنا زين العابدين (عليه السلام) أنّه قال وهنا يقسّم (عليه السلام) درجات .[7]«**وآله): في الجنّة ثلاث درجات وفي النار ثلاث دركات** الجنّة والنار بشكل عامّ إلى ثلاثة أقسام. بالطبع لقد ذكرت بعض الأحاديث للجنّة سبعين درجة وذكر بعضها الآخر لها عدداً أكبر من الدرجات الفرعيّة أيضاً، لكنّها – من زاوية معيّنة – تقسّم بشكل عامّ ؛ فأعلاها هي من «**فأعلى درجات الجنّة لمن أحبّنا بقلبه ونصرَنا بلسانه ويده**» :إلى ثلاث درجات نصيب أُولئك الذين قدّموا في سبيلنا التضحيات بأيديهم وأعمالهم مضافاً إلى حبّهم إيّانا بقلوبهم ؛ فالطبقة «**وفي الدرجة الثانية مَن أحبّنا بقلبه ونصرنا بلسانه**» .وإظهارهم لذلك على ألسنتهم الوسطى من الجنّة هي من حصّة أُولئك الذين أحبّونا بقلوبهم وأظهروا حبّهم لنا بألسنتهم لكنّهم قصّروا ؛ أمّا الطبقة النازلة منها فيحتلّها الذين «**وفي الدرجة الثالثة مَن أحبّنا بقلبه**» .بحقّنا على صعيد العمل يحبّوننا حقّاً، لكنّهم يفتقدون همّة التبليغ لنهجنا والدفاع عنّا والتضحية في سبيلنا. وهذا ما يتعلّق بالجنّة. :أمّا النار فهي الأُخرى تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأوّل هو أسفلها، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله ، وهو مخصّص لمن يبغض أهل البيت (عليهم السلام) بقلبه، وينال [8]«**فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**» **وفي أسفل الدرْك من النار مَن أبغضنا بقلبه وأعان علينا** » :منهم بلسانه، وينشط ضدّهم في عمله ؛ ففي القسم الثاني «**بلسانه ويده، وفي الدرك الثانية من النار مَن أبغضنا بقلبه وأعان علينا بلسانه وفي الدرْك الثالثة** » .منها أُولئك الذين يُظهرون بغضهم لنا بألسنتهم لكنّهم لا يمارسون ضدّنا عملاً مّا ؛ فهؤلاء يضمرون البغض لنا لكنّهم لا يروّجون ولا يشجّعون على العداوة «**من النار مَن أبغضنا بقلبه** .لنا

درجات محبّة أهل البيت

قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لأمير » :وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنّه قال ؛ **فإنّه مَن قرأها مرّة فكأنّما قرأ ثُلُث** «**المؤمنين (عليه السلام): إنّما مَثَلُك مَثَل** «**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ** وقد .«**القرآن، ومَن قرأها مرّتين فكأنّما قرأ ثلثَي القرآن، ومَن قرأها ثلاث مرّات فكأنّما قرأ القرآن** كان هذا الحديث – وهو أنّ قراءة سورة التوحيد تعادل ثواب قراءة ثلث القرآن وأنّ مَن قرأها ثلاثاً

فكأنّما قرأ القرآن كلّه – معروفاً في ذلك الزمان. ثمّ يقول (صلّى الله عليه وآله) له: إنّ محبّتك يا عليّ لا تشبه الذكر والصلاة وأعمال الجوارح، فمحبّة أمير المؤمنين لا تتناسب أبداً مع الأعمال الأُخرى
وكذلك مَن أحبّك بقلبه كان له مِثل ثلث ثواب أعمال » :(للإنسان. يقول (صلّى الله عليه وآله
ومَن أحبّك بقلبه ونصرك بلسانه كان له مثل ثلثَي ثواب أعمال » وهنا القياس بأعمال العباد «**العباد**
فإذا كان المرء، بالإضافة إلى حبّه إيّاك بقلبه، يُبدي هذا الحبّ على لسانه وينقله إلى الآخرين «**العباد**
ومَن أحبّك بقلبه ونصرك بلسانه ويده كان له مثل ثواب » .كان له ثواب ثلثي أعمال العباد
؛ فهو بالإضافة إلى ذلك كلّه مستعدّ للتضحية في سبيلك حتّى إذا كلّفه ذلك حياته، فإنّ [9]«**العباد**
في حبّ أهل البيت (عليهم] **فهُم النمط الأعلى**» .الله سيعطيه ثواب كلّ أعمال العباد الصالحة
الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرعُ إليهم من ركض الخيل، مسّتهم البأساء والضرّاء وزُلزِلوا .[(السلام
؛ فإنّ مصيرهم في ساحة القتال [10]«**وفُتِنوا، فمن بين مجروح ومذبوح متفرّقين في كلّ بلاد قاصية**
.من أجلنا هو إمّا الجرح أو الذبح

وكما تلاحظون فهناك ملازَمة في هذا الحديث بين محبّة أهل البيت (عليهم السلام) ونزول البلاء
إنْ كنتَ تحبّني فأعِدَّ » :والمصائب. فإنّ النبيّ الأعظم (صلّى الله عليه وآله) يقول في رواية أُخرى أيضاً
، وكانوا في قديم الزمان يرتدون في الحرب، للوقاية من النبال، ما يشبه [11]«**للفقر تجفافاً أو جلباباً**
الدرع ويسمّى «التجفاف»، بل ويضعونه على خيولهم أيضاً؛ والمعنى: إن كنت تحبّنا حقّاً فأعدّ ما تحفظ
:به نفسك من البلاء! كما ويروي أمير المؤمنين (عليه السلام) عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قوله
أي السيل الهابط من قمّة الجبل [12]«**والله للفقرُ أسرعُ إلى محبّينا من السيل إلى بطن الوادي**»
إلى أسفل الوادي. فكن يقظاً، فإنْ كنتَ رجلَ نزال، فاستعدّ! فهذا الإمام الحسين (عليه السلام) أيضاً
والله البلاء والفقر والقتل أسرع إلى مَن أحبّنا من ركض البرَاذين ومن السيل إلى » :يقول
.؛ والبراذين هي الخيول المعَدّة للحمل، والصِمر هو المحلّ الذي يستقرّ فيه الماء بعد انحداره[13]«**صِمرِه**

العلاقة بين المحبّة والبلاء

والسؤال المطروح هنا هو: لماذا لابدّ لمن تزداد محبّته لأهل البيت (عليهم السلام) أن يُبتلى بالفقر والمحن؟ ما هذه المنظومة الإلهيّة التي توجب ازدياد البلاء لكلّ من تكون محبّته لأهل البيت أكثر من غيره؟ وهذا التساؤل يقودنا إلى سؤال أعمق وأوسع حول أصل الامتحان ألا وهو: لماذا يمتحن الله تبارك وتعالى عباده؟ فإن كان الله يعلم مَن مِن عباده سيدخل الجنّة ومَن منهم سيذهب إلى النار فلماذا يأتي بهم إلى هذه الدنيا ليمرّوا بكلّ هذه المراحل ويُبتلوا كلّ يوم بشتّى صنوف الامتحانات والشدائد؟

ويتعيّن .[14]الإجابة على هذا التساؤل تتطلّب بحثاً مسهباً وقد تناولناه في الماضي في مواضع أُخرى القول في الجملة: إنّ «الامتحان» هو من المفاهيم التي أكّد عليها القرآن الكريم عبر عدّة مفردات ك :«الامتحان» و«البلاء» و«الاختبار» و«التمحيص» وهو من السنن الإلهيّة القطعيّة؛ لقوله تعالى ؛ فالله إنّما خلق الموت والحياة في هذا [15]«**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**» العالم أساساً ليمتحنكم. وجواباً على السؤال أعلاه نقول: لابدّ من تفسير التعبير بالامتحان، حاله حال العديد من التعابير الأُخرى الواردة بخصوص الله عزّ وجلّ. يقول علماء الكلام والتفسير حول مثل هذه التعابير: إنّ سَوق أمثال هذه التعابير يأتي لتفهيمنا نحن البشر، وهي تنطوي على وجوه نقص لابدّ من إقصائها فيما يتّصل بالباري جلّ وعلا. فنحن معاشر البشر عندما نمتحن إنساناً فإنّنا نبغي في الأعمّ الأغلب رفع جهلنا حوله. لكن ليس هذا هو هدف الله تبارك وتعالى من الامتحان، بل إنّ هدفه هو توفير مناخ يساعد على إبراز ما يستتر في صدور الناس، بل إنّ هذا العالَم قد خُلق أساساً من أجل ذلك. فالله عزّ وجلّ يعلم بما سيجري على النطفة بعد انعقادها وإلى أين سينتهي بها الأمر، لكنّه ما لَم يمتلك الإنسان الاستعداد للكفر والإيمان والفهم والشعور، فإنّه لا يكون لنموّه وكماله معنىً. فإنّ فلسفة وجود هذا العالم هي تهيئة الظروف لتكامل الإنسان. فكما أنّ جسم الطفل ينمو وتطرأ عليه تغييرات جمّة منذ مرحلة النطفة وحتّى يبلغ أشدّه ويصير شابّاً، فحتّى على صعيد المعنويّات فإنّه من أجل أن يبلغ .ما يطلب، عليه أن يختار بنفسه وأن لا تكون له على الله حجّة

فأصل الامتحان في هذا العالم هو من السنن الإلهيّة، وإنّ كلّ مَن يجتاز مرحلة إلى مرحلة أعلى منها يشتّد امتحانه طبعاً؛ بالضبط كصعوبة امتحانات السنة الثانية بالنسبة للسنة الأُولى وكلّما انتقل الطالب إلى مرحلة دراسيّة أعلى فإنّ عليه خوض امتحان أصعب. وكذا على الصعيد المعنويّ، فإذا نما الإنسان وتكامل على هذا الصعيد فإنّ عليه خوض اختبارات أشقّ. فمن أجل حصول المرء على كمال يكون له أثر كبير على سعادته ولا يمكن قياسه مع سائر الكمالات فإنّه سيواجه امتحانات غاية في الصعوبة والشدّة. فعلى إنسان كهذا أن يثبت كم هو صامد على محبّته، وكم هو مستعد لتحمّل المشاقّ في سبيل محبوبه، من دون أن يَقطِب له حاجب، بل أن يكون مسروراً من حيث إنّه يستطيع أن يثبت لمحبوبه كم .قدّم من التضحيات في سبيله، بل إنّ إنساناً كهذا يلتذّ ممّا يقاسيه من البلايا

الحبّ يقصي كلّ غريب

فمحبّة أهل البيت (عليهم السلام) هي موهبة لا يمكن قياسها بأيّ شيء آخر. فلا تُعطىٰ مثل هذه الفضيلة لأيّ أحد بسهولة ولابدّ من نيل الأهليّة لحيازتها. فمن أجل الحصول على أوّل درجاتها يتمّ إخضاع المرء إلى امتحان بسيط، فإنْ تكامَل قليلاً، اشتدّ الامتحان بعض الشيء، وكلّما تقدّم أكثر على

هذا الطريق زاد الامتحان صعوبة. حتّى يصل هذا الكمال إلى المرتبة التي بلغها أصحاب سيّد الشهداء (عليه السلام) الذين كان عليهم أن يخوضوا ذاك الامتحان في يوم عاشوراء. فلقد قالوا: لو أنّنا نُقتل سبعين مرّة ثمّ نُبعَث فسنواصل هذا الدرب. لقد أقسموا ولقد صدّقهم أبو عبد الله (سلام الله عليه) أيضاً. فلم يكن ادّعاؤهم ذاك زيفاً. فلقد تهيّأت حينها الظروف بحيث أُتيح لهم أن يثبتوا إنْ كانوا حقّاً على استعداد للتضحية أم لا.

تأسيساً على هذا فإنّ سبب تعرّض محبّي أهل البيت (عليهم السلام) لامتحان أصعب هو أنّ الموهبة التي وهبهم الله إيّاها لا تُقاس بأيّ شيء آخر. فإن رغبوا في الاستمرار في هذا الطريق، فما عليهم إلاّ تحصيل الأهليّة له واجتياز هذه المراحل بالتدريج. فإنّ قولهم (عليهم السلام) إنّ محبّينا سيُبتلون بصنوف البلايا فهو لإثبات صدق مدّعاهم وتوفير الأرضيّة لهم للمزيد من الرقيّ. وهذا النموّ والرقيّ لا يظهر إلاّ إذا قدّموا تلك التضحيات، وإنّ الله – ومن منطلق لطفه – يهيّئ مناخاً يتمكّنون فيه من خوض مثل هذا الامتحان ليجتازوه برفعة وشموخ؛ إذ أنّ:

[16]الحبّ متمرّد ودمويّ بطبعه كي يقصي كلّ ما هو غريب

رزقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

حديث المعراج بحر من المعارف للسير والسلوك

إشارة

ذكرنا فيما مضى انّ لمحبّة الله مراتبَ لا تُحصى ولا تُعدّ وانّ بعضها عصيّ على الفهم بالنسبة لنا، أمّا بعض مراتبها الأُخرى فإنّها من لوازم الإيمان وإنّ كلّ مؤمن لابدّ أن يملك المرتبة الأُولى من مراتب محبّته سبحانه وتعالى. كما وقلنا أيضاً إنّ محبّة أولياء الله لها درجات، وقد أوردنا في المحاضرة الماضية بعض الأحاديث في درجات محبّة أهل البيت (عليهم السلام). وقد أشرنا كذلك إلى أنّ أعلى مراتب محبّة الله هي من مختصّات الأولياء الذين ليس لهم سوى محبوب أصيل واحد؛ فهؤلاء لا يرون غير الله أهلاً

للمحبّة أصالةً، ومن بعد الله فإنّ شعاعاً من محبّتهم لله تبارك وتعالى يشعّ على الأنبياء والأئمّة المعصومين (عليهم السلام) وأولياء الله والمؤمنين بما يتناسب ومقدار قربهم من الله. بالطبع الذين هم من أمثالي بعيدون كلّ البعد عن تمنّي مثل هذه المراتب، لكن لمّا كان الاطّلاع على هذه المراتب يؤدّي أحياناً إلى رفع هممنا، وعدم تعلّق قلوبنا بالأشياء الدنيئة، وإلى التفكير برفع مستوى محبّتنا لله ولأوليائه، فسنحاول، بالإفادة من أقوال أهل بيت العصمة والطهارة (صلوات الله عليهم أجمعين)، استخلاص بعض الإشارات إلى هذه المراتب.

عاقبة طلاّب الدنيا وطلاّب الآخرة

انطلاقاً من تعاليم القرآن الكريم والسنّة الشريفة فإنّ بوسعنا – إجمالاً – الخروجَ بنتيجة مفادها أنّه ثمّة أُناس ينظرون إلى الحياة والوجود بنظرة مختلفة، ويرون العالم بشكل يختلف بعض الشيء عمّا نراه نحن، وحتّى مطالبهم فإنّها تختلف قليلاً عن مطالباتنا. فالقرآن الكريم يقسّم الناس، ضمن تصنيف عامّ، إلى قسمين؛ وهو تصنيف واسع جدّاً بحيث إنّ كلّ قسم من هذين القسمين ينشعب إلى طوائف مختلفة. ولعلّ أوضح هذه التصنيفات هو ما جاء في قوله تعالى: « **مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَٰهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً**»[1]. فمن جملة الألقاب التي يطلقها القرآن الكريم على الحياة الدنيا هو «العاجلة»؛ أي: العابرة. يقول عزّ من قائل: بعض الناس يحبّ هذه الحياة العابرة ذات اللذائذ المحدودة جدّاً والتي تنقضي بلمح البصر. فنحن نعطي هؤلاء بعض ما يحبّون ومن ثمّ يدخلون النار بتوبيخ وحالة من الاندحار. لكن هناك في المقابل من يحبّ الآخرة ويبذل كلّ ما بوسعه من أجلها. وهنا يسوق القرآن الكريم بخصوص أمثال هؤلاء تعبيراً هو غاية في علوّ المضمون فيقول: إذا كان هؤلاء مؤمنين فإنّ الله سيعمد بنفسه إلى شكرهم وتثمين جهودهم. وفي هذا التصنيف يستعرض القرآن الكريم القمّتين؛ فهناك قطبان وهناك مراتب عديدة تقع بينهما يقترب بعضها من قطب، ويدنو بعضها من القطب الآخر.

محبّة الله هي تحفة منه سبحانه

استعرضنا في المحاضرة السابقة رواية تجعل للجنّة ثلاث درجات. وقد ورد بخصوص بعض هذه الدرجات أنّ أصحابها يبذلون غاية مجهودهم في عبادة ربّهم. ثمّ يقول: هؤلاء حتّى عندما يدخلون الجنّة فإنّهم لا يدخلونها طمعاً في طيورها وفاكهتها: « **قد أعطوا المجهود من أنفسهم لا من خوفِ نارٍ ولا من شوقِ جنّة، ولكن ينظرون في ملكوت السماوات والأرض فيعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى أهلٌ**

فالنظر في ملكوت السماوات والأرض هو مقام يناله أمثال نبيّ الله إبراهيم (عليه .[2]«**للعبادة** السلام). تقول الرواية: هؤلاء المؤمنون ينظرون في ملكوت السماوات والأرض فيعرفون أنّ الله هو أهل للعبادة وليس غيره لها بأهل. فلا شيء أرفع من عبادة الله بالنسبة لهؤلاء، فليس ثمّة خوف من جهنّم ولا طمع في الجنّة. فإذا نال هؤلاء مثل هذه المعرفة أعطاهم الله تعالى تحفة، وهي أن يودع محبّته الخاصّة في قلوبهم. فإذا ما استقرّت محبّته عزّ وجلّ في قلوبهم علموا أنّه ليس دون الله شيء هو أهل للحبّ أو .العبادة. وعندها لا تلتفت قلوبهم إلى غير الله تبارك وتعالى ولا تتعلّق إلاّ بما يحبّه

حديث المعراج بحر من المعارف لطالبي السير والسلوك

عندما بلغ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مقام المعراج دار بينه وبين الله حوار خاصّ، حيث كان الله عزّ وجلّ يتحدّث وهو (صلّى الله عليه وآله) يصغي، أو كان النبيّ يسأل والله يجيب. وحتّى جبرئيل فإنّه لم يكن موجوداً هناك. وقد أورد كتاب «إرشاد القلوب» للديلمي مقتطفات من هذا الحوار يبتدئ كلّ هذا الحديث ينطوي على بحر من المعارف، وإنّ ما ذكره وخاض فيه كبار .«**يا أحمد**» مقطع منها بـ العرفاء ومُدَّعو المقامات العالية في هذا المضمار يُعدّ هابطاً جدّاً قياساً به. ولا شكّ أنّ الحوار الذي يدور بين ربّ الأرباب وأعزّ عباده لابدّ أن يكون على هذا المستوى. فالحديث المذكور هو بمثابة دورة كاملة للسير والسلوك ترسم — من خلال أساليب تربويّة خاصّة – الطريق لمعرفة الله ومحبّته من ناحية، وتزوّد .المرء بالشحنة والحافز لسلوكها من ناحية أُخرى

السبيل لبلوغ الحياة ا لباقية والعيش الهنيء

في هذا المقطع من الحديث يبادر الله عزّ وجلّ رسولَه الكريم (صلّى الله عليه وآله) بالسؤال فيما إذا كان يعلم بالأمر أم لا؟ فيجيبه النبيّ الأكرم: لا، قُل لأتعلّم. فيبيّن الله تعالى ذلك حتّى يقول: فإذا فعل لكنّ أُسلوب البيان .[3]«**فإذا فعل ذلك أسكنتُ في قلبه حبّاً**» :المرء ذلك أسكنتُ في قلبه حبّي الذي اتّبعه الحديث هو ممّا يثير الدافع في الإنسان أيضاً. فكلّنا نرغب في محبّة الله وتهفوا قلوبنا إلى مرتبة عالية منها، لكنّنا نفتقد الدافع إلى ذلك، في حين أنّنا نملك — مع الأسف – حافزاً أكبر بالنسبة لشؤون حياتنا الحيوانيّة اليوميّة. بالطبع نحن لا ننزعج من كوننا نحبّ الله تعالى، بيد أنّه ليس لدينا الحافز لعقد .العزم على ذلك والمثابرة عليه والتقدّم في هذا الطريق

أيّها «**يا أحمد**» :من الناحية التربويّة يتّصف بيان الحديث بأنّه مُرَبٍّ للغاية، فهو يبدأ بهذا السؤال ؟ فالالتفاتة التربويّة في هذا السؤال هي أنّ «**هل تدري أيّ عيش أهنىٰ وأيّ حياة أبقىٰ**» !الرسول العزيز

كلّ كائن حيّ يحبّ حياته فطريّاً ويرغب في استمرارها ويريد أن يهنأ بها. وهذا مبدأ مهمّ قد استخدمه نصّ القرآن الكريم أيضاً؛ وذلك في قوله تعالى: « **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**»[4]؛ فإنّكم تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة. لكن ألستم تسعون وراء خيركم وتفتّشون عن سعادتكم؟ ألستم تبحثون عن حياة باقية؟ فإنّ ما تطلبونه من الدنيا ليس متوفّراً فيها. إنّها الآخرة التي سرّاؤها أكبر ودوامها أكثر. فالحياة الدنيا فانية، فحتّى لو عمّرنا فيها مائة عام – على سبيل المثال – فإنّها لا تعادل حتّى لمح البصر في مقابل العمر الذي لا نهاية له. فهي فانية من ناحية، ويتحتّم علينا فيها تحمّل مئات الأعباء والمشقّات كي نحظى بساعة من الهناء والراحة. فكم من الأعباء يتعيّن على الإنسان تحمّلها لبناء منزل، وكم من الترتيبات ينبغي له تهيئتها لتشييد أربع جدران بسقف ليعيش فيها؟! ويندر جدّاً أن يُوَفّق المرء إلى زواج خالٍ من المتاعب والمشاقّ؛ فلابدّ أن يفتّش لفترات طويلة ويخطب ويتنازل أمام بعض الشروط، وما الذي سيحصل في النهاية؟ وهل سيحصل على قرين يتّفق مع رغبته أم لا؟ هذا هو حال الدنيا. فمن أجل تناول وجبة طعام كم على المرء أن يعدّ من المقدمات؟ بدءاً من زارع الحنطة والرزّ، وصولاً إلى مربّي الأغنام، والقصّاب الذي يهيّئ اللحم، انتهاءً بالطاهي الذي يحضّر الطعام ويضعه أمامك جاهزاً على المائدة. كلّ هذه الخطوات هي مقدّمات وإنّ على المرء تأمين ودفع نفقاتها، كلّ ذلك من أجل أن يضع لقمة الطعام في فيه ويبتلعها فيلتذّ بمذاقها. فما من لذّة تسبقها، كما وليس ثمّة بعدها سوى التعب والنصب. هذه هي الدنيا. أمّا فطرتنا فتطالب دوماً بعيش هنيء، وحياة طيّبة بعيدة عن المصاعب والمتاعب، وأن تتّصف بالبقاء. من أجل ذلك يخاطب الله عزّ وجلّ نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) ليلة المعراج قائلاً: «**هل تدري أيّ عيش أهنى وأيّ حياة أبقى**»؟ فمن الواضح أنّ ذكر شيء كهذا يثير – بحدّ ذاته – في نفس الإنسان الدافع للسعي وراءه، وهذا تحديداً هو ما «**قال: اللهمّ لا**». يقتضيه الأدب؛ فكلّ أحد في مقابل الله تبارك وتعالى لا يعلم أيّ شيء. «**قال: أمّا العيش الهنيء فهو** «**الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ولا ينسىٰ**»؛ فصاحب العيش الباقي والهنيء هو ذلك الذي لا يكلّ عن ذكر الله. وهل يملّ الإنسان من ذكر حبيبه يا ترى؟! وهل انّ في ذكر المحبوب كللاً أو مللاً؟ «**نعمتي**». فقد وهبتُ الإنسان في هذه الدنيا نعماً جمّة، لكنّه أوّلاً لا يلتفت إلى كونها من النِعَم أساساً ويغفل عن ذلك، وثانياً إنّه ينسى أنّني أنا الذي وهبته إيّاها. فإنْ طلبتَ تلك الحياة المثلى فينبغي أن لا تنسى آلائي. «**ولا يجهل حقّي**»؛ فإنّ إعطائي إيّاه هذه النعم يوجب لي حقّاً عليه، وينبغي أن لا ينسى هذا الحقّ. «**يطلب رضاي ليلَه ونهارَه**» فمثل هذا الإنسان يسعى طوال الليل والنهار وراء ما يرضي ربّه عنه.

هذا ما يخصّ العيش الهنيء أمّا فيما يتعلّق بالحياة الباقية فيقول عزّ من قائل: « **وأمّا الحياة الباقية فهي** «**التي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينيه**». فمن أجل نيل الحياة الباقية ينبغي أن

تهون عليك الحياة الدنيا وتصبح عديمة القيمة بالنسبة لك، أي عليك أن تبرمج حياتك وتمنهج لسلوكك بما يؤدّي إلى تضاؤل الدنيا في عينك. فهذا أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول أيضاً في نهج البلاغة في السياق ذاته: «**كان لي فيما مضى أخ في الله وكان يُعظِمه في عيني صِغَر الدنيا في عينه**»[5].

فالكبير في عين عليّ (عليه السلام) هو من تصغر الدنيا في عينه. وهنا أيضاً يقول عزّ وجلّ: إذا أردتَ الحياة الباقية فعليك أن تنتهج من السلوك ما يصغّر الدنيا في عينك، وتنظر إلى ما هو أعظم منها كي تصغر في نظرك، وإلاّ فإنّ بيتاً مساحته مائة متر هو كبير بالنسبة لنا، ولا نستطيع التغاضي عنه. وناهيك عن المنزل الذي مساحته مائة أو ألف متر، فإنّ الكرة الأرضيّة بما فيها من البراري والبحار، بل وحتّى المنظومة الشمسيّة والمجرّات فإنّها لن تصغر في أعيننا إلاّ إذا شاهدنا عظمةً يتلاشى أمامها كلّ ما ذكرنا.

«**ويُؤثِر هوايَ على هواه**» أي يقدّم ما أُريد على ما يريد؛ «**ويبتغيَ مرضاتي ويُعظِّمَ حقّ عظمتي**» «**ويذكرَ علمي به ويراقبَني بالليل والنهار**» فهو دائم الذكر لي، يراقبني باعتباري حاضراً وعالِماً بكلّ ما يفعل، يعلم أنّني مشرف على كلّ حياته وأحواله وأفكاره وسلوكيّاته. فلابدّ من البدء من هذه النقطة، فهذا هو الطريق.

لابدّ من تغيير عقليّتنا!

إذا وفّقنا الله فسنتعرّف في محاضراتنا القادمة بعض الشيء على رؤية أنبياء الله وأوليائه إلى الوجود وكيف ينظرون إلى هذا العالم والناس والملذّات وإلى الأُمور التي نعدّها غاية في الأهمّية والقيمة ونبذل في سبيلها كلّ وجودنا وكياننا، وكيف أنّهم يغضّون الطرف عن كلّ ما ذُكر في لحظة واحدة وبكلّ سهولة؟ فإذا استوعبنا رأيهم في الوجود، وكيف كانوا ينظرون إلى هذا العالم، وما الذي كانوا يسعون وراءه فيه، فسيساعدنا ذلك على عدم الانخداع بهذه الدنيا التي يقول فيها القرآن الكريم: «**فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا**»[6]. فلو أجرينا بعض الحسابات لوجدنا أنّ هذا تحديداً هو رأس كلّ فساد؛ فإنّ سبب كلّ أشكال الفساد هو لهث الناس وراء اللذائذ الحيوانيّة الدنيويّة. فلو أنّهم ترفّعوا عن ذلك ووسّعوا أُفق نظرهم لَصغُرَت هذه الأُمور في نظرهم ولعرفوا أنّها لا تستحقّ التكالب والتصارع. ولحسبوا هذه الأُمور لُعباً يلعب بها الأطفال ويتشاجرون ويتصالحون عليها ثمّ يرمونها بعيداً. فالقرآن الكريم يرى الدنيا برمّتها بهذه الرؤية حين يقول: «**وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**»[7]. فالحياة الدنيا بأجمعها ما هي إلاّ آلة للخداع والتحايل، أمّا الحقيقة فهي شيء آخر. وبما أنّ عقولنا لا تصل إلى ذلك، فإنّ قلوبنا تَنشَدّ إلى هذه الأُمور على نحو تافه. رحم الله الشيخ غلام رضا اليزديّ فقد كان صلب كلامه من على المنبر هو: عزيزي! غيّر عقليّتك! لذا يتعيّن علينا أن نبدّل عقليّاتنا، ونغيّر نظراتنا. بل إنّ هذا المبدأ يمثّل روح القرآن، ونهج الأنبياء، وصُلب حياة الأئمّة الأطهار (عليهم السلام)، لكنّهم كانوا يتسامحون معنا علّهم يفلحون

في دفعنا تدريجيّا خطوة إلى الأمام. وإلاّ فإنّ أساس القضيّة هو أنّ علينا أن نغيّر نظرتنا إلى الوجود، وأن نعلم بأنّ المطلوب هو شخص وشيء آخر. فحذار من أن يبهرنا زخرف هذه الدنيا وزبرجها، فما دمنا منبهرين بها فلن ننال تلك المحبّة المنشودة. صحيح أنّ المرء إذا آمن بأنّ الله هو من وهب هذه النعم فإنّه سيحبّ الله بمقدار إيمانه. أمّا إذا أراد حصر حبّه بالله سبحانه وتعالى، فهو ليس بالأمر الهيّن. فمثل هذه المحبّة لا ينالها إلاّ مَن أفرغ قلبه من كلّ ما سوى الله، والسبيل إلى ذلك هي تلك التي علّمها عزّ وجلّ نبيَّه ليلة المعراج. بالطبع هذه الكلمات تفصح عن حادثة وقعت هناك كي يرويها النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) لنا، وإلاّ فنحن نعلم أنّ الذي يبلغ مقاماً بحيث يخلّف وراءه جبرئيل ليس هو بحاجة لمثل هذه الموعظة. فهذه الكلمات هي — بتعبير المعقول – من أجل تحويل العلم الحضوريّ إلى علم حصوليّ. فقد .رأى (صلّى الله عليه وآله) كلّ شيء، لكنّه طلب بيانه، فبيّنه الله تعالى له كي ينقله لنا

الحياة الهنيئة في ظلّ الالتفات إلى الله والتوكّل عليه

23

إشارة

متابعة لبحثنا في محبّة الله ذكرنا أنّ من الروايات التي تطرّقت إلى هذه المسألة، والتي شكّل هذا المبحث الهدف الرئيسيّ لجميع مباحثها، هو الحديث القدسيّ الذي ينقل الحوار الذي دار بين نبيّ الإسلام (صلّى الله عليه وآله) والله عزّ وجلّ في ليلة المعراج، والذي لو ادُّعِي أنّه ينطوي على دورة تربويّة إلهيّة .كاملة في السير والسلوك ويتضمّن أسمى المعارف في هذا الباب، لما كان هذا الادّعاء جزافاً

يستهلّ هذا الحديث بحثّه من نقطة هي غاية في الأهمّية من الناحية التربويّة، وهي تنسجم تماماً مع :القواعد التربويّة لعلم النفس. إذ يقول الله عزّت آلاؤه لنبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) في هذا الحديث ؟ ومن الطبيعي في مثل هذا المقام أن يُظهر النبيّ (صلّى «**هل تدري أيّ عيش أهنى وأيّ حياة أبقى**» **أمّا العيش** » :فقال الله تبارك وتعالى .«**قال اللهمّ لا**»الله عليه وآله) الجهل في مقابل الله عزّ وجلّ، **يطلب رضاي ولا يجهل حقّي، ولا ينسىٰ نعمتي، الهنيء فهو الذي لا يفتُر صاحبه عن ذكري،** ؛ فإنّ مَن يتمتّع بالعيش الهنيء هو ذلك الذي يذكر الله على الدوام بحيويّة ولا ينتابه [1]«**ليلَه ونهارَه**

ضعف أو فتور في هذا السبيل، وهو لا ينسى نعمي مادام حيّاً، ولا يجهل حقّي، وهو يجهد ليله ونهاره في سبيل إرضائي. فإنّ عيشاً كهذا هو أهنأ عيش.

الالتفات إلى عوامل اللذّة هو من الشروط اللازمة للذّة

كلّنا يعلم أنّ كافّة توصيات النبيّ الأكرم وأهل بيته الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين) والأحاديث القدسيّة صحيحة ونحن نوافق تعبّداً على أنّ العيش الهنيء هو ما ذكروه، لكنّه ثمّة سؤال يتبادر إلى الذهن بهذا الخصوص وهو: ما هي العلاقة بين العيش الهنيء وذكر الله؟ وكيف يا ترى ينعم الإنسان بأهنأ عيش إذا لم ينس آلاء بارئه؟

وللإجابة على هذا السؤال ينبغي أن ننظر – بعيداً عن توصيات أهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) – ما هي موجبات العيش الهنيء؟

فمن الواضح أنّ الحياة الدنيا فيها الكثير ممّا يلتذّ به الإنسان وما يقتضي امتلاكه العيش حياةً هنيئة مريحة، لكنّ القضيّة هي أنّنا لا نشعر دائما باللذّة من تمتّعنا بهذه النعم. فقد تكون أسباب اللذّة متاحة أحياناً لكنّنا لا نشعر بها لكوننا غير ملتفتين إلى ما هو متوفّر لدينا من عواملها. على سبيل المثال فإنّني عندما أتحدّث إليكم أُحاول أن أتكلّم بطريقة تدعوكم إلى الإنصات إلى ما أقول وفهمه. فإن بحّ صوتي ولم أستطع الكلام، فسوف لا أنال مقصودي. إذن تخيّلوا كم من الشروط يتعيّن توفّرها كي يتمكّن الإنسان من الكلام؟ إذ يتعيّن وجود الهواء. ولابدّ للمتكلّم من امتلاك الحنجرة والأوتار الصوتيّة كي يمرّ الهواء حال خروجه من الرئة بمخارج الفم فيصدر الصوت. كما أنّ على المتكلّم – مضافاً إلى ذلك كلّه – أن يتعلّم كيفيّة النطق، فلا أحد يجيد النطق ذاتاً عند ولادته. كلّ هذه الأسباب هي جزء من مقدّمات الكلام، لكنّ الإنسان، وقبل أن يفكّر بكلّ واحدة من هذه النعم على حِدة، غير ملتفت إلى أنّ القدرة على النطق هي بحدّ ذاتها نعمة أيضاً وانّ باستطاعته الالتذاذ بلسانه. وكذا كم من الشروط ينبغي توفّرها من أجل شرب قدح من الماء النظيف والنقيّ ممّا لو فكّرنا بها لشعرنا بلذّة كبيرة. والمثال الآخر على ذلك هي الصحّة. فجميعنا أصحّاء بشكل أو بآخر، لكنّنا غافلون تماماً عن كون الصحّة نعمة من النعم. فإن ابتُلي الإنسان بمرض لبضعة أيّام ورقد في إثره في المستشفى لَلَجأ إلى النذر والدعاء وتلاوة الأذكار والأوراد كي يتماثل للشفاء، وعندها سيدرك أيّ نعمة كانت هذه الصحّة! غير أنّنا نتمتّع جميعاً بهذه النعمة من دون أن نلتذّ بها وذلك بسبب غفلتنا عنها.

انطلاقاً ممّا ذُكر فإنّه يتحتّم علينا من أجل أن تهنأ حياتنا أن نلتفت إلى ما يتوفّر لدينا من أسباب اللذّة. فعندما نجهل ما في حوزتنا من النعم فستنقلب حياتنا إلى مرارة وسننزعج ونغضب لأقلّ محنة تصيبنا. من

هنا فإنّ من شروط تمتّع الإنسان بعيش هنيء هي التفاته إلى ما هو متاح له من أسباب اللذّة. فكلّما كثر التفاته إلى ما في حوزته من الخير، زاد عن حياته رضاً. وفي المقابل فكلّنا يحتمل وقوع أنواع البلايا في حياته، وليس من بيننا من يعلم ما هو مقدَّر له وما الذي سيحصل في اللحظة التالية. بل حتّى عندما ينعم الإنسان بحياة هنيئة وادعة فإنّ مجرّد تفكيره باحتمال وقوع البلاء سيبعث على انزعاجه وتكدّر عيشه. فحينما لا يعلم المرء ما الذي سيحصل بعد ساعة وهو يحتمل أنّ أيّ بلاء يمكن أن يحلّ بأولاده ووالديه وزوجه وأصدقائه في أيّ لحظة، وهو لا يعلم بما يمكّنه من أن يحول دون ذلك، فإنّه سوف لا يتمتّع بعيش هنيء. فإذا أحبّ الإنسان التمتّع بحياة وادعة هنيئة من جميع النواحي فعليه — من ناحية — أن يلتفت إلى أنه أيّ نعم نفيسة وُضعت تحت تصرّفه! وكلّما زاد عرفانه بقدر هذه النعم تعاظم التذاذه بها وهنأ عيشه أكثر. كما لابدّ – من ناحية أُخرى — أن يريح باله من أنّه ما من شدّة ستصيبه وأنّه مصان من كلّ ألم وبلاء ومخاوف. وَلنَدَع عنّا ما ذهبت إليه بعض المدارس الفلسفيّة الغربيّة — بعد أن شاهدت أنّه لا مفرّ من الاضطراب والقلق في حياة الإنسان وأنّه يسعى دوماً للخلاص منهما أو يلجأ إلى المسكرات والمخدّرات من أجل تجاهلهما على الأقلّ — من أنّ الاضطراب هو العنصر المقوّم للإنسان وأنّ الأخير لا يُعدّ إنساناً بلا اضطراب!

الإيمان بالله مانع من القلق والاضطراب

من الجليّ أنّ الإنسان إذا كوّن علاقة مع من بيده كلّ النعم والقادر على رفع جميع البلايا فإنّه سينعم براحة البال ويذهب عنه كلّ قلق واضطراب. فالسبيل الوحيد للراحة والطمأنينة وكذا عدم الاضطراب والقلق من المستقبل هو أن يعلم الإنسان أنّه ثمّة مَن بيده كلّ ذلك. لكنّ هذا وحده غير كافٍ أيضاً. فقد يقول قائل: إنّ كلّ ذلك بيده عزّ وجلّ وهو قادر عليه، لكن من أين لنا أن نعلم أنّه سوف يفعل ذلك؟! فإذا أدرك الإنسان حقيقة أنّ الله تعالى هو على جانب من الرأفة والرحمة بحيث إنّه لا يفعل له إلاّ ما فيه مصلحته، فستتغيّر نظرته إلى الحياة. فعلينا أن نعلم أنّه حتّى الشدائد قد تكون أحياناً وسيلة لخير الإنسان. فالناس يكدّون ويشقون ويتصبّبون عرقاً من أجل تقاضي أجر عملهم، لكنّهم راضون بذلك ومستمرّون في السعي والعمل. بناءً على ذلك فمن الممكن أن يكون الكدّ والتعب في هذا العالم نعمة، لكنّنا لا نعي ما ينفعنا وما يضرّنا، ولا نعرف السبيل للحصول على ما ينفعنا ودرء ما يضرّنا. أمّا الذي يؤمن بالله تبارك وتعالى، ذلك الربّ الذي يملك ما لا نهاية له من القدرة والعلم والرحمة، فلا ينتابه أيّ قلق. وكلّما قوي هذا الاعتقاد واشتدّ هذا الالتفات فسينعم الإنسان بمزيد من السكون والطمأنينة.

وكنموذج على هذا النمط من الناس هو سماحة الإمام الخمينيّ الراحل (رضوان الله تعالى عليه). فقد أقسم مرّة إبّان فترة النضال ضدّ الطاغوت: «إنّني لم أخش شيئاً حتّى هذه اللحظة». وقد يحمل البعض

هذا الكلام على محمل المبالغة، لكنّ الذين عرفوا الإمام يدركون جيّداً أنّه ليس من أهل الثرثرة واللعب بالألفاظ، فهو لم يقل شيئاً من عند نفسه على الإطلاق. وحتّى هذا الكلام فقد قاله لمصلحة ما، وإلاّ فهو لم يكن ممّن يُثني على نفسه ويتفاخر بعلمه وكماله وفضيلته.

وهنا يطرأ هذا السؤال: أنّى للمرء أن يكون هكذا؟ ولنتصوّر هنا طفلاً. فعندما يضع هذا الطفل يده في يد أبيه فهو يعلم أنّه ما من أحد يستطيع أن يمسّه بسوء. فالضرر في نظره هو أن يقوم أحد أقرانه بضربه. إنّه يحدّث نفسه بأنّ: أبي شجاع، وعندما تكون يدي في يده فسوف لا يجرؤ أحد على إيذائي. إذن عندما تكون يد العبد في يد الله عزّ وجلّ وحينما لا يتّكل ولا يعتمد إلاّ عليه تعالى، فسوف لا ينتابه أيّ ألم أو حزن، لاسيّما إذا علم بأنّ خيره هو فيما أراده له ربّه.

الالتفات إلى قيمة النعم يجلب المزيد من اللذّة

إنّ من أفضل ما يُدخل السرور إلى قلوبنا هو أن نلتذّ بكلّ ما يسعنا الالتذاذ به. لكنّ المشكلة هي أنّنا لا نلتفت إلى التذاذنا بالنعم المختلفة. فعندما يشتغل المرء في تناول الطعام ويلتذّ به فإنّه لا يتمتّع باللذائذ الأُخرى التي لا يمكن جمعها مع تناول الطعام كالمطالعة وغيرها. فإنّ باستطاعة الإنسان أن يلتذّ بخمسة أشكال من النعم في آن واحد كحدّ أعلى، لكنّه ثمّة من حولنا مئات الأسباب للذّة ونحن بإمكاننا الإفادة منها جميعاً، بَيد أنّنا غافلون عن وجودها تماما. إذن علينا أوّلاً أن نلتفت إلى ما يوجد من حولنا من أسباب اللذّة. وأحد هذه الأسباب هو الصحّة؛ فكم من أسباب الراحة قد توفّرت لكلّ عضوٍ، بل لكلّ جزء من أعضاء بدننا، وقد منّ الله علينا بهذه النعم لكنّنا غير ملتفتين إليها من الأساس، وبطبيعة الحال فإنّنا لا نلتذّ بها أيضاً. فقد ينفق المرء أحياناً بضعة ملايين من أجل علاج أحد أسنانه! فإذا كانت قطعة عظم صغيرة في فم المرء قد عمل هو نفسه على خرابها تستحقّ بضعة ملايين من النقود، فكم تساوي كلّ أسنانه إذن؟! فحينما نفكّر مليّاً نجد أنّ كلّ واحد منّا يملك في فمه ثروة تعادل مئات الملايين، لكنّنا غافلون عنها ولا نشعر تجاهها بأيّ لذّة. وهذا هو حال كلّ عضو من أعضاء بدننا. فإنْ أصاب أحدَها مكروه وتوّفر المال لكان المرء على استعداد لإنفاق مئات الملايين من أجل علاجه. فهذه ثروة طائلة، لكنّنا غير ملتفتين إليها. فلو أنّنا التفتنا إلى قيمة ونفاسة ما لدينا لشعرنا باللذّة أشدّ ما تكون اللذّة.

بناءً على ذلك فإنّه من أجل أن نهنأ برغد العيش فإنّه يتحتّم علينا أوّلاً أن نعرف النعم ولا ننساها: «**لا ينسى نعمتي**». فإن نحن عدمنا النعمة أو ملكناها ونسيناها فسوف لا نشعر باللذّة وستمسي حياتنا ناقصة، أمّا إذا التفتنا إلى أنعم الله فستتضاعف لذّتنا أضعافاً. إذن فإنّ عدم التفاتنا إلى النعم يجعلنا

نفرّط بكلّ هذه اللذّات وتفقد حياتُنا ما ينبغي لها من الهناء، فالحياة لا تكون هانئة إلاّ إذا التذذنا فيها قدر ما نستطيع، ولا يحصل ذلك إلاّ من خلال معرفتنا بما نملك وإدراكنا لما فيه من الفائدة والقيمة.

حاجة الإنسان إلى الملاطفة والحنان

النقطة الأُخرى التي تفوق في مستواها ما ذُكر أعلاه هي حاجة الإنسان إلى عطف وملاطفة وليّ نعمته ورأفته به. فكلّ واحد منّا قد عاش مرحلة الطفولة وشاهد الأطفال أيضاً. فحاجة الطفل إلى الغذاء أمر بيّن، وهو سيتناول الغذاء ويشبع أيّاً كان الشخص الذي يهيّئه له، لكنّه لا يصيب المقدار الكافي من اللذّة إلاّ إذا تغذّى على يد أبويه وكانت التغذية مصحوبة بالملاطفة والحنان. إذ من الممكن إرضاع الطفل بواسطة القنّينة، لكنّ اللذّة التي يحسّها الطفل وهو يرضع من ثدي أُمّه لا يمكن مقارنتها بتلك التي يشعر بها أثناء الرضاعة من القنّينة. وحتى علماء النفس فقد أثبتوا أن الطفل الذي يرضع في حضن أُمّه ومن ثديها يشعر بلذّة خاصّة وتلبّىٰ حوائجه وتتكامل عواطفه وأحاسيسه. فإلى جانب الآلاء المادّية فإنّنا معاشر البشر بحاجة إلى نعم روحيّة أيضاً؛ فنحن بحاجة إلى مَن يلاطفنا ويمسح على رؤوسنا بيده الحانية. وإنّ لحاجتنا إلى هذه الملاطفة والحنان أنواعاً ومراتب، وهي أشدّ من حاجة الطفل إلى مداعبة أُمّه، لكنّنا أضعنا الطريق وانهمكنا في اللهث وراء استقطاب محبّة الناس واحترامهم تخيّلاً منّا بأنّ أمثال هذه الأُمور هي التي تُشبع رغبتنا إلى الملاطفة والحنان، أمّا تلك الملاطفة وذلك الحنان [الإلهيّان] فإنّهما أعظم وأسمى بكثير من هذه الأُمور وفيهما غاية اللذّة.

فلو عمل المرء طيلة حياته على تنمية ما كان يشعر به من لذّة ملاطفة أُمّه له فسوف يفتّش في كِبَره على أُمّ لا تفتأ تلاطفه وتمسح بيدها الحنون على رأسه في كلّ حال؛ في نومه ويقظته، وفي صحّته وسقمه، وفي سفره وحضره، وهي تخاطبه دائماً بالقول: تعال أيّها العزيز! لماذا أبطأت عنّي؟ إذ يُروى فيما يتّصل بشوق الله تبارك وتعالى لأوبة العاصين أنّ مسافراً في أرض فلاة يصيبه الإعياء فيترجّل عن بعيره ليأخذ قسطاً من الراحة فإذا به يستيقظ من رقدته فلا يرى أثراً للبعير ولا لما يحمله من زاد وماء. فيهيم على وجهه طلباً لراحلته وزاده من دون جدوى، حتّى يأخذ منه الإعياء مأخذاً فتخور قواه ويخرّ على الأرض مستسلماً للموت، فإذا به وهو في الرمق الأخير يفتح عينه فيرى البعير واقفاً عند رأسه ومعه الزاد والماء. يقول الخبر: « **إنّ الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها**»[2].

بحر محبّة الله اللامتناهي

لو أدرك الإنسان صفات الله تعالى هذه لما تمالك نفسه. أيّ إله هذا! وأيّ نعمة هذه! فبأيّ نعمة يمكن قياس هذه النعمة يا ترى؟ فلو جُمعت كلّ أُمّهات الأرض ووُضعت محبّتهنّ جميعاً معاً لما ساوت قطرة من بحر محبّة الله عزّ وجلّ. وهذه النعمة متوفّرة لدينا فعلاً، لكنّنا لا نعلم بوجودها أساساً، وإنّ عدم التفاتنا إليها يحرمنا من الالتذاذ بها. أمّا الإنسان الذي لا ينسى الله ولا حقّه أبداً، فمن الطبيعيّ أن يسعى دوماً لفعل ما يرضي الله عنه؛ لأنّ لازم المحبّة هو أنّه عندما يحبّ الله، فهو يريد من الله أن يحبّه أيضاً، وهو .يعلم أنّ الله إذا أحبّه فستدوم هذه النعم، وإلاّ فإنْ سخط الله عزّ وجل عليه فسيسلب منه نعمه أيضاً

النتيجة

خلاصة القول فإنّه من أجل التمتّع بعيش هنيء لابدّ من بضعة أُمور. إذ يتعيّن أوّلاً أن نحيط علماً بالنعم المتوفّرة أو التي يمكن أن تتوفّر. ثمّ ينبغي أن نعرف الذي بيده هذه النعم، والذي يمكنه توفيرها لنا، أو درء البلايا عنّا؟ فطالما التفتنا إلى هذه الأُمور فإنّنا سنلتذّ بالنعم، أمّا إذا نسيناها، فسوف لا نلتذّ بها؛ وهو فهو لا يكلّ عن ذكر الله عزّ وجلّ دائماً. «**لا يفتر صاحبه عن ذكري**»و .«**لا ينسَىٰ نعمتي**» :قوله فإنْ مَلَك الإنسان النعمة من دون أن يعرف معطيها فسوف لا يزول اضطرابه، لأنّه سيقول: صحيح أنّ النعمة موجودة الآن، لكن من أين لي أن أعلم أنّها ستبقى، أو أنّ البلاء لن يحلّ؟ إذن لابدّ أن يعرف أنّه ثمّة قدرة لا نهاية لها ليعتمد عليها. فالله سبحانه هو الذي يمنّ بالنعم وهو مَن يستطيع أن يديم عليه هذا .الحال، كما أنّه هو وحده القادر على رفع البلاء

وهذا المقطع مرتبط بتلك النعمة المعنويّة الأكثر دقّة وهي أنّنا بحاجة إلى المداعبة «**ولا يجهل حقّي**» والرأفة والحنان من قبل شخص عظيم. فلو علمنا بأنّه باستطاعتنا أن نكوّن علاقة مع أعظم موجود هو واجب الوجود ويتحلّى بأعلى درجات الرحمة، والإفادة من عطفه ورأفته فسوف نفكّر مليّاً بكيفيّة تكوين .علاقة معه وما ينبغي صنعه من أجل أن يُحسن الظنّ بنا ويُسبغ علينا هذه النعم ويدفع عنّا البلايا

والآن تأمّلوا تعابير الحديث مرّة أُخرى وتبيّنوا ما علاقتها بالعيش الهنيء. فهل لا زلنا نرى مثال العيش الهنيء في حياة الملياردير الفلانيّ الذي يملك المزارع الواسعة والطائرة الشخصيّة والدخل الضخم والقصر الفخم؟ فلو درسنا القضيّة جيّداً لوجدنا أنّه لا يملك أكثر من بطن واحدة، وليس طعامه إلاّ من نفس هذه الحبوب والفاكهة واللحم والطير والحيوانات. فمهما كان طعامه راقياً فهو لا يستطيع أن يأكلّ إلاّ ملء بطن واحدة. وهو لا يحتاج لمكان يزيد على مترين لينام. فنحن نتخيّل أنّ الذي يملك برجاً ذا مائة طابق يلتذّ بنومه مائة مرّة أكثر ممّا نلتذّ به نحن! ونتصوّر أنّه من أجل نيل كلّ أصناف اللذّات فلابدّ أن نملك مفاتيح المصرف المركزيّ للبلد الفلانيّ لنسحب منه متّى نشاء وما نشاء من رصيد الدولار واليورو!

في حين أنّ اللذّة التي يحسّها العبد المؤمن جرّاء أُنسه بالله جلّ وعلا هي غير قابلة للقياس بتلك اللذّات. فهذه اللذّة مضمونة البقاء، أمّا تلك فلا يُعلَم مآلها. ثمّ إنّنا نعلم أنّ كلّ ذلك هو مجرّد خيال، وأنّه كم علينا أن نكدّ ونشقى كي نوفّر مال إجارة منزلنا في نهاية كلّ شهر.

فلو أنّنا فتحنا هذا الحساب ونظرنا إلى الوجه الآخر من العملة لشاهدنا أيّ ضرب من النعم قد أسبغ الله علينا وهي في متناولنا الآن وأنّنا لا نلتذّ بها بسبب عدم التفاتنا إليها. إنّها نفس تلك النعم المتوفّرة في أبداننا وأرواحنا، وتلك النعم المترتّبة على الارتباط بالله والأُنس به والتي تنطوي كلّ واحدة منها على طيف واسع من اللذّات التي لم نذق حتّى نموذجاً من معظمها، بل إنّنا بالكاد نصدّق أنّ مثل هذه الأُمور موجودة فعلاً. أمّا إذا امتلك المرء هذه النعم حقّاً، فإنّه سيعيش أهنأ حياة على الإطلاق.

رزقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

الحياة الباقية؛ سعي في سبيل سعادة الآخرة

24

إشارة

تحدّثنا في المحاضرة السابقة عن العيش الهنيء من وجهة نظر الحديث القدسيّ الذي خاطب به ربّ العزّة نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) ليلة المعراج. وقد ذكرنا أنّ الله عزّ وجلّ كان قد سأل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في حينها عن أمرين؛ أوّلهما العيش الأهنأ وثانيهما الحياة الأبقى. فالسؤال الأوّل كان عن الكيفيّة والثاني عن الكمّية، كما يصطلح عليه؛ ونعني بها الكمّية المتّصلة بالطبع. ولقد أشرنا في المحاضرتين الماضيتين إجمالاً إلى أنّ هذين الأمرين هما من حوائج الإنسان الفطريّة، فالأخير قد خُلق طالباً للذّة العيش وهناء الحياة. فلو ادّعى مُدّعٍ أنّني لا أسعى وراء أيّ رغد ولا أفتّش عن أيّ لذّة، فلابدّ أن يكون مُبتلىً بمرض ما حسب الظاهر. ففطرة الإنسان طالبة للسعادة والراحة وهي لا تستطيع أن تكون غير ذلك. فلو نظر كلّ امرئ إلى باطنه لاكتشف أنّه يطلب السرّاء دوماً وهو إنْ عمد إلى القيام ببعض الأعمال الشاقّة والمضنية أو حتّى مارس الرياضة الروحيّة، كما يفعل مرتاضو الهند، فهو لاعتقاده بأنّه

سينال في إثر هذه الرياضات أُموراً فيها غاية اللذّة وإنّ ما يتجشّمه من مصاعب إنّما هي مقدّمة لما .سيجنيه من هناء فيما بعد

الحياة الباقية حاجة الإنسان الفطريّة

وكذا الحال بالنسبة لبقاء الحياة؛ فالإنسان فطرةً يحبّ أن تدوم حياته، وإنّ دوام الحياة بحدّ ذاته مطلوب من قِبله. فالناس يرغبون في أن تطول أعمارهم، لكنّ الفطرة بذاتها لا تُخبر الإنسان عن وعي أين تكمن هذه الحياة الباقية. بالطبع ثمّة علامات فطريّة لهذه الحياة وإنّ تفكير الإنسان بالحياة بعد الموت من شأنه أن يرشده إلى الحقيقة. أمّا سبب ذمّ الأديان السماويّة، لاسيّما الإسلام، لطويلي الأمل والذين يودّون لو يعمّروا ألف سنة يرجع إلى أنّ أماني هؤلاء تنحصر في الحياة الدنيا وأنّ همّهم هو زيادة أعمارهم الدنيويّة **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ** » :ليس غير. فالباري تعالى يقول مثلاً في ذمّ اليهود في الآية المرقّمة ٩٦ من سورة البقرة كما أنّ مطالبة الله اليهودَ بتمنّي الموت في .«**يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ** **قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُواْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِن** » :سورة الجمعة يعود إلى ادّعائهم محبّتَه عزّ وجلّ فليس الموت بمطلوب بذاته؛ غير أنّ مَن يدّعي أنّه .[1]«**دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** وليّ لله، ويعتقد بالمعاد بعد الموت، وأنّ أولياء الله سيحظون بلقائه في ذلك العالم، فلا ينبغي أن يفرّ من الموت. فمراد الآية الكريمة هو: إذا كنتم صادقين في محبّتكم لله فلابدّ أن تحبّوا لقاءه أيضاً، وبما أنّ لقاءه غير ميسّر لكم في هذا العالم، إذن فعليكم أن تتمنّوا الموت للانتقال إلى العالم الذي يتسنّى لكم فيه لقاؤه تبارك وتعالى. ومن هنا فإنّ الموت ليس مطلوباً لأحد بحدّ ذاته، وإنّ القرآن الكريم لا يشير على أحد بالرغبة في الموت. فالكلام هنا هو دعوة لمعرفة الحياة الحقيقيّة، وأنْ نعرف فيما إذا كانت الحياة التي تطلبها فطرتنا هي نفس هذه الحياة المصحوبة بالآلام والمتاعب والحرمان والبلايا، أم انّ هناك حياة أُخرى هي الحياة الحقيقيّة؟

التمنّي المحبَّذ للموت

إِنَّمَا » :كلّنا يعلم أنّ القرآن الكريم يرى أنّ الحياة الحقيقيّة تكون بعد هذا العالم. فالله عزّ وجلّ يقول **وَإِنَّ الدَّارَ** » .فالحياة الدنيا ليست هي بحياة، إنّما هي لعب ولهو .[2]«**الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ؛ فالحياة الحقيقيّة هي عالم الآخرة. ومن هنا فإنّ ذمّ الله سبحانه وتعالى [3]«**الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ** لطول الأمل وتمنّي العمر الطويل هو ذمّ للناس وإنكارٌ عليهم لعدم معرفتهم الحياة الحقيقيّة وعدم إدراكهم بأنّ هذه الأُمور هي مجرّد لعب وأنّ تعلّق قلوبهم بها من شأنه أن يحرمهم من الحياة الأُخرى. إذن فمن الواضح أنّه ما دمنا طلاّب حياة بالفطرة، فإنّ جهلَنا ماهيّة الحياة الحقيقيّة وأين ومتى تكون، سيجعلنا

نبذل قصارى جهدنا للبقاء أحياء. بالطبع قد تكون الأمراض والآلام والبلايا أحياناً من الشدّة إلى درجة تُنهك الإنسان حتّى يتصوّر أنّه سيرتاح بموته، ولذا فهو يتمنّى الموت. لكنّ هذا التمنّي للموت هو غير محبّذ. فلا يكون تمنّي الموت مطلوباً إلاّ إذا كان عن إيمان بأنّ الحياة الحقيقيّة هي الحياة الآخرة، وهناك سيتنعّم الإنسان بالنعم الإلهيّة الخاصّة ويحظى بلقاء الله في نهاية المطاف. فالسبب في أنّ أولياء الله يُظهرون أحياناً رغبتهم في الموت ويطلبونه هو اعتقادهم بأنّ العالم الآخر هو عالم اللذّة والهناء والسعادة الأبديّة ورضا الله، فهم يسألون الله تعالى الرحيل عن هذا العالم بأسرع ما يمكن. فهذا النمط من طلب الموت هو نمط مطلوب ومحبّذ، ومن هذا المنطلق يقول الله سبحانه لليهود: « **قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**».

التمنّي غير المحبَّذ للموت

لكنّه ثمّة تمَنٍّ غير مطلوب للموت وهو ما يجرّ إلى الانتحار عند تأزّم الأُمور. فقد تسلّط محن الدنيا وما يجري فيها من المآسي وما يتعرّض له المرء من الإهانات والبلايا والإخفاقات – تسلّط على الإنسان من الضغوط ما يدفعه إلى اليأس حتّى يتصوّر أنّ الموت سيريحه من جميع تلك الضغوط. فالإنسان حتّى في هذه الحالة إنّما يُقدِم على الانتحار طلباً للراحة، لا لأنّ الموت مطلوب بالنسبة له. أمّا سبب قيامه بذلك فهو ضعف إيمانه وعدم علمه بأنّه ليس بالضرورة أن ينعم كلّ من يرحل عن هذه الدنيا بالراحة، فالله يقول عزّت آلاؤه: «**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ**»[4]، ويقول: «**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ**»[5]. إذن ليعلم المبتلون بالفضائح والمعانون من أشكال الحرمان والمهانة أنّهم إذا كانوا من أهل العذاب في الآخرة فإنّ عذابها سيكون أكبر فضيحة وأشدّ صعوبة ومشقّة.

وفوق ذلك فإنّ الله عزّ وجلّ الذي قدّر للإنسان هذه الحياة الدنيا أراد له أن يفيد منها لنيل سعادته الأبديّة. وبناءً عليه فحتّى طلب استمرار هذه الحياة الدنيا فيما يوجب الازدياد من رضا الله تعالى وسعادة الآخرة فهو طلب محبّذ، وما سؤالنا اللهَ العمرَ الطويل في الدعوات أو دعاء الناسِ اللهَ من أجل أن يمنّ على الآخرين بطول العمر إلاّ من هذا القبيل. كما أنّ الدعاء الذي يكرّره قائد الثورة الإسلاميّة (دامت بركاته) دوماً في كلامه: «زنده باشيد» (أي: دمتم، أو أدام الله بقاءكم) والذي يدعو فيه بدوام العمر للآخرين يستند هو الآخر إلى أنّ الحياة هي نعمة عظيمة للغاية، وهو يعني بذلك: أمدّ الله في أعماركم كي تتمكّنوا في ظلّها من بلوغ السعادة الأبديّة.

تأسيساً على ما مرّ فإنّ محاولة الانتحار أو تمنّي الموت للارتياح من مصائب الدنيا هو أمر مذموم، بل وقد يُعدّ من أعظم الكبائر أحياناً، وفي المقابل فإنّه لا عيب على الإطلاق في طلب الحياة الأبديّة وهو

؛ أي إنّ [6]«**إنّما خُلِقتم للبقاء لا للفناء**» :ممّا ترومه فطرة الإنسان، بل وقد خلق الله ابن آدم لذلك الله قد خلقكم من أجل حياة باقية خالدة، لا من أجل حياة عابرة مؤقّتة أو موت بطيء تدريجيّ؛ إذ نستطيع أن نعتبر الحياة الدنيا شكلاً من أشكال الموت البطيء، لأنّ أمدها ينقص كلّ يوم، ونحن نفرّط بجزء منها في كلّ يوم، وهذا لَعمري ضرب من الموت التدريجيّ. فالحياة الحقيقيّة هي تلك التي لا تنقص .أبداً. فلو عمّر المرء آلاف السنين في الجنّة، فلا ينقص من عمره شيء وهو مستمرّ إلى أبد الآبدين

!مهما عمل الإنسان فهو لنفسه

من الجليّ أنّ المعتقدين بأنّ الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقيّة التي لا نهاية لها والتي تخلو من كلّ أشكال وهذا المقطع من الحديث القدسيّ ناظر .يسعون لنيل مثل هذه الحياة والإفادة منها [7]التعب والعذاب **وأمّا الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتّى تهون** » :إلى هذا الجانب؛ يقول الباري جلّ جلاله .؛ فهذه هي الحياة الحقيقيّة[8]«**عليه الدنيا وتصغُر في عينيه وتعظُم الآخرة عنده**

وكما تلاحظون فإنّ كلّ كلمة من هذا الحديث الشريف تمثّل عصارة من معارف الإسلام المزكّية للنفس يشير إلى حقيقة أنّه مهما عمل الإنسان في هذه الدنيا «**فهي التي يعمل لنفسه**» :والمربّية لها. فقوله فهو عائد لنفسه في نهاية المطاف. فقد يتخيّل المرء أنّه يبغي خدمة الآخرين، لكنّ التمعّن بدقّة في خفايا الأمر يوحي بأنّه حتّى هذا العمل فهو لنفسه أيضا. فقد ذكرنا أنّ الإنسان يرغب في أن يخدم محبوبه ويصنع له ما يستطيع. فعلى الرغم من أنّ العاشق هنا – وفقاً للظاهر – لا يفعل شيئاً لنفسه، لكنّ المتعمّق في المسألة سيستنتج أنّ العاشق يشعر في أثناء خدمته لمحبوبه بلذّة لا يشعر بمثلها لو أنّه عمل لنفسه. وحتّى أُولئك الذين ينفقون أموالهم في أُمور الخير ومساعدة الفقراء بعيداً عن الرياء والشهرة فعلى الرغم من أنّهم غير راغبين في الأجر في ظاهر الأمر، لكنّ التفحّص في هذا العمل يقود الإنسان إلى .نتيجة مفادها أنّ أمثال هؤلاء يرون الكمال الإنسانيّ في ذلك ويرغبون في نيل هذه الفضيلة

فتحلّي الإنسان بالإيثار هي فضيلة عظمى، وإنّ المرء المُؤْثِر ليلتذّ بسبب إيثاره، لاسيّما إذا اُلحقَت بذلك ملحقات أُخرى كخلود الاسم بسبب الفضيلة. فعندما يلاحظ الإنسان أنّ التاريخ قد خلّد اسم حاتِم الطائيّ بعد مئات السنين بسبب كرمه، فإنّه سيلتذّ من كرمه وجوده بالمال أكثر من التذاذه بتمتّعه **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا** » :به، ولذا فهو يعمل لنفسه أيضاً. وهناك آيات قرآنيّة كثيرة، كقوله تعالى تشير إلى هذا [10]«**فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**» :، وقوله[9]«**اكْتَسَبَتْ** المعنى، وهو أنّ الإنسان مهما عمل فإنّه يعمل لنفسه؛ فهو إن اهتدى فلمصلحته وإن ضلّ فهو الذي .سيخسر

من هذا المنطلق فحتّى هذا الحديث فإنّه عندما يريد — في مقام التربية – تقوية الدافع لدى المتلقّي ويحثّه على السعي لطلب الحياة الأُخرويّة، فإنّه يعرّفه في البداية على أنّها حياة باقية وأنّك طالب لها بالفطرة وعليك أن تسعى لها، لكنّ سعيك هذا هو في الحقيقة لك. فإذا علم الإنسان أنّ ما يقوم به يصبّ في مصلحته فسيقوى الدافع لديه.

، فعندما يقوم المرء «**وأمّا الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا**» :يقول تعالى بعمل لنفسه فمن الواضح أنّه قد شخّص ما هو العمل الذي ينفعه حقيقةً. وفي هذه الحالة فمن المفترض أنّه قد شخّص الحقّ، وعلِم أين تكمن سعادته، وما هو العمل الذي يصبّ مائة بالمائة في مصلحته ويدرّ عليه أفضل النتائج ولا يخسر فيه. فالكثير من الناس لا يملكون مثل هذا التصوّر وهم يُقدِمون على عمل تخيّلاً منهم أنّ فيه مصلحتهم فإذا بهم يخسرون. بل **إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ** » ؛ فالناس عموماً هم في حالة خسران، وعكس ذلك هو حالة استثنائيّة. [11]«**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ** والنموذج الأبرز على هذا الخسران هم أُولئك الذين يقتلون أنفسهم في العمليّات الإرهابيّة الانتحاريّة جرّاء حماقتهم متصوّرين أنّ ذلك سيورثهم النفع الأبديّ! فمن الواضح أنّ تصوّراً كهذا هو تصوّر باطل، وأنّ هؤلاء لم يشخّصوا العمل الذي يصبّ فعلاً في مصلحتهم. فعندما يعلم الإنسان بوجود الآخرة ويدرك أنّ السعادة الأبديّة لا تكون إلاّ هناك وأنّ عليه نيلها بسعيه وكدّه، فإنّه سيسعى في هذا الاتّجاه. والعلامة على أنّ عمله هذا صحيح وأنّه سيقوده إلى السعادة والحياة الباقيتين هي أن لا يعير لكلّ ما يعارض هذه الحياة أهمّية. فعندما يشتغل المرء في المطالعة على سبيل المثال فإنّه قد يستطيع التمتّع بلذّة أُخرى إلى جانب المطالعة لكنّه إذا آمن بأنّ الدقّة الأكبر في المطالعة ستزيد من فهمه لما يقرأ وتسرّع من بلوغه الهدف المطلوب من المطالعة فإنّه سيهمل باقي اللذّات، وبما أنّ الهدف المرجوّ من المطالعة مهمّ فإنّه سيكرّس أكثر وقته لها ولا يعير باقي الأُمور أهمّية تُذكر.

النأي عن الدنيا لازم معرفة الآخرة

الشرط الأساسيّ لمعرفة الحياة الآخرة هو أن يكون سعي الإنسان بحيث تهون الأُمور الدنيويّة في عينه وتصبح غير ذات أهمّية. وعندها ستذهب قيمتها، وسيكتفي من الحياة والصحّة بما يكون ضروريّاً لعمله، ولا تكون همّته في التمتّع بحياة مرفّهة ونيل أصناف اللذائذ ومختلف التفنّنات؛ ذلك أنّ طاقة الإنسان محدودة وهو إنْ أنفقها في شيء ضعف عن أداء الأُمور الأُخرى، ومن هنا فإنّ شؤون الدنيا لا تكون ذات أهمّية لديه. بالطبع إنّ الدنيا بما هي دنيا وبما تحويه من لذائذ مادّية لا يمكن جمعها مع الآخرة، لكنّ الأُمور الدنيويّة قد تكون أحياناً مقدّمة للآخرة فيتعلّق بها أمر إلهيّ أو تكليف شرعيّ، ومن هنا تكون نفس هذه الدنيا أمراً من أُمور الآخرة، ولا تكون مستحقّة للذمّ الوارد للدنيا. وفي هذه الحالة فحتّى لو

انطوت هذه الدنيا على لذائذ مادّية جمّة، فمن حيث إنّها أمر الله وهي تمارَس امتثالاً لأمره عزّ وجلّ .فسوف لا يجري عليها حكم الأُمور الدنيويّة

بطبيعة الحال إنّ النأي عن الدنيا لا يعني التفرّغ للعبادة والتزام المناهج الأربعينيّة في الصومعات والسراديب، بل إنّ المراد من الدنيا هنا هو أن يرغب المرء في شيء بسبب لذّاته المادّية. أمّا إذا كان للإنسان في سعيه الدنيويّ دوافع إلهيّة، وكانت الغاية من دراسته العلوم مثلاً حفظ عزّة الإسلام وصيانة المسلمين من الذلّ والمهانة في مقابل الكفّار، فليس ذلك من حبّ الدنيا في شيء، وهو سيورثه سعادة .الآخرة إلى جانب ما له من آثار في هذه الدنيا

فعندما يستوعب المرء ماهيّة الهدف الأُخرويّ وقيمة الآخرة بشكل صحيح ويصبح هذا الهدف قيّماً بالنسبة له فسوف يدرك أنّه كلّما تنازل عن الآخرة فقد خسر. وهنا سوف لا يعير للدنيا أهمّية وستصغر الأخيرة في عينه. فنسبة الدنيا – مهما طالت وزادت منافعها – إلى الآخرة كنسبة المتناهي إلى غير المتناهي. فلو حاولنا الحساب بالكمّيات للاحظنا أنّ عمر ألف سنة في الدنيا هو أقلّ من لمح البصر بالنسبة للآخرة، وهو ليس ذا قيمة في مقابل عمر الآخرة الأبديّ الذي لا نهاية له. فإذا أدرك الإنسان **وتعظم** » :قيمة الآخرة صغُرت كلّ الحياة الدنيا في عينه، وعظمت – في المقابل – الآخرة في نظره **كان لي** » :وقد روي عن أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) في نهج البلاغة أيضاً قوله .«**الآخرة عنده** .[12]«**فيما مضَى أخٌ في الله وكان يُعظِمُه في عيني صِغَر الدنيا في عينه**

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

الدنيا والآخرة

25

إشارة

لقد ذكرنا في المحاضرات الماضية في إشارة إلى المقطع أعلاه من حديث المعراج أنّ الله يقول في مقام تعريف أهنأ عيش وأبقى حياة انّ الأخيرة تكون من نصيب من تصبح الدنيا في عينه – نتيجة كدّه وسعيه – هيّنة وغير ذات قيمة. وهنا قد يتبادر السؤال التالي إلى الذهن: ما هو السبب في قوله إنّ الحياة الباقية هي من نصيب مَن يعمل على أن تكون الدنيا في عينه هيّنة وحقيرة؟

من الواضح أنّه عندما يدور الكلام حول الحياة الأبديّة تكون للبحث أُصول ثابتة وقضايا مفروضة الصحّة، أوّلها أنّه ثمّة بعد الحياة الدنيويّة العابرة حياةٌ أُخرى باقية. فطرح سؤال من هذا القبيل على مَن لا يؤمن بهذه الحقيقة ليس في محلّه. والأصل الآخر هو أنّ علينا السعي والعمل من أجل نيل السعادة في الحياة الأبديّة. إذ قد تُطرح حول جميع هذه المسائل شبهات لدى بعض الشباب، نرى من المناسب أن نشير إليها.

إثبات المعاد أصعب ما واجهه الأنبياء

إنّ أعقد معضلة كانت تواجه الأنبياء هي إثبات قضيّة أنّه ثمّة عالم آخر بعد عالمنا هذا سنحيا فيه بعد الموت. فلم تواجه قضيّة إثبات وجود الله وضرورة عبادته صعوبة بالغة من قبل الأنبياء؛ ذلك أنّ أصل وجود المعبود كان محطّ قبول الجميع، فأغلب الناس كانوا معتقدين بوجود معبود يتعيّن عبادته. وقد اقتضت رسالة الأنبياء في هذا المجال تبليغ شعار «لا إله إلا الله» والقول للناس: «... **أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**»[2]. إذ كان على الأنبياء (عليهم السلام) أن يخبروا الناس أنّ الآلهة التي تعبدونها لا تستحقّ العبادة؛ إذ كيف يمكن أن يكون الذي تنحتونه بأنفسكم من الحجر والخشب إلهاً لكم وأن يكون أهلاً للعبادة؟! ولم يكن لدى الناس جواب على هذا الاستدلال العقليّ سوى القول: « **بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا**»[3]؛ فهذه سنّة آبائنا وأسلافنا، فقد ألفيناهم يفعلون ذلك ونحن نقتفي آثارهم: « **إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**»[4].

لكنّ المسألة الأُخرى التي كان الأنبياء يؤكّدون عليها كثيراً هي قضيّة وجود اليوم الآخر، وهي أنّ الناس يحيون ثانية بعد الموت ويحاسَبون على أعمالهم وأنّ كلّ امرئ سيثاب أو يعاقَب على ما قدّمه. فإثبات هذه المسألة كانت غاية في الصعوبة، إذ لم يتمّ إحياء قوم حتّى ذلك الحين كي يشاهدهم الناس. وهذا ما جعل الكثير من الناس يقولون: «**إِنْ هَٰذَا إِلاّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**»[5]. بل وكانوا أحياناً يستهزئون بالأنبياء لهذا السبب قائلين: لقد ظهر مجنون يدّعي أنّ الإنسان يتمّ إحياؤه ثانية بعد أن يموت ويُقبَر: «**أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ**»[6]!

التفاسير الخاطئة للآخرة

إذن فإثبات المعاد للناس كان من أصعب ما واجهه الأنبياء، فلم يكن الناس ليصدّقوا بسهولة أنّهم سيُبعثون مرّة أُخرى بعد موتهم وسيعيشون حياة لا نهاية لها هي الحياة الحقيقيّة. من أجل ذلك فقد حاول البعض – بغية إظهار الانسجام والتكيّف مع من آمن بهذه العقيدة – تأويل هذا المفهوم كغيره

من المفاهيم، فقالوا، مثلاً: «الآخرة هي مفهوم قيميّ وأخلاقيّ». وقد تستغربون من سماع ذلك، لكن لا بأس أن تعلموا أنّه ثمّة شخص معمّم قبل الثورة كان يُدعى «آشوري»، وقد تمّ إعدامه بعد الثورة بسبب ارتداده، كان قد كتب في كتاب له تحت عنوان التوحيد: «ليس «الله» بموجود عينيّ وحقيقيّ، بل هو تصوّرنا الذهنيّ للكمال المطلق»! وكان يقول أيضاً: «عبارة «لا إله إلا الله» هي لإثبات وجود مثال أخلاقيّ، وليس لنا في هذا المجال أيّ مشكلة أو خلاف مع المادّية الفلسفيّة التي تعني إنكار الله؛ فنحن نختلف مع الماركسيّين في المادّية الأخلاقيّة». وكان ثمّة من يقول أيضاً: «الآخرة لا تعني أنّ الإنسان سيُبعث بعد الموت حقّاً، بل هي في مقابل الدنيا وتعني القيمة؛ فالدنيا تعني الربح، والآخرة هي القيمة! فلو فعلتم ما يدرّ عليكم بالنفع، فهذه هي الدنيا، أمّا إذا قمتم بنفس هذا الفعل لما يحمله من قيمة، فهذه هي الآخرة، وإنّ دعوة الأنبياء إلى الآخرة إنّما هي دعوة إلى التمسّك بالقيم وفعل الخيرات لما لها .(من قيمة» (وهو تفسير مشابه لنزعة «كانت» في الأخلاق

فلا يصيبنّكم العجب من سماع أمثال هذا الكلام! فبعض الشخصيّات المعمّمة، والتي تمارس اليوم نشاطات سياسيّة واسعة أيضاً، كانت تروّج في درس تفسيرها لرؤية مفادها أنّ: «اليوم الآخر يعني يوم الثورة! بمعنى أنّه على الشعب أن يمارس أوّلاً نشاطات سرّية حتّى يحين زمان الثورة. وانّ ساعة الثورة هي **أَكَادُ** » :، لكنّه لا ينبغي لأحد أن يعلم بها«**إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ**» :تلك التي يقول عنها القرآن الكريم .«[7]«**أُخْفِيهَا**

علاقة الدنيا بالآخرة

الأصل الثابت الثاني الذي افترضناه لهذا البحث كان ضرورة السعي في هذه الدنيا لنيل سعادة الآخرة. بيد أنّه كان هناك من الأشخاص مَن لم ينكر الآخرة، لكنّه يقول: «الآخرة عالم آخر قد يُبعث المرء فيه ثانية بعد موته وكما أنّه كان يعمل في هذه الدنيا فسيعمل في ذلك العالم أيضاً. فالقرآن عندما يطرح **مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً** * » :الحوار القائم بين أخوين يشير إلى هذه الرؤية فيروي عن قول أحدهما فعلى فرض وجود .[8]«**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً** الآخرة، فلا ينبغي أن نقلق بسببها؛ فحتّى لو اقتادونا بين يدي الله في ذلك العالم فمثلما سعينا في هذه الدنيا وحصلنا على هذه الثروات فباستطاعتنا هناك أن نعمل بشكل أفضل ونحصل على ما هو أفضل من ذلك»! ومن المثير أن تعلموا هنا أيضاً أنّ أحد السياسيّين – ممّن كان يُظهر تديّناً فائقاً وكان يشغل مناصب في أوائل أيّام انتصار الثورة – كان قد كتب في كتابه: «من المحتمل أن تكون الجنّة في أحد الأجرام السماويّة وأنّه سيكون باستطاعة البشر بعد تفوّقهم العلميّ والصناعيّ أن يصنعوا من الأجهزة ما !«يمكّنهم من المهاجرة إلى هناك؛ أمّا المتخلّفون علميّاً والأمّيون فسيبقون في جهنّم هذه الأرض

لكنّ تفاسير من هذا القبيل لا تنسجم مع الأُصول الثابتة المُقرَّة في معتقداتنا. فنحن نعتقد بأنّ الإنسان وبعد رحيله عن هذه الدنيا وتفسّخ بدنه وتحوّل عظامه إلى تراب سيُبعث مرّة أُخرى ويرى ثمار أعماله التي قدّمها في الحياة الدنيا؛ وهذا يعني أنّنا — أوّلاً – نؤمن بالآخرة، وثانياً: نرى أنّ الآخرة هي مفهوم حقيقيّ، وليس مفهوماً قيميّاً وأخلاقيّاً، وثالثاً: نعلم أنّ الآخرة تأتي بعد عالم الدنيا وتبدأ بعد الموت، **إنّ اليوم عمل ولا حساب** » :ورابعاً: نعتقد بأنّ سعادة الآخرة لا تُنال إلاّ من خلال أعمال هذه الدنيا وإنّه بالاستناد إلى هذه الأُصول الثابتة يخاطب الله نبيّه الكريم (صلّى الله .[9]«**وغداً حساب ولا عمل** .«**وأمّا الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا**» :عليه وآله) ليلة المعراج بقوله

نسبة الدنيا إلى الآخرة

لكن لماذا أشار أوّلاً إلى هذا المبحث؟ والجواب هو: لأنّ الدنيا مهمة جدّاً في نظر الكثير منّا. فعلى الرغم من اعتقادنا بالآخرة فنحن لا نعتقد بأنّها على هذا القدر من الأهمّية. وباستثناء بعض الدقائق التي نشغلها بأعمال من قبيل الصلاة فنحن نقضي أغلب أوقاتنا في اليوم والليلة بالكدّ والمثابرة في سبيل الدنيا والتفكير بها، بل حتّى وقت راحتنا ونومنا فنحن نخصّصه للدنيا أيضاً. فإذا تصوّرنا صبيّاً بلغ الحلم لتوّه، أو شابّاً على أعتاب تأسيس حياته المستقلّة فإنّ كلّ همّه وغمّه ينصبّ على أنّه كيف سيؤمّن دخلاً جيّداً، وعن أيّ طريق سيكسب معاشه، وما السبيل لامتلاك بيت مناسب واقتناء سيّارة جيّدة والتزوّج من امرأة صالحة والتمتّع بحياة كريمة؟ فهذه المسائل تشغل ذهنه باستمرار ممّا يجعل الدنيا في نظره عظيمة ومهمّة. فإن أراد امرؤ إدارة مدينة أو دولة، أو المضيّ في طريق التقدّم العلميّ والصناعيّ، فسوف لا يجد الوقت للتفكير في المسائل الأُخرى. فإذا اقترحتَ عليه — والحال هذه — أن يتفرّغ ساعة لتلاوة دعاء أبي حمزة الثماليّ عوضاً عن التفكير بهذه الأُمور، فما هي ردّة الفعل التي تتوقّعها منه؟

أذكر في أوائل عهد قدومي إلى مدينة قمّ المقدّسة حيث لم تكن شوارعها مُعبَّدة بيدَ أنّ البلدية شرعت بتعبيد أحد الشوارع. فإذا بامرأة عجوز على حاشية الطريق كانت تمرّ على مقربة من العمال المشتغلين بتعبيد الطريق فقالت وقد أثارتها آلات ومكائن التعبيد: ماذا يصنع هؤلاء المعمّمون يا ترى؟ فإن كانوا !صادقين فليأتوا ويعبّدوا الطرق كما يفعل هؤلاء

فمن الطبيعيّ أن تكون الامور المتعلّقة بالحياة الدنيا مهمّة بالنسبة لنا؛ إذ أنّ لنا حاجات وعلينا السعي لتلبيتها. بل وقد نستغرق عشرات السنين في نيل بعض مطالبنا. ولذا فمن الطبيعيّ جدّاً أن يقيم المرء لشؤون الدنيا – بدءاً من المأكل والملبس والمسكن والحاجات الجنسيّة وصولاً إلى المنصب والمكانة الاجتماعيّة – وزناً. فلو قيل لنا في هذا الخضمّ: اعملوا على أن تعظم الآخرة في أعينكم، فما معنى

ذلك؟ هل يعني أن نهتمّ بالآخرة بمقدار ما نقيم للدنيا من وزن؟ فهل من تناسب بين الدنيا والآخرة يا ترى كي نستطيع المقارنة فيما بينهما؟ فالدنيا متناهية والآخرة غير متناهية، ولا يمكن تصوّر أيّ نسبة بين المتناهي واللامتناهي. ناهيك عن أنّه مَن من الناس له أن يدّعي أنّه يسعى لآخرته بمقدار ما يعمل لدنياه؟ فالله الذي خلَقَنا والذي يعرفنا حقّ المعرفة يقول: «**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا**»[10]؛ أي: ليس أنّكم لا تساوون بين الآخرة والدنيا ولا تعملون لآخرتكم بالمقدار الكافي فحسب، بل إنّكم تؤثرون دنياكم على أُخراكم. فلعلّ معظمنا قد واجه هذا التزاحم بين أمر دنيويّ وآخر أُخروي وقال: فلننظر في أمر دنيانا في الوقت الحاضر، ثمّ نفكّر قليلاً بأمر الآخرة فيما بعد!

لقد جاء الأنبياء لتفهيمنا بأنّ حياتكم الدنيا وما تكسبون فيها لا يمكن أن تشكّل طرفاً في عمليّة تناسب مع الآخرة التي هي الحياة الأصيلة. فالأصل هناك وعليكم أن تعرفوا ذلك ولا يمكنكم أن تتصرّفوا على هذا الأساس إلاّ إذا أصبحت الدنيا صغيرة في نظركم ولم تكترثوا لها. بالطبع لابدّ من التذكير هنا بأنّ أكثر الأعمال الدنيويّة حيوانيّة قد يتحوّل إلى تكليف شرعيّ وأمر أُخرويّ وعندها سيكون له حساب آخر. فبحثنا يدور حول قضيّة أنّه إذا أردنا أن تكون الآخرة ذات أهمّية عندنا وأن نبلغ ما تتحدّث عنه هذه الرواية فلا ينبغي أن نطلب الدنيا من أجل الدنيا وملذّاتها. فإن أفلحنا في ذلك حصلنا على ذلك الثواب. والخطوة الأُولى في هذا السبيل هي أن تصغر الدنيا في أعيننا. لكن ما الذي ينبغي صنعه كي تصغر الدنيا في أعيننا؟ فالسبيل إلى ذلك هو ما علّمنا القرآن الكريم في قوله تعالى: «**لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»[11]. إذن علينا أن نقارن بين الدنيا والآخرة. فينبغي أن نعلم أوّلاً ماهيّة هذه الدنيا، وخصوصيّاتها، وما توفّره لنا من لذّات، ثمّ نعرف في المقابل ما هي الآخرة؟ لكنّ المشكلة تكمن في أنّنا – في مقام التصوّر – نعلم أنّ الدنيا تتضمّن أُموراً محدودة قليلة القيمة، وأنّ الآخرة غير محدودة، أمّا في مقام التصديق القلبيّ والإيمانيّ المؤثّر في أعمالنا فنحن ضعفاء.

النيّة؛ مناط قيمة الأعمال

إذا أردنا المضيّ في هذا الطريق فعلينا أوّلاً أن نحلّ هذه المسألة في أنفسنا وهي أنّ الدنيا ليست هي غايتنا. فنحن — إن شئنا أم أبينا – منطلقون في طريق سفرنا هذا وسوف نجتازه لا محالة. بالطبع إنّ تصديق هذا الأمر ليس بالأمر الصعب جدّاً؛ ذلك أنّنا نرى بأُمّ أعيننا أنّ طبيعة الدنيا لا ثبات فيها وأنّها في حالة مرور. لكنّ المعضلة التي واجهها جميع الأنبياء هي إثباتهم للبشر أنّ غايتهم الأساسيّة من حياتهم هي الآخرة وأنّه لا ينبغي أن يوظّفوا جميع طاقاتهم ومساعيهم في سبيل الدنيا: «**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ**»[12]. فإنّه باتّباعنا الأنبياء والسير على نهجهم، يمكن أن تصبح كلّ مساعينا التي نقوم بها

لأجل الدنيا والتي نجني ثمارها في هذه الدنيا أيضاً ذات أثر في آخرتنا. فنحن نكدّ لجني المال من أجل توفير الغذاء كي نُشبع بطوننا. فهذا الكدّ والسعي له آثار دنيويّة بالنسبة لنا، لكنّه في الميسور أن يتحوّل نفس هذا العمل إلى عبادة فنجني منه نتائج أُخرويّة. هذا هو فنّ الدين، ولعمري فإنّه ما من مدرسة بشريّة يمكنها أن تقدّم لنا مثل هذا الفنّ. فجميع الأُمور الدنيويّة التي تُعدّ في حدّ ذاتها صغيرة وحقيرة وغير ذات قيمة، يمكن أن تكون لها قيمة بالتبَع أو بالعَرَض، وأن تحمل لنا أعلى درجات القيم فيما لو أنجزناها بهدف الآخرة ومن أجلها وفي سبيل الله. وفي هذه الحالة نكون قد لبّينا حاجاتنا المادّية وأشبعنا لذّاتنا الدنيويّة من جهة، ونكون قد عمّرنا منزل آخرتنا وأمَّنّا سعادتنا النهائيّة التي خُلقنا من أجلها من .جهة ثانية

فلقد أحببتُ أن أُشير إجمالاً إلى أنّ الخطوة الأُولى على طريق الوصول إلى ما بيّنه الله عزّ وجلّ لنبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) في ليلة المعراج هو محاولتنا أن نفهم بأنّ الدنيا في حدّ ذاتها ليست ذات قيمة، لكنّها من الممكن أن تكون وسيلة للآخرة وعندها ستحظى بقيمة هي في غاية في العلوّ والرفعة. .والفارق بين الأمرين يعتمد على نظرتنا إلى الدنيا ونيّتنا من أعمالنا وسلوكيّاتنا

وفّقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

الدنيا والآخرة

26

إشارة

تناولنا في المحاضرات السالفة مقطعاً من حديث المعراج يخاطب الله تعالى فيه نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) بالقول: « **وأمّا الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا وتصغُر في عينيه وتعظُم الآخرة عنده**»[1]، وهو يعني أنّ الخطوة الأُولى لوصول الإنسان إلى الحياة الباقية المطلوبة هي أن تصغر الدنيا في عينيه. ومن أجل استيعاب هذه المسألة بدقّة والحكم عليها وتقييمها بشكل صحيح لابدّ أوّلاً من الوصول إلى فهم صحيح ودقيق لمفهومي «الدنيا» و«الآخرة».

«الآخرة» في اللغة

مفردة «آخر» هي صيغة فاعل من أصل «أَخَرَ» الذي لا يستعمل فعله إلاّ في أبواب «التفعيل» و«التفعّل» و«الاستفعال»، وليس له استخدامات في صيغه المجرّدة والمزيدة الأُخرى. وتُستعمل هذه ، وهاتان الكلمتان متضايفتان؛ بمعنى [2]«**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ**» :الكلمة عادةً في مقابل «الأوّل»؛ كقوله أنّهما تُستخدمان لأمرين بينهما تقدّم وتأخّر، فأحدهما أوّل والثاني آخِر. أمّا كلمة: «الآخرة» بتاء التأنيث فوفقاً لقاعدة في الأدب العربيّ فإنّ الموصوف المؤنّث لبعض الصفات يُحذف بسبب كثرة الاستعمال؛ مثل: «حسنة» و«سيّئة» و«خطيئة». فالأصل في «الحسنة» هو «الخصلة الحسنة» حيث حُذفت كلمة «الخصلة» تدريجيّاً وبقيت صفة «الحسنة». وقد استُخدمت هذه الكلمة في القرآن الكريم وحتى كلمة «الآخرة» فقد ذُكرت في .[3]«**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا**» :أيضاً في قوله تعالى القرآن الكريم مراراً بعنوان كونها صفة لكلمات مؤنّثة ويُستشَفّ من ذلك أنّ هذه المفردة هي الأُخرى :كانت في سائر الأمثلة صفة لموصوف مؤنّث وقد نُسي موصوفها شيئاً فشيئاً لتحلّ هي محلّه؛ مثل قوله ويمكننا أن نفهم من خلال المعنى اللغويّ لكلمة .[5]«**النَّشْأَةَ الآخِرَةَ**»، و[4]«**الدَّارَ الآخِرَةَ**» «الآخرة» واستعمالاتها القرآنيّة – حيث جاءت تارة في مقابل «الدنيا» وأُخرى في مقابل «الأُولى» – ؛ فالحياة الأُولى هي التي تكون في هذه الدنيا وهي [6]«**إِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ**» :أنّ لدينا حياتين .قريبة، والحياة الأُخرى التي هي في العالم الآخر وهي بعيدة

«استخدامات كلمتَي «الدنيا» و«الآخرة

تُستخدم كلمتي «الدنيا» و«الآخرة» بعدّة وجوه؛ فقد يُراد من «الدنيا» هذا العالم والنظام المهيمن عليه، ويراد من «الآخرة» ذلك العالم الذي يأتي وتتحقّق تفاصيله بعد عالم الدنيا. فالقرآن الكريم لم يعدّ النظام الموجود في هذا العالم نظاماً باقياً ودائميّاً، بل أكّد على أنّه سيتلاشى وسيزول كلّ من الشمس ، (أي انطفأت) [8]«**وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ**»، [7]«**وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ**» :والقمر والكواكب فهذه الآيات تتحدّث عن نشأة .[10]«**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**» ، أو[9]«**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**» يتغيّر فيها كلّ شيء ولا يبقى على ما نراه عليه في هذا العالم، وتتحوّل فيها منطقة الوجود إلى منطقة لكن ما .[11]«**فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً**» :مستوية تخلو من أيّة وعورة الذي سيحدث بعد ذلك؟ لا نعلم. لأننا لا نفهم إلاّ ما قد مارسناه وشاهدنا نماذج له في هذا العالم؛ .كإنتاج المادّة من تراكم الطاقة، أو تولّد الطاقة من إشعاع المادّة

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ » :ومن خصوصيّات الآخرة هو وجود الجنّة والنار وكون الجنّة واسعة جدّاً ، أي سماوات وأرض هذا العالم. ومن خصوصيّات عالم الآخرة أيضاً أنّه يمتاز فيه [12]«**وَالأَرْضِ** الصالح عن الطالح، والحسن عن القبيح، والحزن عن الفرح، واللذّة عن العذاب، خلافاً لعالم الدنيا الذي

قد تجتمع فيه هذه الصفات المتضادّة، بل وقد تمتزج مع بعضها أيضاً؛ فقد تكون لشخص واحد شخصيّتان: إحداهما صالحة تتّصف بصفات حسنة والثانية طالحة بسجايا سيّئة. أمّا في عالم الآخرة فتنفصل كلّ هذه الأُمور عن بعضها البعض؛ وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم: «**يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ**»[13]. فلا يمكن أن يجتمع الصالحون والطالحون معاً في ذلك اليوم، بل ستُجعل كلّ طائفة منهم في مكان معزول عن الآخر يُدعى أحدهما الجنّة والثاني النار. ففي الجنّة لن يكون ثمّة أيّ عذاب أو مشقّة أو تعب أو نصب أو ملل أو ضعف أو غمّ أو حزن. كما لن يكون ثمّة في النار أيّ راحة أو طمأنينة أو فرح.

حقيقة الدنيا والآخرة

فأوّل استخدام لمفردتَي «الدنيا» و«الآخرة» هو إطلاقهما على هذين العالمين اللذين يتقدّم أحدهما على الآخر ولا تبقى موجودات الأوّل على حالها في الآخرة. وقد أشارت آيات من الذكر الحكيم إلى هذا المعنى، كقوله تعالى: «**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**»[14]، أي اضطرمت فيها النيران، وقوله: «**فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً**»، يجعل منطقة الوجود قاعاً مستوياً لا تموّج فيه. ففي ذلك اليوم تلتصق الشمس بالقمر وتتناثر النجوم؛ أي ستختفي قوّة الجاذبيّة التي كانت تسيطر عليها وتنظّم مدار كلّ منها. كلّ هذه العبارات تشير إلى أنّ النظام المهيمن على عالم الدنيا سيتغيّر في الآخرة ولن تبقى أيّ ظاهرة في الأخير على ما هي عليه اليوم. إذن فالموجودات الدنيويّة ليست هي من سنخ الأُخرويّة. بالطبع نحن لا نعلم أيّ نمط من الموجودات ستكون هذه الأخيرة، لكنّنا نعلم – اعتماداً على القرآن والسنّة – أنّ نوعين من الكائنات الموجودة في هذا العالم وهما الإنس والجنّ سيحافظان على أنفسهما في العالم الآخر مع حدوث بعض التغييرات في جميع ظواهرهما من المادّة والشخصيّة والهويّة. فإنّ لأفراد هذين النمطين من الكائنات عالمين هما دار الدنيا ودار الآخرة؛ فهم يعيشون اليوم في هذا العالم، أمّا بعد الموت فسيُبعثون ثانية في العالم الآخر ليبدأوا حياة جديدة ليس لها نهاية.

وفي هذا المقام يتمّ دراسة الحياة الدنيا والحياة الآخرة من زاوية علم الوجود، حيث تُبحث الحقائق الخارجيّة والاختلافات الماهويّة والخصوصيّات الوجوديّة لكلّ منهما. وعلى هذا الأساس فلا يسعنا تحديد ما إذا كانت الدنيا هي الأفضل أم الآخرة، كما لا نستطيع أن نعلم إنْ كانت الكرة الأرضيّة أفضل أم كرة القمر. إذ أنّ لكلّ واحد منها خصائصَه الوجوديّة الخاصّة به ولا يَرِد على أيّ منها ثناء أو ذمّ من هذه الجهة. ولعلّ هذا هو الأساس الذي استند إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) في ردّه على مَن ذمّ الدنيا في حضرته حيث قال: «**إنّ الدنيا دار صِدق لمَن صدَقها... ودار موعظة لمَن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله،... ومتجَر أولياء الله**»[15]. فأيّ سوء في الدنيا يا ترى؟ فهاهنا المسجد الذي يهوي فيه أحبّاء الله على الأرض سُجّداً لربّهم، وهاهنا مصلّى ملائكة الله. وإنّ كلّ

من يصدُق مع الدنيا تَصدُق الدنيا معه، فهي لا تُخفي عن أحد حقائقها، وإن فتّش المرء بصدق عن الموعظة والعبرة فستكون أفضل واعظ له. وهي متجَر أولياء الله؛ فلولاها لما كان لأولياء الله محلّ يتاجرون فيه بفعل الخيرات ويجنون لآخرتهم الأرباح. فأيّ مذمّة لدنياً هذه صفاتها؟!

بالطبع من الممكن، انطلاقاً من هذا المفهوم، مقارنة الخصوصيّات الوجوديّة للدنيا والآخرة مع بعضها. فعالم الدنيا على سبيل المثال بكلّ ما بُيِّن له من سعة بسماواته السبع والمسافة التي تبلغ خمسمائة سنة بين كلّ سماء وأُخرى، وسعة المنظومة الشمسيّة ونسبتها إلى مجرّة درب التبّانة، وغير ذلك من الأرقام والأبعاد المذكورة بخصوص مسافات وحدود العالم، نقول هذا العالم مع كلّ هذه السعة التي لا يمكن تصوّرها بشكل صحيح ومع كلّ ما أُوتي من عظمة لا يسع الإنسان إلاّ أن ينحني أمامها خضوعاً وإجلالاً، لا يمكن قياسه بالجنّة التي أعدّها الله سبحانه وتعالى لأوليائه في العالم الآخر؛ فعرضُ تلك الجنّة بعرض جميع هذه السماوات والأرض. كما أنّ عمر هذا العالم لا يساوي شيئاً أمام عمر العالم الآخر. لكنّه ما من واحدة من هذه الصفات تندرج في مقام التقييم. وحتّى القرآن الكريم فإنّه يقول بالنسبة لمقارنة من هذا القبيل: «**اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً**»[16]؛ فحياتكم في هذا العالم، مع كلّ ما له من عرض وطول، لا تعدو كونها لهواً ولعباً وانّ كلّ ما تتفاخرون به من أموال وممتلكات وحسَب ونسب إنّما مَثَله كمَثَل مطر يفرح به المزارعون، لكنّ الزرع الأخضر الذي ينبت بسببه والذي يُعجب المزارعين سرعان ما يصفرّ ويجفّ فتنثره الرياح هنا وهناك. هذا هو مَثَل الدنيا؛ فهي كالشخص اليافع أو الشابّ الذي يذهب عنه نشاطه وغضاضته شيئاً فشيئاً حتّى يشيخ ثمّ تكون النتيجة «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»: «**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**»[17]؛ فالله قد خلق ابن آدم ليمرّ بكلّ هذه المراحل حتّى يموت في نهاية المطاف.

فهذه مقارنة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة وهي لا تدلّ بالضرورة على سوء الحياة الدنيا، بل هي تذكير بأنّ الأُولى تختلف عن تلك التي تأتي بعدها اختلافاً كبيراً. فالمحاسبات التي تجري في ذلك العالم تختلف عمّا هو موجود هنا، كما أنّ كلّ ما هو موجود في هذا العالم من عقود وجعل واعتبارات، بما في ذلك العلاقات النسبيّة والسببيّة، سيزول: «**فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ**»[18].

الاستخدام الآخر لمفردتي «الدنيا» و«الآخرة» هو لبيان العلاقة والنسبة فيما بينهما، والإرشاد إلى مقدار ما ينبغي أن نعمل لهذا العالم ومقدار ما يجب أن نعمل لذلك العالم. وفي هذه الحالة أيضاً فإنّ الدنيا

ومع .[19]«قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ» :ليست بمذمومة، لكنّها — بالطبع — قليلة وحقيرة مقارنة بالآخرة .ذلك فحتّى في هذا المقام فإنّ الكلام لا يدور عن كون الدنيا سيّئة والآخرة جيّدة

تقييم الدنيا والآخرة

أمّا الاستخدام الثالث لمفردة: «الدنيا» والذي تُذكر فيه بالذمّ فهو يراد به التعلّق بها. فعندما يُقال إنّ فلاناً من الناس قد صارت الدنيا كلّ همّه وانحصرت فيها جميع أهدافه ومقاصده، وأنّه لم يعد يقيم للآخرة وزناً بل نسيها أو أنكرها، فهذا هو التعلّق المذموم بالدنيا، الذي يعبَّر عنه بطلب الدنيا وحبّها والانشداد لها والذوبان فيها، والذي هو محطّ ذمّ، والذي غالباً ما عبّر عنه القرآن الكريم بتعبير «إرادة الدنيا»، كقوله تعالى: « مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَٰهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً»[20]، « فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ»[21]. فالمتعلّقون بهذه الدنيا هم أُناس جُهّال قد نسوا الحياة الأبديّة وتخيّلوا أنّ هذه الحياة القصيرة العابرة المليئة باللعب واللهو والاعتبارات الدنيويّة هي كلّ شيء. فالتعلّق بالدنيا والانشداد لها هو المذموم، وليست الحياة الدنيا نفسها. فمن حيث إنّه باستطاعة هذه الحياة أن تؤمّن لنا السعادة الأبديّة فإنّها نفيسة للغاية؛ بالضبط كحزمة الأوراق المالية التي وإن كانت مجرّد ورق بيد أنّه يمكننا شراء أشياء قيّمة ونفيسة بها وهي — لهذا — قيّمة بالنسبة لنا. فإذا نظرنا إلى الدنيا من هذه الزاوية فسوف نجد أنّها ليست غير مذمومة فحسب، بل هي نعمة عظمى منّ الله بها علينا، ولولا هذه النعمة لما بلغ أولياء الله الكمال ولما استحقّوا الأجر والثواب. فسوء الدنيا ينبع من تعلّق قلوبنا بها وتضحيتنا بالآخرة في سبيلها وصيرورتنا مريدين لها. «مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا»[22]؛ أي: من كان يريد زراعة هذه الدنيا فسنعطيه نفس النتيجة التي تعلّق قلبه بها ثمّ إنّه لن يجني في الآخرة شيئاً: « ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ» بل وسيدخل جهنّم مدحوراً ذليلاً. لكنّه «يَصْلَٰهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً»: « مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ»؛ فمن أراد زراعة الآخرة فسنبارك له في زراعته ونزيده منها.

بناءً على ما تقدّم فإن لمصطلحَي «الدنيا» و«الآخرة» ثلاثة استخدامات: الأوّل بيان الخصوصيّات الوجوديّة للعالم الذي نعيش فيه اليوم في مقابل العالم الذي يخلقه الله تبارك وتعالى بعد فناء الأوّل وتلاشي نظامه وهو عالم باقٍ ليس للفناء سبيل إليه. والثاني يعني جانباً من حياة الإنسان الذي يتمتّع بحياتين؛ حياة هي في هذا العالم في مقابل حياة أُخرى تكون في العالم التالي. والثالث: التعلّق بهذا القسم من الحياة. وكأنّ هذا المعنى كان في الأساس موصوفاً ثمّ حُذف؛ مثل «حبّ الدنيا» أو «إرادة الدنيا». وكما أسلفنا من أنّ «الآخرة» هي صفة حلّت محلّ موصوفها، فإنّ «الدنيا» أيضاً هي صفة تمّ تناسي موصوفها تدريجيّاً فحلّت هي محلّ الاسم. فذمّ الدنيا أخلاقيّاً يرجع في الواقع إلى موصوف خفيّ في

بواطننا، ألا وهو التعلّق بالدنيا. فالحياة في هذه الدنيا بمعزل عن هذا التعلّق محبَّذة وقيّمة، لأنّها نعمة عظيمة قد أسبغها الله علينا كي نزيد بواسطتها في علمنا وكمالنا ونكتسب بسببها الأجر والثواب لآخرتنا. فالذمّ هو للتعلّق بالدنيا والانخداع بها وإحلالها محلّ الآخرة، وجعل الوسيلة محلّ الغاية. ومن هنا فإنّها تُعرَّف بعبارة: «**مَتَاعُ الغُرُورِ**»[23].

الإيمان بالآخرة هو الأساس في تقييم سلوكيّات الإنسان

الآخرة التي ينغبي لنا الإيمان بها هي الحياة النهائيّة بعد الموت التي سنُثاب أو نُعاقب فيها على أعمالنا. وحتّى من الناحية القيميّة فلابدّ أن تصغُر الدنيا جدّاً في أعيننا؛ لأنّ الهدف ينحصر في ذلك العالم وانّ عالم الدنيا برمّته لا يساوي حتّى رمشة عين في مقابل عمر يستمرّ ألف عام. فالآخرة لا نهاية لها أمّا الدنيا فمتناهية. بالطبع إنّ علينا — في مقام التقييم — أن نقدر هذه الدنيا حقّ قدرها، إذ انّ ما لا نهاية له من السعادة لا يتسنّى اكتسابه إلاّ من خلال هذا العمر الدنيويّ القصير الذي لا يعدو كونه لعباً ولهواً. فإذا تعلّقت قلوبنا بهذه الدنيا وصار هذا التعلّق عقبةً أمام السير نحو الآخرة، فنحن خاسرون. وعلى هذا الأساس يقول مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام): «**ولَدنياكم أهون عندي من ورقةٍ في فِيّ جرادة تقضمها وأقذر عندي من عُراقَة خنزير يقذف بها أجذَمُها**»[24]؛ أي: أقذر من عظم خنزير ميّت في يد شخص مصاب بالجذام. أمّا إذا أنفق عمر هذه الدنيا في العبادة فإنّ كلّ لحظة فيها أثمن عند عليّ من مُلك آلاف من سنين الدنيا، بل إنّه لا يبيع حتّى ثانيةً واحدة منها بكلّ زخارفها.

نقول ذلك لنعلم ما الذي ينبغي لنا أن نسعى وراءه في مقام العمل وتقييم الأُمور وتحديد الهدف في حياتنا. فلابدّ أن يكون همّنا هو حثّ الناس على عدم نسيان الآخرة. فإنّ جميع الأنبياء قد جاءوا لإثبات أمرين هما الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر. ونحن من دون هذه المعتقدات سنمسي أخسّ حتّى من الحيوانات. يقول جلّ وعلا في كتابه العزيز: «**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**»[25]. فقيمة الإنسان هي بإيمانه بالله واعتقاده باليوم الآخر. ومن هنا فلابدّ أن نحمل هذا الهمّ وهو أنّ لا ندع الناس يضلّون عن عقيدتهم وينسون أنّه ثمّة حياة آخرة، وأنّها هي الهدف، وأنّ هذه الدنيا هي مجرّد وسيلة.

إنّ مسألة الاعتقاد باليوم الآخر كانت أهمّ ما أكّد عليه الأنبياء، وانّ قوام إنسانيّة الإنسان وفهمه الصحيح وقيمة معرفته تكمن في الإيمان بأنّ عالم الآخرة هو القسم الأساسيّ من حياة الإنسان وأنّ الحياة الدنيا بالنسبة لذلك العالم هي أشبه ما تكون بالمرحلة الجنينيّة. فالقرآن الكريم يقول: «**إِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**»[26]. فالحياة أساساً هي هناك. فحتّى الكافر يقول يوم القيامة: «**يَالَيْتَنِي**

؛ أي: ياليتني فكّرت بحياتي وقدّمت لها شيئاً! ففي مثل ذلك اليوم يلتفت الكافر [27]«**قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**
.إلى أنّ ما مضى في الدنيا لم يكن حياةً، بل موتاً بطيئاً، أمّا الحياة الحقيقيّة فهي هنا

إنّ العمود الفقريّ لجميع الأديان هو الاعتقاد بالتوحيد والمعاد. وهذا هو أساس جميع القيم وإنّ سلوكيّات جميع الناس تتشكّل وتُقيَّم على أساس هذه العقيدة، وهي العقيدة التي ينبغي لكلّ مسلم أن .يكون همّه الأوّل هو صيانتها والحفاظ عليها

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

الآخرة في النظام العقائديّ والقيميّ للإسلام

27

إشارة

قلنا في المحاضرة الفائتة، توضيحاً لمفهوم الآخرة في المصادر الإسلاميّة، إنّ مفردة «الآخرة» قد استُخدمت في القرآن والسنّة بثلاثة معانٍ: الأوّل بمعنى العالم الذي سيُخلق بعد تلاشي الشمس والقمر والنجوم وباقي ظواهر هذا العالم والنظام المهيمن عليه، وهو عالم يتمتّع بخصوصيّات معيّنة لا ندرك حقيقتها بدقّة. وهنا يُنظر إلى الآخرة من زاوية علم الوجود. والمعنى الثاني هو النوع الثاني من حياة الإنس والجنّ كموجودات ذات حياتين: حياة قصيرة عابرة في هذا العالم تنتهي بالموت، وحياة أبديّة باقية في العالم الآخر تبدأ بالموت. وهذا المعنى هو مفهوم يرتبط بعلم الإنسان. والمعنيان المذكوران يفصحان عن حقيقة عينيّة وليس في ميسورنا، استناداً إليهما، القول بأنّ الدنيا مذمومة. أمّا المعنى الثالث للدنيا والآخرة فهو مفهوم قيميّ وأخلاقيّ يحكي عن التعلّق باللذائذ التي يتمتّع بها الناس في القسم القصير والمؤقّت من حياتهم (الدنيا)، وهو مفهوم يفسَّر في واقع الأمر بحبّ الدنيا أو التعلّق بها. وقد عبّر القرآن .[1]«**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**» :الكريم عن هذا المفهوم بـ «إرادة الدنيا» كقوله وإنّ ما ذكرته الروايات وتوصيات علماء الأخلاق في ذمّ الدنيا ناظر إلى هذا المفهوم؛ أي الانشداد إلى اللذّات المادّية المؤقّتة المتوفّرة للمرء في هذا القسم من حياته، وهو الانشداد الموجب للقول بالأصالة للحياة الدنيا ولذّاتها، والحال أنّ الأصالة هي من نصيب الحياة الآخرة وما الدنيا إلاّ وسيلة للوصول .إليها. إذن علينا الالتفات إلى الاختلاف القائم بين هذه المعاني الثلاثة كي لا نخلط بين أحكامها

أمّا السؤال التالي فهو: أيّ معنىً من هذه المعاني الثلاثة تريده الآيات والروايات؟ فعندما تقول الآية الشريفة مثلاً: «**فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا**»[2]، فما هو المراد من الاغترار بالحياة الدنيا؟ أوَلم يقل أمير المؤمنين (عليه السلام): «**إنّ الدنيا دار صِدق لمَن صدَقها**»[3]، فكيف؟ فإن كانت الدنيا صادقة، فكيف تغرّنا إذن؟ وللإجابة على هذا السؤال يتعيّن أوّلاً مناقشة مكانة الآخرة في النظام العقائديّ والقيميّ للإسلام. وهو بحث له صلة بالتأكيد المتكرّر لقائد الثورة الإسلاميّة على الجانب الثقافيّ وتوصياته بضرورة الحيلولة دون اختراق ثقافتنا من قبل الأعداء. ولا بأس، من هذا المنطلق، أن نشير في بداية حديثنا إلى الثقافة.

الثقافة، معتقدات وقيم

لقد قُدّمت للثقافة معانٍ شتّى وطُرحت حول هذا الموضوع في الأوساط الأكاديميّة بحوث مستفيضة، من بينها المفهوم المقبول لدينا وهو «المعتقدات والقيم». وعلى أساس هذا التعريف تُعدّ سائر الأمور – التي تطرح أحياناً بعنوانها ثقافة — مقدّمات أو مظاهر أو نتائج للثقافة. وعليه فمن أجل دراسة مكانة «الآخرة» في الثقافة الإسلاميّة يتحتّم علينا اكتشاف محلّها في منظومتنا العقائديّة والقيميّة.

خلافاً للنظام الثقافيّ الإسلاميّ فنحن لا نجد بين المعتقدات والقيم في بعض الثقافات من علاقة، لا بل من الصعوبة تقديم نظام ثقافيّ منسجم لهذه الثقافات، إنّما هي مجموعة من الآداب والتقاليد والمعتقدات وحتّى الخرافات —كاللغة، واللهجة، ومختلف الآداب والتقاليد المعمول بها في مراسم العزاء والفرح، والرقصات المحلّية، وأشياء من هذا القبيل – يجمعونها سويّة ويطلقون على هذه الخلطة اسم «ثقافة». لكنّهم لا يحاولون خلق أو اكتشاف العلاقة بين العناصر المختلفة للمعتقدات والقيم، بل ويصرّح بعضهم بعدم وجود مثل هذه العلاقة أساساً. وتُعدّ مسألة العلاقة بين الحقائق والقيم من المباحث المرتبطة بفلسفة القيم والأخلاق وقد طُرحت حولها بحوث واسعة وصُنّفت فيها مؤخّراً مصنّفات قيّمة. ونشير هنا بشكل مجمل إلى خلاصة هذه المباحث بالمقدار الذي يرتبط بموضوعنا.

الآخرة في النظام العقائديّ والقيميّ للإسلام

إنّ عقائدنا تنحصر في أُصول الدين والمذهب. فالمؤمن بهذه الأُصول الخمسة يكون مؤمناً وشيعيّاً، أمّا إذا لم يعتقد المرء بواحد من أُصول الدين الثلاثة، فقد أنكر ضرورة من ضروريّات الدين ولهذا يُعَدّ خارجاً منه، كما أنّ غير المعتقد بواحد من أصلَي المذهب يُعدّ خارجاً من التشيّع. وبناءً عليه فإنّ مكانة الآخرة في نظامنا العقائديّ هو الإيمان بأنّ الإنسان سيُبعث بعد الموت وسيرى عاقبة عمله.

لكن هل لهذه العقيدة صلة بنظامنا القيميّ؟ والجواب على هذا السؤال: نعم؛ ذلك أنّ الاعتقاد بالإله الواحد من جهة، وباليوم الآخر من جهة ثانية له دور مهمّ جدّاً وجوهريّ في نظامنا القيميّ. فكلّنا يعلم أنّ سلوك غير المعتقد بيوم القيامة يختلف عن سلوك المعتقد به. كيف؟ لأنّ الشخص المعتقد باليوم الآخر يعلم أنّه مسؤول عن أعماله وعليه أن يهيّئ جواباً لكلّ تصرّف يقوم به. ومن هنا فإنّه يملك الدافع للقيام بالصالحات وترك السيّئات. أمّا غير المؤمن بالآخرة فهو – حتّى وإن آمن بالله – سيتصوّر .أنّه ما من أحد سيحاسبه على أعماله وأنّه لو كان ثمّة ثواب وعقاب فسيكونان في هذه الدنيا

ومن هنا فإنّ الاعتقاد بالآخرة له أعظم الأثر على سلوكيّات الإنسان ونظامه القيميّ. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القضيّة فقال: « **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ**»[4] ؛ فالذين ينحرفون عن جادّة الصواب ويُسيئون التصرّف ويقترفون المعاصي سيعذَّبون يوم القيامة عذاباً شديداً لأنّهم نسوا أنّهم سيحاسبون، وكلّما سنحت لهم الفرصة وبغضّ النظر عن أنّهم مجازون بفعل ذلك أم لا، فإنّهم لا يتورّعون عن إطلاق العنان لشهواتهم ولا يكبحون جماح غضبهم ويمارسون كلّ موبقة. ومن هنا فإنّ معتقداتنا، لاسيّما الإيمان باليوم الآخر بالمعنى المشار إليه في المحاضرات السابقة، لها فائق الأثر على نظامنا القيميّ والسلوكيّ. فإن اعتقد المرء بأنّ الإنسان سيُمضي قسماً من حياته في هذا العالم وقسماً آخر في عالم ثانٍ، وكما أنّه يمارس في هذه الدنيا بعض التصرّفات ثمّ يثاب عليها فإنّ بإمكانه ممارسة سلوكيّات معيّنة ليثاب ويؤجَر عليها في العالم الآخر، فهذا هو الاعتقاد بالمعاد. فالاعتقاد بالمعاد يعني أنّنا سنرى في الآخرة عاقبة كلّ تصرّف نقوم به في الدنيا، وهو .عالم مُعدّ لتلقّي نتائج أعمالنا الدنيويّة فقط والعمل فيه غير متاح

تأسيساً على ما ذُكر فلابدّ في مقام تقييم الأعمال أن نضع في نظر الاعتبار ما سيتركه كلّ عمل من أثر على حياتنا الأبديّة فلا نكتفينّ بما نجنيه منه من مصالح ولذائذ دنيويّة. فعلى العكس من بعض المدارس الأخلاقيّة التي ترى أنّ مناط القيمة هي اللذّة – وهو ما يُعدّ في الواقع إنكاراً للنظام القيميّ والأخلاقيّ، لأنّه سيؤدّي إلى أنّ كلّ امرئ سيتصرّف على مزاجه – فإنّ النظام الأخلاقيّ الإسلاميّ مبنيّ على المنظومة العقائديّة؛ فمضافاً إلى الآثار الدنيويّة للعمل فإنّ آثاره على حياة الإنسان الأبديّة توضَع بعين الاعتبار في مقام عمليّة تحديد القيمة له. وبعيداً عن هذا الملاك ستكون أحكامنا القيميّة خاطئة وفاقدة للرصيد العقلانيّ. ولذا فإنّ تصنيف السلوكيّات إلى حسنة وقبيحة في حيّز الدين يقوم على أساس هذه المعادلات، خلافاً للكثير من أنظمة العالم القيميّة حيث يَعدّ أفضلُها معيار الحسن والقبح ثناءَ العقلاء وذمّهم؛ فإن امتدح العقلاء تصرّفاً أصبح في رأيهم حسناً، وإذا ذمّوه صار قبيحاً، وليس لارتباط السلوك

بالآخرة موطئ قدم في هذا النظام. لكن مَن هم العقلاء؟ وما هو معيار القيمة في حكمهم؟ وإلى ماذا يستندون في أحكامهم؟ و...الخ، فهذا غير معلوم. فكلّ ما عدّه الناس حسناً فهو حسن. ومن الواضح أنّ نظاماً كهذا هو نظام ضعيف ويفتقر إلى الأساس العقلانيّ المتين؛ ذلك أنّه في مقام وزن وتقييم تصرّفٍ ما يتعيّن وضع جميع آثاره إلى أبد الآبدين في الحسبان، ولمّا كنّا غير قادرين على إجراء مثل هذه الحسابات، فنحن إذن بحاجة إلى الدين.

تأثير الإيمان بالمعاد على السلوك

اعتماداً على ما تقدّم فلابدّ — من ناحية – أن نعتقد بأنّ عالماً آخر سيأتي بعد هذا العالم. كما ينبغي لنا — من ناحية أُخرى — أن ننظر في أثر هذه العقيدة على سلوكنا ونظامنا القيميّ. وهذه العقيدة هي من أشدّ عقائدنا أصالةً وقد أكّد عليها القرآن الكريم في آيات عديدة؛ كقوله تعالى: « **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**»[5].

كلّنا يعلم أنّ الإيمان باليوم الآخر هو من أهمّ عقائدنا بحيث إنّ المنكر له كافر، لكن إلى أيّ مدىً يُعدّ هذا الاعتقاد مؤثّراً في أعمالنا؟ يورد القرآن الكريم في هذا الباب تعبيراً ملفتاً فيقول: « **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ**»[6]؛ أي: إنّ المتأسّين برسول الله (صلّى الله عليه وآله) هم الذين يرجون أن يمثلوا بين يدي الله يوم القيامة. وهذا الرجاء هو إحساس حيّ وهو يختلف عن الاعتقاد بيوم القيامة. فالإنسان يعلم أُموراً كثيرة لكنّه غافل عن معظمها، حتّى يُلفَت انتباهه إليها. وهذا العلم هو غير الرجاء الذي يحيي الاعتقاد في ذهن المرء وقلبه ويجعله منشأً للأثر. فالذين يرجون المثول بين يدي الله واستلام الأجر على أعمالهم في اليوم الآخر يتعيّن عليهم أن يتأسّوا بالنبيّ الأعظم (صلّى الله عليه وآله). ولعلّ المراد من «الظنّ» في قوله تعالى: « **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُواْ رَبِّهِمْ**»[7] هو هذه الحالة، وليس الظنّ في مقابل الشكّ واليقين.

إذن فإن كان اعتقادنا بيوم القيامة حيّاً ولم يقبع في أعماق قلوبنا تحت طبقات من الحُجُب فإنّ من شأنه أن يكون ذا أثر في أعمالنا. وكلّما زادت هذه العقيدة غضاضة واشتدّ حضورها في أذهاننا زاد أثرها على أنواع سلوكنا. فإنّ أقوى ضامن للعمل بأوامر الشرع ونواهيه وامتثال القوانين المعتبرة هو نفس هذا الرجاء لليوم الآخر والمحاسبة على نتيجة الأعمال والالتفات إلى هذه العقيدة، وفي المقابل فإنّ نسيان الأخيرة من شأنه أن يجرّ المرء إلى التدنّس بالمعاصي. فلعلّ جواب الكثيرين ممّن سيتورّطون بالعذاب إذا سئلوا عن هذه العقيدة هو: نحن نقرّ بيوم القيامة! لكن وكأنّهم لم يعتقدوا بذلك أبداً، والسبب هو أنّها لم تكن

حاضرة في حياتهم. فالعقيدة لا تكون ذات أثر إيجابيّ في نظامنا القيميّ والسلوكيّ إلاّ إذا كانت حاضرة في عقولنا وقلوبنا حضوراً فعّالاً، ولذا فإنّ نسيانها أيضاً سيكون له أثر سلبيّ.

إذن يتعيّن علينا الاهتمام بالاعتقاد بالله والإيمان باليوم الآخر اللذين لهما أكبر الأثر في حياتنا وأن نستحضرهما دائماً في أرواحنا. وثمرة ذلك هو أنّ على الإنسان أن يسعى لفعل الصالحات. وهنا، حيث تُطرح مسألة تشخيص الحسن والقبيح، يأتي بحث النبوّة؛ وهو أنّه لابدّ من وجود أنبياء يبعثهم الله تعالى ليدلّوا الناس على الأعمال التي توجب رضا الله عزّ وجلّ.

الرؤية والدافع

إنّ من عجائب حكمة الله عزّ وجلّ هي أنّه خلق كائناً بإمكانه أن يقوم بدور الممثّل والمشاهد في آن معاً، فهو باستطاعته أن يراجع سلوكه ويقيّمه أيضاً. فمثلاً إنّ ما يجتذب الإنسان بشكل طبيعيّ إلى مائدة الطعام هو الجوع. ولذا فإنّ إشباع الجوع أو الشعور باللذّة أثناء تناول الطعام يُعدّ محفّزاً يسوق الإنسان إلى إعداد الطعام وتهيئة كلّ المقدّمات اللازمة لذلك. فلو راجعنا جميع ألوان سلوكنا لوجدنا أنّ لدينا دافعاً لكلّ واحد منها. وهذه الدوافع تتأثّر بنظامنا القيميّ. فقد يكون دافعنا لجميع هذه الحركات والسكنات هو لذائذ الدنيا أو آلامها، ونحن إنّما نقوم بالعمل فللتمتّع بلذّة أو الفرار من ألم. فنحن نتجشّم متاعب جمّة لبلوغ أمانينا وكلّما زادت معرفتنا بالدنيا طالت آمالنا وعرضت أمانينا. فنحن نسعى وراء الرزق كي نتزوّج وننجب الأطفال، ونفتّش عن عمل لترقى منزلتنا الاجتماعيّة ونحظى بالمزيد من احترام الناس، وهكذا. وبعد كلّ ما نحمله لأنفسنا من الأماني فنحن نفكّر بمستقبل أولادنا أيضاً.

كلّ هذه الطلبات والميول تترك آثارها على أعمالنا وبإمكانها أن تجرّنا إلى طلب الدنيا. لكن من الممكن أن تُنجز جميع هذه الأعمال، بما فيها لحظ العيون، بدافع الآخرة. فالنظر إلى الوالدين إحساناً لهما فيه أجر وثواب أُخرويّان، والنظر إلى وجه العالم والسادة [من أولاد رسول الله (صلّى الله عليه وآله)] عبادة. فباستطاعة الإنسان جني الثواب بمجرّد فتح عينيه والنظر إلى شخص ما. هي نفس حركات العين، ونفس حركات اليد والرجل، ونفس الجلوس والقيام والأكل والنوم، لكنّ قيمتها تختلف باختلاف الدافع والمحفّز. والدافع بدوره ينبع من الرؤية؛ فلو انطلق الإنسان من رؤية أنّ كلّ شيء وكلّ لذّة دنيويّة مادّية وكلّ سلوك ستكون له قيمة، وصدّق بأنّه ثمّة فوق اللذائذ المادّية أُمور ولابدّ أن يقيم لها حساباً، فستكتسب أعماله قيمة أُخرى.

إنّ لهاتين الرؤيتين قطبين: الأوّل هو أن لا يفكّر المرء بالآخرة طرفة عين منذ أوّل لحظة حتّى آخر لحظة من حياته، والثاني – في المقابل – يتمثّل بأُولئك الذين يعدّون حياتهم بأسرها سفَراً ومقدّمة لحياة أُخرى

سيرون فيها حصيلة ما قدّموه من أعمال وسلوك في هذا العالم، وإنّ كلّ اهتمامهم منصبّ على ذلك العالم. فشخص كهذا يسعى وراء كسب الثواب والنجاة من العذاب الأُخرويّ حتّى في نظرته، فهو إن فالنظرة نفس النظرة، والمشي .[8]«**يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ**» :احتمل المعصية حتّى من نظرة واحدة غضّها ذات المشي، والأكل عين الأكل، أمّا اختلافها في القيمة فهو من السماء إلى الأرض. وبين هذين **وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَءَاخَرَ** » :القطبين مراتب لا تحصى ولا تُعدّ .، فثمّة أُناس يميلون تارة إلى هذا القطب وتارة أُخرى إلى القطب الآخر[9]«**سَيِّئاً**

وإنّه بطرح قضيّة نمط الرؤية إنّما يتمّ الحديث عن عمليّة تقييم الأعمال. فالذين نسوا الآخرة تماماً أو أنكروها فإنّ كلّ اهتمامهم ينصبّ على ما يجنونه في هذه الدنيا. وحتّى في التحرّكات الاجتماعيّة الضخمة كالثورة فإنّهم يسعون لنيل الراحة والطمأنينة الدنيويّتين. وفي رأي هؤلاء فإنّ أرقى قيمة يمكن طرحها للإنسان هي العدالة الاجتماعيّة. لكن هل إنّ هذه العدالة هي منتهى المطاف أم هي وسيلة ؛ فمنتهى علم أمثال [10]«**بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ**» :لبلوغ قيم أخلاقيّة أسمى؟ يقول تعالى .هؤلاء هو هذه الدنيا فهم يصلون بالموت إلى طريق مسدود

فكلّ ما قيل في إطار طلب الدنيا وطلب الآخرة إنما يُختزل في ماهيّة نيّاتنا ودوافعنا، وبالتالي رؤيتنا إلى الحياة الدنيا والآخرة وتقييمنا لهما. بالطبع لا يمكن طرح هذه المباحث إلاّ عندما يكون ثمّة اعتقاد بالمعاد بالمفهوم الذي سبق ذكره، وإلاّ فليس من جدوىً منها؛ فلا معنى لتأثير الأعمال الدنيويّة في الآخرة بالنسبة لمن ينكر اليوم الآخر. إذن فلابدّ من تثبيت هذه العقيدة في نفس الإنسان أوّلاً، ليكون لها أثر **وَمَنْ أَرَادَ** »، «**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**» :على ألوان سلوكه فيصبح طالب آخرة .[11]«**الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً**

سبب ذمّ طلب الدنيا

لكن لماذا الذمّ لطلب الدنيا؟ لأنّ طالب الدنيا سوف لا يجني من سعادة الآخرة شيئاً. فهو لم يعمل لآخرته كي يرى ثمرته في الآخرة. فلقد أنجز ما أنجزه في سبيل الدنيا وحصل على نتائجه الدنيويّة فيها. ؛ [12]«**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا**» :وسيقال لأمثال هؤلاء في يوم القيامة فلقد أتيتم بما أتيتم به في حياتكم الدنيا من أجل متعتكم وجنيتم ثمار أعمالكم فيها، إذن فليس لكم في :الآخرة شيء. بالطبع إنّ الله يقول في آية أُخرى: الذين يعملون لدنياهم لا ينالون كلّ ما يصبُون إليه فطالبو الدنيا يودّون لو امتلكوا .[13]«**مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ**» العالم بأسره وحازوا على أفخم القصور، وأفضل المناصب، وأمتع المسرّات، و...الخ، لكن هل سينالون

كلّ ما يطلبون؟ كلا، لأنّه لو كان الأمر كذلك لما اندلعت في العالم كلّ هذه الحروب والصراعات. فإنّ تزاحم إرادات طالبي الدنيا هو وراء كلّ هذه الحروب. أمّا طالبو الآخرة فإنّ الله يعطيهم فوق ما يفكّرون ، ذلك أنّ أغلب ما يهبه الله من الثواب غير قابل [14]«**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**» :به للتصوّر بالنسبة للبشر، وهم — لذلك — لا يطلبونه. غير أنّ الله يعرّفنا في آية أُخرى بطائفة أُخرى من **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم** » :طالبي الآخرة على هذا النحو **فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم** » :فهو تعالى يبيّن ثواب هؤلاء عبر تعبير يفوق تعبير الأجر بقوله «**مَّشْكُوراً** ، وهو تعبير غاية في علوّ المضمون ونحن عاجزون عن استيعابه. فالله عزّت أسماؤه يتشكّر من «**مَّشْكُوراً** عبده على عمل هو تعالى الذي وفّقه إليه وغرس في نفسه الدافع لفعله، وبيّن له السبيل إليه، ووفّر له ؛ فلا تسألنّ عن الثواب «**فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً**» :أسبابه ليتمكّن العبد في النهاية من إنجازه !الذي سيعطيه الباري عزّ وجلّ لهؤلاء

لقد ذكرنا أنّه يمكن تصوّر قطبين لطلب الدنيا وطلب الآخرة في النظام القيميّ الإسلاميّ: أوّلهما قطب نسي فيه ابن آدم الآخرة وأنكرها بالكامل، وقطب صبّ فيه كلّ اهتمامه على الآخرة. والمصداق البيّن لأصحاب القطب الثاني ممّن يندر أن يُعثر على أمثالهم بين عامّة الناس هم الأنبياء والأولياء (صلوات الله عليهم أجمعين). ولعلّ بعض المتربّين في مدرستهم يتّصفون بهذه الصفات أيضاً. لكنّ السواد الأعظم من الناس يقعون بين هذين القطبين فتارة يذكرون الآخرة وتارة ينسونها. وهنا ينبغي لنا العمل على إحياء :الاعتقاد بالآخرة في قلوبنا واستحضاره باستمرار كي يلقي بأثره على أعمالنا. فقد جاء في الخبر إذ كلّما كان المرء ذاكراً للموت والحساب والقيامة .[15]«**أكيَس الناس مَن كان أشدّ ذكراً للموت**» فإنّه سيحسّن أعماله ويراقب حياته. وهذه هي الكياسة والفطنة. أمّا إذا نسي الموت فسيُبتلى بالجهل والغفلة. وشخص كهذا فاقد للكياسة والفطنة وسرعان ما ينخدع. بناءً عليه فعلينا أن ننظر كيف ننمّي .ذكر الموت والمعاد في أذهاننا كي تصلح ألوان سلوكنا نتيجة ذلك

أبعاد طلب الآخرة

الموضوع الآخر الذي يُطرح تعقيباً على هذه المسألة هو: هل إنّ الاهتمام بالآخرة يقتصر على حيّز المسائل الفرديّة أم إنّه مطروح أيضاً في إطار الأبعاد الاجتماعيّة؟ وهل يتحتّم علينا، مضافاً إلى ضرورة تفكيرنا باليوم الآخر، أن نذكّر الآخرين به؟ هل هناك مسؤوليّة قانونيّة ورسميّة ملقاة على أشخاص معيّنين تلزمهم بحثّ الناس على التفكير بالآخرة؟ وهل على الجهاز الحكوميّ من مسؤوليّة في هذا المجال، أم إنّ هذه المهمّة ملقاة على مَن يصفهم البعض بـ «الواهمين والبطّالين»؟! وهل إنّ مهمّة التذكير بالآخرة وتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع بما ينفع آخرتهم هي – في النظام الإسلاميّ – من واجبات الحكومة

والمسؤولين والمتعهّدين الاجتماعيّين؟ بالطبع إنّ بيان مهامّ الحكومة ومسؤوليّاتها في المجتمع الإسلاميّ وعلاقة الحكومة بالشعب يتطلّب بحثاً مسهباً يتعيّن التعرّض له في حقل فلسفة السياسة.

لكنّ ما يرتبط ببحثنا هو: هل تمّ، في النظام القيميّ للإسلام الذي يهتمّ بإحياء ذكر الآخرة، تعيين حدٍّ واجبٍ لهذا الأمر بحيث إنّ عدمه يعرّض أفراد المجتمع للخسران؟ أم إنّ ذكر الموت هو من الفضائل التي كلّما نمت زاد حظّ الإنسان من ثوابها؟ وهل بإمكاننا القول إنّ الغفلة عن مرتبة من مراتب ذكر الآخرة تعادل إنكار الدين وأنّ نسيانها يلحق المرء تدريجيّاً بملّة الكفر؟

إنّ الأثر الذي يلقيه الاعتقاد بالآخرة (وغيره من المعتقدات) على تصرّفات الإنسان يبعث على الدهشة. وإنّ في ميسورنا الوقوف على أمثلة من هذا الأمر بالتمعّن في آيات الذكر الحكيم. فالقرآن على سبيل المثال يقول: بعض الناس يستاءون وتشمئزّ قلوبهم إذا ذكر الله وحده: « **وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**»[16]. فالذين ينزعجون من البحث في موضوع التوحيد ومعرفة الله وعبادته هم الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليس أنّهم لا يُقبِلون على هذه المواضيع فحسب، بل ويشمئزّون منها أيضاً! أ لَم تسمعوا البعض يقول: «الأُمّيون والبطّالون فقط هم الذين يتحدّثون عن هذه الامور! انظروا إلى أين وصلت أميركا، ونحن لا نزال سعداء بالثورة»!

إنّ سبب هذا الاشمئزاز من البحث فيما يتّصل بالله ومعرفته والتوحيد هو انعدام الإيمان بالآخرة. بمعنى أنّ إنكار الآخرة أو ضعف الإيمان بها يقود إلى ضعف الإيمان بالتوحيد أيضاً. فعدم الاهتمام بالآخرة يسلب من الإنسان توحيده، ولا يفسد عليه حياته الدنيا فحسب، بل ويسلب منه سعادته في الآخرة، ويبتليه بعذاب شديد، ويورّطه بخزي الدنيا أيضاً.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

العوامل الاجتماعيّة وراء سعادة الآخرة، ومهامّ الحكومة 28

إشارة

لقد تناولنا في المحاضرات الأخيرة مقطعاً من حديث المعراج الذي يخاطب الله عزّ وجلّ فيه نبيّه (صلّى الله عليه وآله) بالقول: «**وأمّا الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا وتصغُر في عينيه وتعظُم الآخرة عنده**».[1] وانطلاقاً ممّا ورد في الحديث من التوصية باستصغار الدنيا فقد تعرّضنا لمباحث حول «الدنيا» و«الآخرة» من وجهات نظر مختلفة مبيّنين في بادئ الأمر المفهوم المرتبط بعلم الوجود لهاتين المفردتين باعتبارهما قسمين لعالم الوجود يتحقّق أحدهما بعد الآخر، وهو مفهوم يناقشه عِلم الفلسفة وعلم الكلام. وقد تناولنا متابعةً للموضوع مفهوماً آخر للدنيا والآخرة باعتبارهما قسمين من حياة الإنسان وقلنا: إنّ الإنسان كائن يولَد في هذه الدنيا ثمّ ينتقل بعد مدّة محدودة، بالعبور من مرحلة الموت، إلى القسم الثاني من حياته وهو قسم أبديّ وباقٍ، وهذا مفهوم يناقشه علم الإنسان الفلسفيّ. ثمّ تطرّقنا بعد ذلك لمفهوم آخر لهاتين الكلمتين يتناوله علم الأخلاق، وهو مفهوم يُطرح في مقام تقييم هذين الجزءين من حيات ابن آدم. ومن الجدير بالذكر هنا أنّ هذا التقييم يُطرح ضمن الثقافة الدينيّة، وقد لا يكون طرحُه بهذه الصورة مسبوقاً في الثقافات الأُخرى. وقد ذكرنا في هذا المجال أنّ المراد الحقيقيّ من ذمّ الدنيا والثناء على الآخرة ليس هو نفس الدنيا والآخرة، بل إنّ الذي يخضع للتقييم هنا هو تعلّقنا بهذين العالمين. وبتعبير آخر فإنّ المذموم والمستقبَح هو الميل إلى الدنيا الذي ينتهي بحبّها الشديد، وإنّ المقبول والمحبَّذ والمُثْنى ومورد الثناء عليه هو الرغبة في الآخرة. وإنّ علّة الذمّ بالنسبة لحبّ الدنيا والميل إليها هي القول بالأصالة لها والتضحية بالغاية في سبيل الوسيلة؛ إذ أنّه وفقاً للرؤية الدينيّة فإنّ الدنيا وسيلة لنيل سعادة الآخرة. ولذا فإنّ الذي يجعل الوسيلة أصلاً وينسى الغاية فهو كالمسافر الذي خرج طالباً مدينةً لكنّه استأنس بالخضرة والكلأ والماء في منزل نزل فيه ليستريح أثناء الطريق فنسي المدينة التي كان يقصدها. فالوسيلة والمسير في هذا المثال غير مذمومين، لكنّ نسيان الهدف والتعلّق بالوسيلة هو المذموم.

فإن اقتصرت نشاطاتنا في الدنيا على ما نناله من مصالح ولذائذ في هذا العالم وقصُر بصرنا عن نتائجها الأُخرويّة، فإنّه طلب الدنيا. إذ ينبغي لطالب الحياة الباقية أن يغيّر نظرته إلى عالم الوجود ويفهم أنّ الحياة الدنيا بعرضها وطولها ما هي إلاّ أداة (وهي تشبه الحياة الجنينيّة) حيث يصوغ الإنسان نفسه في الدنيا ليتسلّم نتائج أعماله في العالم الأبديّ. ولامتلاك مثل هذه النظرة لابدّ أن يعتقد الإنسان بأنّه بالإضافة إلى الحياة العابرة التي يقضيها في هذا العالم فإنّه سيعيش حياةً أُخرى أبديّة، وهو معتقَد يُعدّ جزءاً من أُصول ديننا ومن شأنه أن يؤثّر على كلّ ألوان سلوكنا.

وقلنا أيضاً إنّ مجرّد العلم بذلك لا يكون ذا أثر على تصرّفاتنا. فالإنسان يملك الكثير من المعلومات، ويعلم بنفعها وضررها أيضاً، بيد أنّ أكثر معلوماته ليس لها أثر ملحوظ على أعماله. وأوضح مثال على

ذلك هو حالة الإدمان؛ فالجميع يعلم بمضارّ التدخين والمخدّرات والمسكِرات، غير أنّه يوجد مَن يستعملها على الرغم من علمه بمضارّها. إذن فمعرفة الإنسان بمضارّ شيء لا تشكّل بالضرورة رادعاً له عن استعماله، كما أنّ علمه بفوائد أمر لا يدفعه حتماً إلى إنجازه. فجميعنا يؤمن بأنّ للعبادة فوائدَ جمّةً لكنّنا لا نملك الحافز القويّ للعمل بهذا العلم. إذن لابدّ من وجود عامل آخر يُضَمّ إلى هذا الاعتقاد كي ينظّم سلوكنا بالشكل المفضي إلى سعادة الآخرة.

أثر المحيط على سلوك الإنسان

بالطبع من الممكن أن يكون العقل البشريّ نافعاً إلى حدّ ما في حثّ الإنسان على ممارسات لا تتطلّب الكثير من الجهد والعناء، بيد أنّ إنجاز بعض الأعمال يستدعي غضّ الطرف عن لذّات لا يسهل التغاضي عنها. فكيف لنا في مثل هذه المواطن الإفادة ممّا نعتقد به كي نضع ما نعلم في حيّز التنفيذ، بحيث يتّفق عِلمُنا مع عملنا؟ أساساً، كيف تتبلور تصرّفاتنا، وعلى أيّ أساس يتمّ اختيارنا ثمّ تبنّينا لسلوكٍ ما بعد تشخيص حَسَنه من قبيحه؟ ولماذا يعمل الإنسان أحياناً بما يغاير علمه؟ الجواب العلميّ على هذا السؤال يقع ضمن اختصاص علماء النفس، لكن لا بأس – لإلقاء الضوء على الموضوع – بالالتفات إلى هذا المثال البسيط: فلنتخيّل فتىً يافعاً قد ربّاه أبواه على أنّ مشاهدة الأفلام الفاسدة والخليعة أمرٌ غير لائق وهو ملتزم بهذا الأمر ما دام في المنزل. لكنّه عندما يجتمع بأصدقائه يلاحظ أنّ معظمهم يتحدّثون بشوق ولهفة عن الفلم الفلانيّ، وتبدو عليهم أمارات التعجّب لعدم اطّلاعه على الفلم، بل ويسخرون من جوابه بالنفي على مشاهدة مثل هذه الأفلام ويعيبون عليه ذلك. فبتكرار هذه القصّة سيقع هذا الفتى تدريجيّاً تحت تأثير هذا الجوّ، حتّى إذا خبَت جذوة العقيدة التي تعلّمها في البيت استسلم لإغواء أصدقائه. وقد مررنا جميعاً تقريباً بظروف مشابهة في بيئتنا الاجتماعيّة. وهذا يدلّ على أنّه بالإضافة إلى الاعتقاد بحسن العمل أو قبحه فإنّه ثمّة عوامل بيئيّة لها تأثير بالغ على سلوك الإنسان.

إنّ من جملة رغبات الإنسان النفسيّة التي تُبحث بإسهاب في علم النفس هي رغبته في التشبّه برفاقه وأقرانه، وهو ميل يشتدّ في مرحلة الطفولة والمراهقة. ومن هنا فإذا اختلط المرء بمحيط يناسب ما يحمل من معتقدات فستتعزّز الأخيرة عنده وتقوى إرادته على العمل بموجبها. أمّا إذا كان الجوّ البيئيّ مخالفاً لمعتقداته، فسينشأ في داخله – بدايةً – صراع بين معتقداته ومحيطه؛ فأُسرته تنهاه عن فعل شيء وأصدقاؤه يشجّعونه عليه، فيبقى متحيّراً: إلى مَن يصغي؟ لكنّ هذا التضادّ والتحيّر يتغيّر شيئاً فشيئاً لصالح الرأي العامّ حتّى تفقد معتقداتُه بريقها. ألَمْ تسمعوا المثل القائل: «حشرٌ مع الناس عيد»؟ نفهم من ذلك أنّ تأثير ظروف المحيط إذا لم يكن أشدّ من تأثير معرفة الإنسان، فهو ليس بأقلّ منه. لهذا فإنّ تنظيم دورة أو مطالعة كتاب لا تُعدّ كافية لإشاعة قيمة معيّنة في المجتمع، بل لابدّ من تهيئة المحيط لذلك

أيضاً. فإذا كانت اقتضاءات المحيط تتعارض مع مقتضيات الكتاب والدرس والقرآن والحديث والمنبر والموعظة فسينشأ بين الطائفتين صراع، فإمّا أن تصبح المحصّلة صفراً، وإمّا أن تتغلّب البيئة في نهاية المطاف.

سبل إصلاح المحيط

بالنظر إلى ما ذُكر، هل يستطيع الإسلام، وهو الذي طالب الإنسان بإخلاص النيّة وطلب الآخرة في قوله وفعله كي يتحلّى بالكمالات في هذه الدنيا وينال سعادة الآخرة – هل يستطيع التعامل مع المحيط تعاملَ غير المبالي؟ وهل إنّه لم يأمر بإصلاح المحيط وأقلمته مع المعتقدات يا ترى؟ فإذا كان الدين قد أتى لهداية الإنسان وإرشاده إلى السعادة الأبديّة فلابدّ أن يكون قد قدّم ما يكفل توفير الظروف البيئيّة الملائمة. وهذه هي عين «التربية» التي جاءت في المصطلح القرآنيّ بعنوان «التزكية»، كما في قوله تعالى: «**يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ**»[2] حيث ذكر القرآن الكريم التزكية والتعليم كمهمّة من مهامّ الأنبياء. من هنا فلابدّ، إلى جانب التعليم، من توفير الظروف الملائمة للعمل كي يساق الإنسان إلى إنجاز ما عُلِّم إيّاه، لا أن تكون عوامل المحيط مناهضة لذلك.

فكلّنا يعلم بأنّ الإسلام، ومن أجل توفير السبل اللازمة في هذا المجال فإنّه، مضافاً إلى إسناد مهمّة تربية الولد تربيةً صالحةً إلى الأبوين، فقد عهد إلى جميع المسلمين أيضاً بتكاليف عامّة أُخرى كي لا يصبح المحيط مضادّاً لتعاليم الدين. وأحد هذه التكاليف هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالأهمّية البالغة التي أولاها الإسلام لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتصنيفه إيّاها في عداد «أعظم الفرائض» يرجع إلى أنّ تلقين الناس المفاهيم بعيداً عن هذه الفريضة لا يداوي جرحاً، بل لابدّ أن تكون الأجواء مؤاتية أيضاً. فيا ترى كَم ستدوم آثار الدموع والتضرّع والتوبة والإنابة لدى الشابّ الملتزم بحضور مجالس الوعظ والدعاء والذي عقد العزم على التوبة وعدم اقتراف المعصية إذا كان يواجه كلّ يوم، في الشارع وفي الزقاق، مشاهد الفتيات اللواتي يرتدين ثياباً غير لائقة من الناحية الإسلاميّة؟!

فالإسلام يدعو أيضاً إلى العمل على جعل المحيط صحّياً كي يتمكّن الإنسان من بلوغ الكمال، ومن هنا فإنّه قد فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع المؤمنين وجعله من أهمّ الفرائض، وعيّن – من أجل تنظيم هذا الأمر – مسؤولين خاصّين لبعض مراتبه. فكلّكم يعلم أنّ مراجعنا العظام قد أفتوا بأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى اللسان هو من واجب الجميع، أمّا إذا اقتضى الأمر التدخّل البدنيّ، فهنا يسقط تكليف الفرد ويكون من واجب الحكومة الإسلاميّة النهوض بهذه المهمّة. وقد عُيّن لهذا المنصب في كلّ مجتمع أشخاص، فقد كان «المُحتَسِب» يقوم بذلك. وقد نهض

النبيّ الأكرم وأمير المؤمنين (صلوات الله عليهما وآلهما) بنفسيهما بهذه المهمّة، فقد كان أمير المؤمنين يضع السوط على منكبه ويمشي في السوق وكلّما شاهد خرقاً للقانون نبّه فاعله، حتّى إذا لم يمتثل استخدم في حقّه القوّة. أمّا اليوم فإنّ جهاز الشرطة وقوى الأمن هم الذين يقع على عاتقهم الحفاظ على الشعائر والقوانين الإسلاميّة. إذ ثمّة سؤال جدّي في هذا المضمار، هو: هل على الحكومة - حقّاً - واجب التدخّل في هذه الأُمور، ومعاقبة المنتهكين للقانون وتوقيفهم عند اللزوم؟

الحكومة والآخرة

إنّ البحث حول مسألة دواعي الحكومة وواجباتها وإلى أيّ مدىً يُسمح لها بالتدخّل في شؤون الرعيّة وتضييق الحرّيات، وبماذا يختلف رأي الإسلام عن سائر المدارس الفكريّة في هذا الصدد، هو بحث يرتبط بفلسفة السياسة، والمقام لا يتّسع لمناقشة كلّ هذه الأُمور. لكن ما يسعنا الإشارة إليه إجمالاً هنا هو أنّه استناداً إلى الثقافة السائدة في عالمنا اليوم فإنّ لكلّ امرئ الحرّيةَ في فعل ما يحلو له، اللهمّ إلاّ إذا أضرّ فعله بالآخرين، حيث سيقف القانون بوجهه. ولا يتاح للنظام الحاكم — وفقاً لهذه الثقافة - أن يستخدم القوّة ويضيّق الحرّيات إلاّ في مواجهة التصرّفات التي تضرّ بالآخرين. وهذه النزعة — القابلة للمناقشة من جهاتها المختلفة؛ الأخلاقيّة والحقوقيّة والسياسيّة — يُطلق عليها عموماً «الليبراليّة» وهي تحظى اليوم بقبول جميع المدارس الحقوقيّة والسياسيّة في العالم. على أساس هذا التوجّه فإنّ الإنسان حرّ في أن يفعل ما يشاء، إلاّ إذا تسبّب في مضايقة الآخرين أو الإضرار بهم. ولهذا فقد أقرّت جميع دول العالم المتحضّرة بأن من جملة واجبات الحكومة هو منع السلوك المضرّ بباقي أفراد المجتمع؛ فإذا أقدم الفرد على فعلٍ غير صحّي من شأنه أن يفشي في المجتمع مرضاً معيّناً فعلى الجهاز الحكوميّ أن يواجه هذا الفعل، بل إذا ثبت تعمُّد الفاعل، وجب على الأوّل معاقبته. وإذا أخلّ أحد بالبيئة فمن حيث إنّ عمله هذا يلحق الضرر بالجميع فإنّ على الحكومة ردعه عن ذلك. بل إنّ الدول تنفق أموالاً طائلة من أجل الحفاظ على الحيوانات الآيلة إلى الانقراض، ولا تسمح بصيدها بدعوى «الحرّية»، ذلك أنّ انقراض هذا النوع من الحيوانات سينجم عنه ضرر لجميع أفراد المجتمع.

تأسيساً على هذا المبدأ فإنّ على الحكومة مراقبة ماء الشرب والحفاظ على سلامته من أجل سلامة المواطنين، أو عزل المصابين بالأمراض المسرية لمجابهة تفشّي المرض، أو ردع المتعدّي على أعراض الناس. لكن هل يقتصر هذا المنطق على الأُمور المادّية والدنيويّة، أم هناك أُمور أُخرى تتحمّل الحكومة مسؤوليّة تجاهها؟ فإذا وصلنا، انطلاقاً من مرتكزاتنا الدينيّة، إلى نتيجة مفادها أنّ سلوكاً معيّناً يُعدّ مضرّاً بسعادة الإنسان الأبديّة وأنّه سيخلّده في جهنّم إلى الأبد، أفلا يتحتّم على الحكومة الوقوف بوجه هذا الضرر؟ من الواضح أنّ الطرف الآخر في نقاشنا ليس هو إنساناً ملحداً، بل هو شخص يقرّ بهذه الأُصول

والأُسس ويوافق على أنّه اعتماداً على التعاليم الدينيّة فإنّ القيام ببعض الأعمال يوجب خلود الإنسان إذن أفلا يتعيّن على الحكومة توفير الأجواء التي تحول .[3]«**وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً**» :مهاناً ذليلاً في جهنّم دون ابتلاء الرعيّة بهذه الأضرار الجسيمة؟

الحكومة وفق الرؤيتين؛ الإلهيّة والمادّية

هنا تنقسم المدارس السياسيّة إلى قسمين: قسم يتبنّى الرؤية المادّية، وقسم آخر مبنيّ على الفكر الإلهيّ. وإنّ الالتفات إلى هذه المسألة يكشف لنا السبب وراء تأكيد قائد الثورة المعظّم على ضرورة إيجاد تحوّل في أُسس العلوم الإنسانيّة. فبناءً على قول سماحته فإنّ بعض العلوم الإنسانيّة التي تدرَّس في جامعاتنا لا تخالف الإسلام فحسب، بل هي مناهضة للإسلام وموجبة لإضعاف الدين أيضاً. فإنّ علم النفس والعلوم الاجتماعيّة والحقوق والعلوم السياسيّة التي تدرَّس اليوم في جامعاتنا مبنيّة على المبادئ المادّية. فنحن لا نعثر في الكتب المتوفّرة لهذه العلوم على موضوع يتناول الضرر الأُخرويّ والأبديّ، فكلّ ما فيها يبحث في الأضرار والمنافع المادّية. بل إنّ البعض يَعُدّ الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان أعلى من القرآن قيمةً، وأنّه – وهو الذي أعدّه بضعة أشخاص انطلاقاً من نزعاتهم الليبراليّة – غير قابل للنقاش، لكنّه لا !يتوانى عن مناقشة القرآن الكريم المُنزل من عند الله تبارك وتعالى

ففلسفة الحقوق وفلسفة السياسة المبنيّة على التوجّهات المادّية تقتضي اهتمام الحكومة بمجابهة الأضرار المادّية والدنيويّة فقط، بل حتّى إذا أقرّ الدين سلوكاً يوجب ضرراً دنيويّاً فإنّ على الحكومة مواجهته، أمّا إذا لم يضرّ أمرٌ ما بدنيا الرعيّة فليس من واجب الحكومة منع أضراره الأُخرويّة! فمثلاً إذا تمّ إنتاج نوع من المشروبات الروحيّة التي يقول الأطباء إنّ مقدار الكحول الموجود فيها غير ضارّ بجسم الإنسان، فسيفتي الدنيويّون بما يخالف رأي المتديّنين! فالإسلام لا يجيز الشرب من قربة ماء سقطت فيها قطرة من الخمر، لكنّ البعض، وانطلاقاً من كون ماء القربة غير مُسكر، بل ومن باب إمكانيّة انطواء الخمر على فوائد علاجيّة، يجيز تناول بعض المشروبات التي تحتوي على نسبة من الكحول. لقد رُوي عن أمير **لو وقعت قطرة خمر في بئر فبُنيت مكانها منارة لم أؤذّن عليها، ولو** » :(المؤمنين (عليه السلام فإلى هذا الحدّ كان عليّ (عليه السلام) .[4]«**وقعت في البحر ثمّ جفّ ونبت فيه الكلأ لَم أَرْعَه** ذريعة لاستعماله! [5]«**فِيهِمَا... مَنَافِعُ لِلنَّاسِ**» :يجتنب الخمر، أمّا البعض فيتّخذ من قوله تعالى أفيكون مجرّد احتمال أن يفيد امرؤ من هذه المشروبات للتداوي سبباً وجيهاً لعدم إقدام الحكومة على منع إنتاجها وبيعها وشرائها؟ إذن فأين ذهبت حرمتها، وماذا عن الخسارة الأُخرويّة الناجمة عن شربها؟

وقد يقول قائل هنا: إنّ للناس عقولاً وفهماً وهم يدركون هذه الأُمور جيّداً، فليس من الضروريّ أن تحشر الحكومة أنفها في مثل هذه المسائل! لكن أليس الناس مدركين للأضرار المادّية الناجمة عن شرب الماء غير الصالح للشرب وتناول الأطعمة الملوّثة؟ ألا يعلم الناس ما هي الأضرار الناجمة عن تلويث خزّان ماء المدينة؟ إذن فلماذا يتحتّم أن يتدخّل مختلف المتخصّصين في عمليّة توفير المياه الصالحة للشرب ويشرفوا على جميع مراحلها، من حفر للآبار، وتصفية، ونقل؟ ولماذا، وبمجرّد إن يدور الكلام حول المسائل المعنويّة والأُخرويّة، ينبري البعض لطرح موضوع الحرّية قائلين: لا ينبغي إدخال الناس إلى الجنّة بالقوّة؟! لكن أَوَينبغي أن تؤمَّن صحّة أفراد الشعب بالإكراه والقوّة ؟! وهل إنّ تأسيس الأجهزة والمؤسّسات المختلفة، ورصد الميزانيّات الضخمة، واستخدام مختلف المتخصّصين للتأكّد من سلامة مأكل الناس ومشربهم فيه إهانة لعقول الناس ومشاعرهم؟ أَوَلا يرغب الناس أنفسهم في أن يتمتّعوا بصحّة كاملة؟ فهل يمكن أن يقتصر واجب الحكومة في مثل هذه القضايا على الإعلام؟ لكن بمجرّد أن يتمّ الحديث عن الدين، يقال: لا يمكن إدخال الناس إلى الجنّة بالقوّة! لكن ما هو المراد من إدخال الناس إلى الجنّة يا ترى؟ إنّه يعني صيانة مصالحهم الأبديّة الباقية.

الدين والفلسفة السياسيّة

لقد وضع الشارع المقدّس، من منطلق لُطفه، ولعلمه بأنّ بعض الناس ضعفاء الهمّة وأنّ الظروف الاجتماعيّة قد تجرّ أفراد المجتمع إلى فعل المعصية — وضع حلولاً للوقوف قدر المستطاع بوجه الفساد والحيلولة دون انجرار الناس – تأثّراً بظروف المحيط والعوامل الاجتماعيّة — إلى جهنّم. فإن قيل إنّه ليس على عاتق النظام الحاكم في هذا المجال مهمّة، فما هي مهمّته إذن؟ أليس الوقوف أمام الأضرار الاجتماعيّة من مهمّات الحكومة؟ أوليست الأضرار الأخيرة أشدّ خطراً بكثير من تلك الناجمة عن الأطعمة غير الصحّية؟ فغاية ما في الأمر أنّ المرء سيصاب بتناوله الطعام الملوّث بوعكة صحّية ويمرض لبضعة أيّام، أمّا تدنّسه بالمعصية فإنّه سيورثه عذاباً أبديّاً!

فالفارق بين الفلسفة السياسيّة الإسلاميّة وتلك الليبراليّة يكمن في أنّ القائلين بالأخيرة لا يعتقدون بأيّ دور لله والمعاد ويرون أنّ نطاق الدين ينحصر في الصلاة والعبادة والسلوك الفرديّ، وأنّ لكلّ امرئ — مسلماً كان أو وثنيّاً — أن يؤدّي عبادته بنفسه ولا ينبغي أن يحمل أحدٌ همّ دين الرعيّة، فالناس يعرفون جيّداً كيف يمارسون طقوسهم العباديّة. فهؤلاء يعتقدون بأنّ الدين لا يطالب الناس بأكثر من الصلاة والصيام وإقامة العزاء!

فإذا كان الدين قد جاء لنهي الناس عن كلّ ما يضرّ بدنياهم وآخرتهم فإنّه – في المرحلة الأُولى – يحرّم هذه الأُمور بالبيان الأخلاقيّ من دون اللجوء إلى الضغط والقوّة. وهي مرحلة لا تتجاوز أحكام الدين فيها حدّ الموعظة. لكنّ الدين قد سنّ للمرحلة التالية قوانين للحيلولة دون هذه الممارسات، وملاحقة ومعاقبة كلّ من يتهرّب من الانصياع للقانون. ولا يمكن أن تتخطّى أحكام الدين حدود الموعظة وتتحوّل إلى قوانين إلاّ إذا كان هناك ما يضمن تنفيذها؛ بمعنى أنّه إذا خالفها أحدٌ عالِماً عامداً، وجبت معاقبته. وهنا يُعدّ الجهاز الحكوميّ، ومن أجل ضمان مصالح المجتمع، مسؤولاً عن توعية الجماهير بما يضرّهم عن طريق التعليم في مراكز التعليم، والإعلام في وسائل الإعلام، والإرشاد عبر الآليّات المختلفة، ثمّ العمل — في المرحلة التالية — على سنّ قوانين للحيلولة دون ارتكاب هذه الأعمال. كما أنّه يتعيّن على الشرطة في هذا المضمار ملاحقة المقصّر، وعلى القضاء إصدار الأحكام اللازمة بحقّه وتنفيذها. فكما أنّ من واجب الحكومة الإسلاميّة منع الأضرار المادّية فإنّ عليها أن تقي الرعيّة من كلّ ما له ضرر معنويّ وما يوجب العذاب الأبديّ. وخلافاً لمنطق بعض السياسيّين، فإنّ هذا الواجب ليس مقصوراً على علماء الدين ضمن حدود الموعظة والنصيحة.

وهذه قضيّة جوهريّة يتعيّن التفتيش عن حلول لها في الجامعات، فالجامعة التي تُبنى علومها الإنسانيّة على أُسس إسلاميّة يتمّ تحديد واجبات حكومتها وفقاً لهذه الأُسس أيضاً. فإنّ تأكيد قائد الثورة الإسلاميّة على ضرورة أن تكون علومنا الإنسانيّة موافقة للأُسس والمبادئ الإسلاميّة ينبع من كون الأُسس المادّية مناهضة للإسلام، إذ ليس لله والمعاد والحكم الإلهيّ من محلّ في الحقوق والسياسة المبنيّة على هذه الأُسس. فبتغيير هذه الأُسس سيتغيّر الكثير من النظريّات والمناهج المبنيّة عليها، وهو أمر لم يقع في بلدنا مع بالغ الأسف بعد مضي ثلاثين عاماً ونيّف على عمر الثورة على الرغم من كلّ ما بذله الإمام الراحل وقائد الثورة من جهود في هذا السبيل، ولازالت — من الناحية العمليّة — نفس هذه الحقوق والعلوم السياسيّة وذات فلسفة الحقوق وفلسفة السياسة الليبراليّة تُدرَّس في جامعاتنا، والنتيجة هي تنشئة رجال سياسة لا يشعرون بالمسؤوليّة تجاه أحكام الدين. فلابدّ من إيجاد حلول جذريّة لهذه المسألة، وهي: ما هو رأي الإسلام بواجبات الحكومة؟ فهل يتعيّن الوقوف أمام حرّيات الناس إذا ارتُكبت المعاصي بشكل علنيّ، أم لا؟ فالتجاهر بالذنوب في المجتمع هو أشبه بالمكروب الذي ينتقل إلى الآخرين، ومثلما أنّ من واجب الحكومة منع التلوّث الذي يهدّد الصحّة العامّة فإنّها مكلّفة أيضاً بالوقوف في وجه المفاسد الدينيّة؛ بالطبع إذا كانت الحكومة إسلاميّة ومنبثقة من ثورة إسلاميّة!

لعلّكم تتذكّرون أنّه عندما قال قائد الثورة: «الثقافة أهمّ من الاقتصاد، وإنّ الصدع الذي يصيب البناء الثقافيّ غير قابل للترميم» انبرى البعض إلى القول بأنّه يتعيّن علينا – امتثالاً لأمر سماحته — العمل على إشاعة اللغة الفارسية، واللهجات المحلّية، والترويج للموسيقى الفولكلوريّة، والرقصات المحلّية من أجل

صيانة ثقافتنا! وقال البعض أيضاً: لا يمكن أن تحصل تنمية ثقافيّة مع التشفير [للمواقع الالكترونيّة] وتضييق نطاق المعلومات! ومن هنا فقد أكّد سماحته مرّة أُخرى: «أنا أقصد الثقافة الإسلاميّة الثوريّة». فإذا أقررنا بأنّ النظام هو نظام إسلاميّ وأنّ على الحكومة الإسلاميّة تطبيق أحكام الإسلام، فلابدّ أن نفهم بأنّ ما يرتبط بالآخرة هو أهمّ ممّا يتسبّب في أضرار دنيويّة؛ ذلك أنّ الضرر الأُخرويّ هو ضرر أبديّ أمّا الضرر الدنيويّ فمحدود. وكذا فإنّ ما يتعلّق بمصالح المجتمع ككلّ يفوق المصالح الفرديّة في الأهمّية، لأنّ أذى الأوّل قد يحيق بالملايين من الناس.

وهذه الأُصول تنبع من الرؤية الإسلاميّة؛ هذا بالطبع إذا وسّعنا الرؤية الإسلاميّة وجعلناها تتخطّى حدود المسجد والحسينيّة ومراسم العزاء في شهر محرّم لتشمل جميع شؤون الحياة الفرديّة والاجتماعيّة. فكلّ حركات الإنسان وسكناته ينبغي أن تصطبغ بصبغة إلهيّة: « **صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ** »[6]، وكلّ ما يجري في المجتمع الإسلاميّ لابدّ أن يتّخذ هذه الصبغة. فإنّ أهمّ واجب يقع على عاتق الحكومة الإسلاميّة استناداً إلى أُصول الإسلام وأُسسه هو رعاية مصالح المجتمع الإسلاميّ وردع كلّ من يعمل ضدّها. من هذا المنطلق فإنّ من جملة واجبات الحكومة الإسلاميّة هي أوّلاً تهيئة الأرضيّة لتسير الرعيّة باتّجاه الجنّة ومن ثمّ العمل على تأمين صحّة الناس ورفاهيّة حياتهم المادّية. فإنّ أهمّ جزء من حياة الإنسان هو حياته الأبديّة وكلّ ما يرتبط بالله عزّ وجلّ وليس باستطاعة الحكومة إعفاء نفسها من مسؤوليّة الاهتمام بآخرة الشعب بذريعة أنّ الدين جاء من أجل الحرّية. أ لَم يكن عليّ (عليه السلام) يمشي في الأسواق حاملاً سوطه على كتفه ليردع الخارجين عن القانون ويقطع أصابع السارق الأربع، ويجلد هاتكي أعراض الناس؟! أكان عليّ (عليه السلام) غير عارف بالدين بقدر ما تعرفونه أنتم؟! وهل يريد البعض أن يدّعي أنّ عليّاً (عليه السلام) قد أخطأ مثلما ادّعوا أنّ الإمام الخمينيّ الراحل (رحمه الله) قد أخطأ؟!

ينبغي لنا التعامل مع القضايا الجوهريّة بجدّية أكبر؛ فلابدّ أن نفهمها بشكل أفضل، وأن نثبتها بشكل أفضل، وأن نتابع ونطالب على نحو أحسن. فحكومتنا تحمل اسم الإسلام، وبلادنا قامت فيها ثورة، وقد استُشهد مئات الآلاف من خيرة أبناء هذه الأُمّة من أجل تطبيق أحكام الإسلام. فلا ينبغي أن ننسى ذلك، بل وعلينا المطالبة به، وهذا واجب من واجباتنا الدينيّة. بالطبع لا ينبغي أن نخلق المشاكل للمجتمع عبر إثارة التوتّرات دونما سبب، وأن نعمل قدر الإمكان على متابعة هذه المطالب بلغة محترمة ومؤدّبة. لكن كما أنّ من حقّ أفراد الشعب الاعتراض فيما يتّصل بحقوقهم المادّية، فإنّ من الأولى أن يتمتّعوا بمثل هذا الحقّ فيما يتعلّق بشؤونهم الدينيّة، وهو حقّ كفله الله تعالى لنا. كما أنّ على مسؤولينا الحكوميّين أن يلتفتوا إلى أنّهم يشغلون مناصب في دولة إسلاميّة. فهذا الشعب قد قدّم شهداء لتقوموا

أنتم بتنفيذ أحكام الإسلام، لا أن تقولوا: لا شأن لنا بهذه الأُمور. فإنّ تنفيذ أحكام الإسلام، وصيانة الشعائر والقيم الإسلاميّة لهي من أسمى واجبات الحكومة الإسلاميّة.

وفّقنا الله وإيّاكم

خطوةً خطوةً نحو السماء

29

إشارة

وأمّا الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينيه، وتعظُم الآخرة عنده، «ويُؤْثِرَ هوايَ على هواه، ويبتغي مرضاتي ويُعَظِّمَ حقّ عظَمتي»[1].

قلنا في المحاضرات الماضية إنّ الله تبارك وتعالى يشير في هذا المقطع من الحديث القدسيّ إلى خصوصيّات للحياة الأبديّة السعيدة؛ أوّلها أن تصغُر الدنيا في عين الإنسان. وقد ذكرنا بهذه المناسبة، ومن خلال التطرّق إلى مختلف استخدامات مفردتَي «الدنيا» و«الآخرة»، انّ العلم بكون الدنيا أحقر وأقلّ أهمّية من الآخرة لا يستلزم بالضرورة أن ينطبق سلوكنا على هذا العلم. ونحن جميعاً واقفون على هذا الأمر في تصرّفاتنا؛ فعلى الرغم من اعتراف أغلبنا بأنّ الدنيا أقلّ أهمّية من الآخرة فإنّ سلوكنا يوحي بأهمّية الدنيا في نظرنا. ولعلّ هذا هو السبب في أنّ الله لم يجعل الحياة الباقية نتيجةً لهذه الرؤية، بل قال: «فهي التي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا»؛ فإنّ على الإنسان من أجل بلوغ الحياة الباقية أن يبذل غاية المجهود حتّى تصغر الدنيا في عينه، وإنّ العلم بحقارة الدنيا، وإقامة الدليل والبرهان على ذلك، ومطالعة الآيات والروايات حول هذا الموضوع لا تكفي وحدها لنيل هذا الهدف. فعلينا من أجل بلوغ هذه المرحلة أن نتمرّن كثيراً وبشكل مستمرّ وهو ما يصطلح عليه بـ «الترويض». والنتيجة هي أنّ مثل هذا الجهد والمثابرة هو الذي يظهر لنا حقيقة الدنيا ويجعلنا ندرك دناءتها، كما يصفها أمير المؤمنين عليّ (صلوات الله عليه): «ولَدنياكم أهون عندي من ورقة في فَم جرادة تقضمها، وأقذر عندي من عُراقَة خنزير يقذف بها أجذمها»[2].

بناءً على ما تقدّم فبعد الاعتقاد بوجود الآخرة والإيمان بأنّها: «خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ»[3] فإنّ الخطوة الأُولى على طريق الوصول إلى الحياة الباقية التي أعدّها الله تعالى لأوليائه تتمثّل في السعي في الاتّجاه الذي يجعل

الدنيا حقيرة في أعيننا. وأفضل أُسوة في هذا السبيل هو سلوك أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) حيث لا نعثر على سلوك هو أكمل منه وأكثر منه جاذبيّة. فلعلّكم سمعتم قصّة أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما كان يقود جيشاً في إحدى الحروب وكان ينبغي أن ينصبّ جلّ اهتمامه في أمر الحرب والقيادة لكنّ ابن عبّاس دخل عليه في الخيمة فرآه يخصف نعله، فتعجّب من ذلك وقال: ماذا تصنع؟! تخصف نعلك بدلاً من النظر في أُمور الحرب! فقال أمير المؤمنين: «ما قيمة هذه النعل»؟ فقال ابن عبّاس: لا قيمة لهذه النعل المقطوعة. فقال: «والله لهي أحبُّ إليّ من إمرتكم، إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً»[4]؛ أي: أن آخذ حقّاً من ظالم لأُعطيه لصاحبه. ولسنا بحاجة إلى توضيح أنّ هدفاً كهذا ليس هو هدفاً دنيويّاً، بل هو إداءُ تكليفٍ واجب وتلبيةُ طلبٍ إلهي. فعليّ (عليه السلام) الذي كانت جميع بلاد الإسلام ما عدا الشام تحت إمرته كانت قيمة النعل المقطوعة عنده أكبر من هذه الإمارة. إلى هذا الحدّ كانت الدنيا حقيرة في عينه!

أوّل خطوة لقطع تعلّق القلب بالدنيا

من المستحيل بلوغ هذه الدرجة من عدم الاكتراث بالدنيا عن طريق الدراسة والبحث والاستدلال، بل يتعيّن الكدّ والمثابرة: «يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا». فبهذا الكدّ والسعي ستُرفع أكبر عقبة عن الطريق المفضية إلى الحياة الباقية، ألا وهي التعلّق بالدنيا. فطالما تعلّق القلب بالدنيا فسوف لا يفكّر المرء بشيء آخر، أمّا إذا انقطع تعلّقه بها فسيتساوى عنده تلّ الذهب وتلّ التراب. فالذي يسعى وراء المادّيات سيلجأ إلى أيّ فعل، وسيتفوّه بأيّ كلام، وسيوقّع على أيّ ورقة، وسيمارس أيّ حيلة وخداع من أجل بلوغ هدفه؛ لأنّ الدنيا في عينه مهمّة. أمّا الذي هانت الدنيا وصغرت في عينه فسيصبح عنده تلّ الذهب وتلّ التراب سيّان؛ فإن حوى كيسُه المالَ لينفقه في سبيل الله، فنعم المطلوب، أمّا هو فيكفيه أن يفطر بكسرة خبز شعير جافّة.

فما دام التعلّق بالدنيا والانشداد نحوها موجوداً فسوف لا ينال المرء الحياة الباقية حتّى إذا تحدّث على المنبر لساعات عن حقارة الدنيا. فلابدّ أوّلاً من رفع هذا المانع عن الطريق، وفصل القلب عن الدنيا، فإن هانت وصغرت الدنيا في نظر ابن آدم فستبدو الآخرة عظيمة أمامه. وقد قلنا إنّ لفظي «الدنيا» و«الآخرة» متضايفان مفهوماً، ولهذا فإنّ هوان الدنيا في نظر الإنسان سيصاحبه عظمة الآخرة. وهنا يأتي الدور إلى المرحلة التالية: «ويُؤْثِرَ هوايَ على هواه»، فبارتفاع هذا المانع ستمهَّد للإنسان الأرضيّة لتقديم هوى ربّه على هوى نفسه عند التزاحم.

بالطبع هذا الأمر ينطوي على درجات؛ فقد يدور الأمر بين تكليف واجب وفعل حرام، لكنّه قد يدور في مراتبه الأُخرى بين المستحبّات والمشتبهات. المهمّ هو أن يقدّم الإنسان إرادة الله تعالى إذا دار الأمر بينها وبين إرادته هو. وطالما يوجد تعلّق بالدنيا فسوف لا يتحقّق ذلك؛ والسبب هو انّ «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[5]. فإنّ اجتثاث هذه العلاقة سيجعل الدنيا حقيرة في نظر الإنسان وعندها فإنّه قد يتأمّل في أنّه: هل إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ ما أهُمّ بالقيام به أم لا؟ وما الذي سأرجّحُه من بين هوى ربّي وهوى نفسي؟ فمثل هذه الأُمور لا تخطر ببال عاشق الدنيا بتاتاً.

الخطوة الثانية: ابتغاء مرضاة الله

فما إن يتمكّن الإنسان بالتمرين والممارسة وتزكية النفس من تغليب هوى ربّه على هواه فسيستطيع وضع قدمه في مرحلة أعلى، فيها «يبتغي مرضاتي ويُعَظِّمَ حقّ عظَمتي». فالمرحلة السابقة كانت في الحقيقة مقام العمل، أمّا في هذه المرحلة فإنّ مبادئ الفعل الاختياريّ هي التي تكون منشأ العمل وإنّ التغيير فيها هو أصعب ممّا في سابقتها. إذ من الممكن في مقام العمل أن يقرّر الإنسان فجأةً القيام بأمر ما، لكنّ الوصول إلى حالة يصبح فيها إيثار هوى الربّ على هوى النفس ملَكَة في نفس الإنسان فإنّه بحاجة إلى تربية تدريجيّة.

وفي مقام التربية فإنّه – إلى جانب المحافظة على العلاقة المنطقيّة بين مراحل التربية المختلفة – يتعيّن أخذ إمكانيّة وسهولة العمل بالتوصيات في نظر الاعتبار فلا يوصي المربّي بدايةً إلاّ بما يكون تطبيقه سهلاً ويسيراً على المتربّي. فيجب أن تكون عمليّة التربية تدريجيّة، وتبدأ بالسهل ثمّ الصعب، وأن تكون بالتمرين والممارسة حتّى يجد المتربّي في نفسه الاستعداد للقيام بعظيم الأعمال. فهل في ميسور المرء يا ترى أن يأتي — منذ البداية – بجميع ألوان سلوكه – من إشباع الغرائز، والأكل والشرب، وارتداء الثياب، وصولاً إلى المطالبات والنشاطات الاجتماعيّة، واستقطاب احترام المقابل، ونيل المكانة والمحبوبيّة الاجتماعيّة — قربةً إلى الله تعالى؟ فهذا يتطلّب تمريناً وممارسة طويلة الأمد للوصول إلى هذه المرحلة بالتدريج.

ففي المرحلة السابقة وهي إيثار هوى الربّ على هوى النفس كان هناك نوعان من الهوى وينبغي للإنسان تغليب أحدهما على الآخر. أمّا في هذه المرحلة فالحديث لا يدور بتاتاً عن هوى النفس، وإنّ الدافع الأساسيّ لتحرّك الإنسان هو ابتغاء مرضاة الله؛ بالضبط كالشخص الذي من فرط محبّته لحبيبه فإنّه لا يرى في مقابله أيّ ميل إلى نفسه، بل هو دائم التفتيش عمّا يريد محبوبه ويرغب فيه.

فباستطاعة الإنسان أن يصل إلى مقام يكون فيه دائم الالتفات إلى ربّه والاهتمام به من منطلق أنّه العبد وذاك هو المولى. فلا ينبغي للعبد أن يفكّر ببطنه لاسيّما إذا عرف أنّ مولاه الكريم يعلم كيف يضيّف عبده. وهنا لا يحصل أيّ تضادّ حتّى يكون الكلام في ترجيح شيء على آخر؛ ذلك أنّ المرء قد بلغ هنا مقامَ انّه «يبتغي مرضاتي» فصار كلّ همّه وغمّه فيما يرضي ربّه ويسُرّه.

الخطوة الثالثة: إدراك عظمة الله

المبحث الآخر الذي يتناوله الحديث هو: «ويُعَظِّمَ حقّ عظَمتي». وهنا يطرح سؤال وهو أنّ سلوك أولياء الله المحبّين في حضرته يوحي بأنّهم لا يرون من المحبوب سوى الخير والرحمة واللطف والعناية. هذا من ناحية. ومن ناحية أُخرى فإنّ أنينهم في جوف الليل، وبكاءهم وتضرّعهم وعبارات مناجاتهم تفصح عن خوف وخشية من ربّهم. ويمكن العثور على نماذج جمّة لهذه التعابير في دعاء كميل ودعاء أبي حمزة الثماليّ. فهذا سيّد الساجدين (عليه السلام) يخاطب ربّه بكلّ خضوع: «فمَن يكون أسوأ حالاً منّي إنْ أنا نُقلتُ على مثل حالي إلى قبري؟!... أبكي لخروجي من قبري... أبكي... أبكي...»[6]. فلماذا كلّ هذا البكاء والتضرّع مع الالتفات إلى محبّة الله ولطفه ورحمته؟

ولعمري فإنّ هذه من بدائع صنع الله في خلقة ابن آدم وهي أن يودع فيه حالات تبدو متضاربة ولا يمكن الجمع بينها في الظاهر، مثل سمات أمير المؤمنين (عليه السلام) المتضادّة؛ حيث كان — من جهة – يظهر في ساحة الوغى من الشجاعة والهيبة ما لا يمكن لأيّ قوّة أن تصمد أمامه، لكن دموعه — من جهة ثانية — تسيل على وجنتيه إذا شاهد ألَمَ طفلٍ يتيم. فقد خُلقت روح الإنسان بأوجه وأبعاد مختلفة، أو بتعبير آخر: بخليطٍ من عناصر شتّى يتعيّن لكلّ واحدة منها أن تظهر في موطن من المواطن في مسيرة العبوديّة كي يصل الإنسان إلى أكمل مراتب الأخيرة.

أحد هذه الأبعاد هو حالة الخوف الانفعاليّة، وهي أن ترتعد فرائص العبد بين يدي الله. لكن يتعيّن — إلى جانب هذه الحالة — أن يكون راجياً ربَّه رجاءً يؤهلّه لأن يقول بكلّ جرأة: لو أبقيتَ عليَّ في جهنّم ألف سنة لما انقطع رجائي منك! وكلّ واحدة من هذه الحالات تنبع من صفات الله عزّ وجلّ؛ فواحدة تنبع من حكمته، وأُخرى من رحمته، كما وتنشأ رابطة بين جميع هذه الأبعاد وبين حالاتنا النفسانيّة. لكنّ الله يحبّ أن تسير روح الإنسان في جميع أبعادها على طريق عبوديّته.

فإنّ من المسائل المطروحة في مقام العبوديّة لله تبارك وتعالى هي إدراك عظمته وإظهار حالة تتناسب مع مقامه وعظمته تلك. فلعلّ جميعنا قد مرّ بهذه التجربة وهي أن نصاب بحالة من الذهول إذا واجهنا شخصيّة عظيمة، بل وقد ننسى — بمقدار إدراكنا لعظمة هذه الشخصيّة — الكلام العاديّ في حضرتها

أيضاً. وليس السبب وراء هذه الحالة هو الشعور بالذنب أو الخوف، بل إنّها تعود إلى إدراك عظمة شخصيّة هذا العظيم. فإذا اعتقد المرء بعظمة الله جلّ وعلا، فإنّه حتّى وإن وعَى لطفه ورحمته ومحبّته وعنايته غير المتناهية فإنّه سيجد نفسه ولهانَ في حضرته، وهذا الولَه لا ينافي رحمته تعالى، فهو نتيجة طبيعيّة لإدراك عظمة الطرف المقابل. فإن اعتقدنا بعظمة الباري جلّ شأنه فمن الطبيعيّ أن تحصل لنا مثل هذه الحالة عندما نلتفت إلى هذه العظمة. بالطبع نحن لا نتوقّع مثل هذه الحالات حينما تكون .أذهاننا منشغلة بأُمور أُخرى

فهذه الحالة تتناسب مع مقدار ما يدركه المرء من عظمة ربّه. يقول عزّ من قائل: «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً»[7]. فنتيجة لتجلّي جانب من عظمة الله تعالى فقد تهدّم الجبل وخرّ موسى (عليه السلام) مغشيّاً عليه. فلو أدرك امرؤ عظمة الله حقّاً لظهرت عليه مثل هذه الآثار. وقد أشار القرآن الكريم إلى نموذج من سلوك عباد الله الذين أدركوا عظمته فقال: «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً»[8]. فإنّ تجلّي عظمة الله من خلال تلاوة آيات الذكر الحكيم يؤدّي هو الآخر بعباد الله إلى أن يخرّوا إلى الأرض سجّداً باكين بين يدي ربّهم، وهي حالة لا تتنافى بتاتاً مع لطف الله ورحمته. فإنّ مَن يخرّ ساجداً وباكياً نتيجة إدراكه عظمة ربّه، فإنّه يعلم برحمة ربّه حتّى في هذه الحالة. وإنّ ما يشعر به من لذّة في تلك الحالة لا يشعر به أيّ عاشق بوصال معشوقه، في الوقت الذي نتأسّف على حاله نحن الذين نجهل بكلّ شيء! وإنّها لمن روائع صنع الباري تعالى أنّه خلق الإنسان على هذا النحو وأودع في وجوده كلّ تلك الحالات كي تظهر كلّ واحدة منها حيثما سنحت الفرصة وتوفّرت الظروف وتتكامل لتشكّل مظهراً من مظاهر عبوديّة الإنسان في مقابل ربّه. بل إنّ الإنسان أساساً قد خُلق لهذا الغرض؛ يقول عزّ وجلّ: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ»[9].

أُخطُ خطوة خارج نفسك لتشاهد الطريق

إنّ أوّل عائق يعيق الإنسان عن بلوغ هذه الدرجات هو حبّ الدنيا. وبإزالة هذا المانع فإنّه: «تهون عليه الدنيا وتصغر في عينيه، وتعظُم الآخرة عنده». ومن ثمّ يحصل صراع بين ما يريده هو وما يريده ربّه حتّى يفلح، عبر بذل الجهد والتمرين والممارسة، في تقديم هوى ربّه على هواه. لكنّه في المرحلة الأكثر تقدّماً يصل إلى درجة لا يعود يلقي فيها لهواهُ بالاً، بل «يبتغي مرضاتي»؛ فلا يفكّر العبد في هذه المرحلة إلاّ فيما يرضي بارئه. بيد أنّ هذا لا يمثّل إلاّ وجهاً واحداً من وجهَي العملة؛ فالعبد، وبدافع حبّه وعشقه لربّه، يصنع ما يريد محبوبه وهو يُسرّ غاية السرور ويصاب بمنتهى النشوة جرّاء امتثاله لإرادة محبوبه وعمله بما يرضاه. أمّا الوجه الآخر لها فهو أنّ العبد العاشق يحسّ بالحقارة والضآلة في مقابل عظمة المحبوب. فإنّ كمال المحبوب يكمن – من ناحية – في إيصاله معرفتَه بصفات جمال محبوبه إلى مستوى الكمال

والعمل على تلبية طلباته من منطلق العشق والمحبّة تجاهه، ومن ناحية أُخرى في إدراكه صفات جلاله أفضل ما يكون الإدراك وهَوِيِّهِ إلى الأرض مدهوشاً بأنينٍ وبكاءٍ إذا تجلّت له عظمته جلّ وعلا. فقد كانوا أحياناً يخبرون الزهراء (سلام الله عليها) بأنّ عليّاً (عليه السلام) قد سقط في بستان النخيل مُغمىً عليه، ولـمّا كانت (عليها السلام) عارفة بما يصيب زوجها من حالات فإنّها كانت تقول: «هي والله... فهذا شأنه في كلّ ليلة، ولقد تعوّدنا على مثل هذه الحالات [10]«الغشية التي تأخذه من خشية الله منه.

فإذا جمعنا بين حبّ صفات الله الجماليّة، والشعور بالحقارة والصغر في مقابل عظمته جلّ وعلا فليس في ميسورنا أن نصف ذلك إلاّ بأنّه من بدائع خلقة الله، وهو تعالى يرغب في أن يصل جميع عباده إلى هذه المراتب، وقد بيّن سبحانه وتعالى السبيل إلى ذلك في هذا الحديث القدسيّ. فما علينا بدايةً إلاّ إزاحة ما يقف أمامنا حجرَ عثرة في هذا الطريق، ألا وهو حبّ الدنيا، كي تصغر الأخيرة في أعيننا ويتساوى لدينا تلّ الذهب وتلّ التراب، ولا نأبه إن هتف الناس «يعيش» أو «يسقط» في حقّنا، ولا نكترث سواء أشتَمَنا الناس وسبّونا أم قبّلوا أيدينا واحترمونا، فلا ننظر إلاّ إلى ما يرضيه هو عزّ وجلّ. فإن وصلنا إلى هذه المرحلة فالمرحلة التالية هي: «يُؤْثِرَ هوايَ على هواه» ومن ثمّ «يبتغي مرضاتي» وهو ما يمثّل وجه العملة الأوّل، أمّا وجهها الثاني فهو أن يعلم العاشق المفتّش عن رضا محبوبه بأنّ هذا المحبوب هو غاية في العظمة، وكلّما أدرك عظمة محبوبه وحقارة نفسه أكثر، زاد التذاذه بملاطفته ومداعبته له.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

العالم هو في محضرالله

30

إشارة

لقد بيّنا في المحاضرات الماضية، أثناء توضيحنا مقاطعَ من حديث قدسيّ، بعضَ صفات أهل الحياة الباقية والعيش السعيد الأبديّ. وتقول تتمّة هذا الحديث الشريف: «ويَذكُر عِلمي به، ويراقبني بالليل والنهار عند كلّ سيّئة ومعصيّة .[1]« في المقاطع التي سبقت هذا المقطع يقول الله عزّ وجلّ: إنّ على الذين ينشدون الحياة الأبديّة المطلوبة أن يُخرِجوا حبّ الدنيا من قلوبهم كخطوة أُولى ويتصرّفوا بالشكل

الذي يجعل الدنيا في نظرهم حقيرة هيّنة. ثمّ إنّ عليهم في الخطوة التالية أن يُغَلّبوا هوى الله تعالى على هواهم، ومن ثمّ يبتغوا باستمرار مرضاة ربّهم، ويؤدّوا حقّ عظمته سبحانه. وهذا يُعدّ منهاجاً واستراتيجيّة لمن يريد نيل الكمالات المنشودة. لكن ما هو السبيل لتطبيق هذه الاستراتيجيّة على الأرض؟ المقاطع التالية من الحديث ترسم منهاجاً عمليّاً لما سبقه من استراتيجيّات عامّة.

اعلم أنّ الله يرانا

البرنامج الأوّل هو: «ويَذكُر عِلمي به». فإنّ على الإنسان أن يحاول في جميع مراحل حياته وتمام ساعات يومه وليلته أن يتذكّر أنّ الله مطّلع على تصرّفاته. لا شكّ أنّ النجاح في هذا المضمار يستلزم التمرين والممارسة المتواصلَين ولا يأتي عبر التطبيق المرحليّ القصير الأمد. فهذه الحالة لابدّ أن ترافق الإنسان طوال حياته ومن الضروريّ، من أجل ذلك، أن يبذل جهده لتصير مَلَكة عنده. ولتحقيق هذا الغرض يتعيّن أن يؤمن الإنسان ابتداءً بأنّ الله عالِم بكلّ أعماله. وكلّنا يقرّ إجمالاً بأنّ الله عالم ولا يخفى عليه شيء، لكنّ امتلاك تصوّر واضح عن كيفيّة علم الله يعتمد على مستوى معرفة الإنسان بالله وبصفاته. فلا ريب أنّ الناس مختلفون، ليس فقط في الاستيعاب العلميّ ومستوى الذكاء والقابليّات، بل حتّى في القدرة على اكتساب العلم والمعرفة. وحتّى كبار العلماء الذين أنفقوا سنوات طويلة من أعمارهم في البحث والدراسة في حقل الإلهيّات فإنّهم يختلفون في مستوى معرفتهم بالله، وهو ما نستطيع فهمه من خلال فحص كلامهم بدقّة.

علم الله

يتصوّر البعض أنّ علم الله يشبه علم الإنسان، أي إنّه كل ما يُخلق في ذهن الأخير من صور جزئيّة أو مفاهيم عامّة للأشياء تكون زائدة على ذاته. وقد لا يكون نشوء هذه الصورة الذهنيّة باختيار المرء، بل نتيجة عامل آخر. فبإيجاد هذه الصورة أو المفهوم في ذهن المرء يقال إنّه «يعلم» وبزوالها يقال إنّه «لا يعلم».

وعلى هذا الأساس فإنّ علم الله بأعمالنا إنّما يحصل من خلال الإخبارات أو التصويرات التي تسجّلها الملائكة لتصرّفاتنا في صحيفة أعمالنا لتعرضها على حضرته تعالى. فقد يتخيّل البعض أنّ الله لن يطّلع على ما نصنع إذا لم يسجَّل ذلك في صحيفة أعمالنا أو لم يُعرَض في حضرته تعالى. وهي تصوّرات ناشئة عن قلّة المعرفة. فقد جاء في الخبر أنّه: «لعلّ النمل الصغار تتوهّم أنّ لله سبحانه زبانتين»؛ أي انّ له سبحانه قرنين مثل قرنيها. فإنّ بعض من يحسبون أنفسهم من العلماء يحملون نفس هذا التصوّر عن

يُذكَر أنّ ابن تيمية، مؤسّس الفكر .[2]«الله: «وكذا حال العقلاء فيما يصفون الله سبحانه وتعالى به الوهابيّ، كان يتحدّث إلى الناس في مسجد دمشق فنقل حديثاً من مجامع العامّة الروائيّة بهذا المضمون، وهو أنّ الله ينزل من السماء إلى الأرض كلّ ليلة جمعة ليغفر ذنوب التائبين. ثمّ قام فنزل من سلّم المنبر !وقال: الله ينزل من السماء إلى سطوح المنازل ليرحم العباد مثلما أنزل أنا من سلّم هذا المنبر

البحث حول علم الله كان ولا يزال مثار نقاش المتخصّصين في الإلهيّات منذ قديم الزمان وإلى يومنا هذا. ومن بين النظريّات التي ظلّت رائجة إلى ما يقرب من ألف سنة مضت حتّى بين أشدّ فلاسفة الإلهيّات دقّة، مثل ابن سينا، هو أنّ علم الله بالمخلوقات يحصل بواسطة الصور اللازمة لذاته سبحانه. وإذا أحسَنّا الظنّ فإنّ تفسير النظريّة أعلاه هو أنّ هذه الصور هي مخلوقات الله، لكنّها قديمة وأزليّة وقد كانت دوماً بمعيّة الله. وعلى الرغم من كلّ الجهود التي بذلها نوابغ من أمثال ابن سينا للتوصّل إلى مثل .هذه النظريّات فإنّها لا تزال قاصرة عن تبيين علم الله تبارك وتعالى

تأكيد القرآن الكريم على علم الله

لقد أولى القرآن الكريم اهتماماً كبيراً لإثبات علم الله عزّ وجلّ بكلّ شيء. ويمكننا أن نشاهد لدى استعراض آيات الذكر الحكيم كيف أنّ الله تعالى قد بيّن هذا المعنى بصور مختلفة. يقول تعالى في موضع ؛ أيمكن أن يخلق أحد مخلوقاً ثمّ لا يعلم [3]«من كتابه الكريم: «أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ عنه شيئاً؟! فصورة الزهرة أو الفاكهة التي نجسّدها في مخيّلتنا هي نموذج من الخلق. بالطبع حتّى هذا الخلق فإنّه يُنسَب، في مستوىً أعلى، إلى الله، لكن باستطاعتنا، في مرتبة أدنى، أن نقول: نحن الذين أوجدنا هذه الصورة في ذهننا. لكن هل يمكن أن نكون غير عالمين بالصورة التي أوجدناها في أذهاننا؟! هل !يمكن أن أُحدِث صورة تفّاحة في ذهني من دون أن أعلم أنّها صورة تفّاحة؟

فالخلق من دون العلم به محال. فإن كان ثمّة خلق فلابدّ أن يكون مقترناً بالعلم. ومن هذا المنطلق احتجّ الإمام الصادق (عليه السلام) على الزنديق الذي ادّعى خلق الدود في الطين والوحل فقال (عليه فلو كان قد خلقها حقّاً .[4]السلام): «إن كان خلَقه فليقل: كم هو؟ وكم الذّكران منه والإناث»؟ فلابدّ أن يعلم عددها وجنسها. فإذا كان العالم كلّه مخلوقاً من قبل الله تعالى فلا انفكاك للخلق عن .علمه جلّ وعلا. بيد أنّ هذا البيان غير كافٍ لننسب كلّ شيء إلى علم الله

فلقد اعتنى القرآن الكريم عناية فائقة بإثبات وتبيين علم الله تعالى بكلّ الموجودات في السماء والأرض وبجميع الحوادث، حتّى سقوط ورق الأشجار على الأرض. فإن تناول كائن حيّ في أعماق البحر طعاماً

فإنّ الله يعلم به وبما تناوله. ولو وُجد كائن فيه شيء من الحياة في باطن صخرة لَعلِم الله بكلّ تفاصيله. وقد بُيّن هذا المعنى في القرآن الكريم بصور شتّى.

علم الله بجميع التفاصيل

لقد قدّمت الآيات الأولى من سورة الحديد، التي تذكرها الروايات بإجلال، بياناً خاصّاً عن التوحيد، فقالت في جملة ما قالت: «هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»[5]، ثمّ قالت: «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»[6]. فالله عالم بكلّ قطرة مطر وحبّة زرع تسقط على الأرض، وكلّ حشرة تحفر الأرض وتلج في أعماقها، وكلّ ما يخرج من الأرض كالنباتات التي تنبت فيها، أو ما يخرج من أعماق الأرض نتيجة الزلازل والبراكين. كما أنّه عالِم بكلّ ما ينزل من السماء أو يصعد إليها، وهو مطّلع على كلّ أعمالكم وتصرّفاتكم. لاحظوا كيف يعتني الله عناية فائقة حتّى ببيان أدقّ التفاصيل عن علمه سبحانه!

فما من ظاهرة تحصل في الأرض ولا في السماء هي خارجة عن علم الله. يقول تعالى في سورة المجادلة: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ»[7]. فهذا المعنى هو على جانب من اليقين حتّى وكأنّ الإنسان يراه بأمّ عينيه؛ فهو تعالى يقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ»؟ فإن اجتمع ثلاثة أشخاص في اجتماع خاصّ يتناجون فيما بينهم فلابدّ أن يكون الله رابعهم، وإذا كانوا خمسة فمن المؤكّد أنّ الله سادسهم، فأين ما تكونوا فإنّ الله معكم! هذا البيان العلميّ يختلف عما يُنقل بشكل يناسب العوامّ من ناحية وما يُنقل عن قول الفلاسفة من ناحية أُخرى. فعلم الله ليس هو صورة ذهنيّة، بل إنّه تعالى حاضر في كلّ مكان وليس ثمّة من مجال لا يكون الله سبحانه موجوداً فيه.

وهذا البيان يشبه هذه التعابير: «وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً»[8]، و«أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ»[9]، و«إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»[10]. فالله شهيد على كلّ شيء، أو بتفسير آخر: لو كانت هناك عين بصيرة لرأت الله في كلّ مكان. فالله محيط بكلّ شيء؛ لكن لا ينبغي الظنّ بأنّ إحاطة الله بالأشياء تشبه إحاطة اللباس بالبدن حيث يلامس وجهٌ من اللباس سطح البدن. فلو كان الأمر كذلك لما أمكننا أن نفسّر إحاطته بباطن الأشياء؟! فليست إحاطة الله بالأشياء من جنس إحاطة جسم بجسم آخر. وقد عجز الكثير من علماء الإلهيّات والمتخصّصين في هذا المجال عن توضيح هذا المفهوم. لكنّ الشخص

الذي قدّم – بطرحه نظريّة جديدة – خدمةً جليلة لعلم الفلسفة والإلهيّات الإسلاميَّين كان هو صدر الدين الشيرازيّ حيث مهّد الأرضيّة لحلّ مثل هذه المسائل من خلال إثباته مسألة «الوجود الرابط».

فإذا أخذنا علاقة كلّ ظاهرة بالفاعل الذي أوجدها بعين الاعتبار، فإنّها علاقة بين موجودين يمثّل أحدهما بالنسبة إلى الآخر –كما يعبّر عنه الملاّ صدرا – بـ «الوجود الرابط»؛ أي يستحيل فصله عن فاعله. فهل تستطيع يا ترى أن تفصل الصورة التي خلقتَها في ذهنك وتضعها جانباً فتصبح غير عالِم بها في الوقت الذي تكون فيه هذه الصورة العلميّة موجودة فعلاً؟ بل إنّ كون هذه الصورة علماً إنّما هو قائم بذهنك أنت، بالضبط كما أنّ إرادتك الكلام لا تنفكّ عن نفسك. فلو أنّك لم تكن ولو انتهى وجودُك فسوف لا يكون لإرادتك وجود. فهذه الإرادة أساساً هي عين الربط بفاعلها.

لقد نشأ بإثبات هذه المسألة تصوّر جديد عن العلاقة بين جميع مخلوقات العالم بخالقها. فإنّ أعلى مخلوقات الملكوت والجبروت حتّى أدنى وأخسّ موجودات عالم المادّة وكلّ ما يُطلق عليه عنوان الوجود، هي كلّها مخلوقاتُ الله وإنّه هو تعالى الذي نقلها جميعاً من العدم إلى الوجود. فإنّ وجود جميع هذه المخلوقات قائم بإرادة الله سبحانه: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ»[11]. فبمجرّد أن يقول الله: «كُن»، فسيكون ذلك الموجود، وما لم يقل: «كن»، فإنّه لا يكون. بالضبط كإرادتك؛ فبمجرّد أن تقول كن، فإنّها تكون، أمّا إذا غفلتَ لحظة، فلا تكون ثمّة إرادة.

فالمخلوق الذي يعتمد وجوده على الفاعل المُوجِد لا يستطيع أن يكون مستقلاًّ عنه ثمّ يكون مظهراً لإرادته. فهل يجوز أن يكون هذا الفاعل غير عالِم بالمخلوق الذي هو قائم به؟! سواء أكان هذا المخلوق صغيراً أو كبيراً، مادّياً كان أو مجرّداً.

علم الله بالمادّيات

من بين المعضلات التي واجهت الفلاسفة في إثبات علم الله هي السؤال التالي: أنَّى للمادّيات أن يتعلّق بها علم الله؟ فقد كانوا يتصوّرون بأنّ إدراك المادّيات لا يتمّ إلاّ عن طريق العين والأذن والحسّ. إلى أن جاءت نظريّة الوجود الرابط فوضعت لجميع هذه المسائل حلاًّ. فكلّ موجود إنّما هو قائم بوجود الله بمقدار حظّه من الوجود وليس له من نفسه أيّ استقلال؛ إذن فهو حاضر عند الله. ومن هنا فإنّ علم الله بجميع الموجودات هو علم حضوريّ، وليس هو بحاجة إلى صورة ذهنيّة.

كما أنّ المسألة الأُخرى التي حيّرت قبل ألف سنة نوابغَ من أمثال الفارابيّ وابن سينا، والتي تُعدّ من مسائل الإلهيّات المهمّة، هي قضيّة علم الله بالموجود قبل أن يكون. فقد ذكرنا انّ علمنا بالموجودات هو

في الحقيقة صورة نكوّنها لها في أذهاننا بواسطة حواسّنا. وقلنا أيضاً إنّ الله لا يحتاج إلى حواسّ ليعلم، بل إنّ وجود كلّ موجود إنّما هو قائم — أساساً – بوجود الله، وبتعبير آخر: إنّ وجوده هو عين علم الله. لكن كيف يمكن أن يحصل العلم بهذا المخلوق قبل أن يكون؟

لقد عدّ الفلاسفة علمَنا بالموجودات قبل إيجادها من ضرب العلم الكلّي والعامّ. فالمُنجّم، على سبيل المثال، ومن خلال الحسابات التي يجريها، يستطيع أن يتنبّأ بأنّ الشمس ستكسف أو أنّ القمر سيخسف في الساعة الفلانيّة من التاريخ الفلانيّ. فعلمه بالظاهرة التي ستحصل في المستقبل هو عبارة عن مفهوم عامّ يُستخلَص بالاعتماد على صيغ عامّة. ذلك أنّ الوجود الخارجيّ لهذه الظاهرة لم يتحقّق بعد كي يصار إلى تكوين صورة له. وبناءً عليه فإنّ العلم بهذه الظواهر لا يمكن أن يحصل إلاّ في إطار المفهوم العامّ الحاصل من خلال الحسابات والصيغ العلميّة. وبما أنّ الله يعلم بكلّ شيء بما في ذلك هذه الصيغ، فإنّ لديه علماً بنتائجها بنفس هذه الطريقة الكلّية العامّة.

علم الله بما مضى

ويواجه المسلمون أيضاً طائفة من الآيات والأحاديث التي تطرح معضلة أُخرى فيما يتّصل بعلم الله سبحانه وتعالى، ومنها قوله تعالى: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ» إلى أن يقول: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ» [12]. فقد كان الجماع مع الأزواج في الشرائع السابقة محرّماً في شهر الصيام حتّى أثناء الليل. لكنّ الإسلام لم يحِلّه فحسب، بل وجعله مستحبّاً في الليلة الأُولى من شهر رمضان المبارك. وقد بُيّنت علّة هذا التغيير في الحكم في القسم التالي من الآية: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ». إذ يُفهم من أُسلوب الآية أنّ حكم التحريم كان من المقرَّر أن يسري على الدين الإسلاميّ أيضاً، لكن بما أنّ الله يعلم بأنّكم ستخونون أنفسكم فقد تفضّل عليكم ورفع عنكم حكم التحريم. ووفقاً لهذا التفسير فإنّ علم الله بهذا الموضوع قد أُوجِد في زمن معيّن. وفي الميسور تتبّع ما يشبه هذه المسألة في آيات أُخرى؛ كقوله تعالى: «عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ» [13]، وقوله: «حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ» [14]؛ فقد أوجبنا عليكم حكم الجهاد كي نعلم مَن منكم سيجاهد ويصمد بوجه المكاره والشدائد.

فمثل هذه الآيات تعزّز هذه الشبهة وهي أنّه: أنّى لله أن يعرف بالحادثة قبل وقوعها؟ وقد شكّلت هذه القضيّة معضلة للكثير من العلماء وبإمكانكم متابعة البحوث المتّصلة بهذا الموضوع في مصنّفات الإلهيّات. لكنّ السبيل الأسهل لحلّ هذه المسألة، والتي قلّما يُلتفت إليها، هي أنّه ليس لجميع الموجودات علاقة زمانيّة مع بعضها. فإنّ ما يحصل على امتداد الزمان يكون له «قبل» و«بعد» أمّا

الموجود الذي هو فوق الزمان فلا تربطه مع الموجودات الزمانيّة علاقة زمانيّة، ولا يستطاع القول بأنّه قبلها أو بعدها. فالموجود الذي هو فوق الزمان يحيط بكلّ الأزمنة وإنّ جميع الظواهر حاضرة عنده في وقت واحد. فإنّ عدم وقوع ظاهرةٍ لحدّ الآن إنّما هو بالنسبة لنا. أمّا بالنسبة لله فليس ثمّة «أمس» أو «اليوم» أو «غداً». فجميع الأزمنة حاضرة في محضره. وبعبارة أبسط: فإنّ الله سبحانه هو الذي خلق الزمان أساساً وإنّ تقدّمه على جميع الموجودات ليس تقدّماً زمانيّاً؛ بل هو تقدّم وجوديّ؛ وبتعبير آخر: .فإنّ له إحاطة وجوديّة. وبناءً عليه فإنّ علم الله بالماضي والمستقبل هو واحد

إذن فما مدلول التعابير الواردة في الآيات الآنفة الذكر؟ يُصطلَح على هذه التعبيرات «العلم الإضافيّ» أو «العلم الفعليّ»؛ بمعنى: حينما تتحقّق ظاهرة ما فإنّ تحقّقها يكون مطابقاً لعلم الله عزّ وجلّ وسيُعلم في حينه. فطالما لم تتحقّق الظاهرة في ظرف الزمان فإنّها غير موجودة أصلاً حتّى تُعدّ «معلومة»، ومتّى ما أُوجدت في ظرف الزمان فسوف تكون «معلومة». والمراد من «العلم» هنا هو النسبة التي تحصل بين .علم الله وذاتٍ مّا بعد تحقّق وجود الأخيرة

الغاية من التطرّق إلى مثل هذه المباحث هو التذكير بأنّ مسألة علم الله بالأشياء هي مسألة عميقة قد بحث فيها فطاحل الفلاسفة منذ آلاف السنين. ويعبّر القرآن الكريم عن العلم الإلهيّ بأنّ كلّ شيء هو فإن سقطت على الأرض ورقة من شجرة في .[15]«حاضر عندنا: «وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا جوف ليلة ظلماء في منطقةٍ ما من هذا العالم فإنّنا نعلم بسقوطها، لأنّ الله حاضر في ذلك المكان. فمن أجل تحقّق وجود ظاهرةٍ ما فإنّه لابدّ أن يعلم الله بها؛ فتحقّق وجودها هو عين علم الله بها. «أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ»؛ فأنّى لله أن لا يعلم بمَن كلّ وجوده بيده تعالى ومَن هو موجود بإرادته عزّ وجلّ؟! ولعمري فإنّها لسبيل غاية في البساطة والحلاوة وضعها القرآن الكريم في متناول الإنسان ليفهم كيف أنّ كلّ شيء هو حاضر عند الله ومعلوم لديه. ولم يكن لائقاً جلباب بيان هذه المسألة فلسفيّاً إلاّ على .قامة الملاّ صدرا من بين الفلاسفة، حشره الله بإذنه تعالى مع مَن تولاّه

تأسيساً على ذلك فإنّ علينا أوّلاً أن ندرك بأنّ الله يعلم، وثانياً أن نستحضر ذلك باستمرار في أرواحنا. هذا هو بيان القرآن الكريم؛ فالورقة التي تسقط من شجرة يعلم بها الله، وكذا الخواطر التي تمرّ في ذهنك فإن صدّقنا بأنّ الله يعلم بكلّ شيء، .[16]«فإنّ الله يعلم بها أيضاً: «وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فسيسهل الأمر علينا. لكن ينبغي أن لا ننسى أنّ الالتفات المستمرّ إلى هذه القضيّة أمر صعب. فقول الإمام الخمينيّ الراحل (رحمه الله): «العالَم هو في محضر الله» يعني أنّ جميع الأشياء حاضرة عند الله، وما من شيء مجهول بالنسبة له سبحانه أو خفيّ عنه من أعماق أضأل الذرّات حتّى آخر المجرّات. لكن ماذا نصنع كي نظلّ مستحضرين لهذه القضيّة في أرواحنا؟ هذا يحتاج إلى تمرين، فلابدّ أن نخطّط للتفكير بهذا

الموضوع للحظات يوميّاً، ومن الأفضل أن يكون ذلك قبيل الصلاة كي نؤدّي صلاتنا بحضور قلب أكبر. فلنصدّق بأنّ الله حاضر في كلّ مكان؛ فلا مكان جلوسي، ولا كلامي، ولا طعامي هو خافٍ عن الله تعالى. بالطبع قد لا يكون في الميسور التفكير بهذا الموضوع لمدّة طويلة في بادئ الأمر، لكن من الممكن، بالتدريج وبمرور الزمان، إطالة هذه المدّة وتعميق هذا الالتفات. وهذا يحتاج إلى تمرين لاسيّما في مظانّ الذنوب؛ فلابدّ من الانتباه الشديد والتفكير مسبقاً بأنّ الله تعالى حاضر في المشهد الذي سأُواجهه والذي هو من مظانّ المعاصي، وهو سبحانه يراني. فلنقوّ هذه الفكرة في أذهاننا ولنلتفت إلى هذه القضيّة أكثر. ولعلّ ما قلناه ينفع لتوضيح عبارة الحديث القدسيّ حين يقول تعالى: «ويَذكُر عِلمي به ويراقبني بالليل والنهار عند كلّ سيّئة ومعصيّة».

وفّقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

الرقيّ التدريجيّ نحو الله

إشارة

ذكرنا في المحاضرات الماضية في سياق توضيح مقاطع من الحديث القدسيّ الذي خاطب به ربّ العزّة نبيَّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) ليلة المعراج انّ بلوغ الحياة الأبديّة المطلوبة يحتاج إلى ممهّدات. فلابدّ أن تصغر الدنيا في عين المرء أوّلاً كي يضمحلّ حبّه لها. ثمّ السعي في المرحلة الثانية لتغليب إرادة الله على هوى النفس وجعل المرء استجلابَ مرضاةِ الله دافعاً لأنواع سلوكه. ثمّ عليه أخيراً أن يؤدّي حقّ عظمة الله عزّ وجلّ. وهذه العناوين الثلاثة تمثّل مبادئ استراتيجيّة. لكن كيف لهذه المبادئ أن تتحقّق؟ وما الذي ينبغي صنعه لاكتساب هذه الخصال؟ وهنا يطرح الحديث القدسيّ الشريف في مقاطعه التالية بضعة مناهج عمليّة لهذا الغرض. المنهج الأوّل هو: «ويَذكُر علمي به»: أي على الإنسان أن يتذكّر أنّني عالم بكلّ حركاته وسكناته. وقد قدّمنا في الليلة الماضية بعض التوضيحات في هذا المضمار.

المشارطة والمراقبة والمحاسبة

متابعةً لبيان المناهج المؤدّية إلى الحياة الباقية يقول الحديث القدسيّ: «ويراقبني بالليل والنهار عند كلّ إذ يتحتّم على الإنسان أن يراقب نفسه باستمرار لاسيّما في مظانّ ارتكاب .[1]«سيّئة ومعصية المعاصي. ولعلّ هذه الفقرة من الحديث القدسيّ هي التي جعلت علماء الأخلاق يركّزون جلّ اهتمامهم فيما ذكروه من مراحل تكامل الإنسان على «المشارطة» و«المراقبة» و«المحاسبة». بالطبع يمكننا أن نتصوّر هنا مراتب مختلفة للمراقبة استناداً إلى حال كلّ شخص ومستوى كماله. فالمرتبة الأُولى هي أن يخاطب المرء نفسه «مشارطاً» إيّاها في أوّل يومه قائلاً: مادام الله قد وهبني عمراً جديداً فسأُفيد من رأس المال هذا في التزوّد بمتاع لآخرتي، وطاعة ربّي، وعدم اقتراف المعاصي. ثمّ «يراقب» نفسه طيلة ساعات اليوم لئلاّ يرتكب ذنباً. وأخيراً «يحاسبها» ليلاً على ما فعله في يومه ليتدارك ما قد يكون اقترفه من .ذنوب أثناء النهار

وقد وردت في هذا الباب، لاسيّما فيما يتّصل بالمحاسبة، أحاديث جمّة وصنّف حولها كبار علماء ؛ [2]«الأخلاق مصنّفات عدّة، حتّى ذكرت بعض الروايات: «ليس منّا مَن لم يحاسب نفسه في كلّ يوم بمعنى أنّ من لوازم ولاية أهل البيت (عليهم السلام) هو أن يحاسب المرء نفسه كلّ يوم. بل ينبغي لكلّ مسلم يؤمن بالحساب يوم القيامة أن يحاول، بما يتناسب مع درجة إيمانه بهذا الأمر، مراعاة هذه المسائل. .ولذا فإنّه كلّما ارتفعت درجة إيمان المرء زادت دقّة مراقبته وعظُمت ثمارها

وسيحرص باستمرار كلّ من يجتاز هذه المرحلة والذي قد صارت المراقبة ملَكَة بالنسبة له على عدم ارتكاب المعصية، أو إنّه سيستغفر الله تعالى منها لا محالة بعد محاسبة النفس إذا كان قد ارتكبها نتيجة الغفلة. أمّا المرتبة الثانية فيطلَق عليها اسم «الإحسان» وهي تسمية قد تكون مقتبسة من وصيّة النبيّ الأعظم (صلّى الله عليه وآله) لأبي ذرّ حينما قال له: «الإحسان أنْ تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن ؛ ويعني أنّه بالإضافة إلى مراقبة المرء نفسه فإنّ عليه الالتفات دوماً إلى أنّه بمحضر الله [3]«تراه فإنّه يراك تعالى. فإذا تصوّرنا إنساناً له مسؤوليّة تجاه شخص عظيم وعليه أن يطيع أوامره، فإنّ اتّباعه أوامر المسؤول الأعلى منه يشكّل المرحلة الأُولى. أمّا في المرحلة الثانية فإنّ عليه، إلى جانب تنفيذ الأوامر، أن يلتفت إلى أنّه لا يغيب أبداً عن ناظر ذلك الشخص العظيم، وفي هذه الحالة فإنّه سينجز تكاليفه بمزيد من الدقّة. «الإحسان أنْ تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»؛ فلابدّ أن يكون الإنسان في عبوديّته لربّه كمَن يرى الله حاضراً وناظراً باستمرار. يقول (صلّى الله عليه وآله): اعلم أنّك إن لم تكن فإذا التفت المرء .[4]«ترى الله فإنّه عزّ وجلّ يراك. والقرآن الكريم أيضاً يقول: «أَ لَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ إلى أنّ شخصيّة عظيمة تشرف دائماً على أعماله وتراه فسيراقب تصرّفاته أكثر ويحرص على العمل .حسب أوامرها

لكنّ الإنسان في المرحلة التي تعلو على هذه لا يحرص على أن تكون تصرّفاته مطابقة لإرادة معبوده فحسب، بل ويعمل على أن لا تخالف خواطرُ ذهنه هواه أيضاً. فالمتّقون يحاولون أن يستحضروا في أرواحهم دائماً أنّهم في محضر الله عزّ وجلّ ويراقبوا أنفسهم لئلاّ يقترفوا ذنباً. لكن نفس هؤلاء قد ترد في بالهم أحياناً خاطرةُ لذّةٍ لمعصية كانوا قد اقترفوها في الأيّام الخوالي، أو تراودهم فكرة ارتكاب ذنب، وهي هواجس، وإنْ لم ترقَ إلى مرحلة الفعل، لكنّها غير محبَّذة عند الله عزّ وجلّ. يقول تعالى: «اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ» [5]، فالله لا يرضى حتّى أن يخطر ظنّ سيّئ في بال امرئ تجاه شخصٍ ما، لأنّ ذلك قد يشكّل دافعاً للقيام بعمل مشين، لاسيّما إذا زيّنه له الشيطان بوساوسه. وما مهمّة الأخير أساساً إلاّ تزيين الذنوب، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى عن لسان إبليس قائلاً: «لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ» [6]، ويقول عزّ من قائل في موضع آخر: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا» [7].

فمن أجل ارتكاب المعصية هناك مثلّث يتكوّن ضلعه الأوّل من المادّة التي يتعلّق بها الذنب، وهي نفس الدنيا؛ كسبائك الذهب والفضّة، وبطاقات الائتمان، والأصفار المصفوفة على يمين الحساب المصرفيّ، والخيل الثمينة، والسيّارات الفارهة الباهضة الثمن، وغيرها من الممتلكات. يقول عزّ وجلّ إنّ هذه الأُمور تبدو للإنسان أكثر جمالاً ممّا هي عليه فتكون جذّابة له. الضلع الثاني للمثلث يتمثّل في وسوسة الشيطان. فمهمّة الأخير هي جعل الأُمور الدنيويّة أكثر جمالاً وأشدّ بريقاً في نظر الإنسان، حتّى تتعاظم جاذبيّتها في نظره بالتكرار. أمّا الضلع الثالث لهذا المثلث فتمثّله ميول الإنسان الباطنيّة إلى تلك الأُمور، أو ما يطلَق عليه هوى النفس. فأضلاع هذا المثلث تعمل سويّة لجرّ الإنسان نحو فخّ الخطيئة. فإن أراد المرء صيانة نفسه من الوقوع في مثل هذا الفخّ فعليه، من خلال التسلّح بسلاح مناسب، أن يقاوم جاذبيّة المعصية كي لا ينخدع بوساوس الشيطان الرجيم ويستطيع التغلّب على هوى نفسه. لكن ما هو السبيل ليحقّق الإنسان النجاح في هذا الطريق؟ إنّه التمرين والمثابرة. فالنزعات المادّية والطبيعيّة كالجوع والغريزة الجنسيّة هي فعّالة في نفس الإنسان منذ أن خُلق. أمّا الدوافع الراقية والسامية فإنّها تنشط عبر السعي والمثابرة. ومن هذا المنطلق فإنّ على الإنسان – ومن خلال التأمّل والتفكّر في سلوكه – أن يُعدّ خطّة عمليّة للنجاة من شَرَك المعصية والخطيئة.

ولهذا يقول بعض العظماء إنّ فترة السير والسلوك كلّها هي عبارة عن مراقَبة، وعلى السالك أن يكون ملتفتاً بشكل دائم وأن يجتهد حتّى لا يصاب بالغفلة. يقول تعالى في محكم كتابه العزيز: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ

طبقاً لهذه الآية فإنّ بعض الناس قد خُلقوا — أساساً – لجهنّم، [8]«بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ. وهو كناية عن أنّ عاقبتهم ستكون إلى جهنّم لا محالة. فقد أعطاهم الله أعيناً ليبصروا بها الحقائق لكنّهم لم يبصروا بها غير اللذائذ المادّية، ووهبهم آذاناً ليسمعوا بها الموعظة والنصيحة لكنّهم أوقفوها على سماع اللغو والموسيقى الماجنة وأمثال ذلك، ومنحهم عقلاً ليميّزوا به الحقّ عن الباطل لكنّهم عطّلوه، فأمثال هؤلاء هم أشبه بالأنعام، بل وأضلّ منها أيضاً. ثمّ يقول في ختام الآية: «أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ»؛ أي إنّ هؤلاء قد ابتلوا بهذه المصيبة بسبب الغفلة فصاروا أخسّ من الحيوانات.

إذن فإنّ ما يرفع الإنسان مهما امتدّ سيره وسلوكه من حضيض الحيوانيّة إلى أوج مقام القرب من الله تعالى هو الالتفات القلبيّ. ومن هنا فإنّه لابدّ للإنسان أن يجتهد باستمرار لتقوية هذا الالتفات الذهنيّ؛ إذ عليه في المرحلة الأُولى أن يلتفت إلى أنّ الذنب يوجب الخسران وأن يتورّع جاهداً عن ارتكابه. وعليه في المرحلة التالية أن يلاحظ دائماً أنّ الله موجود في كلّ مكان وزمان. وعبر تقوية هذه الحالة سيُستدرَج التفاتُ الإنسان شيئاً فشيئاً نحو الله عزّ وجلّ وسينطبق في هذه المرحلة كلّ ما يحبّه مع ما يحبّه الله، وكما نعبّر في لغتنا الدارجة فإنّه سيعيش دوماً مع الله؛ أي يكون دائم الذكر له من لحظة استيقاظه من نومه حتّى ساعة إيوائه إلى الفراش. وحتّى عندما لا يكون لسانه مشغولاً بالأذكار والأوراد فإنّ قلبه يكون متوجّهاً نحو الله ذاكراً له، وكأنّه ما من شيء في قلبه غير الله سبحانه. وهي عين الحالة التي يشير إليها الحديث القدسيّ متابعاً بقوله: «ويُنَقّي قلبه عن كلّ ما أكره».

تنقية القلب

بعد أن تبلغ المراقبة مبلغ الكمال ويصير الالتفات إلى حضور الله تعالى ملَكَة من ملكات النفس يتحتّم على الإنسان أن يحاول جهده كي لا يدع في قلبه أيّ شيء لا يحبّه الله وينقّيه من كلّ ما يبغضه تعالى، بل وأن لا يسمح لهواجس هذه الأُمور أن تتسلّل إلى ذهنه؛ وبتعبير آخر: عليه أن يمسك بزمام قلبه ويبذل غاية وسعه لئلاّ يلتفت إلى ما لا يحبّه ربّه. وهي مرتبة أعلى من الالتفات إلى حضور الله عزّ وجلّ. فمضافاً إلى التفات المرء في هذه المرحلة إلى أنّ الله يرى كلّ ألوان سلوكه الظاهرة ويعلم بها فإنّه ملتفت فيها أيضاً إلى أنّه جلّ وعلا عالم بمكنونات قلبه، وما تنطوي عليه نفسه من ميول وأهواء، وما يخطر بباله من هواجس. ولذلك يقول تعالى في الحديث القدسيّ: «ويُنَقّي قلبه عن كلّ ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه».

قلنا إنّ أحد أضلاع المثلث الذي يقود الإنسان إلى ارتكاب الخطيئة يتمثّل بالنزعات والنزوات الباطنيّة المؤدّية إلى ذلك وهو ما يستلزم اتّباع هوى النفس. فبعد الانتصار على جاذبيّة الذنب تأتي المرحلة التالية

التي يتعامل الإنسان فيها مع الشيطان تعامل العدوّ. وهو أمر يؤكّد عليه أحد تعاليم القرآن الكريم حيث يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً»[9]. فكيف نتعامل مع عدوّنا اللدود المتعطّش لدمائنا؟ من الواضح أنّنا سنحاول قدر الإمكان أن لا نلتقي به وأن نفرّ من الارتباط به كي لا يمسّنا بسوء. فإن آمنّا حقّاً بأنّ الشيطان هو عدوّ لنا تعيّن علينا أن نتعامل معه بهذا الأُسلوب. لكن لماذا نحن نخسر الصراع مع الشيطان ثمّ نلجأ إلى التعامل معه تعامل الصديق مع صديقه؟

علاقة الإنسان بالشيطان

علاقة الشيطان بالإنسان هي الأُخرى لها مراتب. فقد يجتذب الشيطانُ الإنسانَ أحياناً بالإيماء والإشارة، لكنّه قد يغويه – أحياناً أُخرى – بالوسواس والوعود الخادعة لتنفيذ أوامره، وهو ما فعله مع نبيّنا آدم (عليه السلام). فقد قال إبليس لنبيّ الله آدم وزوجه حوّاء (عليهما السلام): «مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ»[10]؛ يعني إنّ الله قد نهاكما عن الأكل من تلكما الشجرة لئلاّ تتحوّلا إلى ملكين أو تخلدا في حياة أبديّة! وقد أقسم على قوله هذا مدّعياً أنّه يبغي مصلحتهما. وهو يغوي بقيّة الناس أيضاً بالكيفيّة التي يستطيع. بالطبع ليس من المقرّر أن يحرف الشيطانُ الإنسانَ عن جادّة الصواب بالإكراه، فهو لا يمتلك مثل هذه القدرة، بل إنّه يفعل ذلك بالقول الليّن والتحايل فيغوي فلاناً بالعبادة، ويخدع آخر بالغرور العلميّ، ويتحايل على ثالث من منطلق مكانته الاجتماعيّة، ويغري رابعاً بذريعة أُخرى، وهكذا. فالشيطان ينصب لكلّ امرئ فخّاً يتناسب مع شخصيّته ونهجه وهواه ومنزلته الاجتماعيّة فيخدعه ومن ثمّ يعمل شيئاً فشيئاً على توطيد أواصر الصداقة معه ليورّطه معه بحجّة طلب الخير له والخوف على مصلحته. ويصطلح على هذه العلاقة في الثقافة القرآنيّة بـ «التولّي»: «إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ»[11]. فليس للشيطان سلطة على أحد كي يغريه على فعل المعصية بالجبر والقوّة، اللهمّ إلاّ الذين وطّدوا معه علاقة حميمة وصاروا يصغون إلى ما يقول. ففي هذه الحالة فقط يستطيع الشيطان النفوذ إلى ابن آدم ويؤثّر عليه.

فلا انسجام بين علاقة التولّي والصداقة من جهة والعداوة من جهة أُخرى؛ فإمّا أن تربط الإنسان مع الشيطان علاقة صداقة، أو أن يتّخذه عدوّاً. والقرآن الكريم يؤكّد على هذا المعنى ويكرّره باستمرار: «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ»[12]، «وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ»، «فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً»[13]. لكنّنا، من الناحية العمليّة، نقيم معه علاقة صداقة ونبرّر لأنفسنا ذلك أيضاً! بالطبع لا الشيطان يقدّم نفسه صراحةً على أنّه «شيطان» ولا نحن نصرّح بنيّتنا في مصادقته. لكنّه ليس لسلوكنا من تفسير سوى الصداقة مع الشيطان الرجيم؛ فعندما نعمل بنصيحة الشيطان ولا نتعامل معه بحدّة، فإنّه لا يعود لتصرّفنا مفهوم سوى الصداقة معه. بل والأدهى من ذلك هو أن يصل الأمر بالإنسان إلى أن يصبح خادماً

للشيطان فينفّذ الشيطانُ عن طريقه خططَه بحقّ الآخرين؛ وبعبارة أُخرى فإنّه يصبح وسيلة لإغواء الآخرين. فلا يقف الأمر عند ضلاله هو وصيرورته من أهل النار، بل يتحوّل إلى أداة بيد الشيطان لإغواء غيره! ليس هذا فحسب بل وقد يتطوّر الأمر بالإنسان إلى حدّ أن يمتطي الشيطان ظهره ويمسك بزمامه.

أمّا إذا لم نرغب في التورّط بهذه العاقبة السيّئة فعلينا منذ البداية أن نردّ بالنفي الشديد على تلميحات الشيطان، وأن نحاول إذا وقعنا — لا سمح الله — في فخّ دعوته إنقاذ أنفسنا من مخالبه بأسرع ما يمكن ولا ندعه يتسلّط على رقابنا. وهي عين الملاحظة التي يشير إليها الحديث القدسيّ الشريف. فبعد أن يحظى الإنسان بالتفات دائم إلى حضور الله تعالى ويعطف اهتماماته القلبيّة إلى إرادته جلّ وعلا، فإنّ عليه السعي لطرد كلّ ما لا يحبّه الله من قلبه وتنقيته منه: «يُنَقّي قلبه». وكأنّ القلب يتلوّث ويتّسخ ويتعفّن بالتعلّق بما لا يحبّه الله ممّا يحتّم تنظيفه وتنقيته، وهو ما يتحقّق بإخراج محبّة غير الله منه.

لقد قلنا إنّ الضلع الثالث لهذا المثلّث يتمثّل بوساوس الشيطان وتحريضاته وتزييناته. ومن أجل مواجهة هذا العامل لابدّ من الاعتقاد يقيناً بأنّ الشيطان عدوّ لنا والسعي من أجل عدم توفّر الأرضيّة لتسلّطه، فلا نأتينّ بما يفسح المجال للشيطان [14]«علينا: «ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً بالإمساك بزمام قلوبنا. فقد دار الحديث في المقطع السابق عن سلوك إيجابيّ يتمثّل بتنقية القلب من الإرادات غير الإلهيّة والعمل على الالتفات إلى المحبوب. وفي هذا المقطع يدور الكلام حول السلوك السلبيّ المتمثّل بمقارعة العدوّ. ولابدّ من وجود هذين العاملين جنباً إلى جنب كي يُكتب لهما الدوام. فمصادقة الصديق من دون معاداة العدوّ لا تدوم. وهذا ما يفسّر ذكر «الحبّ» في الأحاديث جنباً إلى جنب مع «البغض»: «وهل الدين إلاّ الحبّ والبغض [15]«، أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ «بَيْنَهُمْ [16]. فالعواطف الإيجابيّة وحدها لا تكفي. إذ قد تدخل في هذه الحالة محبّة العدوّ أيضاً في القلب. بناءً على ذلك فإنّه مضافاً إلى العمل في المرحلة السابقة على تقوية محبّة ما يحبّه الله في القلب، علينا في هذه المرحلة أن نحاول طرد كلّ ما لا يحبّه الله منه، فنخضع أمام وليّ الله، ونصمد بصلابة أمام عدوّ الله.

حبائل الشيطان المتنوّعة

إنّ الاجتهاد في معرفة وساوس الشيطان وحيل النفس يُعدّ من المسائل التي طالما أكّد عليها أساتذة الأخلاق والعلماء العظام تأكيداً مبرماً. ولعلّكم سمعتم قصّة الشيخ الأنصاريّ (رحمه الله) في هذا الصدد، لكنّ تكرارها لا يخلو من حُسن. فحينما كان المرحوم الشيخ الأنصاريّ (رضوان الله تعالى عليه) يحتلّ

مركز زعامة التشيّع، أتاه بعض نسوة الجيران – وكان موعد وضع حمل امرأته – فأخبرنه أنّهنّ بحاجة إلى بعض السمن لتهيئة طعام مناسب تتناوله امرأة الشيخ ليعينها على ضعفها. ولم يكن لدى الشيخ مال في ذلك الحين، فخطر في باله أنّه كان قد وضع «درهماً» من سهم الإمام (عليه السلام) جانباً، فقال في نفسه: أقترضُ هذا الدرهم لأشتري به السمن ثمّ أُعيده فيما بعد. لكن بمجرّد أن رفع الدرهم وهمّ بالخروج حدّث نفسَه: لو أنّ امرأة أحد طلاّب العلوم الدينيّة في زاوية من مدينة النجف الأشرف قد آن أوان ولادتها هذه الليلة فهل سيكون في متناول يده مال لشراء السمن لها؟ فقال لنفسه: ما دمتُ غير متأكّد من أنّ جميع الطلاّب يملكون هذا المقدار من المال في مثل هذه الساعة فإنّني سوف لا أستخدمه، ثمّ أرجَعَ المال إلى محلّه. في نفس تلك الليلة شاهد أحد تلامذة الشيخ فيما يرى النائم إبليساً يسير جارّاً وراءه حبالاً متنوّعة الأشكال. فسأله: ما هذه الحبال؟ فأجابه: أنا استخدم كلّ واحد من هذه الحبال لخداع فرد من الناس وجرّه ورائي. فأشار التلميذ إلى أحد الحبال وكان متيناً ومتمزّقاً فقال: وما هذا؟ فأجاب إبليس متحسّراً: لقد أعددتُ هذا الحبل منذ تسعة أشهر وألقيته ليلة أمس على عنق الشيخ الأنصاريّ لكنّه قطّعه بحركة واحدة. فسأله التلميذ: وما الحبل الذي أعددتَه لي أنا؟ فضحك الشيطان قائلاً: لستَ بحاجة إلى حبل، إنّك تسرع نحوي بإشارة واحدة منّي!

فمن أجل خداع رجل مثل الشيخ الأنصاريّ يحتاج الشيطان إلى تسعة أشهر ليعدّ العدّة ويهيّئ المقدّمات علّه يتمكّن من إلقاء حبله حول عنقه. فحيَل الشيطان هي غاية في التعقيد والإحكام وقد يقع فريستَها حتّى ذوو الفراسة والفطنة، ولا يستطيع الإفلات من شِراكه «إلاّ مَن عصمه الله»[17]؛ إلاّ من تمسّك بحبل الله وحبل أوليائه واستخدم سلاح الدعاء والتوسّل للنجاة من مكائد الشيطان الرجيم. إذن يتعيّن دائماً على الذين يسعون حقيقةً وراء التكامل والرقيّ أن يلجأوا إلى ربّهم من شرّ حيل الشيطان وشِراكه التي ينصبها في طريق الجميع، بما فيهم بعض أولياء الله، وإنّ القليل من الناس هم الذين يتمكّنون دائماً من النجاة من كلّ أحابيله.

نسأل الله تبارك وتعالى ببركة أوليائه ومقام عباده الصالحين أن يشملنا نحن أيضاً بعناياته وينجّينا في مواطن الخطر من أشراك إبليس.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

المحبة ثمرة المراقبة

إشارة

تطرّقنا في المحاضرات الفائتة، في سياق بحثنا حول مقاطع من حديث المعراج القدسيّ، إلى خصائص المشتاقين إلى الحياة الآخرة السعيدة الهنيئة الأبديّة وذكرنا أنّه يمكننا تقسيم مباحث هذا الجزء من الحديث إلى قسمين؛ قسم المبادئ الاستراتيجيّة وقسم المناهج العمليّة. ومتابعة للحديث وبعد بيان هذه المقدّمات فقد تمّ التساؤل بأنّ الله تعالى كيف سيتعامل في عالم الدنيا مع الذين يرومون — من خلال العمل بهذه التوصيات والتوجيهات — الوصول إلى هذه الحياة، وماذا سيكون الأجر الذي أعدّه لهم؟

الثمرة الدنيويّة للأعمال

كما تعلمون فإنّ الحكمة من خلق الحياة الدنيا هي أنْ يبني الإنسان فيها – من خلال أعماله الاختياريّة – حياته الأبديّة. واستناداً إلى هذا المعنى تُشَبَّه الحياة الدنيا أحياناً — من حيث كونها مُعِدّة لحياة أُخرى – بالحياة الجنينيّة إلاّ أنّ الحياة الدنيا يتحتّم على الإنسان فيها أن يبني نفسه ويُعدّها للولادة وولوج عالم جديد. ومن هنا فإنّ ما يصيبه المرء في عالم الآخرة هو محصّلة أعماله التي أتى بها في هذه الدنيا. وإنّ الاعتقاد بهذه المسألة يُعدّ واحداً من أُصول الدين وضروريّاته. لكن حيث إنّ لطف الله جلّ وعلا وعنايته لا نهاية لهما، فقد هيّأ أيضاً للناس في هذه الدنيا مناخات لتلقّي المزيد من رحمته. فالسنّة الإلهيّة العامّة والقطعيّة تقضي بأنّ الإنسان إذا عرف أنعُم الله تعالى، ولم يسِئ استخدامها، وشكَرها، فإنّ الله سيزيدها له: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» [2]. وفي المقابل فإنّ الذين يكفرون بالنعم سيواجهون في نفس هذه الدنيا — بشكل من الأشكال – مشكلات شتّى: «وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ» [3]. بطبيعة الحال فإنّ الله لا يعاقب عباده في الحياة الدنيا على كلّ أعمالهم المشينة، بل هو يتغاضى عن الكثير منها أيضاً. وقد صرّحت بعض الآيات القرآنيّة بأنّ الله لو أراد أن يعاقب عباده في عالم الدنيا على جميع ذنوبهم لما بقي على الأرض كائنٌ حيّ. لكنّه تعالى يمهلهم في الحياة الدنيا لعلّ المذنبين منهم يتنبّهون ويتّعظون: «لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [4]؛ فهو يذيقهم العقاب على بعض أعمالهم في هذه الحياة الدنيا لعلّهم يتوبون بسبب هذا العذاب المخفّف ويثوبون إلى جادّة الحقّ.

طبقاً لهذه السنّة فإنّه إذا عمل بعض الناس على تطبيق الأحكام الإسلاميّة في المجتمع فإنّهم سينعمون بنعم مادّية أكبر في هذه الدنيا: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» [5]؛ فلو أنّ الناس امتثلوا الأحكام الإلهيّة، أو بعبارة أُخرى: لو كان النظام الإسلاميّ هو النظام الحاكم على الناس، فسوف نزيد في بركاتهم. كما ويقول تعالى في آية أُخرى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ

؛ فحتّى اليهود والنصارى لو أنّهم عملوا [6]«التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ... لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم .بأحكام شريعتهم، لدرّت عليهم الأرض والسماء نعماً

ومن السنن الإلهيّة الأُخرى هي ما يتعلّق بمعرفة قدر النعم المعنويّة. فالله سبحانه وتعالى يهدي الناس ؛ أي إنّ الله يهدي كلّ ما يخلق؛ [7]«جميعاً بالعقل والوحي: «الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ فكلّ الكائنات من نباتات وحيوانات هي مهديّة تكوينيّاً إلى المسير الذي خُلقت من أجله. والإنسان أيضاً هو مهديّ عن طريق العقل والوحي. بيد أنّ الناس لا يتعاملون جميعاً مع هذه النعم بكيفيّة واحدة؛ فبعضهم يُفيد من نعمة الهداية على أتمّ وجه، لكنّ البعض الآخر يكفر بها بالعصيان والطغيان: «وَأَمَّا فعلى الرغم من أنّ الله هدى قوم صالح (عليه .[8]«ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ السلام) لكنّهم حبّذوا العمى والضلال على الهداية، فكانت النتيجة أن حاق بهم العذاب. وفي المقابل .[9]«فإنّ الذين عرفوا قدر الهداية فقد زادهم الله هدىً على هداهم: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدىً فالسنّة السابقة ترتبط بالنعم المادّية وإنّ لها ثماراً وبركات مادّية أيضاً، أمّا هذه السنّة فإنّها في درجة أعلى. فلو عرف البشر قدر النعم المعنويّة وأفادوا جيّداً من هداية ربّهم فسيزيد الله في هداهم: «وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ .وهناك نماذج كثيرة لهذه السنّة ذَكَر بعضَها القرآن الكريم .[10]«اهْتَدَوْاْ هُدىً

العنايات الخاصّة لخاصّة العباد

إنّ للنعمة المعنويّة المتمثّلة بالهداية مراتبَ عديدة أوّلها الهداية إلى دين الإسلام ومذهب أهل البيت (عليهم السلام). وكلّنا معاشر المؤمنين ننعم بهذه النعمة ولله الحمد، ونعرف قدرها إلى حدّ ما. لكنّه ثمّة للهداية ولثمارها مراتب أُخرى تخصّ الخواصّ من العباد وإنّ أكثر المؤمنين ليس لديهم حتّى تصوّر واضح عنها، فضلاً عن محاولتهم اكتسابها والإفادة من نتائجها. ولتقريب المعنى إلى الذهن يمكن أن نضرب من الحبّ الغامر لقيس وليلى، ووامق وعذرا، وفرهاد وشيرين مثلاً. فلعلّ أغلبنا غير قادر على تصوّر ما كان يسعى إليه أمثال هؤلاء. حيث يحكى أنّ ليلى كانت جارية سوداء ولم تكن جميلة المظهر ليقع في حبّها كلّ مَن يراها. لكنّه حينما أنكروا على قيس ولَهَه بهذه الجارية السوداء الحبشيّة قال: وهل إنّ كلّ أسود غير محبوب؟ فكيف يحبّ جميع الناس المسك وهو أسود، فعلى الرغم من سواد المسك فإنّه غالي الثمن :بسبب عطره الفوّاح

يقولون ليلى سودةٌ حبشيّة　　　فلولا سواد المسك ما كان غاليا

فالذي لم يذق رشفةً من حبّ قيس لليلى ينتابه العجب من سماع هذه المفاهيم، وغاية ما يذهب إليه .هو أن يرمي قيساً بالجنون لأنّه أفسد حياته من أجل امرأة

لكنّنا إذا تقصّينا أحوال أولياء الله تعالى فسنجدها على هذا النحو أيضاً. بل إنّ حبّ بعضهم لربّهم لهو أشدّ حرارة وإحراقاً من حبّ قيس لليلى. وأحد هؤلاء هو نبيّ الله شعيب (سلام الله عليه). حيث يُروى أنّ شعيباً بكى سنينَ طويلةً شوقاً إلى ربّه حتّى أُصيب بالعمى من شدّة البكاء. فمنّ الله عليه بأن أعاد له بصره. لكنّه عاود البكاء ثانية حتّى أُصيب بالعمى مرّة أُخرى. فأعاد الله له بصره ثانية. فعاود الكرّة للمرة الثالثة، إلى أن فقدَ بصره تماماً. وفي هذه المرّة أرسل الله تعالى له جبرئيل بهذا الوحي: لماذا كلّ هذا البكاء؟ فإن كان بكاؤك خوفاً من النار فقد حرّمتُها عليك، وإن كان شوقاً إلى الجنّة، فقد وهبتُها لك! فقال شعيب (عليه السلام): «إلهي وسيّدي! أنت تعلم أنّي ما بكيتُ خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنّتك ولكن عَقَد حبُّك على قلبي فلستُ أصبر أو أراك» فإنّ بكائي هو من شدّة محبّتي لك وإنّني لن يهدأ لي بال حتّى أراك. «فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أمّا إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأُخدِمُك فكان أن أتى موسى قريةَ «مَديَن» وتولّى رَعْيَ أغنام .[11]«(كليمي موسى بن عمران (عليه السلام شعيب، وهو الأجر الذي أعطاه الله لشعيب في هذه الدنيا في مقابل حبّه له. لكن ماذا نصنع نحن إذا أردنا الوصول إلى هذه الدرجة ونحن متعلّقون بلذائذ هذه الدنيا وجاهها ومناصبها؟ الجواب الشافي لمن أراد بلوغ هذا المقام موجود في مقطع الحديث القدسيّ الذي بحثناه في المحاضرات الأخيرة؛ وهو: أَخرِجوا حبّ الدنيا من قلوبكم، كونوا دائمي الذكر لله تعالى، احذروا من الوقوع في حبائل الشيطان، وسيغرس الله محبّته في قلوبكم. وعلى الرغم من أن هذه الطريق ليست بالطريق السهلة، فإنّه إذا سعى الإنسان فيها بصدق بكلّ ما أُوتي من وسع فسيتولّى الله بنفسه مساعدته لطيّها. وهذا هو موضع السنّة الإلهيّة المذكورة التي يقول فيها تعالى: «وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدىً». فنحن نعلم أنّنا ضعفاء، والله جلّ وعلا لا يتوقّع منّا أن نكون كشعيب وأمثاله. لكن ينبغي أن لا نقصّر فيما نستطيع، كي يمدّ الله لنا يد العون .والمساعدة

المحبّة ثمرة المراقبة

لقد أُشير في المحاضرات الفائتة إلى أنّ الله يثيب من يقوم بمثل هذه الأُمور. وسنتحدّث اليوم عن هذا الثواب. فإنْ شمّر المرء عن ساعديه وهيّأ الشروط المذكورة بحدود وسعه وطاقته؛ فصار يذكر الله دوماً، ولم يدع قلبَه يتعلّق بأُمور الدنيا، ولم يُصغِ لوساوس إبليس، فإنّ الله تعالى سيُسكِن في قلبه حبّاً: «أسكنتُ في قلبه حبّاً». فنحن نعي جيّداً بأنّ قلوبنا – مع ما فيها من تعلّقات بأُمور الدنيا، وما نشكوه من نقص في معرفتنا – لا تستحقّ محبّة الله عزّ وجلّ، وأنّ ظهور حبّ جنونيّ في قلب الإنسان ليس بالأمر الهيّن. لكنّنا إذا هيّأنا المناخ لمثل هذه المحبّة، وجعلنا أوعية قلوبنا طاهرة مُعَدّة، فإنّ الله سيضع في هذه الأوعية شيئاً من الجواهر الخاصّة بأوليائه: «فإذا فعل ذلك أسكنتُ في قلبه حبّاً». وباشتعال نار محبّة الله في

قلب العبد فإنّ الله سيجعل هذا القلب له، كي لا يجد غيرُه سبيلاً إليه: «حتّى أجعلَ قلبَه لي وفراغَه واشتغالَه وهمّه وحديثَه من النعمة التي أنعمتُ بها على أهل محبّتي من خلقي».

ولعمري فإنّ هذه لَنِعمة خاصّة جعلها الله لخاصّة أوليائه، وليس للآخرين الاطّلاع على العلاقة التي تربط أمثال هؤلاء بالله جلّ شأنه. وإنّ أثر محبّة العبد الجامحة لربّه هي أنّه — حاله حال غيره من العاشقين الولهانين — سيفتّش عن أيّ ذريعة لذكر محبوبه. فبظهور محبّة الله في قلب الإنسان سيكون قلبه لله وسيكون دائم الرغبة للتحدّث عنه تعالى وعن آلائه. فسواء أكان في حالة الراحة من عمله أو مشغولاً به فإنّ التفاته يكون لله. فهو يشكر الله في ساعة فراغه من العمل أن تفرّغ لمناجاته. كما كان موسى بن جعفر الكاظم (سلام الله عليه) يسجد لربّه في تلك الزنزانة المظلمة التي لا يُعلم نهارها من ليلها شاكراً له قائلاً: «اللهمّ إنّك تعلم أنّي كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، اللهمّ وقد فعلتَ، فلك الحمد»[12].

وكذا في ساعة العمل فإنّ العبد العاشق لا يفتأ يذكر ربّه: «رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ»[13]. فكما يكون عمله لله وأنّه لا ينساه أبداً، فإنّه لا يغفل عن ذكر الله حتّى في الخلوات وعند الفراغ من العمل؛ فهو يحاول أن يخلو بالله ويناجيه مناجاة خاصّة كلّما سنحت له الفرصة: «...وهمَّه وحديثَه من النعمة التي أنعمتُ بها على أهل محبّتي من خلقي»؛ فكلّ همّه وغمّه وفكره وذكره مُنصَبَّة في الله، وهو دائم الشكر لتلك الآلاء الخاصّة التي ينعم الله بها على أهل محبّته، ولا يجد الوقت لشكر باقي نعم الدنيا. فشُكْرُ الله تعالى على نعمة البصر والسمع والنطق هو من اختصاص أمثالنا. أمّا خواصّ عباد الله فإنّهم ذائبون في نعم الله المعنويّة إلى درجة لا يجدون الوقت لشكر كلّ واحدة من أنعمه المادّية. فإنّ تمام التفات هؤلاء العباد موجَّه إلى الآلاء الخاصّة التي يمنّ الله بها على أهل محبّته.

رزقنا الله وإيّاكم إن شاء الله

افتح عين القلب وسترى الحبيب

33

إشارة

متابعةً لتوضيح مقاطع من حديث المعراج القدسيّ الشريف وصلنا إلى حيث يقول الله عزّ وجلّ: إنّ الذين نالوا الشروط المذكورة في الحديث هم عباد الله الخاصّون وإنّه تعالى سيثيبهم ثواباً عظيماً على مساعيهم وذلك بأن يودع في قلوبهم محبّته التي هي كالجوهرة الثمينة: «فإذا فعل ذلك أسكنتُ في قلبه حبّاً حتّى أجعلَ قلبَه لي»[1]. والمقاطع التي سبقت هذه الفقرة أكّدت على أنّه إذا حظي الإنسان بالأهليّة اللازمة فإنّ الله تعالى بعناياته سيتصرّف بعواطفه وأحاسيسه كي ينحصر التفاته لربّه ويتّجه سيره نحوه عزّ وجلّ حتّى يبلغ مقاماً يكون قلبه لله وحده: «حتّى أجعلَ قلبَه لي». أمّا في هذا المقطع من الحديث فإنّ الله تعالى يجعل «القلب» مستقَرّاً للمحبّة. وقد استُخدمت لفظة «القلب» في المقاطع التالية أيضاً، لكن باختلاف قليل عن المثال الأوّل. يقول الله سبحانه وتعالى في هذا المقطع: «وأفتحُ عينَ قلبه وسمعَه حتّى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي». ويُفهم من هذه الجملة أنّ لقلب الإنسان عيناً وأُذناً وهما مغلقتان عادة، فإن توفّرت الشروط والمقدّمات المطلوبة فسيشمله الله بعنايته ويثيبه بفتح عين قلبه وأذنه. وفي هذه الحالة فإنّه: «يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي» أي إنّ في ميسور الإنسان حينئذ أن يسمع بإذن قلبه وينظر بعين قلبه إلى جلالي وعظمتي. فلقد عُدّ «القلب» في هذا المقطع من الحديث كوسيلة لأنواع المعرفة الخاصّة؛ الرؤية الخاصّة، والسماع الخاصّ، والإدراك الخاصّ؛ حيث إنّ له عيناً وأُذناً وهما إذا فُتحتا بعناية من الله ورحمته فسيرى القلب ويسمع أُموراً لا يراها ولا يسمعها الآخرون. وباستطاعتنا أن نفهم من هذا البيان أنّ القلب يمثّل وسيلة للمعرفة والشهود والرؤية، وهو يمثّل استخداماً آخر لكلمة «القلب» يختلف عن كونه موضعاً للمحبّة والعواطف.

بالالتفات إلى ما تقدّم يتبادر السؤال التالي إلى الذهن: ما هو القلب أساساً كي يكون تارةً موضعاً للمحبّة، ويمتلك تارة أُخرى عيناً وأُذناً؟ وما هو شكل عين القلب وأُذنه اللتين تكونان مغلقتين حيناً ومفتوحتين طوراً؟ وعندما تفتحان فما الذي سيراه القلب وما الذي سيسمعه؟ وما معنى مشاهدة جلال الله وعظمته بواسطة عين القلب؟ إنّ الموضع الرئيسيّ للبحث حول هذه المباحث يكمن في أواخر الآيات التي تتضمّن مفردة «القلب». لكن بما أنّ الكلام حول هذا الحديث الشريف قد بلغ بنا إلى هذا الموضع فلابدّ من البحث في هذا الموضوع لرفع الإبهامات والإجابة على الأسئلة المطروحة في هذا الباب.

استخدامات كلمة «القلب»

لقد ذكر القرآن الكريم والأحاديث الشريفة للقلب – باعتباره جزءاً من وجود الإنسان – ميزتين اثنتين: أولاهما هي أنّه موضع العواطف والأحاسيس. وإنّ تعابير من قبيل «التعلّق» و«الشغف» ناظرة إلى هذه الميزة. ويشاهد في القرآن الكريم أيضاً مثل هذا الاستخدام لـ «القلب» ومرادفه «الفؤاد»؛ كقوله تعالى: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»[2]؛

فلقد استولى القلق على أُمّ موسى بعدما رمت رضيعها في النيل واضطربت اضطراباً شديداً، لكنّنا ربطنا على قلبها وأزلنا اضطرابها وألقينا فيه السكينة والطمأنينة. وقد نُسبت في هذه الآية إلى القلب الحالات العاطفيّة. ويقول تعالى في موضع آخر: «أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»[3]. ومن هنا فإنّ القلب هو الشيء الذي يكون هادئاً تارةً ومضطرباً هائجاً تارةً أُخرى؛ بمعنى أنّه وعاء أحاسيس الإنسان وعواطفه.

أمّا الاستخدام الثاني لمفردة «الفؤاد» أو «القلب» فهو باعتباره أداة للمعرفة؛ فعندما تصف آيةٌ أهلَ النار فإنّها تقول: «لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا»[4]؛ أي إنّهم أُناس لم يستعملوا قلوبهم للتعقّل والفهم الصحيح. كما ويقول تعالى في موضع آخر: «أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»[5]؛ هل إنّ على قلوبهم أقفالاً يا ترى حتّى لا يفقهوا؟ ويُفهم من هذه الآية أنّ القلب السليم يستطيع الخروج بنتائج من خلال التفكير والاستدلال وفهم الحقائق أمّا الذين لا يدركون الحقائق فإنّ على قلوبهم أقفالاً.

كما ويمكن أن نستنتج من خلال دراسة موارد استعمال لفظة «المعرفة» في القرآن الكريم أنّ لهذه اللفظة أيضاً استخداماتٍ شتّى. فقد نُسب ضرب من المعرفة إلى القلب والفؤاد وهو ما يكون في متناول الجميع وعلى الناس جميعاً الإفادة منه؛ كقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ»[6] حيث ذُكر القلب هنا إلى جانب العين والأُذن؛ ويعني: كما أنّ على الإنسان أن يسمع بعض الحقائق بأُذنه، ويرى بعضها الآخر بعينه، فإنّ عليه أن يدرك قسماً منها أيضاً بفؤاده. ولعلّ في ذكر أدوات المعرفة هذه في عرض بعضها البعض إشارةً إلى أنّ جلّ المعلومات التي يحتاجها الإنسان في حياته تُستحصل إمّا بواسطة النظر أو عبر السمع أو عن طريق التفكير والتعقّل.

ولقد نُسب إلى القلب في آيات أُخَر نمط آخر من المعرفة ليس هو من نوع المفاهيم. فنحن نتصوّر أنّ ما نراه بأعيننا من ألوان يمثّل في الحقيقة تركيباً من الأمواج الضوئيّة بتردّدات معيّنة. وأنّ ما نسمعه بآذاننا هو سلسلة من الأمواج الصوتيّة. لكن ما الذي تدركه قلوبنا يا ترى؟ إنّها المفاهيم التي ندركها بعقولنا؛ بمعنى أنّ أداة إدراك العقل هي المفاهيم الذهنيّة وهي لا تصنَّف ضمن الأُمور الحسّية. لكنّه ثمّة شكل آخر من أشكال المعرفة يُنسب إلى القلب لا تكون أدواته المفاهيم الذهنيّة. وقد استُخدمت في مثل هذه المواطن تعابير: «الرؤية» و«النظر»؛ كما في الرواية المعروفة لأمير المؤمنين (عليه السلام): «لم تَرَه العيون بمُشاهَدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[7]؛ فالله سبحانه لا تراه العين التي في الرأس، إنّما يراه القلب. فهنا لم يقل (عليه السلام) إنّ القلب «يدرك» الله، بل استعمل تعبير «الرؤية». وهذا ضرب من المعرفة يكون من صنف العلم؛ لكنّه غير المفهوم الذي يكوّنه ذهن الإنسان.

إذن فقد أسند القرآن الكريم إلى القلب ثلاثة أُمور: الأوّل هو الأحاسيس الخاصّة كالخوف والاضطراب والسكينة، والعواطف التي هي من قبيل الحبّ والبغض، هذا وإن عَدّ بعض علماء النفس الأحاسيسَ والعواطف أمرين منفصلين. والثاني هو إدراك الحقائق بصورة مفاهيم ذهنيّة وهو ما يُطلق عليه اصطلاحاً العلم الحصوليّ. والثالث هو شهود الحقائق ورؤيتها قلبيّاً. لكن لماذا نُسبت هذه الأنواع من المعرفة إلى القلب؟ أوليس القلب هو ذلك العضو الصنوبريّ المستقرّ عادةً في الجانب الأيسر من الصدر والذي يعمل على ضخّ الدم إلى كافّة أنحاء الجسم؟

وهنا قد تُطرح بحوث لغوية من قبيل: هل إنّ مفردة «القلب» تمثّل مشتركاً لفظيّاً أم معنويّاً؛ بحيث إنّها استُخدمت بصورة حقيقيّة في أحد المعاني المذكورة وبصورة مجازيّة في الآخر، أم إنّ هذه المفردة قد وُضعت ابتداءً لواحدة من هذه المعاني ثمّ انتقلت إلى المعاني الأُخرى فيما بعد، أم انّ بعض استعمالاتها يكون من باب الكناية والاستعارة؟ فالخوض في مثل هذه المسائل هو من اختصاص علماء اللغة والأُدباء حيث من الممكن، من خلال القرائن، التوصّل إلى المعنى الذي استُخدمت له المفردة في كلّ موضع. لكن .ما يهمّنا هنا هو معرفة الاستخدامات المختلفة للفظة «القلب» كي لا نخلط بينها

يقول الباري عزّ وجلّ في مقطع من الحديث القدسيّ محطّ البحث: «أسكنتُ في قلبه حبّاً»؛ إنّني أُسكن حبّي في قلب المؤمن الذي وفّر في نفسه شروطاً معيّنة. لكنّه يقول في الفقرة التالية: «وأفتحُ عينَ قلبه وسمعَه»؛ فالجائزة الثانية التي أُعطيها لهذا العبد هي أنّني أفتح عينَ قلبه وسمعَه. فما هي عين القلب، وما هو سمعه، وكيف يتمّ فتحهما؟

إنّنا عادة ننسب ما لا ندركه بالنظر والسمع من المُدرَكات إلى القلب: «أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ». ويُستشفّ من استعراض الآيات القرآنيّة أنّ للإدراك الذي يُنسب إلى القلب وفقاً للاصطلاح القرآنيّ مراتبَ مختلفة؛ فمرتبةٌ منها لا تتجاوز حدّ الإدراك البسيط للمفاهيم الذهنيّة الذي يتمتّع به كلّ إنسان بمساعدة قوّته العاقلة سواء أكان كافراً أم منافقاً أم مسلماً، والذي يطلَق عليه اصطلاحاً بالعقل الأداتيّ، ويُعدّ التقدّم العلميّ والصناعيّ والفنّيّ أحد ثماره. أمّا الاستخدام الآخر للإدراك القلبيّ في القرآن الكريم فهو ما يطلَق بشكل خاصّ على إدراك الحقائق والإفادة منها من أجل المصالح الحقيقيّة. ووفقاً لهذا الاستخدام فإنّه لا عقل لمن لا يفيد من إدراكاته في الاتّجاه الصحيح. ومن هذا المنطلق يقول القرآن فلربما يكون بعض هؤلاء أشدّ منّا ذكاءً. أفكان .[8]«في حقّ الكفّار: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ عمرو بن العاص ومعاوية من السذّج؟ كلاّ، فقد كانا حادّي الذكاء، لكنّهما استعملا ذكاءهما في حرف المسلمين عن مسيرهم الصحيح. فهؤلاء – وفقاً للمنطق القرآنيّ – ليسوا عديمي العقل فحسب، بل إنّهم صُمّ وبُكم أيضاً. «لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا»؛ فهم يملكون قلوباً، لكنّهم لا يدركون بها شيئاً؛ بمعنى انّهم

لا يفهمون الحقائق التي لابدّ من إداركها في اتّجاه مصالحها الحقيقيّة، بل يكتفون باللهث وراء إشباع غرائزهم الحيوانيّة. ومن هنا يقول فيهم عزّ من قائل: «أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ»[9].

إذن فإنّ أحد استخدامات كلمة «القلب» في القرآن هو بمعنى الأداة والمرتبة أو الحقيقة الموجودة في روح الإنسان التي إذا أفاد منها الأخير بالشكل الصحيح فإنّه يكون قد أفاد من قلبه، وإلاّ فإنّه قد تركه معطّلاً ولم يستعمله. وقد ذُكر هذا المضمون في القرآن الكريم بالنسبة للعين والأذن أيضاً؛ يقول تعالى: «وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا»[10]؛ فهم يملكون أعيناً، لكنّهم لا يستخدمونها بالشكل الصحيح، ولذا فإنّهم عُمْي. وقد وَضَّحت آية أُخرى هذا المضمون بهذه الكيفيّة: «فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»[11]. أو فالأعمى الحقيقيّ هو الذي لا يدرك قلبه الحقائق ولا يفكّر فيها، الذي لا يحملها على محمل الجدّ، بل يستخدمها سُلّماً وأداةً للوصول إلى مبتغياته الدنيويّة. فشخص كهذا لم يستخدم في واقع الأمر قلبَه، بل وكأنّه ليس له قلب، أو أنّ قلبه أعمى.

افتح عين قلبك!

فما هو إذن معنى كون عين وأذن قلب الإنسان مفتوحتين انطلاقاً ممّا ذُكر؟ فبصيرو القلوب هم الذين يدركون الحقائق –كالتوحيد، والنبوّة، والمعاد، وباقي المعتقدات – ويعيشونها في حياتهم اليوميّة على النحو الصحيح. من هنا فإنّ كلّ مؤمن يؤمن بهذه الحقائق، يكون قلبه بصيراً. لكن لماذا قال في حديث المعراج: إنّ الله يمنّ بجائزة فتح عين القلب فقط على مَن ثابر وتحمّل الصعاب في إخراج حبّ الدنيا من قلبه، وذِكْر الله بشكل مستمرّ، والحرص على العمل بأحكامه بدقّة؟ فالظاهر أنّ هذا الإبصار هو غير ذاك، بل ويسمو عليه.

ويتعيّن القول توضيحاً لهذا التعبير: إنّ القلب هو العامل الباطنيّ لإدراك الحقائق، بما في ذلك الإدراك الحصوليّ والحضوريّ، وبما في ذلك إدراك المفاهيم وشهود الحقيقة. والمراد من «عين القلب» هي قوّة باطنيّة فينا وظيفتها الإدراك. لكن مَن الذين تكون عيون قلوبهم مفتوحة؟ ومن أجل الإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى ملاحظة هي أدقّ ممّا ذُكر أعلاه.

نحن نعتقد بأنّه ثمّة أُمور يراها ويسمعها بعض عباد الله كالأنبياء والأولياء، كالرنّة التي أطلقها الشيطان غيضاً أثناء نزول الوحي والتي سمعها أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له النبيّ (صلّى الله عليه وآله): «إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَىٰ مَا أَرَىٰ إِلاّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ»[12]؛ وعبارة «انّك لست بِنَبِيٍّ» هي كناية عن أنّك لست المتلقّي المباشر للوحي. فهؤلاء العظام كانوا يسمعون صوت الوحي أمّا غيرهم من الحاضرين فلم يكونوا يسمعونه. فالسيّدة الزهراء (سلام الله عليها) والأئمّة الأطهار (صلوات الله عليهم

أجمعين) كانوا يرون جبرئيل (عليه السلام) ويسمعون كلامه. ومن هنا فإنّه ثمّة في هذا العالم — إجمالاً – بعض ما يُسمع وما يُرى ممّا لا نستطيع نحن سماعه أو رؤيته. ولتقريب المعنى إلى الذهن فلقد أثبت العلم اليوم أنّ أُذن الإنسان قادرة على سماع أمواج صوتيّة ضمن تردّدات معيّنة وهي غير قادرة على سماع أمواج ذات تردّدات أخفض أو أعلى. كما أنّ الأمواج الراديويّة التي تستلمها مستقبلة الراديو لم تكن مسموعة من قبل البشر قبل اختراع الراديو على الرغم من وجودها فعلاً بنفس هذا التردّد قبل ذلك الحين. كما أنّ النمط الآخر من مشاهدة الأشياء غير العاديّة هو ما يحدث للبعض في حالة الخُلسة. وإنّه وفقاً لمعتقداتنا أيضاً فإنّ جميع الناس، بما فيهم مكفوفو البصر، يشاهدون أمير المؤمنين (عليه السلام) ساعة الموت، أمّا غير الميّت فلا يشاهده. وهذا يدلّ على أنّ هذه الرؤية لا تحصل من خلال العين الظاهرة.

لقد أطلق بعض أهل المعقول على ما يشاهَد بهذه الطريقة مصطلح الصورة المثاليّة أو الصورة البرزخيّة وقالوا: إنّها صورة تقع بين المادّية والعقليّة، أو بتعبير آخر: بين المادّي المحض والمجرّد المحض. ويقول البعض الآخر: إنّ الميّت يرى بعينه البرزخيّة منكراً ونكيراً اللذين يأتيانه في أوّل ليلة عند إنزاله في القبر لسؤاله. كما أنّ هناك من يدّعي سماع أصوات لا يسمعها الآخرون. ومن الممكن نسبة مثل هذه المرئيّات والمسموعات إلى عين القلب وأذنه؛ بمعنى أنّ جزءاً من وجود الإنسان، الذي يصطلح عليه القرآن الكريم بـ «القلب» وتكون وظيفته الإدراك، يملك عيناً وأُذناً تكونان مغلقتين عادةً وتُفتحان في مواطن معيّنة وعند أشخاص خاصّين. ولعلّكم سمعتم أنّ العين البرزخيّة لفلان من الناس مفتوحة، أو أنّ بعض العظماء والأولياء يرون باطن الأشخاص، أو يشاهدون بعض الناس على هيئة حيوانات بسبب ما ينطوون عليه من مَلَكات خبيثة. فمثل هذه الرؤية وهذا السماع لا يكونان عبر عين الإنسان وأُذنه الظاهرتين، بل إنّها رؤية تحصل بواسطة أداة تسمّى عين القلب أو عين الباطن.

لكن هل المراد من قوله: «وأَفتَحُ عينَ قلبه وسمعَه» هو العين والاذن البرزخيّتان أم إنّه يعني العينَ والأُذن اللتين يرى ويسمع بها أشخاص معيّنون أُموراً مادّية غير عاديّة؟ أو أنّ المراد منها هو المعرفة الأكمل التي يمتلكها أمثال هؤلاء عن الله تبارك وتعالى؟ أم أنّ القضيّة مختلفة تماماً؟

نقول: لو أن الحديث كان قد اختتم كلامه بهذه العبارة لرضينا بهذه الاحتمالات، لكنّه عزّ وجلّ استطرد قائلاً: «وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي». نفهم من هنا أنّ هذه العين ليست هي العين التي ترى وجه مُنكر ونكير، وأنّ هذه الأُذن ليست هي التي تسمع صوتهما، فهي ليست مجرّد عين تنظر إلى بواطن الأشياء، وإنّ ما يشير إليه الحديث الشريف هو شيء أسمى من ذلك. يقول ربّ العزّة: إنّ جائزة الذين يعملون على توفير هذه الشروط في أنفسهم ويتحمّلون لذلك النَّصَب والعناء هي أن أُسكن محبّتي في قلوبهم حتّى: «أجعلَ قلبَه لي، وفراغَه واشتغالَه وهمّه وحديثَه من النعمة التي أنعمتُ بها على أهل محبّتي»

وفي إثر امتلاء قلوب هؤلاء العباد بمحبّتي تنفتح أعين وآذان قلوبهم أيضاً كي: «ينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي» وهي جائزة خاصّة لمن لم يبق في قلبه مجال لمحبّة غير الله حتى طفح بمحبّته تعالى إلى درجة أنّه أُهِّل لمشاهدة جلال الباري تعالى وعظمته. وهذه العين هي غير العين البرزخيّة والمثاليّة، وهي من مختصّات بعض أولياء الله ليس غير. وقد نستطيع أن نفهم من بعض الآثار أيّاً من الناس قد بلغوا هذه المراتب؛ فهم أُولئك الذين إذا سمعوا آيات ربّهم: «يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً»[13]. فأمثال هؤلاء قد فتح الله أعين قلوبهم، وظهرت آثار عظمة الله في سلوكهم، فذُهلوا عن أنفسهم، وأُلجِمت ألسنتهم، وهم لا يكفّون عن البكاء.

ذات مرّة سمعتُ المرحوم السيّد مصطفى الخمينيّ (رحمه الله) يقول: كان المرحوم الآخوند المولى محمّد الكاشاني، الذي اشتغل بالتدريس في اصفهان، إذا قام في جوف الليل لصلاة الليل سبّحتْ أبواب المدرسة وجدرانها وأشجارها لتسبيحه، أمّا إذا وقف بنفسه للصلاة اعترته رعدَة حتّى لا يستطيع السيطرة على نفسه. وهذه الحالة إنّما هي ناجمة عن إدراك حقيقيّ لعظمة الله تعالى. فإذا صار القلب لله، فإنّه عزّ وجلّ سيمنحه هذا النمط من الإدراك ويفتح عينه، كي يكون مصداق قوله تعالى: «ينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي».

رزقنا الله وإيّاكم ذلك إن شاء الله

الله هو الذي يربّي السالك إليه
34

إشارة

تناولنا في المحاضرات الماضية مقطعاً من حديث المعراج القدسيّ الذي يبيّن الله تعالى فيه الشروط اللازمة لنيل العبد الحياة الأبديّة الهانئة، وقلنا إنّ الخصوصيّات المذكورة في أحد مقاطع الحديث تتطلّب من نفس العبد بذل الجهد والمثابرة لاكتسابها. كما وبيّن مقطع آخر من الحديث العنايات التي يوليها الله عزّ وجلّ لمن يخطو في هذا الطريق من عباده. إنّ التكاليف المبيَّنة في القسم الأوّل هي مناهج عمليّة يمكن لكلّ مكلّف، ومن خلال همّته واجتهاده، أن ينجز ولو مرتبة من مراتبها. أمّا المراتب التي تسمو على ما ذُكر في هذا المقطع فإنّ مستواها أعلى من قدرة الناس العاديّين وليس في الميسور بلوغها من دون مساعدة الله

تعالى ومعونته. وفي الحقيقة فإنّ الله تبارك وتعالى يقوم في هذه المرحلة بدور المربّي الخصوصيّ بالنسبة للعباد الذين اجتازوا المراحل السابقة حتّى وصلوا إلى هذه المرحلة ويعينهم على مواصلة الطريق.

لقد ذكرنا فيما سبق أنّ لله في تربية عباده سنناً إحداها هي أنّه يهدي جميع مخلوقاته إلى الهدف الذي خُلقَت من أجله. وإنّ هداية الله العامّة للإنسان لنيل الكمال النهائيّ تتحقّق عن طريقين: الأوّل هو العقل، والثاني هو الوحي وبمساعدة الأنبياء. وإنّ جميع البشر مشمولون بهذه الهداية العامّة. لكن ثمّة لله أنماطاً خاصّة من الهداية يختصّ بها مَن يعرف قدر الهداية العامّة ويشكرها.

ولتقريب المعنى إلى الذهن فلنتصوّر شخصاً يرغب في تعليم ابنه فنون التجارة وأسرارها، فهل يُعقل أن يضع تحت تصرّفه منذ البداية رأس مال ضخم؟ من الجليّ أنّ وضع رأس مال ضخم تحت تصرّف امرئ عديم الخبرة بالتجارة هو أمر عبثيّ وهو سيؤدّي إلى تلف المال وضياعه. من هنا يتعيّن في بادئ الأمر أن يعطيه رأس مال صغير ويرشده إلى كيفيّة الاتّجار به وتحقيق الأرباح. فإن أتقن المبادئ الأوّليّة للتجارة وعرف طرقها عمد الأب إلى إعطائه رأس مال أكبر، وهكذا إلى أن يعرف جميع أسرار التجارة ويتمكّن بمفرده من إدارة جميع الأمور.

وكذا الحال بالنسبة لله عزّ وجلّ فهو تعالى لا يضع جميع النعم المعنويّة دفعة واحدة في متناول العبد: بل يمنّ عليه في البداية ببعض نعمه، فإن عرف قدرها وشكرها زاده [1]««وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً ، ووفقاً للقاعدة ذاتها فمن أجل نيل العبد العيش الهنيء . [2]«منها تدريجيّاً: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ والحياة الباقية فإنّ الله يعيّن له في بداية الأمر مناهج فإذا طبّقها صار مؤهّلاً لنيل كمالات أسمى. وهذا لون من ألوان الولاية، والقيمومة، والربوبيّة على العبد وتدبير أُموره وتربيته تربية خاصّة.

والمناهج التي ذكرها القسم الأوّل من هذا المقطع من حديث المعراج هي أُمور يستطيع كلّ امرئ تقريباً إنجازها. فإن عرف الإنسان قدر هذه الأنماط من الهداية وعمل بموجب هذه المناهج فسيحظى بأهليّة الولوج في مراتب أعلى من الأُولى، لكنّ قدرته في هذه المرحلة لا تكفي وحدها لمواصلة المسير. وهنا يأتي القسم الثاني من المقطع محطّ البحث ليشير إلى أشكال العنايات والمساعدات الخاصّة التي يوليها ربّ العزّة لعباده الصالحين من أجل طيّ ما تبقّى من الطريق وتربيتهم تربية إلهيّة خاصّة.

مراحل التربية

تدخل في عمليّة تربية الكائن الحيّ الواعي كالإنسان ثلاثة عوامل. ففي بداية المطاف يحاول المربّي لفت انتباه المتربّي والمتعلّم إلى النموّ والرقيّ وتنمية رغبته فيه. فإذا لم تبلغ رغبة المتربّي في التربية حدّ النصاب

المطلوب فسوف لا يعمل بإرشادات المربّي وعندها تضيع جهود الأخير سدىً. بناءً عليه فإنّ الشرط الأوّل في عمليّة التربية الصحيحة هو ترغيب المتربّي في إنجاز العمل المطلوب. إذن فإثارة الرغبة في المتربّي تُعدّ العامل الأوّل في عمليّة التربية وهي بمثابة تشغيل محرّك السيارة. وكلّما اشتدّت هذه الرغبة فسيُكَلّل العمل بمزيد من النجاح. وإنّ أهمّ العوامل التي يفاد منها في هذا المجال هي العواطف والأحاسيس.

العامل الثاني في التربية يتمثّل في المعالم التي ينبغي تبيينها للمتربّي لترشده في عمليّة طيّ الطريق؛ وهي بمثابة المصابيح التي تضيء الطريق المظلم الذي يتعيّن على صاحب السيّارة السير فيه بعد تشغيل محرّكها. ويتمّ في هذه المرحلة رفد معرفة السالك بالمعارف الخاصّة الضروريّة لطيّ الطريق.

لكنّ سلامة السيّارة وإضاءة مصابيح الطريق لا تكفي في كثير من الأحيان لمواصلة المسير، بل يتعيّن رفع الصخرة التي تسدّ الطريق أمام السيّارة. وهنا أيضاً على المربّي مساعدة المتعلّم في رفع الموانع التي تسدّ الطريق. لكنّه بالالتفات إلى أنّ أساس التكامل والرقيّ في الحركات الإنسانيّة مبنيّ على السلوك الاختياريّ، فإنّه إذا رفع المربّي المانع بنفسه من طريق المتربّي فسيضعف دور اختيار الأخير، حيث إنّ المربّي هو الذي أنجز العمل في واقع الأمر ولم يكن للمتربّي دور فيه. ومن هنا فإنّ على المربّي في مثل هذه المواطن أن يسعى لتعليم المتربّي، بأساليبٍ خاصّة، كيفيّة رفع الموانع، ويساعده في هذه السبيل عبر الترغيب بالشكل الذي لا يسلب منه عنصر الاختيار.

فالشابّ اليافع الذي يروم التدرّب على إحدى الألعاب الرياضيّة لابدّ أوّلاً أن يكون راغباً في هذه اللعبة، ذلك أنّ جميع أتعاب المدرّب ستضيع سدىً وسوف لا يتقدّم الشابّ في هذه اللعبة إذا لم يكن راغباً فيها. وفي المرحلة الثانية ينبغي على المربّي أن يعلّم الشاب قواعد اللعبة وفنونها ويزوّده بلوازمها وأدواتها. ثمّ يشير في المرحلة التالية إلى الموانع التي يمكن أن تبرز أثناء التمارين وتنفيذ البرنامج الرياضيّ ويفتّش عن الحلول الكفيلة برفعها.

فإذا اجتاز العباد المراحل الابتدائيّة من الطريق بكدّهم وهمّتهم وشعروا بالحاجة إلى المربّي لمواصلة الطريق فسيتولّى الله عزّ وجلّ بنفسه مهمّة تربيتهم تربية خاصّة ويساعدهم عبر الأخذ بأيديهم. وأوّل ما يفعله الباري تبارك وتعالى في هذه المرحلة هو الإفادة من العنصر العاطفيّ وذلك بإلقاء محبّته في قلب العبد: «أسكَنتُ في قلبه حبّاً». فالله جلّ وعلا يفيد في هذه المرحلة من أحاسيس الإنسان وعواطفه كمحرّك من أجل أن يبعث في نفسه باستمرار الدافع لمواصلة المسير.

وبعد العنصر العاطفيّ يأتي الدور إلى العامل المعرفيّ. فكلّما ازدادت معرفة الإنسان فإنّه سيطوي مراحل التكامل بشكل أفضل. وحتّى العبد المحبّ لربّه فإنّه كلّما ازداد معرفة بربّه فستزداد سرعة سيره نحوه، أمّا

المعارف التي حصل عليها إلى الآن عبر المفاهيم فإنّها غير كافية لمواصلة هذا الطريق، بل لابدّ من أشكال المعرفة الشهوديّة للسير في هذه المرتبة. من هذا المنطلق فإنّ الله سبحانه وتعالى يفتح عين قلب العبد الذي وصل إلى هذه المرحلة كي يشاهد بعين قلبه جلال الله وعظمته فتزداد معرفته به عزّ وجلّ.

لكنّه قد تعرض للعبد في مسيره موانعُ يحتاج إلى مساعدةٍ لإزالتها. فقد أشارت آيات مختلفة إلى أنّ المقصد النهائيّ لابن آدم هو القرب من الله تعالى: «فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ»[3]. فإنّ ما يمنع الإنسان من السير نحو هذا الهدف وبلوغ كماله المنشود هو تعلّقه بالدنيا الذي يعمل عمل الصخرة الضخمة التي تحول دون مواصلة الإنسان مسيره، ولابدّ من رفعها من أمامه. فإن أقدم المربّي على رفع هذه العقبة بنفسه ولم يكن للسالك دور في ذلك فسوف لا يكون لهذا العمل من تأثير على تكامل السالك وترقّيه. وهنا ينبغي للمربّي أن يوفّر الأرضيّة التي تمكّن المتربّي من مواصلة الطريق بإرادته واختياره وتعلّمه كيف يصارع العقبات ويزيحها من طريقه.

فإنّ الراعي الذي يقود قطيع أغنامه نحو المرتع إذا واجه في طريقه وادياً سحيقاً فسوف لا يعمد إلى حمل خرافه على ظهره او لجمهم بلجام لتجنيبهم السقوط في الوادي، بل يحاول إفهام الأغنام عبر رمي حجر، أو تحريك العصا أو إطلاق أصوات خاصّة بضرورة الابتعاد عن الوادي والعودة إلى الطريق الصحيح. فإنّ سير الإنسان نحو ما اختاره الله له من التكامل والرقيّ هو سير اختياريّ، فهو لا يصل إلى النتيجة المرجوّة بالجبر والقوّة. فلابدّ أن يكون المرء راغباً في السير وبذل الجهد ومواجهة المشاكل والمصاعب وتجاوزها كي يصل إلى القمّة التي أعدّها الله تبارك وتعالى له.

فمحبّة الله تعالى تزوّد باطن الإنسان بالطاقة اللازمة لمواصلة سيره، كما أنّ أشكال المعرفة اللازمة ستظهر أيضاً عبر التجليّات الإلهيّة بما يتناسب مع أهليّة السالك لتنير له الدرب. لكن ما هي السبيل إلى إزالة الموانع عن الطريق؟

الحوادث هي عامل لرفع المانع من طريق السالك

لقد بيّن حديث المعراج القدسيّ السبيل لرفع الموانع حين قال: «وأُضيِّق عليه الدنيا وأُبغّض إليه ما فيها من اللذات»[4]. فالله تعالى يصبّ على العبد المصائب ويعرّضه للحوادث بغية انتزاع حبّ الدنيا من قلبه. فكلّ امرئ يحتاج من أجل انتزاع هذا الحبّ من قلبه إلى عامل معيّن يتناسب مع درجة معرفته. فهناك من لا يصيب قلبَه أبداً تعلّقٌ بالدنيا من خلال العمل بأوامر الشارع المقدّس، لاسيّما الواجبات والمستحبّات. وأهم هذه الأوامر هي الإنفاق: «لَنْ تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ»[5]. فالإنفاق لا يطهّر مال الإنسان فحسب، بل روحه أيضاً؛ لقوله تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم

فلم يقل عزّ وجلّ: لتَطْهُر أموالُهم، بل قال: ليطهُروا هم أنفسهم. فحينما يعطي الإنسانُ .[6]«بِهَا الآخرين ما يحبّ وما من شأنه أن يسبّب له التعلّق بالدنيا فسوف لا يحصل له مثل هذا التعلّق، بل ويزول ما كان لديه من تعلّقات أيضاً. فالذين ينظرون إلى آلاء ربّهم، بما في ذلك الأزواج والأولاد، باعتبارها نِعم الله عليهم وأنّها وسائل لاختبارهم، فسوف لا ينظرون إلى هذه الأُمور بما أنّها أصيلة ولهذا .فإنّهم لا يتعلّقون بها

أمّا إذا حصل التعلّق بالدنيا فلابدّ من طروء ظروف وحصول حوادث ليُدرك الإنسان أنّ هذه الدنيا لا .[7]«تستحقّ التعلّق بها: «وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ فالشدائد والمكاره والمصائب إنّما تحصل للمرء كي يجتثّ حبّ الدنيا من قلبه ويقنع منها بالأقلّ. فالله عزّ وجلّ يعلم جيّداً كيف يختبر كلّ عبد من عبيده وبأيّ صورة يقطع تعلّقه بالدنيا بما يتناسب مع آفاقه وميوله. فإنّ المشاكل التي تواجه كلّ إنسان تمثّل في واقع الأمر عوامل تربويّة تساعد المرء على اجتثاب .حبّ الدنيا من قلبه

فمن أجل أن يتمكّن الإنسان من الإفادة ممّا أودع الله في قلبه من محبّته ومن نورانيّة مشاهدة تجلّياته فإنّ عليه أن يتجنّب السقوط في وادي حبّ الدنيا. ولهذا يتابع الباري عزّ وجلّ في الحديث محطّ البحث: «وأُحذِّره من الدنيا وما فيها كما يحذّر الراعي غنمَه من مراتع الهلكة». فالله يمارس دور الراعي الحريص على غنمه في تعامله مع العبد الذي يخطو في طريق التكامل والرقيّ. فمن أجل حفظ الخراف يقوم الراعي بتوجيه قطيعه إلى الطرقات الآمنة الخالية من الأخطار كي لا يسقط في الوادي ويأمَن من خطر .الذئاب. لكنّه لا يفعل ذلك معه عنوةً، بل يهيّئ الأرضيّة كي يختار بنفسه الطريق الصائبة

فالله تعالى يقدّم نفسَه في هذا المقطع بمثابة الراعي الذي يُبعد غنمه عن المراتع التي فيها هلاكهم. فالأُمور الدنيويّة هي عرصات قد تؤدّي بالعباد إلى الهلاك، ولذا فإنّ الباري عزّ وجلّ ينأى بعباده عن مراتع الهلاك. هذه هي التربية الإلهيّة؛ فهو تعالى يبعث — من ناحية – في أنفس عباده الدافع عبر إسكان محبّته في قلوبهم، ويريهم — من ناحية أُخرى — ذرى الكمال عبر فتح أعين وأسماع قلوبهم، ثمّ يزيل عن .طريقهم — من ناحية ثالثة — موانع التكامل والترقّي عبر تحذيرهم من أُمور الدنيا

إلهي! نسألك بحقّ مَن وهبتهم محبّتك وأفَضْت عليهم من نعمك أن تمنّ على قلوبنا القاصرة أيضاً بنفحة .من تلك النعم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

إشارة

وأُضيِّق عليه الدنيا وأُبَغِّض إليه ما فيها من اللذّات وأُحذّره من الدنيا وما فيها كما يحذّر الراعي غنمَه »
.[1]«من مراتع الهلكة

لقد ذكرنا في سياق بحثنا حول حديث المعراج انّه بعد أن يبذل السالك قصارى جهده في استجلاب رضا ربّه وطاعة أوامره ونواهيه فإنّ الله تعالى سيثيبه بأن يشمله بعنايات خاصّة بحيث يستطيع بمساعدتها اجتياز مراحل أكثر تقدّماً في جهاد السير إلى الله. وأوّل جائزة يمنحها الله سبحانه وتعالى للسالك هي أنّه يغرس محبّته في قلبه. ثمّ ينبّهه إلى العقبات التي تواجهه والتي تتلخّص في حبّ الدنيا ولذّاتها، ويعينه على إزالتها. يقول جلّ جلاله: «أُحذّره من الدنيا وما فيها كما يحذّر الراعي غنمَه من مراتع الهلكة». وقلنا إنّ التحذير هنا لا يقتصر على التذكير، لأنّ هذا المقدار من التذكير والإرشاد مُنجَز بالنسبة لجميع البشر بواسطة الأنبياء (عليهم السلام). فالمراد من تحذير السالك في هذه المرحلة هو توفير الظروف اللازمة وتحفيز الدافع القويّ فيه لنبذ لذائذ الدنيا ومقارعة هوى النفس ووساوس الشيطان. وهذه هي .المرحلة الثالثة في عمليّة تربية المربّي للمتربّي

هل الدنيا حسنة أم سيّئة؟

قد يتبادر إلى الذهن هنا السؤال التالي: أوليست الدنيا مخلوقة من قبل الله تعالى ووفقاً لحكمته وهي غير مذمومة بذاتها؟ إذن فلماذا يقول جلّ وعلا: أُبغّض الدنيا إلى السالك حتّى يسيء بها الظنّ ويبغضها؟

لقد قلنا سلفاً إنّ للفظة «الدنيا» ثلاثة استخدامات على الأقلّ؛ الأوّل: مجموع العالم المادّي الذي نعيش الآن فيه مع النظام المهيمن عليه، وهو سيتغيّر يوماً ويتلاشى ليبدأ عالم الآخرة. الثاني: ذلك الفصل الأوّل من حياة الإنسان وهو الذي يقضيه في هذا العالم قبل الموت والذي ينتهي بالأخير ليبدأ بعده الفصل الثاني ألا وهو حياته الأبديّة. وليس من سبيل إلى التقييم بالنسبة لهذين الاستخدامين للفظة الدنيا؛ فأحدهما يمثّل مرحلة من الوجود وثانيهما يشكّل مرحلة من حياة الإنسان ولابدّ للاثنين من الحصول والتحقّق. أمّا الاستخدام الثالث فيتّصل بارتباط الإنسان بالحياة الدنيا وتعلّقه بها حتّى تشغل كلّ تفكيره وتدفعه لتوظيف كلّ همّته لبلوغ لذّاتها. وهذا هو المعنى المذموم للدنيا. فقد تكون للإنسان فيما يتّصل بالدنيا رؤيتان؛ فإمّا أن ينظر إليها كغاية فيحشد كلّ طاقاته للحصول على الأُمور المادّية

والتمتّع باللذّات الدنيويّة، وإمّا أن يتعامل معها – في المقابل –كأداة للوصول إلى النعم الأبديّة التي أعدّها الله له في عالم الآخرة؛ بالضبط كالنظّارات التي يستعين بها الإنسان ليرى بها من دون أن يلتفت إليها أدنى التفات. فإن كنّا ننظر إلى الدنيا بهذه الصورة فليس هناك من بأس أبداً، فهي كالوسيلة التي تقصُر أيدي البشر عن بلوغ السعادة الأبديّة من دونها. فقد وضع الله عزّ وجلّ هذه الأداة في متناول الإنسان كي يهيّئ – بالإفادة من الإمكانات المتاحة فيها – زاداً لآخرته ويدخل بها الجنّة. أمّا إذا نسي الإنسان الهدف الحقيقيّ، وهو الحياة الأُخرويّة، وانصبّ جلّ اهتمامه على الوسيلة التي وُضعت تحت تصرّفه للوصول إلى ذلك الهدف وقنع باللذّات العابرة لهذه الدنيا، فهو يستحقّ الذمّ. فهل إنّ الكدّ والعمل لساعات طويلة وتجشّم الأعباء والمضايقات من أجل لقيمات طعام هو أمر يستحقّ المدح والثناء يا ترى؟

الدنيا بالمعنيَين الأوّلين غير مذمومة

هل إنّ الشمس والقمر، والماء والشجر، وآبار البترول، ومناجم الذهب والماس هي ممّا ينبغي ذمّه؟ وهل إنّ الإنسان الذي يملك السمع والبصر، ويتمتّع بالمواهب والمهارات المختلفة يستحقّ الذمّ؟ كلاّ، فالمذموم هو الانشداد إلى اللذّات الذي يقود إلى الغفلة عن الغاية الأساسيّة. وإنّ السبب في ذمّ الدنيا يرجع إلى أنّها تحول بينه وبين بلوغ مقصده النهائيّ. فلو لم يكن هناك تزاحم بين أُمور الدنيا وشؤون والآخرة لما بقي مجال لذمّ الأُولى. فلقد كان ولا يزال أُناس نالوا السعادة الأبديّة في الوقت الذي كانوا متمتّعين بلذّات الدنيا؛ كنبيّ الله سليمان (عليه السلام) حين قال: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي» [2]. فلقد كان لسليمان مُلك لا يمكن العثور على نظير له في العالم، لكنّه – في ذات الوقت –كان يتناول طعاماً بسيطاً ويقضي أغلب وقته في عبادة الله، وقد ذكره القرآن الكريم بكلّ إجلال وجعله في عداد عباد الله الصالحين. فإنّ الذي يستوجب الذمّ هو ذلك النمط من النظر إلى هذا الفصل من الحياة الذي يلهي الإنسان عن الالتفات إلى هدفه الأساسيّ.

بناءً على ذلك فإنّه ليس في عبارة: «أُبَغِّض إليه ما فيها من اللذّات وأُحذّره من الدنيا وما فيها» إشارة إلى الشمس والقمر وغيرها من المخلوقات، بل هي إشارة إلى التعلّق بالدنيا ولذّاتها الذي هو أشبه بالمرتع المهلك الذي يواجه المرء وإنّ الله تعالى يحذّر عبده السالك منه.

فالقرآن الكريم يصف الدنيا في مقام ذمّها بأنّها «متاع الغرور»: «وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلاّ مَتَاعُ الْغُرُورِ» [3]. وكلمة «الغرور» في العربيّة تعني الخداع والانخداع. فالدنيا هي «مَتَاعُ الغُرُور» لأنّها تغرّ الإنسان وتغريه وتخدعه بلذّاتها الحقيرة العابرة فينسى اللذّات الأبديّة.

الدنيا دار اختبار ومرور

إنّنا جميعاً وبالفطرة نطلب استمرار الحياة والسرّاء والسعادة الأبديّة ولا نجد كائناً حيّاً ليس هو على هذه الصورة. وحتّى الحيوانات فإنّ كلّ مساعيها تصبّ في البقاء على قيد الحياة. وعلى الأساس نفسه فإنّ القرآن الكريم إذا أراد دعوة الناس إلى فعل الخير وَعَدَهم باللذّات والنعم الأُخرويّة: «وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ»، [4]«وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ»، [5]«جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»، [6]. وبناء عليه فليس طلب السعادة واللذّة أمراً مذموماً، بيد أنّ الإنسان لم يُخلق للذّات هذه الدنيا العابرة، بل خُلق ليعيش بشكل دائميّ باقٍ. فالحياة الدنيا ولذّاتها عابرة ومحدودة وهي تزول بلمح البصر. فقد وضع الله تعالى اللذّة في الأُمور الدنيويّة من أجل اجتذاب الإنسان للإفادة منها واستمرار حياته وتوفير الأرضيّة لنموّه وتكامله. فإنّ ما يمرّ على الناس في هذا العالم من سرّاء وضرّاء إنّما هو وسيلة لامتحانهم ولا أصالة لأيٍّ منها. فلو حضر طعام الإنسان عند سجّادته كلّ صباح لما سعى للعمل وكسب الرزق وعندئذٍ لا يتهيّأ المناخ لإجراء المعاملات المحلّلة والمحرّمة، فلا يعود ثمّة محلّ للصدق والكذب، ولا يكون – تبعاً لذلك – من داعٍ للثواب والعقاب. ولو فقد الإنسان الشهوة الجنسيّة لما كانت هناك أرضيّة لتشريع التكاليف والأحكام المتّصلة بالزواج والأُسرة والتعامل مع الزوج وتربية الأولاد وما يرتبط بكلّ واحدة منها من ثواب وعقاب. إذن لابدّ من مثل هذه الأمور كي تُهيّأ البيئة من أجل الامتحان. ولهذا قال تعالى: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ» [7]؛ و«الفتنة» في اللغة تعني الابتلاء والصراع. فالآية تجعل من الزوج والأولاد وسيلةً للاختبار. فقد ذكرنا أنّ نموّنا وتكاملنا وجنّتنا ونارنا إنّما هي رهن بما نأتي به في هذه الدنيا من أعمال. إذن فكلّما اتّسعت أعمالنا وتنوّعت أكثر أُتيحت أمامنا فرص لامتحانات أكثر، واتّسعت – تبعاً لذلك – الأرضيّة للتكامل؛ فكلّما زادت التكاليف، توفّرت أرضيّة أكبر للنموّ.

بالطبع فإنّ النموّ والتكامل يكونان في اتّجاهين؛ فمَن كان سلوكه إيجابيّاً تكامَل تكاملاً إيجابيّاً، أمّا من تمرّد على الأوامر فسيكون نموّه بالاتّجاه السلبيّ: «اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ» [8]. فمن أجل أن يعرف مصير الإنسان في الآخرة فلابدّ أن يخوض امتحانات في الدنيا، وأن يواجه كلّ يوم موقفاً ليُرى ما الذي ستكون عليه ردّة فعله تجاهه وليختار إمّا الصراط المستقيم وإمّا السبيل المعوجّة.

فالبعض يعتقد بأنّ عالم الوجود منحصر في هذه الدنيا: «مَا هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاّ الدَّهْرُ» [9]. ويتصوّر البعض الآخر مثل الماركسيّين بأنّ الدين صنعه أصحاب رؤوس الأموال بغية استغلال الطبقة العاملة. ويذهب آخرون – من أمثال «فريدريش نيتشه» – إلى أنّ الله هو صنيعة

أذهان الجبابرة من أجل التسلّط على الضعفاء. كما ويشكّك البعض الآخر بالحياة الأبديّة، كما في قوله تعالى: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً»[10]. ويقبل البعض الآخر بالدين في حدود لقلقة اللسان ولا يرون له أيّ دور في الحياة. ولا نتوقّع من أشخاص كهؤلاء أن يقرّوا بالصلة بين السلوك في الدنيا ونتائجه في الآخرة. لكن هل يُعقل أن تكون حياة المسلم، الذي يعترف بهذا المبحث كواحد من معتقداته وأُصول دينه، كحياة المنكِر للمعاد؟ فإذا كان كذلك عُلِم حينها أنّه: «غَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا»[11].

فالإنسان بالفطرة طالب للسعادة الأبديّة، بل وإنّ البعض يَعدّ هذه الميزة في الإنسان علامة على وجود المعاد؛ ذلك أنّه لولا وجود الحياة الأبديّة لما وُجد مثل هذا الميل في الإنسان. إذن فكيف يمكن أن ينسى الإنسان هذا الجانب من حياته ولا يفكّر إذا استيقظ صباحاً من نومه إلاّ في لعبه ولذّاته الدنيويّة، وغاية ما يفعله هو أن يصلّي بضع ركعات على عجل؟ فإذا آمنّا بأنّ أمامنا هدفاً ومقصداً هو أسمى من هذه الدنيا فعلينا أن نستغلّ كلّ لحظة من لحظات يومنا وليلتنا في السير نحو هذه الغاية وأن نلتفت إلى أنّ الحياة الدنيا إنّما هي وسيلة للوصول إلى السعادة واللذّة الأبديّة، وأن لا نقضي حتّى لحظة واحدة منها في غير ذلك.

بالطبع لا ينبغي تصوّر أنّ بلوغ الآخرة لا يتمّ إلاّ بالصلاة والصيام فحسب. كلاّ، فقد يكون العمل في المختبر أحياناً من أجل الآخرة، وقد تكون النشاطات العلميّة، والأبحاث التاريخيّة، والبحوث الفلسفيّة، وحتّى الأعمال الفنيّة في سبيل الآخرة. فكلّ عمل يُنجَز في سبيل الله ومن أجل حفظ عزّة الإسلام والأُمّة الإسلاميّة فإنّه ليس من طلب الدنيا في شيء، فما طلب الدنيا إلاّ ما يُؤتى به في سبيل الدنيا ومن أجل لذّاتها.

الدنيا الخدّاعة في القرآن

ونورد هنا بضعة أمثلة على تعابير القرآن الكريم في ذمّ الدنيا. يقول عزّ من قائل في الآية المرقّمة ١٣٠ من سورة الأنعام: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ». فالله تبارك وتعالى يوجّه هذا السؤال إلى الجنّ والإنس يوم القيامة: ألَمْ تبلغكم رسالات رُسلي الذين بيّنوا آياتي لكم؟ ألَمْ تعلموا بأنّ يوماً كهذا سيأتي وأنّ عليكم الاستعداد له؟ ألَمْ تصلكم هذه الرسالة من أنّكم ستحاسَبون في هذا اليوم على كلّ صغيرة وكبيرة من أعمالكم؟ فيجيبون: «شهدنا على أنفسنا» أنّ الأنبياء قد أتوا وقد أبلغوا هذه الرسالة. لكن لماذا لم يكترثوا بهذه الرسالة؟ «قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا»؛ فقد خدعتهم الحياة الدنيا وأنستهم ذكر الآخرة. لكن هل إنّ نور الشمس

والقمر والنجوم ونموّ النباتات وزقزقة البلابل هي التي خدعتهم؟ فهل إنّ ذات هذه المخلوقات خدّاعة؟ فما المشكلة من أصل وجود هذه الدنيا؟ أولم يقل أمير المؤمنين (عليه السلام): إنّ الدنيا هي «مسجد أحبّاء الله ومُصَلّى ملائكة الله»[12].

فهذه الدنيا هي وسيلة قد تخدع ابن آدم، وقد تعظه وتزيد من بصيرته. وهذا يرتبط بطريقة تعاطي الإنسان معها والإفادة منها. فإن ملأت زخارفُ الدنيا ومظاهرُها عينَ الإنسان وخطفت قلبه فسيكون غارقاً في حبّ الدنيا.

الدين أُلعوبة بيد طلاّب الدنيا

وفي موضع آخر يتحدّث القرآن الكريم عن الحوار الذي دار بين أصحاب النار وأصحاب الجنّة يوم القيامة بعد أن تمّ عزل الفريقين عن بعضهما: «فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ»[13]. فأهل النار ينادون الذين دخلوا الجنّة قائلين: ألم نكن في الدنيا أصدقاءكم، وإخوانكم، ورفاقكم في الدرس والجهاد؟ فيأتي الجواب: «قَالُواْ بَلَىٰ» لكن: «...غَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ»؛ أي: خدعتكم الأماني العابرة لهذه الدنيا. ويقول عزّ وجلّ في آية أُخرى على لسان أهل الجنّة عندما يسألون أهل النار: «فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً»[14]. فيجيبون: «نَعَمْ» لقد كان كذلك. ثمّ يطلب أهل النار من أصحاب الجنّة أن يعطوهم بعض الماء لإرواء عطشهم أو يتكرّموا عليهم بشيء من موائدهم: «وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ»[15] فيأتيهم الجواب: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ». فنِعَم الله في مائدتنا محرّمة عليكم. لماذا؟ لأنّ أصحاب النار: «اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا»[16]، فمَثَلهم في تعاملهم مع الدين كمَثَل الأطفال، يتسلّون ويلعبون بألعابهم ولا يتعاملون معها بجدّ.

لكنّ الدين ليس بأُلعوبة. فقد أرسل الله الدين كي يأخذه الناس على محمل الجدّ ويمتثلوا أوامره. لكن كيف تصرَّفَ أهل النار مع الأحكام الإلهيّة؟ قالوا: «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاْ»[17]؛ أي: ما الفرق بين الاستثمار في صفقة ما وجني الربح منها وبين أخذ الفائدة على القرض المعطى للآخرين؟! فقد اتّخذوا من حكم الله أُلعوبة فقالوا: أقرضوا الناس وخذوا منهم الفائدة، ومن أجل إضفاء صبغة شرعيّة على العمليّة اجعلوها ضمن صفقة شكليّة! أوليس هذا تلاعباً بدين الله؟ فحتّى الطفل يفهم ذلك. فالآية القرآنيّة تصرّح: «فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ»[18]؛ أي: إن لم تكفّوا عن التعامل بالربا، فإنّكم تكونون قد أعلنتم الحرب على الله تعالى. ولم يرد مثل هذا التعبير مع أيّ حكم آخر. ومع ذلك كلّه فإنّنا نستمرّ بالتعامل بالربا تحت غطاء بعض الحيل الشرعيّة!

فإذا اعتقد المرء حقّاً بوجود الله وحقيقة المعاد والحساب وصدّق بأنّ الله يعتبر الربا بمثابة الحرب عليه لكنّه مارس الربا عبر صفقات شكليّة، أفيمكن أن نطلق على هذا السلوك غير الاستهزاء بدين الله؟ «وَاتَّخَذُواْ ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً»[19]. فأمثال هؤلاء يستحقّون عذاب جهنّم، وهم لا يستحقّون حتّى تناول شيء من موائد أهل الجنّة.

نسيان الآخرة واتّخاذ آيات الله وأحكامه هُزُواً

وفي آية أُخرى يصف الباري عزّ وجلّ المخدوعين بالدنيا بهذا الوصف: «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ»[20]. فأمثال هؤلاء – في الحقيقة – ينكرون آيات الله تعالى؛ فلو أخذ المرء آيات الله بجدّ لما تعامل معها بهذه الكيفيّة. كما ويقول تعالى في الآية المرقّمة ٧٠ من سورة الأنعام: «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا... لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ»؛ فهؤلاء يتعاملون مع الدين بهذه الصورة لأنّ الدنيا قد غرّتهم فتعلّقوا بلذّاتها ولهوها. أمّا عاقبة هؤلاء فهي: «لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ». ويقول تعالى في موضع آخر: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ»[21]. ويقول تعالى في الآية التالية من نفس السورة: «ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ هُزُواً»[22]؛ فسبب ابتلائكم بعذاب جهنّم هو أنّكم استهزأتم بآيات الله في الدنيا. فعندما يقال: هذا حكم الله ونصّ القرآن الكريم وإنّ الروايات المتواترة تثبته وإنّ العلماء مجمعون عليه تقولون استهزاءً: هذه الأحكام تعود إلى زمان كان العرب يقاتل فيه بعضهم بعضاً ويئدون بناتهم. ولا تحسبوا ما أقوله مجرّد خيال، فقد شاهدت بأُمّ عيني استاذاً في الحقوق معمّماً يقول مستهزئاً بقوانين الإسلام الجزائيّة: سمعتُ أنّه لا يزال في مدينة قم مَن يعتقد بأنّ الناس يجب أن يُضرَبوا بالعصا كالحمير! لقد ولّى زمان هذا التعامل العنيف مع الناس! ألَمْ يقل أحد المسؤولين الحاليّين: التنمية الثقافيّة تحتاج إلى الحرّية ولا يمكن حصولها مع عمليّة حجب المواقع الالكترونيّة؟! وهو ما يناقض تماماً كلام قائد الثورة المعظّم في مطلع العام [الإيرانيّ] الجاري عندما قال: «لا يمكن إزالة القيود عن كلّ شيء بدعوى الحرّية».

فالمعتقد بالله والآخرة والحساب لا ينبغي أن يدير ظهره لهذه المسائل، فمثل هذا التعاطي يُعدّ بمثابة اللعب بالقرآن. فإنّ الذوبان في زخارف العالم الغربيّ والتطوّرات المادّية، ونسيان الدين هو الذي يُعدّ من الدنيا المذمومة، وليست هي الدنيا التي يكدّ المرء فيها ويتعب للحصول على ما ينفع أُسرته ومتعلّقيه، وما يساعد به الفقراء وأبناء جلدته، كما وليست هي الدنيا التي يمهّد فيها المرء – من خلال التقدّم العلميّ والصناعيّ – الأرضيّة لاستمالة غير المسلمين إلى الدين ودعوتهم إلى الخير. فهذه الدنيا ليست منبوذة. فلو أُفيد من التطوّر في الأُمور الدنيويّة كأداة لنيل السعادة؛ بمعنى أنّها أُنجزت ضمن إطار

الأحكام الإلهيّة ومع مراعاة العناوين الثانويّة كحفظ عزّة الإسلام وعزّة الدولة الإسلاميّة، وبلوغ المسلمين مستوى الاكتفاء الذاتيّ وتحرّرهم من هيمنة الكفّار فإنّ كلّ النشاطات المبذولة في هذا المجال ستكون عبادة، وهي ليست غير مذمومة فحسب، بل وواجبة أحياناً.

وحجبتنا عن الآخرة: «لا تُلْهِكُمْ [23]«فالدنيا لا تكون مذمومة إلاّ إذا غرّتنا: «وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وهي تتمثّل في الأمور التي تجعلنا نهتمّ بلذائذ الدنيا العابرة [24]«أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وتلهينا عن ذكر الله واليوم الآخر.

وفّقنا الله وإيّاكم لما فيه الخير والصلاح إن شاء الله

---

[1]. إرشاد القلوب، ج١، ص٢٠٤.

هذا هو العيش الهنيء
36

فإذا كان هكذا يَفِرّ من الناس فراراً ويُنقَل من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار الشيطان إلى دار » [1]«الرحمٰن. يا أحمد لأزيّننّه بالهيبة والعظمة فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية.

إشارة

قلنا في المحاضرات الفائتة، في معرض بحثنا في فقرات من حديث المعراج، إنّه بعد أن يمتثل السالك الأوامرَ الأُولى المبيَّنة في الحديث تشمله رحمة وعناية خاصّتين من الله عزّ وجلّ وأوّل ما يحصل عليه من أجر هو أن تودَع في قلبه محبّة خاصّة تجاه الله تبارك وتعالى. أمّا أجره الثاني فهو أن تهون الدنيا في عينه، ثمّ يتحوّل إلى بغض في قلبه تجاهها وتجاه لذّاتها، وهو ما يمهّد له الأرضيّة لعدم الرغبة في الدنيا وتجنّب السقوط في حبائل الشيطان. وفي هذه المرحلة تنتهي التربية الإلهيّة وتظهر في السالك آثار تبيّنها الفقرات التالية من الحديث القدسيّ.

فإذا كان هكذا» أي بعد اجتياز هذه المراحل التربويّة «يَفِرّ من الناس فراراً ويُنقَل من دار الفناء إلى دار » البقاء ومن دار الشيطان إلى دار الرحمٰن». وعندها يعمد الله إلى تزيينه بالهيبة والعظمة حتّى يحسّ الناس بالخضوع بين يديه «فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية». ولمّا كانت أذهاننا غير مأنوسة بهذه المفاهيم فإنّنا نجد في هذه التعابير بعض الإبهام. أوّل إبهام هو: ما معنى الفرار من الناس، ولماذا يفرّ أمثال هؤلاء من الناس؟

السالك إلى الله فارٌّ من الناس

إنّ من جملة المسائل التي تتناولها كتب الأخلاق والتي يوليها أرباب السير والسلوك اهتماماً بالغاً هي تلك :الخصوصيّات التي بُيِّنت بلسان الشعر

صـمتٌ وجوعٌ وسَهَر   عَــزلٌ وذِكـرٌ مستـمِرّ

[2]خَمسٌ إذا مورِسنَ أكـ   ـمَلنَ النقائص في البشر

يعني انّه في ميسور الذين يشْكُون من النقص في مقام العبوديّة أن يستعينوا بهذه العوامل الخمسة ليصلوا إلى كمال العبوديّة. أوّل هذه العوامل هو «الصمت» الذي تكرّرت الإشارة إليه في حديث المعراج، وثانيها «الجوع»، وثالثها «السَهَر» وإحياء الليل، ورابعها «العزلة» عن الناس، وخامسها «ذكر الله» بشكل مستمرّ. جميعنا تقريباً يعرف هذه المفاهيم ويعلم أنّه لا يراد بالتوصية بها الإطلاق والعموم. فليس المراد من الصمت هو السكوت المطلق؛ إذ قد يكون الكلام أحياناً واجباً، كما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفقيه الآخرين في الدين، والردّ على الأسئلة والشبهات. وكذا الحال مع «الجوع» فلا يراد منه الجوع المستمرّ، إذ يتعيّن على الإنسان – لدفع ضعف بدنه واكتساب القدرة على إنجاز واجباته — تناول بعض الطعام. ومن الواضح أنّ قائل هذا البيت ليس هو في مقام بيان شروط وقيود المسألة وليس قصده تبيين الحدّ المطلوب لكلّ واحد من هذه العوامل. كما أنّ «العزلة» هنا – والتي عبّر عنها الحديث بالفرار من الناس — لا يراد منها اللجوء إلى غار أو العيش في صومعة، فالإسلام يرفض مثل فالرهبانيّة كانت بدعة ابتدعها بعض النصارى للفرار من .[3]«هذه الرهبانيّة: «لا رهبانيّة في الإسلام أذى أعدائهم من اليهود ثمّ أقرّتها الديانة المسيحيّة تدريجيّاً بشكل من الأشكال ولا زالت رائجة لدى .[4]«بعض فِرَقها؛ كما في قوله تعالى: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فالرهبانيّة غير مقبولة في دين الإسلام الذي استعاض عنها بالتوصية بصلاة الليل والاستيقاظ في ونستطيع أن نتبيّن، بالالتفات إلى ذلك، أن لا عموميّة في قضيّة العزلة عن الناس وأنّ لها .[5]السحر قيوداً. لكن لماذا لم تبيَّن قيودها في هذا الحديث الشريف؟ هذا أمر طبيعيّ، فإذا لم نشأ في محاوراتنا

اليوميّة بيان تفاصيل الموضوع فإنّنا، وتجنّباً للإطالة والإسهاب، سوف لا نطرح جميع قيوده وشروطه دفعة واحدة وسنكتفي ببيان أصل المبحث بصورة الإهمال. كما أنّ الكثير من آيات الذكر الحكيم التي تتطرّق إلى أصل وجوب الصلاة تقول من دون أيّ قيد: «أَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ»[6]، «يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ»[7]. فهاهنا مقام الإهمال، أمّا أجزاء المبحث وقيوده وشروطه فيتمّ ذكرها في مقام البيان التفصيليّ.

والحديث هنا يتصدّى لبيان أُسلوبٍ خلافُه هو الشائع بين الناس. فأغلب الناس يميلون إلى قضاء أوقاتهم بتجاذب أطراف الحديث مع الآخرين ومناقشتهم في شتّى القضايا. فالله تعالى، ومن منطلق كونه المربّي لعباده، يريد هنا تغيير هذه العادة غير الصائبة، والحديث – لذلك – يكتفي بالإشارة إلى الفرار من الناس باعتباره عملاً محبّذاً. وهذا يشبه التوصية في الكثير من الروايات بالإقلال من الطعام بشكل مطلق في معرض تحذير الناس من الإكثار من الأكل والذي يبدو أمراً طبيعيّاً عند الكثيرين. فمثل هذه الروايات هي في مقام التحذير من أُسلوب في الحياة غير صحيح وضرورة السيطرة عليه وإصلاحه. ومن هنا فقد ذُكرت المسألة بصورة الإهمال، وتُرك بيان حدودها وقيودها وشروطها لمناسبة أُخرى.

أقسام المعاشرة

ممّا لا شكّ فيه أنّ معاشرة الآخرين هي من النعم الإلهيّة وقد مُهّد لها من خلال التواجد في كنف الأُسرة والمجتمع، ومن دونها سوف لا تتوفّر إمكانيّة تأمين الكثير من حوائج الحياة الضروريّة، بل وسوف يغيب المناخ اللازم لبلوغ بعض الكمالات المعنويّة أيضاً. فلو أُبقي على المرء منذ ولادته في غار بعيداً عن أبناء جنسه فسوف لا يجيد النطق، ولا يتعرّف على الآداب والتقاليد، ولا يتعلّم أيّ عِلم، وستكون حياته حياة الحيوانات. وهذا ما دفع الفلاسفة إلى القول: إنّ الإنسان هو مدنيّ بالطبع؛ أي إنّ طبع الإنسان يقتضي المدنيّة والتحضّر. فلا ريب أنّ الإنسان بحاجة إلى المعاشرة من أجل تلبية حاجياته ومساعدة الآخرين. لكن عوضاً عن استغلال الإنسان معاشرةَ الآخرين من أجل تكامله ورقيّه فإنّ غفلته تؤدّي به إلى تضييع جزء كبير من عمره الثمين في أُمور لا تعطي أيّ ثمار أُخرويّة بل وحتّى دنيويّة، بل وقد يقضيها في المعصية والآثام أيضاً. ولتجنّب ذلك علينا أوّلاً أن نصنّف أنواع معاشرتنا.

فقسم من تعاملاتنا مع الناس يصنَّف في خانة تلبية ما نحتاجه في حياتنا المادّية والدنيويّة؛ ذلك أنّنا غير قادرين وحدنا على تلبية كلّ هذه الحاجات، ونحن بحاجة إلى غيرنا لذلك. فالمعاشرة ضمن هذه الحدود هي من لوازم الحياة الدنيويّة والأخيرة هي التي تحدّد مقدار الحاجة إليها. أمّا القسم الآخر ممّا نمارسه من المعاشرة فيدرّ علينا منافع أُخرويّة؛ كمعاشرة علماء الدين، ومربّي الأخلاق، والإخوة في الإيمان الذين يعلّموننا ديننا، وينبّهوننا إلى الصالح والطالح ويذكّروننا بالله تعالى: «قالت الحواريّون لعيسى: يا روح الله!

لكنّ .[8]«مَن نُجالس؟ قال: مَن يُذَكِّرُكم اللهَ رؤيتُه، ويزيد في عِلمكم منطقُه، ويُرَغِّبكم في الآخرة عمله بعض أشكال المعاشرة تسوق المرء إلى ارتكاب المعاصي. فأيّ فائدة يجنيها المرء منها يا ترى؟ فهذا .الضرب من المعاشرة هو مذموم لا محالة ويتعيّن الفرار منه

الفرار من الناس للحفاظ على ثروة العمر

التصنيف الآنف الذكر للمعاشرة ينفع الأشخاص العاديّين، لكنّ هذا المقطع من حديث المعراج يخاطب أُولئك الذين يبتعدون حتّى عن فعل المباحات وليس هدفهم النجاة من نار جهنّم. فهذه التوصيات تخصّ المفتّشين عن المراتب العالية من الكمال البشريّ. فأمثال هؤلاء يؤمنون بأنّ الحياة في هذه الدنيا ليست مطلوبة ذاتاً، بل هي أداة لاختبار ابن آدم ووسيلة لتكامله، ومن هنا فإنّه يتعيّن إنفاق كلّ لحظة منها في سبيل نيل سعادة الآخرة. فهل يُعقَل أن يقضي مَن بلغ هذا المستوى من المعرفة وقتَه بالبطالة !بحضوره في أيّ مجلس كان، حتّى وإن خلا من كلّ معصية أو غيبة أو تهمة؟

فعمل كهذا بالنسبة لمن يريد توظيف كلّ لحظة من لحظات عمره في النموّ والتكامل هو بمثابة هدر ثروة عظيمة. فالعمر ثروة ينبغي استغلال كلّ لحظة منها لنيل سعادة الآخرة. فكيف يتسنّى للسالك إلى الله أن ينفقه في أمثال اللعب والتسلية التي قد تكون غير نافعة أحياناً حتّى دنيويّاً؟! كالرجل الثريّ الذي يستعمل حزمة الأوراق الماليّة لإشعال النار! فإنّ من الحماقة أن يضع المرء ثروته فيما لا يعود عليه بأيّ ربح. فكيف يقضي هذا العمر — الذي يمكن الحصول في كلّ لحظة منه على أجر عبر ذكر الله — بالمزاح والتسلية؟! فأيّ وصف يمكن إطلاقه على هذا العمل غير الحماقة؟

فالذي يعلم ما لثروة عمره من قيمة فإنّه يتجنّب إتلافها ويفرّ من مجالسة من يهدرها بهذه الطريقة. فهل من العقل في شيء أن يعمد الفنّان – الذي يستطيع استغلال وقته لإنتاج عمل فنّي فاخر — إلى إنفاق وقته في مسامرة أصدقائه ورفاقه بدلاً من ذلك، أم عليه الفرار من مجالسة الذين يحولون دون مزاولته عمله؟ فالذين تقع على عاتقهم مسؤوليّات ضخمة، ومن أجل توفير فرصة أكبر لإنجاز مهمّاتهم، يمتنعون عن المشاركة في الكثير من الاجتماعات واللقاءات، حتّى وإن لم يرض بعض السذّج عن مثل هذا السلوك، لأنّ هدفهم هو إنجاز أعمالهم. وهذا – في الحقيقة – هو فرار من الذين يمنعون المرء من .إنجاز عمله الرئيسيّ، حتّى وإن كان المانع هو أحد الأصدقاء

على هذا الأساس فمن أجل أن يتجنّب السالك إلى الله إتلاف ثروة عمره النفيسة ويستطيع الإفادة من وقته بشكل أفضل فإنّه يفرّ من الذين يحرّضونه على اللغو الذي ليس له نتائج إيجابيّة على سعادة الآخرة. ولعلّكم سمعتم قصّة عنوان البصريّ الذي كان يصرّ بإلحاح على الاجتماع ولو مرّة بالإمام

الصادق (عليه السلام) لكنّ الإمام كان يرفض. وأخيراً – وبعد التردّد المتكرّر على دار الإمام (عليه السلام) والتوسّل بالنبيّ الأعظم (صلّى الله عليه وآله) — فقد أفلح في التشرّف بالاجتماع بحضرته.

فإذا كان هكذا يَفِرّ من الناس فراراً» فالعبد الذي يعرف قيمة عمره فإنّه يفرّ ممّن يعمل على إتلاف » وقته ويمنعه من الإفادة من عمره على النحو الصحيح حتّى وإن لم يجرّه إلى ارتكاب الذنب وذلك ليستطيع استغلال عمره على أحسن وجه. فعبد كهذا لا يحبّ مجالسة أيّ أحد إلاّ إذا كان لمجالسته أثر على آخرته. فأمير المؤمنين (سلام الله عليه) كان يجلس للقضاء، ويتفقّد الفقراء، ويعاشر الناس لحلّ مشكلاتهم، بل ويعتني بأطفالهم أيضاً؛ فقد كان حاكماً وعليه العمل بواجباته. لكنّه كان يفرّ من الذين يلهيه الجلوس معهم عن أداء مسؤوليّاته.

انطلاقاً ممّا ذُكر فليس المراد من «الناس» في الحديث جميعَ الناس، بل المراد منه الذين تؤدّي مجالستهم إلى ارتكاب الآثام، بل وحتّى ضياع عمر الإنسان، فإنّه من مثل هؤلاء يتعيّن الهرب. بالطبع هذه المرحلة تشمل أُولئك الذين اجتازوا المراحل الأوّلية المذكورة في الحديث. فالأشخاص العاديّون الذين لم يبلغوا هذه المرحلة ليس لديهم القابليّة لانتهاج مثل هذا السلوك، بل إنّهم لا يطيقونه، وقد يصابون بالاكتئاب جرّاءه. فلا ينبغي تبنّي هذا السلوك إلاّ بعد اجتياز مقدّماته وأن يكون تحت إشراف مرَبٍّ.

الانتقال إلى دار رحمة الله

يقول تعالى في تتمّة هذا المقطع: «ويُنقَل من دار الفناء إلى دار البقاء». ما نفهمه نحن عادة من «الانتقال» هو الانتقال من محلّ إلى آخر. وقد نعمّم المفهوم نفسه على الرحيل عن الدار الفانية إلى الديار الباقية. لكنّ الرواية محطّ البحث تتحدّث عن إنسان ما يزال على قيد الحياة ويشتغل في هذا العالم بالعبادة وأداء واجباته. الاختلاف الوحيد الحاصل في هذا الإنسان هو ما طرأ من تغيير على حالاته الروحيّة نتيجة العمل بالتوصيات المذكورة فأنار له قلبَه وزاد انشداده إلى المسائل المعنويّة. والتعبير بالانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء هو — بشكل من الأشكال —كناية عن أنّه مع كون هذا العبد السالك ما يزال في عالم الدنيا وهو — على سابق عهده – يعيش في كنف أُسرته ومع أصدقائه فإنّ موضع روحه — التي هي الأساس لإنسانيّته — قد تغيّر، فقد رحل عن الموجودات الحيوانيّة التي كان يعيش بين ظهرانيها والتحق بجمع الملائكة. فجسم هذا الشخص لم يطرأ عليه تغيير وظروف البيئة المحيطة به ما زالت على حالها، لكنّ التعلّقات الدنيويّة التي كانت لديه إلى الأمس القريب قد زالت وحلّت محبّة الله عزّ وجلّ محلّها، وهذا تحديداً هو ما غيّر هويّته. وفي الحقيقة فإنّ وعاء حياة هذا الشخص، الذي كان مملوءاً بلذائذ الدنيا قد تبدّل إلى وعاء لرحمة الله وفيضه وتجلّياته لعبده. فالإنسان

الذي يتمتّع بحياتين، حيوانيّة وملكوتيّة، قد تحوّل — بعمليّة التكامل وتحوُّل الهويّة هذه — إلى ما يشبه الملائكة، فرحل عن دار الفناء – التي هي وعاء الحياة الحيوانيّة – إلى دار البقاء – التي تمثّل وعاء الحياة الرحمانيّة. شخص كهذا ينصبّ اهتمامه والتفاته كلّه على الله ولا يجد الشيطان سبيلاً إلى قلبه؛ إذن فإنّه قد انتقل من دار الشيطان إلى دار الرحمٰن.

في إثر هذه الحالات يمنّ الله عزّ وجلّ على هذا العبد بفضيلة أُخرى توجب له المزيد من الكرامة والوجاهة بين الناس: «يا أحمد لأزيّنَنّه بالهيبة والعظمة». فإنّ الله تبارك وتعالى يهَب مَن يصبح عبداً له هيبة وعظمة خاصّتين. فهناك من الناس من يكنّ لهم المرء احتراماً خاصّاً بما يتناسب مع مكانتهم ومنزلتهم الاجتماعيّة لكنّه لا ينفعل أمامهم ولا يخضع لتأثيرهم. غير أنّه هناك أُناس يصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام) بعبارة: «صُفْرُ الوجوه»[9]؛ فهم أشخاص نحيلو الأبدان، صفر الوجوه، تلتصق جلودهم بعظامهم، لا يبدو عليهم — في الظاهر – ما يدعو إلى الانفعال تجاههم، لكنّ المرء – ومن دون اختيار منه – يشعر بالحقارة أمامهم بسبب هيبتهم فلا يدري ما يصنع. ولعلّكم شاهدتم من أمثال هؤلاء بين العلماء والصالحين. فالإنسان يشعر أمام هؤلاء بالحقارة والانفعال ويخضع لعظمتهم، وكأنّه يواجه جبلاً أشمّ. هذه هي الهيبة والعظمة التي يمنّ بها الله تعالى على أوليائه، هيبةٌ يخضع حتّى الملوك أمامها.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

وصَلَ العبد مكاناً لا يرى – فيه غير الواحد الحقّ الإلٰه

37

فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين. فمَن عمِل برضائي أُلزِمُه ثلاث خصال: «أُعَرِّفه شكراً لا يخالطُه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبّة لا يؤثِر على محبّتي محبّةَ المخلوقين، فإذا أحبّني أحببتُه، وأفتحُ عينَ قلبه إلى جلالي، فلا أُخفي عليه خاصّة خلقي، فأُناجيه في ظُلَم الليل ونور النهار، حتّى ينقطع حديثُه من المخلوقين ومجالستُه معهم»[1].

طرح الحديث القدسيّ في الفقرات السابقة من هذا المقطع توجيهات فيما يتّصل بنيل السالك الحياةَ الأبديّة الهنيئة؛ وهو المقام الخاصّ بأُولئك الذين ينجزون أعمالهم كافّة طلباً لمرضاة الله تبارك وتعالى. وفي نهاية المقطع، وفي إشارة إلى خلاصة المباحث السابقة، يقول عزّ من قائل: «فمَن عمِل برضائي أُلزِمُه ثلاث خصال». وخلافاً للفقرات السابقة، فإنّه تعالى لم يتطرّق هنا إلى المنهج الذي على السالك اتّباعه، بل تعرّض للخصوصيّات والخصال التي يهبها للسالك نتيجة سلوكه ويجعلها ملازمة له بحيث لا تنفكّ عنه. فهذه هي عطيّة الباري عزّ وجلّ لأُولئك الذين بذلوا قصارى جهدهم لتطبيق تعاليمه، ثمّ انّه سبحانه – ومن باب إثابتهم على جهودهم ومساعيهم – يحوّل هذه الخصال فيهم إلى مَلَكات كي يصعدوا بواسطتها إلى مراتب أرفع وأعلى.

الشكر الدائم

الخصلة الأُولى: «أُعَرِّفه شكراً لا يخالطُه الجهل». فلقد أوصى الله في آيات جمّة المؤمنين – بشكل عامّ – بشكر أنعم الله، بل وذمَّ المقصّرين في العمل بهذه الوصيّة وأنذرهم بالابتلاء بعقوبات مختلفة. لكنّ الكلام في هذا المقطع من حديث المعراج يدور حول الشكر الذي هو من لوازم حياة الذين اجتازوا مراحل من السلوك إلى الله عبر تطبيق التعاليم الإلهيّة ووصلوا إلى مرتبة لا يحتاجون فيها إلى بذل جهد لتذكُّر كلّ واحدة من آلاء الله وشكرها، بل لقد أصبح الشكر ملازماً لحياتهم.

لعلّكم شاهدتم بعض عظماء علمائنا ممّن هم في حالة شكر مستمرّ لله؛ فهم يشكرونه على ما وفّقهم إليه من طاعته، وعلى ما وهبهم من المادّي والمعنويّ من آلائه، بل وعلى ما ابتلاهم به من النوائب ليختبرهم فيعلي به درجاتهم، فهم يسبّحون بحمد ربّهم على كلّ ما يواجهونه في حياتهم. فحياة أمثال هؤلاء مقرونة دائماً بالشكر. بالطبع نحن أيضاً نشكر الله، لكنّنا، خلال ساعات نهارنا وليلنا، لا نتذكّر شكره إلاّ إذا تذكّرنا نعمة، أو دُفعت عنّا نقمة، أو حظينا بموهبة خارقة للعادة. فهذا السلوك لا يشبه حال العبد الذي يكون مشتغلاً بشكر لله طيلة ساعات ليله ونهاره. بل وقد يشتغل أمثال هؤلاء بشكر الله حتّى أثناء النوم.

الذكر الخالص

إنّ من جملة ما يختلف به هؤلاء عن الناس العاديّين هو أنّ مقدار غفلة الأخيرين عن مواهب الله وجهلهم لها يعادل عادةً مئات أضعاف شكرهم إيّاها؛ فنحن نشكر نعمةً، لكنّنا نغفل عن نعم قد تكون أكبر وأنفس منها. أمّا مَن تحوّل الشكر إلى ملَكَة في نفسه فإنّ شكره لا يعتريه جهل، ولا يشوبه

نسيان: «وذكراً لا يخالطه النسيان». فغاية ما يفعله أمثالنا هو أن نتذكّر الله ونرفع أيدينا بالدعاء أثناء الصلاة أو عندما تعرض لنا معضلة، أمّا السالكون الواصلون إلى هذا المقام فإنّهم لاينسون الله على الإطلاق.

وأمّا الخصلة الثالثة التي يهبها الله تعالى لهؤلاء فهو أنّه يُلهب في قلوبهم محبّته حتّى لا يبقى فيها محلّ لمحبّة غيره: «محبّة لا يؤثِر على محبّتي محبّةَ المخلوقين». ففي هذه المرحلة يخبو ضياء جميع أنواع المحبّة أمام محبّة الله. نعم، قد يوجد إلى الآن من يشكّك في محبّة الله وكيفيّتها، لكنّ لله عباداً لا يحبّون أيّ شيء غيره، وإنّ ما يكنّونه لغيره من حبّ فهو من أجل محبّته هو ليس إلاّ. وحتّى بالنسبة للنبيّ وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) فلا يحبّهم هؤلاء إلاّ لمحبّة الله لهم. فليس لغير محبّة الله وما أوصى به جلّ وعلا من سبيل إلى قلب هؤلاء، كما وليس لأيّ عامل أن يزاحم هذه المحبّة. فلا معنى عند أمثالهم – الذائبين في ذات الباري تعالى – لدوران الأمر بين محبّة الله ومحبّة محبوب آخر. هذا النمط من الحبّ يمثّل ذروة محبّة الإنسان لمحبوبٍ ما، وهو إذا ما ناله العبد صدق عليه قوله: «فإذا أحبّني أحببتُه». ولعمري فإنّنا لنعجز عن استيعاب أهمّية هذه المنزلة، فالذي يملك القدرة على فهم هذا المقام سيندهش ويُغشى عليه من شدّة الشوق. فالعبد الذي يكنّ لله كلّ هذا الحبّ، فإنّ الله سيحبّه أيضاً.

العشق الغزير

فنحن عندما نحبّ أحداً فإنّنا نلهج دائماً بذكره ونحاول أن نسدي له أيّ خدمة نقدر عليها. أمّا وعاء محبّة الله فهو غير محدود: «ولا يشغَلُه شأن عن شأن[2]، فالتفاته إلى أحد العبيد لا يسلبه التفاتَه إلى الآخرين، وهو إن أحبّ أحداً لم يبخل عليه بأيّ أثر من آثار تلك المحبّة. فمن جملة آثار محبّة الله للعبد هي أنّه يودع محبّته في قلوب الآخرين: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدّاً»[3]؛ فالله يودع محبّة المؤمنين الحقيقيّين الذين يأتون بالصالحات في قلوب عباده. والنموذج البارز لمثل هؤلاء في عصرنا هو الإمام الخمينيّ الراحل (رضوان الله تعالى عليه) وقائد الثورة الإسلاميّة (دامت بركاته). فأنتم تلاحظون كيف أنّ الناس يتهافتون على التمتّع بنظرة واحدة إليه. ففي أيّام الإمام الراحل كان البعض يقطع مسافات شاسعة ويبقى منتظراً لساعات كي يمتّع ناظريه للحظة بالنظر إلى وجه الإمام. فهذا صنع الله إذ يودع مثل هذه المحبّة تجاه محبوبه في قلوب عباده. «فإذا أحبّني أحببتُه» وإذا أحببته، حبّبتُه إلى خلقي، ثمّ بعد ذلك «أفتحُ عينَ قلبه إلى جلالي».

لقد ذكر الله تعالى في هذا الحديث الشريف من قبل بأنّ من جملة عناياته لعباده المخلصين هو أنّه يفتح عيون قلوبهم. وهنا يطرح نفس القضيّة لكن بصورة أشدّ فيقول: إنّني أفتح عينه إلى جلالي بحيث لا يرى تجلّياتي فحسب، بل لا يخفى عليه المقرّبون من عبادي أيضاً: «فلا أُخفي عليه خاصّة خلقي».

فالله تعالى لا يُعرِّف عباده الخاصّين إلى كلّ أحد عادةً، وكما ذكر عزّ وجلّ في حديث قدسيّ آخر بأنّ من جملة ما أُخفيه على الناس هم خاصّة عبادي فهم مجهولون بين عامّة الناس ولا يعرفهم أو يطّلع على مقاماتهم المعنويّة إلا الله.[4] ومع ذلك فقد يكون طرَق مسامعكم بأنّ وليّين من أولياء الله قد يعيشان في مدينتين مختلفتين ولم ير أحدهما الآخر لكنّ كلاًّ منهما مطّلع على مقامات صاحبه المعنويّة بل ويحبّه أيضاً. فهذه واحدة من الخصال التي يهبها الله للسالك الذي اجتاز بعض المقدّمات اللازمة. فعندما يصبح السالك محبوباً عند الله يجعله الله محبوباً عند الآخرين، ثمّ يعرّف إليه عباده الخاصّين: «فلا أُخفي عليه خاصّة خلقي».

وصلَ العبدُ مكاناً لا يرى – فيه غير الواحد الحقّ الإلٰه

«فأُناجيه في ظُلَم الليل ونور النهار». ينتظر معظمنا السنة بطولها كي يحظى بفرصة كشهر رمضان المبارك ليناجي فيها ربّه، أو يناجيه فيه غيره فيستمع إلى صوت مناجاته. لكنّ الله جلّ وعلا يقول في هذه الفقرة من الحديث القدسيّ: إذا صار العبد محبوبي فإنّني سأُناجيه ليس فقط في جوف الليل المظلم، بل وحتّى في وضح النهار. بالطبع لا يراد بهذا الكلام الوحي، بل يراد به مرتبة من الحديث الذي يدور بين الله تبارك وتعالى وأوليائه. بل إنّ مناجاة الله لمحبوبه تستمرّ «حتّى ينقطع حديثُه من المخلوقين ومجالستُه معهم». فهو يرى الله أمامه طول اليوم والليلة ويفصح له باستمرار عن مكنونات صدره. فالناس يتصوّرون أنّه يخاطبهم، لكنّه يخاطب غيرهم. فهو يتكلّم بكلام يحبّه الله؛ فلأنّه يرى نفسه في حضرة الباري جلّ شأنه فهو لا يتحدّث إلاّ بما يحبّ. في الحقيقة إنّ مخاطبه الرئيسيّ هو الله تعالى، وجليسه هو الله سبحانه أيضاً. كما يقول جلّ اسمه في حديث قدسيّ آخر: «أنا جليس مَن ذكَرني».[5]

فالعبد الذي يصير محبوباً لله تعالى ينسى مجالسة الآخرين ويكون دائم الالتفات إلى ربّه؛ فيصنع ما يريده ربّه، ويرجو ما يطلبه ربّه. فأيّ حاجة لهذا العبد لجليس آخر إذا كان الله جليسه؟! وهذه آخر ميزة يمنّ بها الله تعالى على عباد كهؤلاء؛ عباد مارسوا العبوديّة لله بكلّ صدق واستهلّوا أمرهم منذ البداية لاستجلاب رضا بارئهم. أمّا في هذه المرحلة فكلّ شيء هو من عند الله؛ فهو تعالى يعلّم عبده شكره، ويذكّره بذاته، ويودع محبّته في قلبه كي لا تزاحمها عليه محبّة الآخرين، ويقطع حديثه مع الآخرين كي لا

تكون لديه رغبة في الحديث معهم إلاّ بما يرضي الله. فجليسه هو الله، ومناجيه هو الله، ومحبوبه هو الله، وأمله في الله، وناصره ومعينه هو الله، فلا يلتفت إلى أحد غيره، إذ ليس لديه أحد غيره، فكلّ ما لديه هو الله.

فبأيّ ثروة أو قدرة يمكن مقارنة هذه الحالة يا ترى؟ وأيّ عزّة أو سلطة يمكن أن توازي هذا المقام؟ فكلّ الأشياء تفقد ألوانها في هذا المقام. فالواصل إلى هذه الدرجة يرى كلّ شيء من عند الله، وهو لهذا لا يتكلّم مع غير الله، إلاّ إذا طلب هو سبحانه منه ذلك.

وفّقنا الله وإيّاكم لشيء من هذا إن شاء الله

أمارات المحبّة

38

إشارة

قلنا في المحاضرات الماضية، خلال شرح مقاطع من حديث المعراج، إنّه بعد أن يمتثل العبد الخالص لله أوامر ربّه يحظى بأهليّة أنْ يودِع الله محبّته في قلبه فتظهر عليه، نتيجة لذلك، آثارٌ وبركاتٌ ذَكَرنا بعضها في المحاضرة الماضية وسنتطرّق إلى تتمّتها الليلة.

فمن جملة العطايا التي يمنّ الله تبارك وتعالى بها على عبده السالك في هذه المرحلة هي أن يقطع تعلّقاته بكلّ شيء، فلا يعود راغباً في محادثة الآخرين ومجالستهم إلاّ فيما يُرضي ربّه: «حتّى ينقطع حديثُه من المخلوقين ومجالستُه معهم»[1]. ويشير الحديث بعد ذلك إلى ما يصيبه هذا العبد من بركات عند الموت وبعده: «وأُنَوِّمه في قبره وأُنزِل عليه مُنكَراً ونكيراً حتّى يسألاه ولا يرى غمرة الموت وظُلمة القبر واللحد وهولَ المطّلَع»؛ فلا يحسّ بصعوبة نزع الروح، وينزلونه في قبره بهدوء من دون أيّ انزعاج أو وحشة. «ثمّ أضعُ كتابَه في يمينه» يوم القيامة؛ وهي أوصاف ترتبط بعالم الآخرة. ثمّ يقول بعد سرد هذه الخصوصيّات: «فهذه صفات المحبّين» لله. ويبيّن الله تعالى في هذا المقطع من حديث المعراج ما يترتّب في الدنيا والآخرة من نتائج على محبّته جلّ وعلا.

أمارات المحبّة

وهنا، أي في المقطع التالي، يضيف الباري عزّ وجلّ فصلاً آخر يوضّح فيه علامات المحبّين. فليس كلّ مَن ادّعى حبّ الله بمحبّ له حقّاً. فإنّ للعاشق لله علاماتٍ يمكن من خلالها تشخيص حبّه لربّه. بالطبع إنّ محبّة الله هي من لوازم الإيمان؛ إذ أنّ كلّ مَن يؤمن بالله سيعرف أنّ النعم كافّة هي منه عزّ وجلّ وهو سيحبّه لا محالة. لكنّ هذه المحبّة – وبسبب ضحالة المعرفة، أو كمحصّلة لبعض التعلّقات الأُخرى أحياناً — قد لا تنمو، بل وقد تذبل وتتلاشى تحت تأثير أشكال أُخرى من المحبّة. فالإنسان يعلم أنّ جميع ما لديه من نعم هي من عند الله عزّ وجلّ، وهو — لهذا – يحبّ وليّ نعمته، فيبادر إلى شكره والثناء عليه. لكنّ ضعف النفس، أو قلّة المعرفة، أو نقص الإيمان، أو بعض التعلّقات قد تؤدّي بالإنسان إلى التأثّر كثيراً من فَقْد نعمة أو الابتلاء بنازلةٍ ما وهو تأثّر ينسيه عِظَم النعم التي منّ الله بها عليه، وكم أنّ له جلّ وعلا حقوقاً عليه. بل، ومضافاً إلى نسيان محبّته تعالى، فقد يغمر قلبَه — والعياذ بالله — بغض تجاهه عزّ وجلّ. فلعلّنا جميعاً مررنا بهذه التجربة، وهي أنّنا ننسى الآخرين إذا أحببنا أحداً حبّاً شديداً، بل وقد نضَحّي — عند التضادّ والتزاحم — بأشكال المحبّة الأُخرى في سبيل الحبّ الأكبر والأشدّ. من هنا فإنّه ليس لكلّ مَن هبّ ودبّ الأهليّة لأن يودِع الله جوهرة محبّته في قلبه ويجعل وعاء قلبه طافحاً بعشقه. فإنّ للوصول إلى هذه الدرجة شروطاً خاصّة قد تمّ بيانها في الفقرات السابقة من الحديث. لكن بما أنّ البعض قد يتظاهر بالإيمان بالله وحبّه، فقد خاطب تبارك وتعالى نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) في القسم الأخير من الحديث القدسيّ بقوله: «يا أحمد! ليس كلّ مَن قال: أُحبّ الله، أحَبَّني»؛ فليس كلّ من لاكَ محبّةَ الله في فمه بعاشق له حقّاً، اللهمّ إلاّ أن تبدو عليه آثار العشق والمحبّة؛ «حتّى يأخذ قوتاً ويلبس دوناً وينام سجوداً ويطيل قياماً»؛ فالعاشق هو الذي يكتفي من غذائه بما يسدّ رمقه، ومن لباسه بالبسيط، وتخور قواه من طول السجود فيخرّ نائماً، ويطيل قيامه مصلّياً.

يروي آية الله الشيخ بهجت (رحمة الله عليه) أنّ الشيخ الأنصاريّ (رضوان الله تعالى عليه)، ولدى عودته من درسه في يومٍ صيفيّ حارّ في النجف الأشرف، طلب شربة ماء يروي بها ضمأه، فما لبث – في الفترة التي استغرقوها لجلب بعض الماء البارد من السرداب – أن قام إلى الصلاة، فغاص في أعماقها حتّى نسي عطشه، وطالت صلاته حتّى زالت برودة الماء. هكذا هم أحبّاء الله، إنّهم لا يفرّطون حتّى بهذه الفرصة القليلة، فهم يمضونها في الصلاة قائمين بين يدي المحبوب.

انطبقت الشفاه صوماً عن الطعام والكلام

«ويَلزَم صمتاً، ويتوكّل عليّ، ويبكي كثيراً، ويُقلّ ضَحِكاً، ويخالِف هواه، ويتّخذ المسجد بيتاً، والعِلم صاحباً، والزهد جليساً، والعلماء أحبّاء، والفقراء رفقاء، ويطلب رضاي، ويفرّ من العاصين فراراً، ويشتغل بذكري اشتغالاً، ويُكثِر التسبيح دائماً». فمن العلامات الأُخرى للمُحبّ لله تعالى هي أنّه من

الساكتين وقليلي الكلام، وأنّ توكّله عليّ، وبكاءه كثير وضحكه قليل، وهو يخالف كلّ ما أمره به قلبه، وأنّ بيته المسجد؛ فهو يذهب إليه ليستريح من عناء الأشغال اليوميّة كلّما أنهكته ليشتغل بالعبادة، وأنّ العلم صاحبه والزهد جليسه، وهو يصطفي أحباءه من بين العلماء وينتقي رفاقه من بين الفقراء، وهو يفرّ من المذنبين فراراً، وهو دائم الذكر والتسبيح لربّه. وقد أمر الله تعالى في بعض آيات كتابه العزيز بتسبيحه؛ كقوله: «وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ»[2]، وقوله: «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً»[3].

ومن الخصوصيّات الأُخرى لهذا العبد هي أنّه: «يكون بالوعد صادقاً، وبالعهد وافياً، ويكون قلبه طاهراً [لا يضمر ضغينة لأحد]، وفي الصلاة ذاكياً [يحرص على أدائها صحيحة]، وفي الفرائض مجتهداً، وفيما عندي من الثواب راغباً، ومن عذابي راهباً، ولأحبّائي قريناً وجليساً»[4]. فالمحبّ لله تظهر عليه مثل هذه الأمارات. لكنّ السؤال هو: ما هي العلاقة بين هذه العلامات ومحبّة الله؟

القلب الواحد لا يتّسع لحبيبين

نستطيع تقسيم هذه العلامات إلى ثلاث فئات. الفئة الأُولى تتضمّن الأُمور التي تكون علاقتها بمحبّة الآخرين واضحة؛ فالمحبّ يرغب في ذكر أوصاف محبوبه، والأُنس معه، واللقاء به. فالميل إلى عبادة الله، وطول السجود، وكثرة الصلاة لهي من الأمارات الواضحة على محبّة المرء لربّه والرغبة في الأُنس معه والحضور في حضرته. فالذي لا يُكنّ حبّاً لله فهو يؤدّي حتّى صلاته الواجبة بتثاقل وعلى عجل.

والفئة الثانية منها تتّصل بأُسلوب التعامل مع الناس، والسلوك الصادق مع الآخرين والالتزام بالعهود. أمّا الفئة الثالثة فتتضمّن أشكال السلوك الفرديّ مثل قلّة الطعام، وبساطة اللباس. لكنّ ارتباط هذه العلامات بمحبّة الله ليس هو بوضوح ارتباط الفئة الأُولى بها. وقد قلنا إنّ الحديث القدسيّ لا يتحدّث عن الحبّ الذي يكنّه الناس العاديّون. فجُلّنا يحبّ الله لِما أسبغ عليه من النعم. بل إنّنا قد نغفل عن آلاء الله أحياناً فننسى — من أجل ذلك – حبّه، بل ونعاتبه أحياناً أُخرى. لكنّ كلام الباري تعالى في هذا الحديث يدور حول المحبّة التي يمنحها كأجر لمن طوى من عباده مراحل السلوك بجدّ واجتهاد ويجعل قلوبهم طافحة بها. فإنّ من مؤشّرات هذا اللون من الحبّ هي قلّة الطعام وبساطة اللباس.

ولإلقاء الضوء على العلاقة بين الأوصاف المذكورة مع محبّة الله تعالى علينا الالتفات أوّلاً إلى قضيّة أنّ وعاء ابن آدم محدود وأنّ كلّ ما يشغله عن ذكر الله فإنّه يأخذ حيّزاً من قلبه ويبعث على فقدان جزء من حبّه لربّه. فكلّما أضفنا شيئاً إلى الوعاء الذي لا يتّسع إلاّ لِلَتر واحد من الماء فإنّ حجماً مساوياً من مائه سيُراق منه. ومن هذا المنطلق تحديداً فإنّ أيّ عامل يشغل انتباه العبد السالك فإنّه سيسلب منه نفس المقدار من التفاته إلى محبوبه، والحال أنّه لا يرضى بنقصان محبّته لربّه قيد أنملة، اللهمّ إلاّ إذا أراد

المحبوب نفسه ذلك. فاللباس الجميل والغذاء اللذيذ مباحان، لكنّهما إذا حالا دون التفات المحبّ إلى محبوبه فسوف لا يطلبهما، فما بالك بالأُمور التي تتعارض مع محبّة الله عزّ وجلّ. فكيف يمكن أن يكون العبد عاشقاً لله ومتعلّقاً به في الوقت الذي يميل طرف من قلبه إلى ما يبغضه محبوبه؟ أليس ذلك شركاً في المحبّة؟ فإذا وصل العبد إلى مرحلة يكون قلبه فيها متعلّقاً بربّه فسوف لا يكون لما يبغضه الله أدنى سبيل إلى قلبه، بل سيفرّ منه؛ فهو سيفرّ من المعصية، ويهرب من موجبات الأنانية، ويحذر من كلّ ما يخلق في نفسه حالة التعلّق بغير الله. فالاكتفاء بالطعام القليل واللباس البسيط، والابتعاد عن أهل المعاصي، والأُنس بأولياء الله، هي من أجل أن لا ينحرف التفات العبد العاشق عن ربّه وأن يكون قلبه طوع أمر محبوبه. وهو لهذا يخالف كلّ ما يطلبه قلبه؛ لأنّ تلبية ما يطلب القلب بمعزل عمّا يريده الباري تعالى هو ضرب من الشرك؛ وهو أن يحبّ الله تعالى وأن يميل إلى هوى نفسه أو يهتمّ بإطراء الآخرين! فإن آل الأمر إلى هذا المآل كان الهوى وإطراء الآخرين صنمين يعبدهما العبد إلى جانب ربّه! وهو ما لا ينسجم مع التوحيد في المحبّة. فإن تعلّق قلب المرء بشخص ما، فينبغي أن لا يرى غيره، وعليه أن يسعى لإلفات انتباهه؛ فلا يجوز أن يكون لقلبه معبود سواه. فإنّ تسلُّل أيّ لون من النزعات الأُخرى إلى قلب العبد هو نوع من الشرك.

تنفيذ كلّ ما يطلبه الحبيب

في موضع آخر من الحديث القدسيّ محطّ البحث يوصَى النبيّ الكريم (صلّى الله عليه وآله) بترك بعض الأُمور: «يا أحمد لا تتزيّن بلِين اللباس وطِيب الطعام ولَين الوطاء»؛ أي لا تزيّن نفسك باللباس الناعم الجميل، ولا تطلب الطعام الطيّب اللذيذ، ولتكتف منه بالمقدار الضروريّ لصحّتك وسلامتك، وتجنّب الفراش الوثير الناعم؛ لأنّ في هذه الأُمور ما تطلبه نفسك. «فإنّ النفْسَ مأوى كلّ شرّ ورفيق كلّ سوء»؛ فالنفس التي تطلب مثل هذه الأشياء هي مكمن الشرّ.

ولطالما أكّد إمامنا الخمينيّ الراحل (رضوان الله تعالى عليه) في كلامه على أنّ جميع المآسي منبعها النفس، فإن عمد الإنسان إلى نفسه فهذّبها فستُحَلّ جميع العُقَد. «فإنّ النفْسَ مأوى كلّ شرّ ورفيق كلّ سوء، تجرُّها إلى طاعة الله وتجرُّك إلى معصيته». فمثل هذا العدوّ يواجه الإنسان. فقد ورد في الخبر: «أعدَى عدوّك نفسُك التي بين جنبيك»[5].

ثمّ يقول: «تطغى إذا شبِعَت، وتشكو إذا جاعت، وتغضب إذا افتقرَتْ، وتتكبّر إذا استغنَت، وتنسى إذا كبِرَت، وتغفَل إذا أمِنَت». فلقد بعث الله تعالى أنبياءه لينذروا الناس حتّى لا يشعروا بأمان زائف، ولكي يلتفتوا دوماً إلى أنّه ثمّة خطر يتربّص بهم وعندئذ لا تستولي عليهم الغفلة.

وهي قرينة الشيطان، ومثَل النفس كمثَل النعامة تأكل الكثير وإذا حُمل عليها لا تطير، وكمثّل الدِفْلَى » لونُه حسَن وطعمُه مرّ»؛ فمَثَل النفس كمثل الزهرة الجميلة والحسنة اللون لكنّها مرّة المذاق. ومن هنا فإنّه .يتعيّن على المرء أن يحذر من الاغترار بمظهره المليح، وأن لا يستجيب لشهواته إلاّ بمقدار الضرورة

فالذي يودّ الإمساك بزمام نفسه عليه أن يأكل القليل، ولا يسعى وراء الزينة، أو يطلب راحة الدنيا. فالنفس البشريّة هي بمثابة الدابّة التي لا ينبغي الاهتمام بها إلاّ في حدود الضرورة والتي يجب استغلالها قدر المستطاع. فإن استجاب المرء لنفسَه في دلالها وتغنّجها فسوف لا يستطيع امتطاءها. فزمام النفس .هو الذي ينبغي أن يكون في يد صاحبها، لا أن يكون المرء تحت تصرّف نفسه وطوع أمرها

فالذي لا ينفكّ عن التفكير في الطعام اللذيذ واللباس الحسن لا تُستساغ منه دعوى محبّة الله عزّ وجلّ، فمحبوب شخص كهذا هو لباسُه وبطنُه. كما أنّ المحبّ لا يغيب اسم محبوبه عن لسانه، إلاّ لبعض الاعتبارات. فالذي يموج قلبه حبّاً لله يكون دائم اللهج باسمه تعالى، والإطراء عليه، والسعي في القيام .بكلّ ما يحبّه ويرضاه. فإن أصبح المرء هكذا، عُلِم حينئذ أنّه يحبّ ربّه حقّاً

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

قلب واحد وحبّ واحد
39

يا أحمد! لو صلّى العبدُ صلاة أهل السماء والأرض، وصام صيام أهل السماء والأرض، وطوى من » الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العاري، ثمّ أرى في قلبه من حبّ الدنيا ذرّة أو سُمعَتها أو رئاستها أو حليتها أو زينتها لا يجاورني في داري، ولأَنزعَنّ من قلبه محبّتي، وعليك سلامي ومحبّتي والحمد لله ربّ العالمين»[1]

إشارة

تناولنا في المحاضرات الماضية مقاطع من حديث المعراج سردت خصوصيّات المحبّين وذكرت جهودهم لنيل هذه المرتبة. وقلنا: عندما ينال السالك استحقاق أن يفيض الله محبّته على قلبه فإنّه عزّ وجلّ يعينه أيضاً على بلوغ مراتب أعلى منها. وقد أشارت مقاطع من هذا الحديث القدسيّ إلى أشكال إعانة الله لمثل

هذا العبد وسلوكه معه في الدنيا والآخرة. كما أنّه قد ذُكرت في سياق الحديث أيضاً علامات المحبّين الحقيقيّين كي يتم تمييزهم عن أُولئك الذين يزعمون المحبّة بألسنتهم فقط.

وفي ختام الحديث، وبعد تقديم عرض لصفات المحبّين الحقيقيّين، من قبيل الجوع والصمت وإحياء الليل، يخاطب تبارك وتعالى نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) مؤكّداً على حقيقة أنّ طول الصلاة، ودوام الصيام، والاستغراق في العبادة لا يكفي وحده لاستجلاب محبّة الله والمحافظة عليها، قائلاً: «لو صلّى العبدُ صلاة أهل السماء والأرض، وصام صيام أهل السماء والأرض، وطوى من الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العاري، ثمّ أرى في قلبه من حبّ الدنيا ذرّة أو سُمعَتها أو رئاستها أو حليتها أو زينتها لا يجاورني في داري» فلو فعل المرء كلّ ذلك ثمّ وُجد في قلبه مثقال ذرّة من حبّ الدنيا، أو سعى، بمقدار رأس الدبّوس، في إرضاء الآخرين، أو نيل الرئاسة الدنيويّة، أو طلب زينة الدنيا وزخرفها فإنّه لا يصل إلى المقام المكتوب لخلّص المحبّين، أي لا يبلغ منزلة جوار الله التي هي آخر مقام من مقامات القرب من الله تعالى. ليس هذا فحسب، بل لو أنّه كان قد نال شيئاً من محبّة الله سابقاً فستُسلب منه أيضاً: «ولأنزعَنّ من قلبه محبّتي»؛ ذلك أنّ محبّة الله وحبّ الدنيا لا يجتمعان في قلب واحد.

وقد ذُكر في بداية هذا المقطع من الحديث القدسيّ انّ على الذي يفتّش عن العيش الهنيء والحياة الباقية أن يبذل جهده لكي تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه: «فهي التي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه». فمن أجل التقدّم في هذا الطريق لابدّ من ترك الدنيا وعدم الاكتراث بها. وحتّى في أثناء الطريق فلو عُثر في قلب السالك على ذرّة من محبّة الدنيا فإنّه سوف لا يستحقّ مجاورة ربّه وستُنتزع محبّته تعالى من قلبه. إذن فالشرط لظهور محبّة الله في قلب المرء ودوامها هو قطع تعلّق القلب بالدنيا.

لكن لماذا لا تجتمع محبّة الله وحبّ الدنيا في قلب واحد؟ يا ترى هل إنّ الله بخيل — والعياذ بالله — إلى هذا الحدّ كي لا يسمح لمحبّة غيره أن تستقرّ في زاوية من قلب عبده؟!

إنّ تعجّبنا من تشدّد الله تعالى في هذا الأمر ناجم من عدم فهمنا لمحبّة الله فهماً دقيقاً من جهة، وجهلنا بالآثار السيّئة التي لحبّ الدنيا من جهة ثانية.

الإقليم الواحد لا يمكن أن يحكمه ملكان

إذا استقرّت محبّة الله في قلب امرئ فإنّها ستحتلّ كلّ قلبه، وسينصبّ كلّ همّه وغمّه عليها. إنّ محبّة كهذه أورثت نبيّ الله شعيباً (عليه السلام) البكاء لسنوات طويلة حتّى فقد بصره. فأعاد الله عليه بصره، لكنّه استمرّ في البكاء حتّى أصابه العمى من جديد، فأرجع الله إليه نعمة البصر ثانية، فعاود البكاء والنحيب

ثالثة حتّى بات ضريراً مرّة أُخرى. فجاءه جبرئيل بوحي من ربّه: إذا كان بكاؤك خوفاً من النار فقد حرّمتها عليك، وإن كان طمعاً في نعم الجنان فقد وهبتها لك. فقال شعيب: إلهي! إنّك لتعلم أنّني لا أبكي خوفاً من النار ولا شوقاً إلى الجنّة، بل إنّ حبّك هو الذي يبكيني ولن يقرّ لي قرار حتّى ألقاك![2]

إنّ محبّة من هذا القبيل تطرد أيّ حبّ مضادّ لها، ولا يبقى بوجودها محلّ لغيرها من ألوان الحبّ. فحبّ أُمور مثل اللباس الجميل، والخاتم الثمين، وأسباب الزينة، والدار، وغيرها من أُمور الدنيا لا يتناسب مع هذا النمط من المحبّة، وهي أشبه ما تكون بلُعَب الأطفال في عين من يموج قلبه بمحبّة بارئه. فإنّ العبد المغرم بالله تعالى قد وضع قدمه في موضع وكوّن علاقة بشخص لا يُعدّ الوجود برمّته في مقابله شيئاً. بطبيعة الحال فإنّ بقاء مثل هذه المحبّة، حاله حال ظهورها، يحتاج إلى رعاية وتوفيق من الله تبارك وتعالى. فإن توقّفت رعاية الله للحظة، وطرأت على العبد الغفلةُ، فسيُبتلى بنفس تلك العاقبة التي ابتُلي بها شيخ صنعان الذي وقع — بعد سنوات من الزهد والتقوى — وبنظرة واحدة في هوى جارية نصرانيّة فزالت محبّة الله من قلبه، وقد بلغ به الأمر أن علّق الصليب في رقبته ورعى الخنازير للفوز بتلك الفتاة!

فالله إذا أوكل العبدَ، ولو للحظةٍ، إلى نفسه لم يستطع الأخير أن يصمد أمام هذه النفس. بالطبع إنّ فعل الله تعالى ليس عبثاً؛ فشمول امرئ ما بعناية الله سبحانه إنّما هو بسبب أعمال قام بها أهّلته للحظوة بتلك العناية الإلهيّة. كما أنّ ترك الله عبداً لشأنه يكون على خلفيّة كفران الأخير وعدم شكره. ويشير القرآن الكريم إلى عاقبة بلعم بن باعوراء كواحد من عباد الله الذين خرجوا من ظلّ عناية البارئ عزّ وجلّ، وذلك بقوله تعالى: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ»[3]. فلقد منّ الله جلّ وعلا على أحد عباده بآياته، وهي خصوصيّة يختصّ بها الأنبياء (عليهم السلام)، وهو ما يدلّ على رفعة منزلة بلعم. وقد ذكر هذا المقام في الآية التالية بقوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا»؛ فلو شاء الله لرفعه إلى مقام هو أعلى من هذا. «وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَىٰ الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»[4]؛ لكنّ بلعم، وبعد أن كان مستجاب الدعوة من فرط عبادته[5]، غفل عن ذكر ربّه، وعوضاً عن النظر إلى السماء والتأمّل في مقام القرب من الله، عكف على الالتفات إلى الأرض وصار يسعى وراء الامور المادية. من أجل ذلك فقد وصل الأمر بمن كان مؤهّلاً لتلقّي الآيات الإلهيّة، وبسبب اتّباعه هواه، إلى أن يقيسه الله تعالى بالكلب في قوله: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث»[6]!

فالعبد لا يملك شيئاً من نفسه، وكلّ ما لديه فهو من ربّه وعليه إنفاقه في سبيله تعالى. وحتّى ما أسبغه الله – من القلب والعاطفة – على المرء فإنّه يتعيّن عليه صرفهما في سبيله أيضاً، فإن كان كذلك فسوف لا يبقى في قلبه مجال للتعلّق بالدنيا وألاعيبها الشيطانيّة. فمن المستحيل، بأيّ حال من الأحوال، أن ينسجم حبّ الدنيا مع محبّة الله عزّ وجلّ. فاللذّات المادّية والحيوانيّة هي —كما جاء في الخبر — أشبه

بالماء المالح الذي لا يزيد شُربُه العطشانَ إلا عطشاً. ولنا جميعاً تقريباً تجارب في هذا المضمار. هذا هو حبّ الدنيا، وهو قد يبلغ بالإنسان إلى مرحلة يتعجّب المرء من مشاهدته ويشكّ في عقله!

في السنوات الأُولى من قدومي إلى مدينة قمّ كنت ألتقي أحياناً رجلاً كان دائم الاضطراب والتحدّث مع نفسه أثناء سيره في الشوارع والأزقّة. ثمّ علمت بعد مدّة أنّ هذا الشخص قد استغلّ رأسماله في المراباة، وهو من شدّة ورطته فقد صار دائم العكوف على حساب الربح والخسارة ممّا يُقرض الناس من مبالغ. فهو إنسان مسلم يبدو عليه الصلاح قد تحوّل، بسبب وقوعه في حبائل الربا، إلى أشبه ما يكون بالمجانين كما يعبّر القرآن الكريم: «لا يَقُومُونَ إلاّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ»[7].
فحبّ المال والرئاسة الدنيويّة جنون يثير العجب عند من يشاهد المصابين به ويدفعه إلى الاعتقاد بأنّهم قد فقدوا عقولهم. فلعمري وراء أيّ شيء يلهث ذلك الذي يقف على حافّة قبره، والذي قد جمع من الثروة ما يكفي سبعة أجيال من ولْده؟!

فالقلب الشغوف بمناصب الدنيا ورئاستها هو قلب لا سبيل لمحبّة الله تعالى إليه، إذ لا تناسب ولا سنخيّة بين هذين الأمرين، بالضبط كالنور والظلمة. وحتّى لو كان مستحقّاً لنيل رعاية الله تعالى وعنايته سابقاً، فبمجرّد أن تتغلغل ظلمة حبّ الدنيا إلى قلبه سيخرج نور محبّة الله منه. فإنّ بين محبّة الله وحبّ الدنيا من التضادّ والتعارض ما يمنع اجتماعهما في مجال واحد. ومن هذا المنطلق فقد ذكر ربّ العزّة في بداية حديثه بأنّ على العبد إذا أحبّ الخطو في هذا المسير أن ينظر إلى الدنيا بعين الاحتقار. وهو يحذّر في النهاية أيضاً بأنّني لو عثرت في قلبه حتّى على مثقال ذرّة من حبّ الدنيا وزينتها، أو حبّ الشهرة والرئاسة والمناصب فسأُخرج حبّي من قلبه.

وبالالتفات إلى هذا المبحث ستُحلّ للإنسان الكثير من ألغاز التاريخ، وسيجد الإجابة على سؤال يقول: كيف أنّ أُولئك الذين آمنوا برسول الله (صلّى الله عليه وآله) في صدر الإسلام، ولازموه في غربته عندما لقي من المشركين صنوف الأذى، ووقفوا إلى جانبه في أحلك الظروف، كيف أنّهم، وبسبب بعض المسائل الفرعيّة، قد عاملوا النبيّ بجفاء، بل وقد استمرّ هذا الجفاء حتّى انتهزوا فرصة رحيله (صلّى الله عليه وآله) لينتقموا من أهل بيته (عليهم السلام): «فلمّا مضى المصطفى صلوات الله عليه وآله اختطفوا الغِرّة وانتهزوا الفرصة»[8]. وأنا أُوصيكم بقراءة ما ورد في الزيارة الجامعة لأئمّة المؤمنين بدقّة كي تقفوا على ما ورد فيها من التفاتات مفعمة بالعبر والدروس.

الدنيا أم الآخرة؟

لقد وردت في القرآن الكريم في هذا المجال آيات عجيبة في حقّ مَن دفعهم حبّ الدنيا إلى محاربة الأنبياء، والتنكّر للحقائق، والكفر: «ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ»[9]. فعندما دار الأمر بين لذّات الدنيا وسرّاء الآخرة قالوا: لا نبيع النقد بالآجل، فلنتمتّع اليوم بلذّات الدنيا ونرى ما سيحصل بعدئذ! يقول الباري عزّ وجلّ في سورة إبراهيم: «وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ»[10]. فإنّ عاقبة الذين يستحبّون الحياة الدنيا على الآخرة هي تحوُّل الآخرة في نظرهم إلى شيء ثانويّ وخياليّ، وغير ذي أهمّية، فلا يلقون له بالاً، حتّى وكأنّه أمر خياليّ!

«وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا» أوَلَم يُعط الله آياته لبلعم بن باعوراء؟ لكنّه عدّها قشراً وانسلخ منها، ورجّح لذّات الدنيا على كلّ شيء، وبات كأنّه لا يرى شيئاً سوى الدنيا، وعندما كانت الآخرة تُذكر أمامه كان يستهزئ بها!

فإذا نحن صرفنا كلّ همّنا في الدنيا فما الذي سيحصل لآخرتنا؟ أوَلا ينبغي أن نهتمّ بالآخرة؟ هذا هو منطق القرآن الكريم في مقابل منطق أُولئك الذين يستحبّون الحياة الدنيا على الآخرة. وقد تمّ التأكيد في هذا الحديث القدسيّ أيضاً على أنّه لو كان في قلب المرء ذرّة من حبّ الدنيا ورئاستها فإنّني سأجتثّ حبّي من قلبه. فكلّ فساد هو من حبّ الدنيا، وكلّ كفر هو ناشئ عن حبّ الدنيا. وكما أنّه تعالى قال: «وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ» فقد قال في موضع آخر: «فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَٰوةَ الدُّنْيَا»[11]؛ فالذين أعرضوا عن ذكرنا ليس لهم من حاجة سوى الحياة الدنيا. ولم يقل عزّ وجلّ هنا: هؤلاء ينكرون الآخرة، بل قال: إنّ قلوبهم لا تطلب إلاّ الحياة الدنيا، فأعرض عنهم. ثمّ يتابع الباري جلّ وعلا متهكّماً: «ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ»[12]؛ أي إنّ فهمهم لا يبلغ أكثر من هذا الحدّ! كما انّه يقول في آية أُخرى: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ»[13]؛ فعندما يدور الحديث حول الآخرة ينتهي علم هؤلاء ويقولون: لا نعلم! «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا»، فهم يتظاهرون بعدم العلم بدايةً، في حين أنّهم يشكّكون في الآخرة. ثمّ يقول في هؤلاء: «بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ»؛ أي: هؤلاء عُمْي لا يرون الآخرة.

فنتيجة استحباب الدنيا على الآخرة تكون أولاً الجهل، ثمّ الشكّ، ومن ثمّ العَمَى، ذلك أنّ أبصار أمثال هؤلاء ممدودة إلى الدنيا، فهم لا يبصرون الآخرة. «فَإِنَّهَا لا تَعْمَىٰ الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»[14]؛ فالعمى الحقيقيّ هو عمى القلب عندما لا يعود يرى الحقائق، ويتعلّق بالأُمور العابرة التافهة لهذه الدنيا، ويغضّ الطرف عن الحقائق الثابتة. فهذا لعمري عَمىً. «وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً»[15].

!الفقراءُ الإلهيّون
40

إشارة

تناولنا في المحاضرات الماضية بحثاً في مقاطع من حديث المعراج القدسيّ دار محوره الرئيسيّ حول محبّة الله وقد طُرِحَت فيه أُمور من قبيل: كيفيّة تهيئة الأرضيّة في قلب الإنسان لتحقّق محبّة الله، وشروط بقاء هذه المحبّة، والآثار الناجمة عنها، والأمارات التي يستطيع الناس من خلالها التمييز بين المحبّ الحقيقيّ والذي يدّعي المحبّة كذباً. كما أشرنا في سياق البحث إلى قضيّة أنّ المحبّة هي حقيقة حيثما وُجدت، شعّ نورُها على آثارها وتوابعها ولواحقها. فالذي يحبّ امرأً سيحبّ متعلّقاته بالضرورة؛ فإنّه يقبّل صورته، ويشمّ ثيابه، ويطوف بداره، ويتباهى بمدينته وبلده. ولا يعني هذا السلوك احتواء قلب هذا العاشق على ألوان متعدّدة ومتمايزة من الحبّ، بل إنّ جميع هذه الأشكال من إظهار الودّ هي أشعّة من محبّة صاحب الصورة والثياب والدار تشعّ من قلب المحبّ. فالذي يشغفه حبّ الله تعالى فإنّه سيحبّ أولياءه بطبيعة الحال. وليس الحبّ الأخير بمنفصل عن سابقه، بل إنّ شعاع المحبّة لله إنّما يسطع أيضاً على أوليائه. ومع قليل من التأمّل سندرك أنّ المغرَم بالله تبارك وتعالى هو محبّ بالضرورة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) .وآله الأطهار (عليهم السلام) من أجل حبّه لله

كذلك فإنّ حبّ الله عزّ وجلّ يتطلّب في بعض الأحيان معاداة بعض الناس. فليس في ميسورنا القول إنّ فلاناً من الناس يحبّ الله، لكنّه يحبّ عدوّه أيضاً! نعم قد لا يكون هذا الترابط واضحاً في بعض الأمثلة ويكون بحاجة إلى توضيح. كما أنّ التأكيد قد تمّ في حديث المعراج على حبّ بعض الأصناف من الناس، إلى درجة أنّه فسّر محبّة الله بمحبّتهم، لكنّ العلاقة بين حبّ الله وحبّ هؤلاء ليست واضحة المعالم. كذلك فإنّ التلازم بين محبّة الله ومعاداة المعاندين له ولدينه يمكن استيعابه بسهولة، إلا أنّه ليس على هذه الدرجة من الوضوح في بعض المواطن. ولعلّ تذكير حديث المعراج بهذه الأُمور يرجع إلى هذا .السبب. وسنتعرّض فيما يلي إلى واحدة من هذه الموارد

!محبّة الله مودَعة في محبّة الفقراء

وفي أدب العرب فإن «هي»، وهي ضمير الفصل، إذا .[1]«يا أحمد! إنّ المحبّة لله هي المحبّة للفقراء» دخلت على خبر معرَّف بالألف واللام فإنّها تفيد الحصر. أي: إنّ المحبّة لله هي نفسها المحبّة للفقراء. ولو

أنّ الله تعالى كان قد قال، عوضاً عن هذا الكلام: إنّ محبّة الله هي محبّة الأنبياء أو الأولياء، فسوف لا يصعب على المتلقّي فهم الترابط بين المحبّتين، لكنّ إدراك قضيّة أنّ محبّة الله مخبّأة في محبّة الفقراء هو أمر صعب. ولعلّ سؤال النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ربَّه عند سماعه هذا الكلام: «يا ربّ! ومَن الفقراء» .الذين محبّتهم هي عين محبّتك؟ يرجع إلى هذا السبب

يقول الله عزّ وجلّ جواباً لنبيّه الكريم: «الذين رضُوا بالقليل، وصبروا على الجوع، وشكروا على الرخاء، ولم يشكوا جوعَهم ولا ظمأَهم، ولم يكذبوا بألسنتهم، ولم يغضبوا على ربّهم، ولم يغتمّوا على ما فاتهم، ولم يفرحوا بما آتاهم». فالفقراء الذين محبّتهم هي عين محبّة الله هم المنزَّهون عن الطمع والجشع، والقانعون ببسيط العيش. ويُفهم من هذه العبارة أنّ محبّة الله لا تتماشى مع الطمع والجشع وحبّ التسلّط والاستعلاء على الآخرين. فالله عزّ وجلّ يقول في كتابه العزيز أيضاً: «تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا ؛ فعالَمُ الآخرة، بكلّ عظمته، قد جعلناه للذين لا [2]«لِلَّذينَ لا يُريدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَساداً يسعون إلى الاستعلاء في الأرض ولا يفسدون فيها، أي ليسوا من الذين يقارنون أنفسهم بالآخرين ويرون أنفسهم أفضل منهم. بالطبع هذه السجيّة، حالها حال غيرها من خصوصيّات ابن آدم، تنطوي على نزوع إلى اللانهاية ولا تُحَدّ في حدود ضيّقة، فلو سنحت للإنسان الفرصة فإنّه سيدّعي الأُلوهيّة. ألم فالعلوّ والاستعلاء كانت .[3]«يدّعِ فرعون الربوبيّة؟ وقد قال عنه ربّ العزّة: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ الصفة الرئيسيّة لفرعون، وهي الخصوصيّة التي تسبّبت – بالالتفات إلى الآية السابقة لتلك الآية – في حرمانه من سعادة الآخرة. وطبقاً للرواية الواردة في تفسير هذه الآية، فحتّى الذي يرغب في أن يكون لأنّه أيضاً ضرب من العلوّ ![4]رباط حذائه أفضل من رباط حذاء غيره فإنّه مشمول بهذه الآية والاستعلاء، وهي صفة ذميمة تسلب من المرء سعادة الآخرة حتّى وإن كان في مراتب العبوديّة الدنيا، فما بالك بالمحبّة الخالصة لله التي لا تستقرّ إلاّ في قلبٍ لا سبيل لكلّ ما سوى الله إليه. إنّها من صفات .الطفولة وهي لا تتناغم مع مقام المحبّة لله تبارك وتعالى

صفات أولياء الله

إنّ أُولى خصوصيّات الفقراء، الذين محبّتهم هي محبّة الله تعالى، هي قناعتهم بالقليل ونزاهتهم من صفتي الاستعلاء والطمع. لكن إذا عرضت ظروف حالت دون تلبية حاجاتهم الأساسيّة فما الذي سيحصل؟ إنّهم، حتّى في مثل هذه الظروف، لا يجزعون؛ «وصبروا على الجوع». بل إنّهم إذا توفّرت لهم سبل الرفاهية والرخاء لم ينسوا الله وشكروه على ما أسبغ عليهم من نعَمِه: «وشكروا على الرخاء». «ولم يشكوا جوعَهم ولا ظمأَهم»؛ كما أنّهم ليسوا من أهل الشكوى والتبرّم إذا نزلت بهم نازلة أو أحسّوا بالظمأ أو الجوع. وإذا اضطرّوا إلى عرض حاجتهم على الآخرين فإنّهم لا يلجأون إلى الكذب ولا يُلقون

الكلام جزافاً ولا يتجاوزون الواقع. والقرآن الكريم يصف هؤلاء الناس بالقول: «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ... لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً»[5]. فهؤلاء الفقراء يقاسون الأمرَّين حتّى لا يطّلع الآخرون على فقرهم وعندئذ يحسبونهم أغنياء. فعزّة أنفسهم وإباؤهم يردعانهم عن إراقة ماء وجههم وإظهار حاجتهم للآخرين. أمّا إذا اقتضت الضرورة الطلب من الآخرين، فإنّهم يكتفون بمقدار الضرورة ولا يكذبون. كما أنّهم لا يعاتبون ربّهم على الإطلاق، وينظرون إلى كلّ ما يحلّ بهم بوصفه تقديراً إلهيّاً وأنّه مبنيّ على حكمته عزّ وجلّ.

«ولم يغتمّوا على ما فاتهم، ولم يفرحوا بما آتاهم»؛ فعلى الرغم من ضنك العيش وسلب النعمة فإنّ أمثال هؤلاء لا يغتمّون، وهم يعتقدون بأنّ الله تعالى، ولمصلحةٍ ما، قد ائتمنهم على شيء حتّى إذا رأى أنّ من الصلاح استرجاعه منهم عاد فاسترجع أمانته. من هذا المنطلق فإنّهم لا يضطربون ولا يمسكون بتلابيب الآخرين على خلفيّة سلب نعمة ما، بل إنّهم لا يفقدون توازنهم عندما تُنَزّل عليهم نعمة عظيمة. يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلا تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُواْ بِمَا ءَاتَاكُمْ»[6]؛ فكلّ نازلة تحلّ بكم إنّما هي مُعَدّة مسبقاً ووفق حسابات دقيقة ومستنِدة إلى حكمة الله عزّ وجلّ المدوَّنة في سجل، وذلك لكي لا تفقدوا توازنكم إذا أصابتكم نعمة، ولا تجزعوا ولا تستسلموا للعويل والبكاء إذا ابتُليتم بمصيبة. فإنّ نِعم الله والبلايا هي – على حدّ سواء – أسباب لامتحان العباد، ونابعة من حكمة وهي مُقَدَّرة ومحسوبة بدقّة. فالذين يتّصفون بهذه الخصال وينتهجون هذا النهج هم الفقراء الذين تُعَدّ محبّتهم محبّة الله.

لماذا الفقراء؟

ثمّ يعود البارئ تبارك وتعالى ليؤكّد مرّة أُخرى، في سياق الحديث نفسه، على أنّه: «يا أحمد! محبّتي محبّةٌ للفقراء». والسبب من وراء التأكيد على محبّة أمثال هؤلاء هو تأثّر الإنسان بخصالهم الحميدة عن طريق صحبتهم. فإنّ من الأُمور الثابتة في علم النفس هي أنّ الإنسان يتأثّر بمن حوله ومن يعاشرهم حتّى انّ عاداتهم وسجاياهم وسيرتهم تنتقل إليه، لاسيّما إذا اقترنت هذه العلاقة بالعاطفة. ولهذا السبب، فإنّ الله تعالى، ومن أجل أن يربّي عباده، ويمهّد لنموّ هذه الصفات الحميدة في أنفسهم، فإنّه يوصيهم بمحبّة المتّصفين بمثل هذه الصفات وتوطيد العلاقة بهم.

ومن المناسب هنا أن نطرح أُنموذجاً من سلوك هؤلاء العظماء. يروي المرحوم الشيخ عبّاس الطهرانيّ الذي كان من تلامذة الميرزا جواد آقا ملكي التبريزيّ قائلاً: كان أُستاذنا — مَثَله مَثَل الكثير من العلماء

الآخرين – يولي اهتماماً بالغاً بإحياء عيد الغدير وكان يقيم فيه الاحتفالات ويدعو الناس إلى مائدته. وقد ذهبنا مرّة إلى منزله (رضوان الله تعالى عليه) في يوم الغدير لنبارك بالعيد وإذا بصوت بكاء وعويل يرتفع فجأة من القسم «الداخلي» من البيت. وقلق جميع الضيوف من ذلك. فدخل المرحوم ملكي إلى الداخل وقام بتهدئة أهل الدار، لكنّه بعد أن عاد انهمك في ضيافة القادمين ومتابعة الحفل من دون أن يفصح عن شيء. وبعد انتهاء الحفل وعندما همّ الضيوف بالمغادرة، انبرى المرحوم الميرزا جواد إلى القول للحضور: «إذا كنتم راغبين بالمشاركة في تشييع جنازة أحد الشبّان وكسب الثواب من ذلك فهلمّوا». فهرع الجميع مندهشين إلى السؤال عمّا حصل، فإذا بالميرزا يقول من دون أن تبدو عليه أمارات الاستياء: إنّ ابنه الشابّ، الذي كانت تربطه به علاقة حميمة، قد فارق الحياة!

هكذا هم عباد الله الذين تكون محبّتهم من محبّته سبحانه؛ فلا يصيبهم الجزع والفزع عند الشدّة، ولا يستولي عليهم الغرور إذا غمرتهم النعم. فالله تعالى يوصينا بمعاشرة أمثال هؤلاء.

كما أنّه من الواضح — من ناحية أُخرى — أنّ الفقراء لا يحظون باهتمام كبير من قبل الناس، إذ لا يجد المرء ما يدفعه إلى احترامهم، خلافاً للأثرياء وأصحاب المناصب والمكانات، فإنّ الجميع يتهافتون على صحبتهم ورفقتهم طمعاً في مالهم أو انتفاعاً من مكانتهم. فإنْ أحَبّ امرؤ فقيراً فليس لفقره، بل من أجل ما يلمس فيه من حميد الصفات، وطيب السجايا، وهو ما يجعل هذا النمط من المحبّة مصوناً من آفة الرياء وحبّ الدنيا والأغراض الشخصيّة وأقرب ما يكون إلى الإخلاص.

أمّا الخصوصيّة الثالثة لمحبّة الفقراء فإنّه خلافاً لما يعتقده البعض من أنّ الفقر هو سبب المعاصي والذنوب، فإنّ أسباب المعاصي هي أقلّ توفُّراً للفقراء منها للأغنياء. صحيح أنّ المجرم العاصي إذا ابتُلي بالفقر خلق مشاكل جديدة، لكن هل يا ترى انّ كلّ فقير فهو مذنب ومجرم؟ فإنّ ادّعاء كهذا يتعارض مع منطق القرآن الكريم الذي يقول: «كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ»[7]. فإذا ما أحسّ الإنسان بالاستغناء تراه يتّخذ مسير العصيان والطغيان ويتفلّت من مراعاة العدل والإنصاف.

بناءً على ما تقدّم فإنّ محبّة الفقراء تنطوي على ثلاث خصوصيّات إيجابيّة ومفيدة للإنسان: فهو يتأثّر بصفاتهم الصالحة إذا عاشرهم أوّلاً، وإنّ هذه العلاقة والمحبّة هي أقرب إلى الإخلاص ثانياً، وإنّ معاشرتهم تضيّق المجال أمام المرء لارتكاب المعصية ثالثاً. ومن أجل ذلك فإنّه جلّ وعلا يوصي نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) في هذا الحديث القدسيّ بقوله: «يا أحمد! محبّتي محبّةُ للفقراء، فأَدْنِ الفقراءَ وقرّب مجلسَهم منك»؛ أي قرّب الفقراء منك وافتح أمامهم أبواب مجلسك؛ فحذار من أن تدفعك أسمال شخصٍ البالية

إلى طرده من حضرتك. كما يتعيّن عليك في المقابل أن تنأى بنفسك عن الأغنياء: «وبعّد الأغنياءَ وبعّد مجلسَهم منك، فإنّ الفقراء أحبّائي».

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا إلى الإفادة من معارف أهل بيت نبيّه الكريم (صلوات الله عليهم أجمعين) على أتمّ وجه والعمل بها في حياتنا اليوميّة.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

العلاقة بين الزهد والنهوض الاقتصاديّ

41

إشارة

تعرّضنا في المحاضرات الفائتة إلى توضيح مقاطع من حديث المعراج القدسيّ دار محورها الأساسيّ حول محبّة الله وأوليائه وبغض أعدائه. وقد تكلّمنا في الليلة الماضية في عبارة: «إنّ المحبّة لله هي المحبّة للفقراء»[1] وغيرها من التي توصي بالتقرّب من الفقراء وحبّهم، ومجانبة الأغنياء. وقد ورد في حديث المعراج مراراً التأكيد على اجتناب لذائذ الدنيا وعلى بغضها، وكذا احترام الفقراء في المقابل حتّى عدّ محبّة الله هي عين محبّة الفقراء في قوله: «إنّ المحبّة لله هي المحبّة للفقراء».

هذا وقد رُوي في سيرة أهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين)، لاسيّما سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام) سلوك من الزهد والإعراض عن الدنيا ممّا يثير العجب حقّاً. فقد استعمل الإمام عليّ (صلوات الله عليه) في كتابه إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف تعابير هي غاية في الغرابة في هذا المجال، فقال فيما قاله: «وإنّما هي نفسي أَرُوضها بالتقوى لتأتي آمنة »[2]، «فما خُلِقتُ لِيشغَلَني أكلُ الطيّبات يوم الخوف الأكبر»، أي يوم القيامة، «إنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمرَيه ومن طُعمِه بقُرصَيه»، أي إنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بثوبين باليين ومن طعامه برغيفين من الشعير، في حين أنّه كان لو شاء وفّر لنفسه أفضل الأطعمة وأشهاها. كما أنّه (عليه السلام) يقول في موضع آخر: «وَأيْمُ الله... لأَرُوضَنّ نفسي رياضةً تَهِشّ معها إلى القرص»، أي لأجوّعنّ نفسي جوعاً حتّى تلتذّ برغيف الشعير الجاف. لكن أين نحن من هذا يا ترى؟! فنحن نُفلت زمام أنفسنا إذا وقعت أبصارنا على أطعمة متنوّعة شهيّة. ومن أجل ذلك يقول أمير

المؤمنين (عليه السلام): «أَلا وإنّكم لا تقدرون على ذلك» فأنا أعلم أنّكم لا تستطيعون العيش مثلي ولكن حاولوا أن تتشبّهوا بي على الأقلّ «ولكن أعينوني بورع واجتهاد». وقد روي في موضع آخر أنّه (عليه السلام) عندما أدلى بآخر خطبة له قبل شهادته كان قد برز إلى الناس بجبّة من صوف، ينتعل حذاء من ليف النخل، وجبينه كأنّه ثفنة بعير، وقد ارتقى صخرة [3]. هذا هو زهد عليّ (عليه السلام).

أمّا اليوم فهناك من يشكّك في هذه الممارسات وينبري، بذريعة التنمية الاقتصاديّة والتطوّر، إلى توجيه الانتقادات اللاذعة لمدرسة الإسلام وثقافته بسبب اهتمامهما بمثل هذه القضايا.

الزهد، أم النهوض الاقتصاديّ؟

هنا يكمن سؤال: إنّ التمسّك بتعاليم القرآن الكريم والسنّة الشريفة والنظر إلى الحياة الدنيا بوصفها لعباً ولهواً، وعدم الاكتراث بها، وعدّها وسيلة للخداع، هل ينسجم مع التنمية والتطوّر؟ فكيف يمكن الجمع بين بغض الدنيا وأهلها، وهو ما قامت عليه السيرة العمليّة لأهل بيت النبوّة (صلوات الله عليهم أجمعين) وبين السعي في طريق التنمية الاقتصاديّة؟

لقد استغلّ مناهضو الدين هذا النمط من المسائل للنيل منه، خاصّة الدين الإسلاميّ، وأشاعوا في دعاياتهم بأنّ الثقافة الدينيّة والمتديّنين يقفون حجر عثرة أمام التقدّم، ذلك أنّ الدين وتطوّر الحياة، في نظرهم، ضدّان لا يمكن الجمع بينهما. ولعلّ البعض يتذكّر كيف أنّ بعض المنظّرين كانوا، في الأيّام الأُولى التي تلت انتصار الثورة الإسلاميّة، يروّجون علناً في كتاباتهم وتصريحاتهم لمسألة أنّ التطوّر الذي شهده الغرب على الصعيد الاقتصاديّ والعلمي والصناعيّ يقتضي ثقافة خاصّة لا مناص منها؛ فإنّ تراجع الحجاب أو تفشّي ظاهرة السفور، واختلاط الجنسين، وحالة التسيّب والتحرّر من القيود، وتفتّت الأُسرة، بل وحتّى المثليّة هي من اللوازم الثقافيّة للحياة الراقية الحديثة، وأنّه يتعيّن على كلّ مَن يسعى في سبيل التطوّر أن يقبل بلوازمه، وانّ كلّ مَن يرفض هذه الثقافة فإنّه لا مفرّ أمامه سوى القناعة بالحياة الرجعيّة التي تعود إلى عهد ما قبل الحداثة، ففي ميسور شخص كهذا أن يقنع من طعامه بالخبز والجبن ويمارس عبادته ويتمسّك بمعنويّاته بزهد. هذا الكلام ظلّ يُرَدَّد في بلدنا ويُكرَّر بإصرار من قبل البعض وبصور مختلفة منذ ثلاثين عاماً وإلى يومنا هذا أملاً في أن يجد لنفسه موطئ قدم في المجتمع. ولذا فإنّ من المناسب التطرّق لهذه القضيّة ودحض هذه الشبهات. بالطبع لقد تمّ الردّ على مثل هذه الشبهات مراراً وتكراراً وبأساليب شتّى، لكن بالنظر إلى استمرار طرحها من قبل وسائل الإعلام المكتوبة والالكترونيّة، نرى من الضروريّ تناولها من جديد.

إنّ الاهتمام بالأُمور الدنيويّة وبذل الجهود على الصعيد الصناعيّ والعلميّ والتكنولوجيّ له أبعاد مختلفة يتعيّن مناقشة كلّ واحد منها على حدة، وإنّ جانباً من هذه القضيّة يتمثّل في النظرة التربويّة إلى هذا الأمر.

لقد سبق أن ذكرنا بأنّه عندما يُمتدَح أو يُذَمّ أمر ما في الأحاديث الشريفة من دون أخذ الموارد الأُخرى في نظر الاعتبار فلا يمكن التمسّك بإطلاق هذه الروايات أو عمومها، ذلك أنّ أغلب الروايات المذكورة ليست هي في صدد بيان التفاصيل، بل إنّها تتصدّى لطرح الموضوع الأساسيّ بصورة القضيّة المهمَلة، أمّا بيان ظروف القضيّة، وأجزائها، وسائر تفاصيلها فيوكل إلى البحث والمناقشة المسهبتين في محلهما المناسب.

ففيما يخصّ الأمر بالصلاة فقد أمر الله تبارك وتعالى في آيات من الذكر الحكيم بإقامة الصلاة بصورة عامّة، كقوله: «أَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ»[4]، وقوله: «يُقيمُونَ الصَّلَوٰةَ»[5]، أمّا بيان أجزائها وتفاصيلها فقد عهد به إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله). فمهمّة النبيّ والأئمّة المعصومين من ولده (صلوات الله عليهم أجمعين) هي: «لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»[6]. وإنّ صعوبة مهمّة الفقيه تكمن في هذه النقطة تحديداً، وهي أنّ تفاصيل المسألة الواحدة ليست مذكورة في مكان واحد، بل هي مبعثرة في مواضع شتّى بما يتناسب مع مقتضيات وظروف الزمان والمكان والمخاطب. إذ يتعيّن على الفقيه جمع هذا الشتات وتحديد الارتباط بين أجزائه كي يتسنّى له الإفتاء. ومن الواضح أنّ هناك لكلّ فتوى قيوداً واستثناءاتٍ يتطلّب كلّ واحد منها بحثاً ودراسة منفصلة. وكذا هو الحال في المسائل الأخلاقيّة مثل: «أبغِض الدنيا وأهلَها»[7].

اختلاف قابليّة الأشخاص في انتفاعهم من الدنيا

وللإجابة على الأسئلة أعلاه فلابدّ أن نعرف ما هي الدنيا، ومن هم أهلها؟ وهل انّ الدنيا هي هذا العالم وانّ أهلها هم الذين يحيون فيه؟ وهل يستحقّ الإنسان المؤمن الذي يحمل معتقدات صائبة لكنّه وقع فريسة الذنوب لأيّ سبب كان، هل يستحقّ اللعنَ والسبّ، وهل يحقّ لنا سلوك أُسلوب مشين معه؟ وهل يتعيّن علينا نحن أيضاً أن نتشبّه بعليّ (عليه السلام) فيما عاشه من حياة زهد وبساطة؟ وهل إنّ كلّ من يملك داراً واسعة وسيّارة فخمة وحياة مرَفّهة فهو من أهل الدنيا وأنّ علينا تصنيفه في خانة الأعداء؟ وهل الزاهد هو كلّ مَن لا يملك داراً جيدة أو حياة مناسبة، ويكون أشعث الشعر، بالي الثياب، لا يملك قوتاً يأكله؟ أوَيستطيع كلّ امرئ أن يعيش عيشة عليّ وفاطمة (سلام الله عليهما) ويكابد كلّ هذه المحن والمشقّات؟ وكيف يتسنّى لنا الجمع بين هذه التوصيات والروايات التي توصي

بالتوسيع على العيال وتأمين عيش رغيد، وتهيئة أسباب السكينة والرفاهية لهم؟ أَوَليس من شأن التشدّد الفائق عن الحدّ أن يؤدّي إلى يأس الناس من الدين والثقافة الدينيّة وسوء ظنّهم بهما؟

ولعلّ هذه القصّة قد طرقت أسماعكم، وهي أنّ رجلاً مسلماً، وبعد مدّة من النقاش والحوار، تمكّن من إقناع جاره النصرانيّ باعتناق الإسلام. فما كان منه، وصاحبه لازال جديد العهد بالإسلام، إلا أن أيقظه من رقدته في جوف الليل ليصطحبه إلى المسجد لأداء صلاة الليل. فرافقه المسلم الجديد إلى المسجد وظلّ حتّى طلوع الصبح مشغولاً بصلاة الليل والمناجاة. وبعد ارتفاع الأذان وإقامة صلاة الصبح همّ المسلم الجديد بالذهاب إلى بيته لكنّ صاحبه استوقفه طالباً منه البقاء في المسجد لأداء التعقيبات حتّى طلوع الشمس، ففعل. وفي الليلة التالية وعندما شخَصَ المسلم إلى بيت صاحبه لإيقاظه قال له صاحبه: إنّ لديكم ديناً حسناً، لكن ليس لأمثالي، فإنّ لي عيالاً وانّ عليّ أن أكدّ لتأمين معاشهم. فلو أنّني أمضيت الليل بطوله حتّى الصباح في العبادة معك في المسجد فسوف لا أجد في نفسي القوّة على العمل. فدينكم ينفع العاطلين عن العمل! فروى بعض الشيعة هذه القصّة للإمام الصادق (عليه السلام) ؛ يعني إنّ هذا الرجل المسلم قد أخرج هذا الشخص النصرانيّ [8]«فقال: «أَدخَلَه في شيء أَخرَجَه منه من الدين من حيث أدخله. فإنّ هيئة الزهد والتشدّد التي عرضها عليه للإسلام قد دفعته إلى تركه. وهذا يعني أنّه لابدّ من معرفة قابليّة الأشخاص أوّلاً، ومن ثمّ تزويدهم بالمنهج السلوكيّ المناسب لكلّ واحد منهم. بالطبع إنّ إظهار القمّة التي تبيّن اتّجاه المسير والسلوك أمر حسن، لكن لا ينبغي تصوّر أنّ بإمكان كلّ فرد أن يبلغ هذه القمّة من البداية. فالقمّة هي زهد عليّ (عليه السلام). لكن لا ينبغي أن نتصوّر أنّ بإمكاننا العيش كما عاش هو (عليه السلام). فامرأة الزاهد وأولاده لا يستطيعون بالضرورة .العيش مثله. إنّ سوء تربيتنا جعلنا لا نفيد من القيم بالشكل المناسب والصحيح

فالشخص المؤمن المعتقد بالله واليوم الآخر لا ينبغي أن يكترث بالحياة الدنيا ولذّاتها. بالطبع إنّ لهذه المسألة مراتبَ، فليس الجميع في مستوى واحد. فعلى كلّ امرئ أن يقيس مدى قابليّته ولا يحمّل نفسه فوق طاقتها. فتحميل النفس فوق طاقتها يورث مرضاً في البدن، وأذىً في النفس، أو خللاً في معاشرة الآخرين. فصحيح أنّ علينا الابتعاد عن أهل الدنيا وأصحاب المعاصي، لكن أَوَيعني هذا الكلام النأي بالنفس عن جميع الناس والعزلة في كهف؟

فلا ريب أنّ هذا السلوك ليس هو السلوك الذي ينشده الإسلام. فالمبدأ الثابت هو أن يبذل الإنسان في حياته جهده، ما أمكن، لئلاّ يتعلّق بلذّات الدنيا، وأن ينمّي قابليّته الأُولى، الحاصل عليها نتيجة التربية الأُسريّة التي انشئ عليها في هذا المجال، أن ينمّيها باتّجاه اكتساب العلوم الدينيّة والأُنس بالآيات القرآنيّة

والروايات الشريفة. لكنّ عليه أن لا يوغل في هذا الطريق أكثر ممّا ينبغي. بيد أنّ هذا الكلام لا يعني أن يتوقّع من الآخرين أن يحذوا حذوه أيضاً.

الزهد في الحياة الفرديّة مع السعي لتلبية حاجات الآخرين وتحقيق عزّة المجتمع المسلم

لقد راضَ الإمام عليّ (عليه السلام) نفسَه بالجوع حتّى غدت لقمة خبز الشعير اليابس لذيذة لها، لكنّه لم يكن غير مبال بأمر الدنيا، بل كان دائماً في حالة كدّ ومثابرة؛ كان يحفر البئر حتّى يبلغ الماء ومن ثمّ يوقفه، ولازالت بعض هذه الآبار موجودة في المدينة المنوّرة وتسمّى «آبار عليّ».

فمراد أمير المؤمنين من توصياته تلك هو أن يقنع ابن آدم بالقليل من نعم الدنيا ولذّاتها ولا يتعلّق بها، وليس أن يذر العمل والسعي وينزوي إلى ركن منهمكاً في الذكر والعبادة. فإنّ السعي من أجل التقدّم المادّي والاقتصاديّ، وسدّ مثل هذه الحاجات، والحيلولة دون إذلال المسلمين، والسعي لتحقيق عزّتهم، لَهي – بالعنوان الثانويّ – تكليف واجب ومن العبادة. المهمّ هو أن لا يتعلّق الإنسان بالحياة الدنيا ويضع طلب لذّاتها نصب عينيه. فممارسة العمل، وخدمة الرعيّة، والنظر في أحوال الجيران والفقراء، والتوسيع على العيال، هي من جملة واجبات المؤمن. أوَلم توصِ الأحاديث المسلمينَ بالسؤال عن أحوال جيرانهم إلى أربعين جار، وتحضّ على حلّ مشكلاتهم؟ وهل يمكن، عن طريق الدخل المحدود الذي لا يكفي حتّى لسدّ حاجة الشخص نفسه، أن يحلّ المرء مشكلات أربعين أُسرة يا ترى؟

يُحكى أنّ شخصاً شكى لأحد الأئمّة الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين) حاجته فقال (عليه السلام) لخادمه: «كم عندنا من المال في الدار»؟ فقال: عشرة آلاف درهم. فقال (عليه السلام): «اعطها له». والحال أنّ السائل كان يرضى بألف درهم، ومع ذلك قال الإمام: اعطه كلّ ما لدينا في الدار. وهذا يعني أنّ حال الإمام المادّية جيّدة لكنّه، في الوقت ذاته، لا يتعلّق بما يملك.

روي أنّ يهوديّاً كان يرتدي الأسمال البالية قابل الإمام الحسن (صلوات الله عليه) وهو راكب على فرس جميلة. فقال اليهوديّ للإمام: «جدّك يقول: إنّ الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر»، فلماذا أعيش، وأنا لست على دينك، حالة الفقر والبؤس وتعيش أنت المؤمن في رفاهية ودعة؟ أوَتكون هذه الدنيا جنّة لي، أم هي جنّة لك؟ فقال الإمام (عليه السلام) في جوابه: «لو علِمتَ ما لك وما يرقُب لك من العذاب لَعلِمتَ أنّك مع هذا الضرّ هاهنا في الجنّة، ولو نظرتَ إلى ما أُعدّ لي في الآخرة لَعلمتَ أنّي مُعَذّب في السجن هاهنا»[9].

والمراد من هذا كلّه هو أنّ الروايات التي تحذّر المؤمن من حبّ الدنيا وتوصيه ببغض أهلها ليس هدفها أن يعيش المؤمن في ضنك من العيش. أَوَلم يدعُ نبيّ الله سليمان (عليه السلام) ربّه: «وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي»[10] ؟ فإنّ عظمة وجلال ملك سليمان (عليه السلام) كانا على جانب من الضخامة بحيث كان لكلّ حيوان، وكلّ فرد من الجنّ، والإنس موضع خاصّ في حضرته، حتّى أنه مكان طائر واحد مثل الهدهد كان يُعلَم بكلّ سهولة إذا خلا عند غيابه. لكنّ نبيّ الله سليمان لم يكن متعلّقاً بتلك الأُمور، فقد كان يحوك الحصران بيديه ويعيش من دخل عمله ويكتفي من الطعام بخبز بسيط. أمّا ملكه فكان (عليه السلام) يستخدمه لإشاعة دين الله تبارك وتعالى، وتعظيمه في مقابل الكفّار.

ومن هنا فإنّه ليس ثمّة من صلة بين الحياة الشخصيّة، وخدمة المجتمع، وإنّ لكلّ واحد منهما حكمه الخاصّ المنفصل. فعندما تقتضي الظروف إظهار عزّة الإسلام أمام الكافرين والدول المستعمرة فإنّه تُستحدَث للمرء تكاليف هي غير الواجبات الشخصيّة، ولا يمكن التهاون فيها بدعوى توصية الإسلام بحياة الزهد والقناعة بخبز الشعير. ففي ذات الوقت الذي كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يعيش حياة الزهد والفاقة كان الإمام الحسن (عليه السلام) يعيش حياة مرفّهة. بالطبع كان يستغلّ ثروته تلك في رفع حوائج الفقراء والمعوزين، أمّا هو فكان يذهب إلى الحجّ مشياً على الأقدام! فالإمام عليّ (عليه السلام) كانت في رقبته مسؤوليّة إدارة الأُمّة الإسلاميّة، وكان يتحتّم عليه أن يحيا بطريقة يستطيع كلّ مسلم يعيش تحت لواء دولته أن يحيا مثله؛ ناهيك عن أنّه كان يعيش حياة الزهد كي لا يهفو قلبه إلى الدنيا ولذّاتها.

إذن لابدّ من الفصل بين الأمرين؛ فالتوصية بالزهد وبحبّ الفقراء هي قضيّة أخلاقيّة وتربويّة غايتها ردع الإنسان عن إهانة الفقراء وتحقيرهم بدافع من غرائزه الحيوانيّة. فلابدّ للفقير من أن يُحترَم كي لا يشعر بالذلّ والمهانة، وليعلم أنّ إسلامه يمثّل قيمة بالنسبة له. لكنّ إشاعة هذه القضيّة الأخلاقيّة لا ينبغي أن يحول دون القيام بالواجبات؛ فلا تقع مسؤوليّة حماية الفقراء على عاتق الحكومة فحسب، بل يتعيّن على كلّ فرد في المجتمع، بما أُوتي من وسع، أن يبذل في هذا السبيل جهده، وليس لأحد كائناً مَن كان أن يتنصّل عن أداء واجبه بحجّة توصية الدين بالزهد والتقوى.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ثمار عدم التعلّق بالدنيا

42

إشارة

لقد جرى التأكيد مراراً في فقرات حديث المعراج التي تمّ بحثها في المحاضرات الفائتة على قضيّة أنّ محبّة الله تعالى لا تنسجم مع حبّ الدنيا وأنّ الذي يبغي الخوض في وادي محبّة الله عليه أوّلاً أن يصغّر الدنيا في عينه وينظر إليها بعين الاحتقار: «تهون عليه الدنيا»[1]. ثمّ يؤكّد الباري جلّ وعلا في ختام الحديث على أنّه لا مكان في جِواري لمن أجدُ في قلبه مثقال ذرّة من حبّ الدنيا ولذّاتها ورئاستها وزينتها، بل: «ولأَنزعَنّ من قلبه محبّتي».

ولقد قدّمنا في المحاضرات الماضية توضيحاً لسبب التعارض بين محبّة الله وحبّ الدنيا، لاسيّما وأنّ حبّ الدنيا يكون في بعض المواطن مصحوباً بالهوى. بالطبع لقد تمّ التشديد أيضاً، وبشكل منفصل، على عدم التلاقي بين الهوى ومحبّة الله عزّ وجلّ، حيث بيّن الحديث أنّه يتعيّن على الذي يسعى لاكتساب محبّة الله أن يحارب هواه.

وهنا تكمن بضع نقاط يتطلّب تناولها من جميع أبعادها بحثاً مسهباً وشاملاً، لكنّنا سنشير إليها مجرّد إشارة لرفع بعض ما يكتنفها من لبس.

بُغض الدنيا، أم اجتناب أدناسها؟

أمثال حديث المعراج الشريف هي أشبه بالوصايا العامّة التي يقدّمها طبيب حاذق لعامّة الناس من أجل المحافظة على السلامة والصحّة. فالطبيب في مثل هذه المواطن يحذّر الناس بشكل عامّ من معاشرة مَن يحتمل أن ينقل المرض إلى الآخرين. فالنهي عن معاشرة أمثال هؤلاء المرضى لا يعني بالضرورة أنّهم يحملون مشاعر عداء تجاه الناس، بل هو تحذير من أنّ هذا المريض – الذي قد يكون من أعزّ أصدقائك – هو في ظرف وحال يجعل انتقال مرضه إليك لدى اقترابك منه أمراً محتمَلاً. بطبيعة الحال من الممكن أن يبيّت المريض، بدافع العداء، النيّة لنقل الأمراض للآخرين عن عمد وقصد، غير أنّه لا علاقة لهذا الأمر بتوصية الطبيب.

من هنا فإنّ النصائح والتوصيات التي يسديها الله تعالى وأولياؤه والمربّون الإلهيّون بتجنّب بعض الأشخاص والنأي عنهم لا تعني بالضرورة أنّهم يضمرون أحاسيس العداء تجاه الآخرين. نعم من الممكن أن يكون هناك من بين هؤلاء مَن ينوي حقّاً إضلال الناس أيضاً، كما أقسم إبليس الملعون بأنّه سوف يغوي بني آدم ويستميلهم: «لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ»[2]. وقد يعمد البعض أيضاً في هيئته الإنسانيّة إلى التصرّف كشيطان. لكن ليس كل مَن نُهي الناس عن معاشرته يضمر العداء لغيره ويحاول إضلاله. فبقطع النظر عن قصد الأشخاص ونيّاتهم فإنّه يتعيّن على المرء أن يجتنب كلّ مَن يؤدّي التواصل معه إلى

الضلال والإثم، وأن يحذر التأثّر من حالاته الضارّة. كما يتحتّم عليه أن يحاول، مهما أمكن، إعادة كلّ من تورّط بالضلالة إلى جادّة الصواب وإعانته على إصلاح نفسه.

وكما ذكّرنا في المحاضرات الماضية فإنّ أحد موارد الانتفاع من الدنيا يرتبط بحقائقها العينيّة، وهو ممّا لا يستحقّ الذمّ. وبالالتفات إلى هذا الأمر فإنّ النهي عن الدنيا لا يعني اجتناب موجوداتها؛ ذلك أنّ نفس هذه الموجودات تُعدّ ضروريّة لابن آدم، بل إنّ حبّ الدنيا والتعلّق بها هو المضرّ. كما أنّ التواصل مع أُولئك الذين تجذّرت محبّة الدنيا في قلوبهم حتّى أنستَهُم ذكر الله والحياة الأبديّة قد يبعث على ابتلاء المرء بنفس هذه الآثار السيّئة. فإنّه من هذا المنطلق نُهي عن معاشرة أمثال هؤلاء لئلاّ تجرّ معاشرتهم ومجالستهم إلى تغلغل حبّ الدنيا في قلب الإنسان فينسى، بسببه، ذكر ربّه واليوم الآخر.

ومن الطبيعيّ أن يكون الإنسان مضطرّاً في معاشرته الآخرين إلى مداراتهم إلى حدّ من الحدود، الأمر الذي قد يوجب تأثّره – تدريجيّاً – بسلوكهم المشين ويخلق في نفسه تحوّلاً في نهاية المطاف. وكما يقول أحد مربّي الأخلاق: الرفيق أشبه بعضلات البلعوم؛ فكما أنّ الأخيرة تُيَسّر على الإنسان عمليّة ابتلاع الطعام، فإنّ الرفيق يسهّل على المرء اعتماد أشكال مختلفة من السلوك، سواء الحسَن أو القبيح. فالصديق له دور مهمّ في تعلّم المرء بعض ألوان السلوك وتثبيتها في نفسه. ولهذا السبب فقد جاء النهي عن معاشرة أهل الدنيا. كما ورد التأكيد – في المقابل، ومن أجل الرُقيّ معنويّاً – على مجالسة من: «تذكّركمُ اللهَ رؤيتُه»[3].

اجتناب الدنيا وأهلها

لقد ذكرنا في المحاضرات السابقة أنّ المراد من أهل الدنيا هم أُولئك الذين سيطر حبّهم للدنيا على قلوبهم، فصاروا من المغرمين بها، وأصبحت لذّاتُها الفانية كلَّ همّهم وغمّهم، فغفلوا بذلك عن ذكر الله واليوم الآخر، ونسوا العلّة التي من أجلها خُلقوا، وكيف ستكون عاقبتهم.

والسبب من وراء تكرارنا هذه الأُمور هو أنّنا كلّما تحدّثنا عن بغض الدنيا والزهد بها ونبذ المادّيات تصوّر البعض خطأً أنّ القصد من ذلك هو اختيار الكهوف سكناً، واعتزال الخلق، وعدم السعي من أجل التقدّم العلميّ والصناعيّ والاقتصاديّ وبلوغ الدرجات الرفيعة من التحضّر. وقد أشرنا سلفاً إلى أنّ الزهد لا يعني ترك العمل والمثابرة، ولا يشكّل عائقاً أمام التطوّر في مختلف الميادين. بل إنّ ما يمنع الجدّ والاجتهاد للوصول إلى المدارج العالية للرقيّ والرفعة هو – تحديداً – التعلّق بالدنيا ولذّاتها.

وفي ميسورنا الوقوف على شواهد جمّة لهذه المسألة، وهي إمكانيّة أن تكون للمعاشرة آثار حسَنة أو سيّئة، وأنّ النهي عن بعض أنماط المعاشرة المضرّة نابع عن الحكمة. ففي أحد أسفاري إلى الولايات المتّحدة من أجل إلقاء محاضرة في جامعة «تمبل»، اصطحبني أحد الطلبة الجامعيّين الإيرانيّين المقيمين هناك – وكان شابّاً متديّناً وثوريّاً، وهو اليوم يشغل منصباً مهمّاً في البلاد — في جولة تفقّديّة على مختلف المراكز العلميّة والثقافيّة، كان أحدها الجامعة التي يدرس فيها. وأثناء تقديمه أحدَ أساتذته لي ذكر أنّه من الصين وأنّه خيرة أساتذة الجامعة. وكذا فإنّ طلبة الجامعة المتفوّقين هم بشكل رئيسيّ من الشرق، وأغلبهم إيرانيّون، ولا يتسنّى العثور من بين الأمريكيّين على أُستاذ فذّ أو طالب بارز إلاّ ما ندر. بالإضافة إلى ذلك فقد أطلعني على العدد الكبير من الأطباء الإيرانيّين الذين يقيمون في الولايات المتحدة. وهنا انبرى أحد مسؤولي مكتب الممثّليّة الإيرانيّة في الأُمم المتّحدة إلى تأكيد ذلك مضيفاً انّ معظم هؤلاء هم من الأطبّاء المشهورين في أمريكا. وعند استفساري عن سبب هذا الأمر قال: الأمريكيّون يملبون أكثر ما يميلون إلى السهرات الليليّة والسمَر والطرب وقلّما يفكّرون بالدراسة، خلافاً لأُولئك القادمين من بلدان مختلفة من العالم باذلين جهوداً مضنية وصارفين مبالغ ضخمة من أجل الدراسة في أمريكا، فهؤلاء يعرفون قدر أعمارهم وأوقاتهم وليسوا على استعداد لإنفاقها في العبث والترّهات.

وهذا على النقيض ممّا يتخيّله الكثيرون ممّن ينظرون إلى التطوّر القائم في الدول الغربيّة من بعيد. فنفس هذا الطالب الإيرانيّ المقيم في أمريكا يقول: في إحدى زياراتي لإيران لتفقّد الأهل والأقرباء قام بعض أقاربي – اعتقاداً منهم بأنّني آلَف مشاهدة الأفلام الإباحيّة – بوضع بعض هذه الأفلام في متناولي. فبادرتُهم بالقول: أنا لم أُشاهد طيلة عمري مثل هذه الأفلام، بل لا تتوفّر لديّ فرصة مشاهدتها أساساً!

كما أنّني أعرف طالبين آخرين كانا قد سافرا إلى الولايات المتّحدة للدراسة بمشورة المرحوم آية الله البهشتي (رحمه الله) وما يزالان هناك. فمن أجل أن يستفيد هذان الطالبان من وقتهما الفائدة المثلى فقد عمدا إلى تنظيم برنامج صارم لحياتهما، إلى درجة أنّهما لم يخصّصا للقاء أقاربهم وأصدقائهم القادمين من إيران لزيارتهما إلاّ نصف ساعة من ليالي معيّنة من الشهر خشية أن يضيع وقتهما ويتخلّفا عن منهاجهم الدراسيّ!

فلو بنى الإنسان أمره على معاشرة جميع الناس فسوف يصاب تدريجيّاً بعدوى الأمراض المتفشّية في محيطه وسينسى الدراسة، والدين، والصلاة، والحياء، والعفّة، وغيرها الكثير من الأُمور. فالذين يحذّرون المرء من هذه الأنماط من المعاشرة لا يفعلون ذلك بغضاً وعداءً له، بل لأنّ هذه السجايا – حالها حال بعض الأمراض — معدية وأنّ كلّ مَن يتعرّض لها سيصاب بعدواها. وبطبيعة الحال فإنّ الطبيب الماهر العالِم

بسبل مراعاة الصحّة العامّة والعارف بطريقة معالجة المريض، يستطيع – إلى جانب وقاية نفسه من المرض – علاج المريض المصاب بالعدوى. فمرافقة الضالّين من أجل إصلاحهم أمرٌ حسن، علّهم إذا لمسوا من الإنسان العاطفة والشفقة وحبّ الخير لهم يكفّون عن المعاصي ويعودون إلى جادّة الصواب. هذا بشرط أن لا يكون المرء مصداقاً لقول سعدي: «ماءُ الجدول قد يجرف الغلام الذي مهمّته السقاية فلربّما عكف بعض قليلي الخبرة على معاشرة أهل المعاصي طلباً لإصلاحهم فتورّطوا هم، شيئاً [4].«منه فشيئاً، في حبائل الإثم والخطيئة.

اجتناب اللذّات المادّية خطوة نحو النموّ الاقتصاديّ

بناءً عليه فإنّ مغزى تعابير الروايات التي تذمّ الدنيا، كتشبيه الأخيرة بعظْمَة خنزير ميت يقذفها شخص مصاب بالجذام [5]، هو أن نحذَر من الولَع بالدنيا كلّ الولع، وليس أن نذر الكدّ والعمل ونعتزل الخلق في ركن قصيّ سالكين مسلك الرهبان.

فالعمل لخدمة خلق الله، لاسيّما قضاء حوائج العيال والأقارب والجيران، إذا ما أُنجز طلباً لرضا الباري تعالى، فهو عبادة يسمو ثوابها على الكثير من الصلوات والصيام. وليس لهذا الأمر ارتباط بعدم الوَلَه بلذّات الدنيا؛ فالإنسان المنهمك في العمل والمثابرة من أجل خدمة الخلق عليه أن يتجنّب الشغف بأموال الدنيا وثرواتها، لأنّ الشغوف بثروته لا يتسنّى له انتزاع قلبه منها من أجل خدمة الآخرين، خلافاً لمن لا يحبّ مال الدنيا فهو ينفقه بكلّ سهولة. فحبّ الدنيا لا يؤدّي إلى التطوّر، ليس هذا فحسب، بل يبعث أيضاً على الإمساك الذي يقف حجر عثرة أمام النموّ الاقتصاديّ.

لقد طرح أحد علماء الاجتماع الكبار نظريّة استناداً إلى الأبحاث التي أجراها على الأوضاع الاقتصاديّة للدول المسيحيّة. ومع كون النظريّة محطّ مناقشة ولا يستطاع تعميمها، لكنّ الاستنباط الذي توصّل إليه لافت للنظر. يقول: «الدول البروتستانتيّة، التي تعيش شعوبها عيشة القناعة بالقليل، تتمتّع باقتصاد أكثر ازدهاراً من الدول الكاثوليكيّة. والسرّ في ذلك يكمن في سجيّة القناعة لدى البروتستانت. فنتيجةً لعيش الأخيرين البسيط وقناعتهم بالقليل، فإنّهم يدّخرون بعض دخلهم موفّرين بذلك رأسمال للمشاريع الاقتصاديّة الضخمة، في حين أنّ الكاثوليك ينفقون كلّ ما يكسبونه بإسراف. بناءً عليه فإنّ العيش البسيط والقناعة مفيدان حتّى لتطوّر الجانب الاقتصاديّ». بالطبع إنّ مناقشة مثل هذه المسائل تحتاج إلى بحث عميق ودراسة تخصّصيّة.

فالثناء والإطراء على الفقر والتوصية بتوقير الفقراء هو سبيل عظيمة من سبل التربية الاجتماعيّة هدفها عدم إحساس المحرومين والمعوزين بالحقارة. فوجود الفقراء والمحرومين هو واقع لا مفرّ منه يعيشه كلّ

مجتمع. وإنّ الطبيعة المادّية للإنسان تقضي بإهماله هذه الطبقة، وهو ما يقود — عمليّاً — إلى تخلّف المعوزين مادّياً عن الباقين حتّى في سائر المجالات فينتابهم – نتيجة لذلك — الشعور بالحقارة في أغلب الأحيان، وهذا الأخير يوطّئ – من الناحية النفسيّة – لاقتراف المعصية والجريمة؛ ذلك أنّ الذي لا يقيم لنفسه وزناً سوف لا يلقي لإهانة الآخرين له بالاً ولا يكترث لسماع شتائمهم تجاهه.

ومن أجل أن يحول الإسلام دون سقوط أفراد المجتمع في هذا المستنقع الآسن فقد رفض اعتبار الثروة والملكيّة مناطاً لاحترام الناس وميزاناً لشخصيّتهم ضمن المجتمع الإسلاميّ. فالإسلام يوصينا بأن لا نحقّر المتديّن المتّقي لمجرّد كونه لا يتمتّع بالثروة، وارتدائه الثياب القديمة الخَلِقة، وأنّه يعيش عيشة الفقر والعوز، بل علينا أن نحبّه ونُظهر له الاحترام ونجلسه إلى جانبنا في المجالس: «فأَدنِ الفقراء وقرّب مجلسَهم»[6]. فسلوك من هذا القبيل من شأنه أن يحيي أفراد طبقة من المجتمع كانت قد تهيّأت لهم أرضيّة الفساد والانحراف من ناحية من النواحي، فيحول دون شعورهم بالحقارة جرّاء فقرهم، وهو ما يجعلهم أفراداً ناجحين في المجتمع، وهذه أعظم خدمة للمجتمع البشريّ ولحضارته وثقافته.

ومع كلّ ذلك فهناك مَن يصرّ، بدافع الجهل أو بتحريض من الأجانب، على ضرورة وضع الأخلاق والثقافة الإسلاميّتين جانباً من أجل الحصول على التطوّرات الاقتصاديّة والعلميّة والصناعيّة غافلاً عن أنّ الالتزام بالقيم الإسلاميّة ليس أنّه لا يعيق التقدّم فحسب، بل ويشكّل – من خلال تهيئة الأرضيّات المناسبة – عاملاً مساعداً مهمّاً على صعيد التقدّم مادّياً أيضاً. ومع أنّ التطوّر المادّي لا يمثّل الهدف الرئيسيّ، بل هو أداة لتحقيق التطوّرات في الجانب المعنويّ والإنسانيّ، غير أنّ للأوّل علاقة مباشرة مع التكامل المعنويّ للمجتمع. ففي المجتمع الذي يسود فيه الصدق والإخلاص في العمل، يُنجز العامل عملَه بإتقان أكبر، وهو قلّما يعامَل بإجحاف من قبل ربّ العمل، وهذه أنماط سلوكيّة من شأنها أن تُعدّ البيئة للنموّ الاقتصاديّ.

فهناك من يتصوّر أنّه لابدّ، من أجل الوصول إلى التقدّم الذي يوازي ذلك الموجود في الدول الغربيّة، من قبول الثقافة الفاسدة لتلك الدول، غافلاً عن أنّ هذه الثقافة، ومن خلال إلهاء المرء باللهو والتمتّع باللذّات المادّية، تعمل على تلويث روح الإنسان وجسده وإمراضهما، وتحول بينه وبين الكدّ والعمل، ممّا يؤدّي إلى توقّف عجلة النموّ الاقتصاديّ في المجتمع. فالثقافة الغربيّة تجرّ إلى فساد أخلاقيّ، وهذا الأخير يقود إلى فساد اجتماعيّ واقتصاديّ أيضاً.

وإذا ما تصفّحنا تواريخ الأُمم البشريّة لَوقفنا على حقيقة أنّ معظم أشكال التطوّر، على المستويين المادّي والمعنويّ، إنّما حصلت على أيدي أُناس غير لاهثين وراء لذّات الدنيا عازفين عن التعلّق بها، بل كان أغلبهم من الطبقات الفقيرة ولم تكن هذه الأُمور متاحة لهم أساساً.

كما أنّ معظم الذين دافعوا عن نبيّ الإسلام (صلّى الله عليه وآله) ودينه في صدر الإسلام لم يكونوا يملكون من أموال الدنيا شيئاً. ومن الأمثلة على هؤلاء «أصحاب الصفّة» الذين لم يملكوا حتّى أثواباً تكفي لستر أبدانهم فكان كلّ تسعة منهم يشتركون في ثوب واحد. لكن المستعدّين لبذل أرواحهم ذوداً عن الإسلام كانوا من بين هؤلاء. وفي المقابل فالذين كانوا يملكون من العبيد والجواري الكثير كانوا من المحاربين للإسلام والحكومة الإسلاميّة.

وهذا ينسحب على زماننا أيضاً. فالذين بذلوا أرواحَهم في سبيل الثورة وجادوا بدمائهم أثناء الحرب المفروضة من دون أدنى منّة أو توقّع شيء في المقابل هم من عامّة أفراد الشعب الذين يملأون الأزقّة والأسواق ويعاني معظمهم من الفقر والفاقة.

هذا وإنّ التطوّرات الاقتصاديّة والعلميّة والصناعيّة التي نشهدها اليوم (في بلادنا) هي الأُخرى من صنيعة أشخاص من هذا القبيل. فعلى يد مَن حصل كلّ هذا التطوّر على المستوى العلميّ والصناعيّ والبحثيّ يا ترى؟ ومن أيّ أُسَر انحدر يا ترى أُولئك الذين وضعوا أرواحهم على أكُفّهم في سبيل التقدّم العلميّ النوويّ حتّى استُشهدوا في هذا الدرب؟ معظم هؤلاء ينحدرون من عوائل متوسّطة أو فقيرة. إنّهم أشخاص متديّنون يحضرون في صفوفهم الدراسيّة ومختبراتهم وهم على وضوء. وما كان إطراء الإمام الخمينيّ الراحل (قدّس سرّه) على «الحفاة» والافتخار بهم، وإطلاق تسمية «المرفّهين المترَفين» على أصحاب الثروات ورؤوس الأموال إلاّ انطلاقاً من هذه الثقافة الإسلاميّة.

إذن لا ينبغي أن نتصوّر أنّ توصية الإسلام باحترام الفقراء تعني التخلّي عن التقدّم المادّي ونبذ العلم والصناعة، بل إنّ مراد الإسلام منها هو عدم التعلّق بالثروة والانشداد إلى المادّيات، وضرورة انتزاع القلب من التشبّث بالمال والممتلكات وذلك من أجل خدمة خلق الله تعالى. فمَن هم الذين أسّسوا المرافق ذات المنفعة العامّة يا ترى؟ إنّهم الذين آمنوا بأنّ الله سيعوّضهم على إنفاق أموالهم في مثل هذه المواطن سبعمائة ضعف من الثواب، «وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ»[7].

فلنعلم أنّ إشاعة الثقافة الإسلاميّة الموصية باحترام الفقراء وببساطة العيش والقناعة هو ممّا يمهّد للتطوّرات المادّية، والعلميّة والصناعيّة أيضاً، ويورث — في نفس هذا العالم — المجتمعَ الإسلاميّ العزّة والمنَعة. ولا ينبغي أن نتصوّر أنّ أوضاع البلد الاقتصاديّة ستتحسّن إذا تصدّى للمسؤوليّة أشخاص همّهم

اكتناز الثروة عن أيّ طريق، حلال أو حرام. فأمثال هؤلاء لا تحترق قلوبهم على أحوال الجياع، وهم يسعون في كلّ واد لحصد المزيد من الربح لأنفسهم. فلا يخدم الشعب إلاّ أمثال الشهيد رجائي الذين ذاقوا بأنفسهم مرارة الفقر.

هذا هو الدرس الذي يتعيّن لنا استلهامه من هذا المقطع من حديث المعراج الشريف. يقول ربّ العزّة جلّ وعلا في هذا الحديث لنبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله): «يا أحمد! أَبغِض الدنيا وأهلَها وأَحِبَّ الآخرةَ وأهلَها»[8].

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

صفات أهل الدنيا

43

إشارة

بلغنا في بحثنا حول فقراتٍ من حديث المعراج إلى الفقرة القائلة: « **يا أحمد! أَبغِض الدنيا وأهلَها وأَحِبّ الآخرةَ وأهلَها. قال: يا ربّ ومَن أهل الدنيا ومَن أهل الآخرة؟ قال: أهل الدنيا مَن كثُر أكلُه وضحكُه ونومُه وغضبُه**...»[1].

لقد قُسّم الناس في العبارة أعلاه إلى قسمين: يضمّ الأوّل أهل الدنيا؛ وهم مَن يجب الابتعاد عنهم وتصنيفهم في عداد الأعداء. أمّا أصحاب القسم الثاني فهم أهل الآخرة الذين تتعيّن محبّتهم. وقد تبنّى القرآن الكريم أيضاً هذا التقسيم في بعض آياته، ومنها قوله تعالى: « **مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ**»[2]. فإنّ لكلّ فرد من البشر، وفق التعبير القرآنيّ، زرعاً بَيد أنّ بعضهم يزرع للدنيا فيجني محصوله فيها، في حين أنّ بعضهم الآخر يزرع للآخرة وهو سيحصد ثمار زرعه في الحياة الأُخرى. ثمّ إنّ الله يبارك في حرث الذين يزرعون رجاءَ الآخرة ويزيد في ثماره؛ وذلك لقوله: «**نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ**»، أمّا الذين يزرعون للدنيا فإنّهم يُعطَون شيئاً ممّا أمّلوه: «**نُؤْتِهِ مِنْهَا**»، والسبب هو أنّ الدنيا دار تزاحم الحاجات، ومن المستحيل أن يحقّق الجميع فيها كلّ ما يطمحون إليه. ليس هذا فحسب، بل إنّ هؤلاء لن يكون لهم نصيب ولا حظّ في الآخرة أيضاً: «**وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ**».

مَنْ كَانَ » :وبوسعنا أيضاً العثور على نظير هذا التقسيم، لكن بتعبير مغاير، في آية أُخرى هي قوله تعالى
.[3]«يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً
فهواة الدنيا الراغبون في لذائذها العابرة على عجل سوف نعطي لمن نشاء منهم نصيباً منها. لكنّه لا يبلغ جميع أهل الدنيا كلّ حوائجهم؛ فقد لا يصيب بعضهم حتّى أُمنية واحدة من أُمنياته، بينما قد يحصل بعضهم الآخر على بعض مطالبه، لكن لا أحد في هذه الدنيا يحقّق كلّ ما يصبو إليه. هذه إذن عاقبة حبّ الدنيا في هذا العالم. أمّا في العالم الآخر فستحيط به ألسنة جهنّم الحارقة وهو في حالة من
.«ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً» :الذلّ والهزيمة

وفي المقابل فإنّ طلاّب الآخرة والباذلين بإيمان قصارى جهدهم في هذا الاتّجاه سيمنّ الله جلّ وعلا
لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ» :عليهم بما يفوق تصوّرهم وسيشكر سعيهم؛ وهو قوله
.[4]«فَأُولٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً

الطيف ما بين الكفر والإيمان

لكن هل يعني هذا التقسيم بناءَ حاجز فاصل بين أهل الجنّة وأهل النار؟ وهل إنّ جميع المتواجدين في هذا الطرف من الحاجز منغمسون من قمّة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم بالنور والطهارة، وغارقون في درجة واحدة من الرحمة والبهجة، ويتنعّمون بنفس المقدار من نعيم الجنّة، وأنّ كافّة أصحاب الطرف المقابل هم على نفس الدرجة من القبح والدنس، ويحيق بهم نفس العذاب؟

هُوَ » :في آية قرآنيّة أُخرى يقسّم الله عزّ وجلّ بني البشر إلى صنفين: مؤمنين وكافرين، وذلك في قوله
وَمَا يُؤْمِنُ » :لكنّه تبارك وتعالى يقول في آية أُخرى .[5]«الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ
؛ أي إنّ شائبة الشرك تشوب قلوب معظم المؤمنين. وهذا يدلّ [6]«أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ
على أنّه ليس ثمّة حدّ فاصل يقسّم الناس إلى مؤمنين خُلَّص وكفّار محض، وأنّ لأغلب الناس في قلوبهم
.نصيباً من الإيمان وآثاراً من الشرك

ومن باب التشبيه فلنتصوّر مستطيلاً قُسّم برسم خطّ في وسطه إلى مثلّثين. إنّ قاعدة كلّ مثلّث في هذا المستطيل تجاور رأس المثلث الثاني. كما أنّ سطح كلّ جانب من جوانب المستطيل مغطّىً بالكامل بواسطة أحد المثلّثين، لكنّنا إذا سرنا من أحد سطوحه باتّجاه وسطه فإنّ قسماً من السطح سيخرج شيئاً فشيئاً من سيطرة أحد المثلّثين ليصبح تحت غطاء المثلّث الآخر، حتّى إذا وصلنا إلى وسطه فسنجد أنّ
.نصف السطح مغطّىً بالمثلّث الأوّل والنصف الآخر بالمثلّث الثاني

على نفس المنوال فإنّ قلوب بعض الناس تكون مسوَدَّة بالشرك بشكل كامل، لكنّ قلوب البعض الآخر، من الذين يستقرّون في القطب المعاكس، طافحة بنور الإيمان. فأُولئك الذين يحتلّون القطبين ليسوا هم بكثيرين عدداً، إلاّ أنّ الغالبيّة العظمى من الناس – من الذين يقعون بين قطبَي الكفر والإيمان – يستولي الشرك على جزء من قلوبهم، بينما ينوّر الإيمان جزءاً آخر منها. ومن هنا فإنّ تقسيم الناس إلى صنفين، مؤمنين وكافرين، لا يعني بالضرورة امتياز أصحاب أحدهما عن أهل الآخر على نحو تامّ، بحيث إنّه ليس لطلاّب الدنيا أيّ حظّ من الآخرة، وإنّه ليس لمريدي الآخرة أدنى جنوح إلى الدنيا. بالطبع هؤلاء الذين يشغلون قطبي الإيمان والكفر هم هكذا، بيدَ أنّ قلوب السواد الأعظم من الناس تنطوي على ضغث من الإيمان وضغث من الكفر، وهم لذلك يطلبون الدنيا ويسعون للآخرة في آن واحد.

يستطيع كلّ امرئ، عبر سبر أعماق قلبه، أن يقف على ما يعشعش في باطنه – إلى جانب إيمانه – من مراتب الشرك والكفر والنفاق والرياء ونظير ذلك. فإنّ لكلّ واحد منّا تقريباً تعلّقات دنيويّة، ولقلبه ميولاً معيّنة، وإنّ فقدان بعض الأُمور يورثنا الاستياء، وهذا ضرب من التعلّق بالدنيا. كما أنّه ليس فينا مَن يُنكر الآخرة أيضاً. ولهذا فإنّه لا يسعنا، عندما يوصينا الباري عزّ وجلّ بحبّ أهل الآخرة وبغض أصحاب الدنيا، أن نفصل بين الناس بجدار عازل، فنسِم القابعين في أحد طرفي الجدار بطلاّب الدنيا وننأى بأنفسنا عنهم كلّ النأي، ونتصوّر أُولئك المستقرّين في الطرف الآخر منه أهلَ الآخرة فنهيم بهم شغفاً وحبّاً. فهذا التقسيم إنّما يدلّنا على وجود قطبين، وأنّ أغلب الناس بينهما يميلون إلى الدنيا ويرمون بطرفهم إلى الآخرة في الوقت ذاته.

لا ريب أنّ طريقة التعامل مع أصحاب كلّ واحد من القطبين واضحة. لكن كيف لنا أن نتعاطى مع أُولئك الواقعين بين قطبي الإيمان والكفر؟ هل نحبّهم أم نبغضهم؟ فبعض هؤلاء تصل رغبتهم في الدنيا إلى حدّ يكون ميلهم إلى الآخرة معه في منتهى السطحيّة حتّى انّ الآخرة لَتخرُج من قلوبهم بأقلّ جذبة دنيويّة. ويمكن القول — بمعنىً من المعاني – إنّ طينتهم وذاتهم فاسدة فلا يمكن الميل إليهم وحبّهم، هذا وإن استحقّوا الثناء على فعل الخير إذا ما صدر منهم.

وفي الطرف الآخر فإنّ هناك مَن تجذّر الاعتقاد بالدين والآخرة في قلبه، لكنّ بعض الزلل والتعثّر قد ينتابُه في مواجهة بعض الأحداث. ولقد وعدَت الروايات بأنّ مثل هذا المؤمن، الذي تزلّ قدمه أحياناً فيرتكب بعض المعاصي، إذا ما تاب في حياته وتدارك قبيح فعاله فسيُعفى عنه. أمّا إذا حلّت به المنيّة قبل أن يبادر إلى التوبة، فسيطهّره الله سبحانه من ذنوبه بأن يصعّب عليه نزع الروح. وإذا بقي خُبث المعاصي في وجوده بعد الموت أيضاً فسيسوّي حسابه بأن يشدّد عليه في أوّل ليلة من نزوله إلى القبر.

فإن بقي شيء من دنس الذنوب مع كلّ ذلك فسينفُض عن وجوده غبارَها عن طريق عذاب البرزخ. وفي نهاية المطاف فإنّه عزّ وجلّ سيُدخِله الجنّة بالشفاعة أيضاً، بشرط أن تكون جذور الإيمان راسخة في قلبه.

فمن الواضح أنّه لا ينبغي بغض المؤمن الطافح قلبه بالإيمان بالله تبارك وتعالى وحبّ أهل البيت (عليهم السلام)، حتّى وإن صدرت منه بعض الذنوب. إذ لا يراد من بغض أهل الدنيا بغض كلّ عاصٍ، بل المقصود من ذلك – بالنسبة لهؤلاء العاصين من المؤمنين – هو إظهار الاستنكار والشجب لأفعالهم غير اللائقة. لكن لا ينبغي قطع العلاقة معه، بل ولا يجوز إضمار الانزعاج والاستياء منه حتّى في القلب، وإنّما يتعيّن علينا الدعاء له كي يهديه الله سواء السبيل ويوفّقه إلى التوبة.

نفهم من ذلك أنّ المراد من تقسيم الناس إلى أهل الدنيا وأهل الآخرة هو إظهار القطبين الصالح والطالح لبني آدم، وأنّ السواد الأعظم من الناس يقعون بين هذين القطبين، فهم الذين يقول فيهم عزّ من قائل: «**خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً**»[7]، فقد امتزج في قلوبهم الإيمان والشرك، واختلط فيها طلب الدنيا وحبّ الآخرة، فكان ميل بعضهم إلى الدنيا أكثر، وكانت رغبة بعضهم في الآخرة أشدّ.

صفات أهل الدنيا

بعد أن أوصى الباري سبحانه وتعالى نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) في ليلة المعراج بقوله: « **يا أحمد! أَبغِض الدنيا وأهلَها وأَحِبّ الآخرةَ وأهلَها**» سأله (صلّى الله عليه وآله): « **يا ربّ ومَن أهل الدنيا ومَن أهل الآخرة؟**». فكان جواب ربّ العزّة بأن عرّف له أهل الدنيا وأهل الآخرة من خلال الآثار التي تظهر في سلوكهم؛ «**قال: أهل الدنيا مَن كثُر أكلُه وضحكُه ونومُه وغضبُه**». فهناك أربع خصال بارزة في أهل الدنيا، هي: كثرة الأكل، وكثرة الضحك، وكثرة النوم، وكثرة الغضب. والخصلة الأُخرى لأصحاب الدنيا هي رضاهم عن أنفسهم: «**قليل الرضا**»، فصاحب الدنيا يرى باستمرار أنّ الحقّ معه، ولا يرضى عن الآخرين بسهولة.

كما أنّ أهل الدنيا لا يعتذرون إلى مَن ظلموه: «**لا يعتذر إلى مَن أساء إليه**»، ولا يقبلون عذر من أخطأ في حقّهم: «**ولا يقبلُ عُذرَ من اعتذر إليه**». ثمّ إنّ صاحب الدنيا « **كسلانٌ عند الطاعة، شجاعٌ عند المعصية**» فهو تعب وكسلان وخاوٍ من النشاط والحيويّة ساعةَ الطاعة، لكنّه يتسابق مع الآخرين من أجل لذّات الدنيا وزخرفها. مضافاً إلى أنّه: «**أمَله بعيد وأجَله قريب**»، فعمره قصير، لكنّه يحمل في رأسه آمالاً عريضة وطموحات طويلة. فمع أنّ الإنسان يعلم بأنّ أجله قريب، لكنّه يتمادى

أحياناً في أحلامه فيفكّر حتّى في أحفاده وأسباطه شاغلاً نفسه بجمع الثروة لمستقبلهم. وصاحب الدنيا **قليل الخوف كثير** » :فهو يتكلّم أكثر ممّا يخدم الناس. وهو كذلك «**قليل المنفعة كثير الكلام**» :أيضاً فلا تساوره الخشية والخوف من عذاب ربّه، ولا يفكّر إلاّ في الدنيا، ويكون متّكلاً «**الفرح عند الطعام** .على ما جمع من الثروة والأصحاب، وفي المقابل فإنّ فرحَه وجذلَه عند حضور الطعام عظيم

فهم غير شاكرين لوفير النعم التي أسبغها الله تبارك وتعالى «**وإنّ أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء**» عليهم، لأنّه غاب المنعمُ عن أذهانهم، فظنّوا أنّهم نالوها بسعيهم وجهدهم، وهذا يذكّرنا بزعم قارون .[8]«**عِلْمٍ عِنْدِي إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ**» :عندما قال: لقد جمعت هذا المال العظيم بعلمي وسعيي وتدبيري

فهم يجزعون وقت المصيبة والمحنة. فالمؤمن مطمئنّ «**ولا يصبرون عند البلاء**» :ثمّ يقول أيضاً في وصفهم بأنّ كلّ مصيبة تحلّ بالعبد فهي لحكمة، وهو لهذا يتحمّلها. لكنّ طبيعة الإنسان، بصرف النظر عن قضيّة الإيمان والتربية الدينيّة، تقتضي منه — بالطبع – الجزع والفزع عند حلول المكاره والشدائد، لقوله **إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ** » :تعالى .، عدا أُولئك الذين تربطهم مع الله تعالى علاقة خاصّة[9]«**الْمُصَلِّين**

فخدمات الخلق الجمّة تجاههم لا تساوي شيئاً عندهم، «**كثيرُ الناسِ عندهم قليل**» :ويقول فيهم أيضاً **يحمَدون أنفسَهم** » :وهم لهذا لا يعترفون بجميلهم ولا يشكرونهم على خدماتهم. لكنّهم في مقابل هذا فهم يثنون على أنفسهم، بل وينسبون إليها ما لم يقوموا به من الأعمال الصالحة زوراً «**بما لا يفعلون** **لا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا** » :وبهتاناً. وما أشبه هذا التعبير بقول الله تعالى في كتابه العزيز .[10]«**وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** فهم «**ويَدّعون بما ليس لهم، ويتكلّمون بما يتمنّون**» :فأهل الدنيا يدّعون أُموراً ليس لهم فيها نصيب ولعلّهم يفعلون «**ويذكرون مساوئ الناس ويُخفون حسناتهم**» .يتحدّثون دوماً عن أمانيهم وطموحاتهم ذلك لإظهار فضل أنفسهم أمام الناس في مقام القياس بالآخرين والتنافس معهم ليُخرجوا بذلك .خصمهم من ميدان السباق

:ويبدو هاهنا أنّ صدر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد ضاق من سماع هذه الأوصاف، فسأل ربّه **يا أحمد! إنّ عيب أهل الدنيا** » :؟! فقال له ربّ الجلال«**يا ربّ! كلّ هذا العيب في أهل الدنيا**» ؛ فإنّ عيوبهم كثيرة، لكنّ الأبرز من بينها هو الجهل وضحالة العقل؛ فهم «**كثير، فيهم الجهلُ والحُمق** **لا** » يجهلون ما ينبغي لهم أن يعلموه، ويفرّطون بما لابدّ لهم أن ينجزوه من صالح الأعمال. كما أنّهم ؛ فهم – خلافاً لمقتضى فطرة البشر، وانطلاقاً من أنانيّتهم وحبّهم لذواتهم «**يتواضعون لمَن يتعلّمون منه**

وهم عند أنفسهم عُقَلاء، وعند » .– لا يُظهرون التواضع أمام أساتذتهم ولا يقدّرون فضلهم ومتاعبهم .؛ فهم يحسبون أنفسهم أعقل العقلاء، والحال أنّ أهل المعرفة واقفون على حماقتهم«**العارفين حُمَقاء**

ثقافة طلب الدنيا في عالمنا المعاصر

خلاصة الأمر فإنّ من الميسور مشاهدة هذه الأوصاف في بعض المذاهب الأخلاقيّة الشائعة في عالمنا المعاصر. إذ تشتهر اليوم ثلاثة مذاهب في حقل فلسفة القيم والأخلاق: أوّلها مذهب أصالة المتعة، الذي يعرّف «الحُسن» بأنّه كلّ ما ينطوي على متعة ولذّة، ويذهب دُعاته إلى أنّ «اللذّة» هي أساس كلّ الصالحات، معتقدين بأنّ الإنسان إنّما يأتي إلى هذه الدنيا ليستمتع بلذّاتها وليس ثمّة على عاتقه من !مهمّة سوى الاستمتاع

أمّا المذهب الثاني فهو مذهب أصالة الفرد، وفيه أنّ على كلّ امرئ أن لا يفكّر أثناء حياته إلاّ في نفسه، وأن يبذل قصارى جهده من أجل سعادته وتوفير أسباب رفاهيّته. المؤمنون بهذا المذهب لا يفكّرون حتّى في أبويهم ولا في أزواجهم ولا في أولادهم. فوفقاً لهذا النمط الحياتيّ الشائع في الغرب – والذي غدا، مع شديد الأسف، وبسبب الدعاية ووسائل الإعلام الجماهيريّة، يترسّخ شيئاً فشيئاً في الدول الأسلاميّة أيضاً – صار الولد ينفصل عن عائلته بمجرّد تمكّنه من الاعتماد على نفسه ويؤسّس حياته الخاصّة. فبغية أن يريح الأب نفسه من مشقّة الحفاظ على ولده، ولأجل أن يتخلّص الولد من أوامر والديه .ونواهيهما، يفرّ كلّ واحد من الآخر ولا يعودان يفتّشان عن بعضهما البعض

أمّا المذهب الثالث فهو مذهب أصالة الليبراليّة الأخلاقيّة، أو أصالة الحرّية. وكلّ إنسان، وفق هذا المذهب، حرّ في صنع ما يحلو له، ولا يحقّ لأيّ قانون أو نظام أخلاقيّ أو دين أن يحدّ من حرّيته. مَعقل هذا المذهب في عصرنا الحاليّ هو أمريكا التي يسير مجتمعها، بسبب هذه الثقافة، نحو الانحطاط .والتسافل

عندما كنتُ قبل بضع سنين في جولة في عدد من دول أمريكا اللاتينيّة لإلقاء المحاضرات في بعض المراكز العلميّة والثقافيّة هناك، ذكر لي مسؤول في واحدة من الجامعات في شيلي، والتي تضمّ أربعين ألف طالب جامعي: «لقد دمّرَت الثقافة الأمريكيّة شبّاننا، وليس لدينا أيّ بصيص أمل في إصلاحهم، اللهمّ إلاّ أن يأتي هذا الإسلام الذي تعرّفونه ليمدّ يده فينتشلنا من المأزق الذي نحن فيه». هذه الفاجعة هي .«ثمرة الثقافة الليبراليّة التي تُشاع في باقي البلدان تحت يافطة «الحرّية

والآن، إذا ما استعرضنا صفات أهل الدنيا التي يتحدّث عنها الله جلّ وعلا في حديث المعراج فسنجد أنّ جميع هذه السجايا مندرجة في هذه المذاهب الثلاثة ولا يمكن أن تخرج من دائرتها؛ فمذهب أصالة المتعة فيه الرغبة في اللذّات المادّية الفانية كالنوم والأكل وإشباع الغرائز الجنسيّة. ومذهب أصالة الفرد يحرّض متّبعَه على أن لا يكترث بالآخرين، ولا يتواضع للأُستاذ، ولا يقيم وزناً لأعمال الآخرين، وأن يتباهى بما لم يفعل، ولا يقبل عذر الآخرين، ولا يعتذر عند الإساءة إليهم. وأخيراً مذهب أصالة الحرّية الأخلاقيّة الذي يستلزم عدم المبالاة بالأوامر الإلهيّة والدين ويجرّ إلى اتّباع الهوى والشهوات. إذن من الميسور جمع كافّة الصفات المذكورة في هذه المذاهب الثلاثة، وهي مذهب أصالة المتعة، ومذهب أصالة الفرد، ومذهب أصالة الليبراليّة الأخلاقيّة.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

الحياء، أبرز صفات أهل الآخرة

44

إشارة

ذكرنا أنّ الله تعالى كان قد خاطب نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) ليلة المعراج بقوله: «**يا أحمد!** **أبغِض الدنيا وأهلَها وأَحِبّ الآخرةَ وأهلَها**»[1]. ثمّ سأله (صلّى الله عليه وآله): «**يا ربّ ومَن أهل الدنيا ومَن أهل الآخرة؟**»، فسرد الباري عزّ وجلّ له أوصافاً لكلّ من الفريقين. وقد تحدّثنا في المحاضرة الفائتة عن سجايا أهل الدنيا.

الحديث تطرّق بعد ذلك إلى أوصاف أهل الآخرة، الذين عُبّر عنهم بـ «**أهل الخير**»، وأغلبها تقع إلى الطرف المقابل لصفات أهل الدنيا. فأهل الدنيا كثيرو الأكل، بينما أهل الآخرة قليلوه، وأُولئك كثيرو الكلام، أمّا هؤلاء فقليلو الكلام ويميلون إلى السكوت. غير أنّ الصفة التي ذُكرت كأوّل صفة لأهل الآخرة وأبرزها فهي «الحياء»: «**يا أحمد! إنّ أهل الخير وأهل الآخرة رقيقة وجوههم كثير حياؤهم**»، والرقيق الوجه هو الإنسان الخجول الحيِيّ.

وهناك آراء مختلفة حول «الحياء»، فقد عُدّ في الكثير من المواطن بمعنى الخجل، وهي سجيّة تذمّها بعض الثقافات العالميّة المتداولة. فبعض علماء النفس يعتقدون بضرورة كون الطفل حرّاً على جميع الصعد

ليفعل كلّ ما يحلو له، وأنّ كلّ ما يقيّد حركة الطفل فإنّه يمنع نموه وتكامله. فوفقاً لمذهب علماء النفس هؤلاء فإنّ الحياء يقيّد الطفل ويصيّره خجلاً لا يستطيع الإفصاح عن مراده بشكل صحيح أو الدفاع عن نفسه، وهم — لهذا — لا يعدّون الحياء صفة حسنة. وممّا يؤسَف له هو أنّ أغلب علمائنا المتخصّصين في علم النفس، الذين استقوا علومهم من مصادر علم النفس الغربيّة، يروّجون لهذه الأُمور في مراكزنا التعليميّة والتربويّة. وحتّى في وسائل الإعلام والأفلام السينمائيّة توضَع صفة الحياء – التي هي الأُولى والأبرز من بين صفات أهل الآخرة وأهل الخير – موضع الذمّ. فهل يتعيّن علينا — والحال هذه — أن نقبل بهذه الثقافة الحديثة، أم نأخذ بهذا الحديث وأمثاله التي لا تقدّم الحياء بوصفه سجيّة محبَّذة فحسب، بل باعتباره صفة ضروريّة ولازمة؟

الحياء والإيمان » :، وورد في حديث آخر[2]«**لا إيمانَ لِمَن لا حياءَ له**» :جاء في بعض الأخبار أنّه وهناك من أمثال هذه الروايات الكثير. .[4]«**فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه [3]مقرونان في قَرَن**
كما أنّ الحياء كان سمة مطلوبة ومحبَّبة في الثقافة القديمة لبلدنا، بل إنّ أبشعَ ألوان السباب هو نعت .الإنسان بعدم الحياء. بيد أنّ هذه الصفة (الحياء) صارت اليوم تُدرج في قائمة الصفات الذميمة

ماهيّة الحياء

وللإجابة على السؤال أعلاه ينبغي أوّلاً أن نتعرّف على مفهوم الحياء. فمفردة «الحياء» تعبّر عن حالة .وشعور انفعاليّ ينشأ في الإنسان نتيجة اطّلاعه على عيب أو نقص في نفسه

وكما نعلم فإنّ الإنسان، فطرةً، يحبّ نفسه وهو – لذلك — يرى لها قيمة وكرامة ويكنّ لها احتراماً، وهو يودّ أن يكون عزيزاً عند الناس، وأن لا ينظروا إليه بعين الاحتقار. هذا من ناحية. ومن ناحية أُخرى فإنّ الإنسان يقرّ – من منطلق الفطرة، أو العقل، أو بالإفادة من الأنظمة القيميّة والدينيّة — بأنّ بعض الأُمور تُعدّ نقصاً أو عيباً أو قُبحاً. وقد تكون هذه العيوب تكوينيّة، كالنقائص الخَلْقيّة التي يسعى كلّ مَن يُبتلى بها إلى إخفائها عن أنظار الناس. وكذا فإنّ من الممكن أيضاً أن يكون هناك أمر يراه جميع عقلاء العالم قبيحاً وغير مرغوب فيه؛ فعلى الرغم من شيوع ارتداء الألبسة القصيرة وشبه العارية في بعض الدول مثلاً، فما زالت جميع المجتمعات البشريّة تستقبح ظهور المرء أمام الناس عرياناً كما ولدته أُمّه. مضافاً إلى أنّه توجد هناك أُمور تُعدّ مذمومة وفقاً لنظام قيميّ يقرّه مجتمع من المجتمعات، بحيث إنّ كلّ مَن يقبل بهذا النظام يعتبر هذا الأمر عيباً. نعم قد تكون أمثال هذه التصرّفات في بيئات مغايرة أو أزمنة .أُخرى، لا يتّبع الناس فيها هذا النظام القيميّ، غير مذمومة ولا قبيحة

يحكي أحدهم: لقد سافرتُ إلى كندا قبل ثلاثين عاماً. وفيما كنت أتنزّه في يوم من الأيّام في إحدى الحدائق العامّة خلعتُ معطفي من شدّة حرارة الجوّ. وإذا برجل شرطة يستوقفني قائلاً: «ارتدِ معطفك! فهذا العمل يخالف العفّة العامّة». هذا في حين أنّه في نفس هذا البلد وبعد مضيّ ثلاثين عاماً تظهر حتّى النساء أمام الملأ بأجساد شبه عارية من دون أن يرى امرؤ في ذلك ما يخالف العفّة العامّة! فهذا الأمر ناجم عن التغيير الذي طرأ على النظام القيميّ لهذا المجتمع.

وهناك أُمور أُخرى كالدين، والأخلاق العامّة، والقانون، والثقافة يمكن أن يكون لها أثر في عدّ سلوكٍ ما صحيحاً أو خاطئاً. وعلى أيّة حال، فبقطع النظر عن المعيار في استقباح الخصلة أو السلوك، فإنّ الإنسان لا يحبّ أن يشاهَد منه ما يعتبره الجميع قبيحاً وغير لائق لأنّه سيُنظر إليه من قبل الآخرين بوصفه شخصاً دنيئاً، حقيراً، عديم الأدب، غير مبالٍ بالأخلاق العامّة وهو ما سيحطّ من شأنه وحرمته.

فالحالة الانفعاليّة التي تطرأ على الإنسان إذا ما بان منه عيب أو تصرُّف سيّئ أمام الآخرين تدعى «الخجل» أو «الحياء». والإنسان – جرياً على مقتضى الفطرة – يحاول جاهداً، بغية الحيلولة دون حدوث هذه الحالة، أن لا تظهر عيوبُه، أو أن يتدارك ما يبدر منه من سلوك غير سليم. بالطبع قد تضعف الفطرة ويقلّ بريقها لدى أفراد مجتمعٍ ما بتأثير عوامل شتّى فلا تعود لمثل هذه المسائل أهمّية بالنسبة لهم. أمّا بالنسبة لنا، نحن أصحاب القرآن والدين، فمن الميسور فهم هذه البحوث بالرجوع إلى القرآن والسنّة.

الحياء مودَع في فطرة بني آدم

لقد أسكن الله تبارك وتعالى آدم وحواء (عليهما السلام) بعد خلقهما في جنّة، ونهاهما عن تناول ثمار واحدة من أشجارها. لكنّ الشيطان خدعهما ووسوس لهما أن يأكلا من ثمار هذه الشجرة المحرّمة. غير أنّه: «**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا**»[5]. فعندما أكلا من الشجرة ظهرت عيوبهما، بالطبع نحن لا ندري أيّ شيء كانت تلك العيوب وكيف ظهرت. كلّ ما نعلمه هو أنّ آدم وحوّاء (عليهما السلام) لدى أكل ثمار تلك الشجرة قد التفتا إلى عيوب في بدنيهما جعلتهما يشعران بالخجل والحياء، فأخذا يستراها بأوراق الأشجار. لكن ما الذي دفع آدم وحوّاء (عليهما السلام) إلى إخفاء عيوبهما وسترها؟ هل كان ثمّة إنسان آخر هناك يراهما؟ وهل تعلّما هذا الشيء من أحدٍ ما؟

باستطاعتنا أن نفهم من ذلك أنّ تصرّفهما هذا كان مصدره الفطرة، إذ لم يكن في ذلك الحين قد صدر أمر دينيّ أو توصية أخلاقيّة بعد، كما لم يكن هناك ثقافة أو تاريخ سلوكيّ لأسلاف سبقوهم. فالتحليل الوحيد الذي يمكن طرحه لتفسير هذا التصرّف هو أنّهما أحسّا بالحقارة جرّاء انكشاف قبائحهم

وسوءاتهم. والمحصّلة هي أنّ هذا الأمر، الذي تمتدّ أُصوله إلى المعرفة الفطريّة، والذي يظهر بعنوان كونه إحساساً، يُدعى «حياء».

لكن هل الحياء حَسَن أم قبيح؟ وهل هو دائماً هكذا، أم انّه قد يكون حسناً أو قبيحاً باختلاف الظروف؟ وإذا التفت امرؤ إلى وجود عيب أو نقص في نفسه وهو لا يودّ أن يطّلع عليه الآخرون، لكنّه اكتفى بستره مع كونه قادراً على إزالته، فهل هذا تصرّف صائب؟ على سبيل المثال كلّنا تقريباً نتجنّب الظهور أمام الآخرين بمظهر من لا يعلم شيئاً، لكنّ البعض يستحي أن يسأل الآخرين لرفع حالة عدم العلم فيه. فهل هذا السلوك صحيح؟

ممّا لا شكّ فيه أن التفات الإنسان إلى عيبه أمر حسن؛ إذ ما لم يطّلع الإنسان على سوءاته فسوف لا يعمل على رفعها. كما أنّ ستر المرء عيوبَه وإخفاءها عن أنظار الآخرين هو أمر فطريّ ولائق أيضاً، لأنّه يحفظ قيمة الإنسان ووزنه. إلا أنّ تقصير الإنسان في رفع عيوبه، وهو أمر لا علاقة له بالحياء والخجل، فهو ليس بالأمر الصائب. إذ على الإنسان أن يخجل من قلّة علمه، لكنّه يتعيّن عليه، من أجل رفع هذا العيب، أن يسأل الآخرين عمّا يجهل. بالضبط كالمريض، إذ يتحتّم عليه، لعلاج مرضه، أن يراجع الطبيب، لا أن يخفي مرضه. ومن هنا فإنّ ذمّ أهل العيوب ليس بسبب خجلهم من عيوبهم، بل لأجل تقصيرهم وتقاعسهم عن علاجها. فالحياء في الحقيقة ينجم عن علم الإنسان بوجود نقص في وجوده، وهو أمر فطريّ أودعه الله في كيان ابن آدم كي يغرس فيه، عن هذا الطريق، الدافعَ لإزالة هذا النقص والسير نحو الكمال. فلا يسعنا ذمّ امرئ بسبب ذلك، لأنّ المذموم هو التقاعس والتكاسل عن رفع العيوب والنقائص.

إلا أنّ ما يقع اليوم موقع الذمّ في علم النفس فهو هذا القسم الثاني من سلوك الإنسان. فالشخص الذي لا يستطيع الكلام على النحو الصحيح، أو الدفاع عن نفسه إذا ما تعرّض له الآخرون، يُذَمّ على عدم براعته وقعوده عن رفع هذا النقص. ولا صلة لذلك بالحياء. في حين أنّ البعض قد خلط بين إحساس المرء الناجم عن التفاته إلى نقصه، وبين محاولته إزالتَه، وبالنظر إلى أنّ غالبيّة الناس لا يسعون — في مثل هذه المواطن – إلى رفع نقائصهم، فقد اعتبر هذا البعض أنّ الإحساس الآنف الذكر هو السبب وراء عدم سعي الناس إلى ذلك، فعدَّه هو الآخر مذموماً! والحال أنّ الله سبحانه وتعالى قد أودع هذا الشعور في نفس الإنسان ليدفعه إلى محو عيوبه أو الحيلولة دون تكرّر الفعل المشين منه. وهذه هي الحكمة من الشعور بالخجل والحياء.

إذن فليس أنّ الحياء غير سيّئ فحسب، بل إنّه كلّما كان أقوى في نفس الإنسان، زاد الحافز لديه لمحاولة إزالة نقائصه وانطلاقه نحو الكمال. ولتحديد الأُمور القبيحة والمشينة ثمّة معايير، أفضلها – بالنسبة للمتديّنين – هي أوامر الله تعالى ونبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله). لكنّ المؤسف هو أنّ الكثير من الناس قد وقعوا — فيما يتّصل بنمط سلوكهم – فريسة الثقافة الغربيّة، ولم يعودوا يرون بأساً في الكثير ممّا يصنّفه الدين في عداد الأُمور غير اللائقة. ومن ناحية أُخرى، وعبر ذمّ الحياء والخجل، فإنّهم يجعلون الأجيال القادمة بشكل تدريجيّ أجيالاً أقلّ حياءً من ذي قبل، بل ويفتخرون بقلّة حيائهم أيضاً!

الحياء قرين الإيمان

خلافاً للثقافة المعاصرة التي ترى في الحياء عيباً، ينظر الإسلام إلى الحياء على أنّه أساس الإيمان وقرينُه، ويرى أنّ ذهابه مقرون بذهاب الإيمان. بيد أنّ ثقافة عالم اليوم تقضي بأن يفلت الإنسان نفسه من هذه القيود والأغلال التي تراها في غير محلّها [!].

أمّا أهل الآخرة فإنّهم لا يقعون فريسة هذه الإغواءات، ولا يسمحون بظهور عوراتهم وعيوبهم. ليس هذا فحسب، بل إنّهم يعتذرون ممّا يبدر منهم من تصرّفات غير لائقة، ويجهدون في إصلاح سلوكهم. فآدم وحوّاء (عليهما السلام) حينما بدت لهما سوءاتهما والتفتا إلى أنّهما قد ارتكبا فعلاً مشيناً، دفعهما حياؤهما إلى تدارك الأمر. ولهذا فقد بادرا إلى الاعتذار من ربّهما قائلين: « **إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين**»[6]. فهذه التوبة هي نتيجة ذاك الحياء. فلو لم يعِ آدم وحوّاء (عليهما السلام) خطأهما ولم يستحيا منه لما تابا إلى ربّهما.

نفهم من ذلك أنّ طلب العذر والعمل على تدارك الخطأ هما أيضاً أمران فطريّان. إذن الحياء، وهو أمر فطريّ، شعور ينشأ في باطن الإنسان جرّاء ظهور عيب فيه، أو صدور عمل مشين منه. وهذا الشعور إنّما يحصل لمن يعدّ هذا الأمر قبيحاً وغير لائق، ولا يريد بانكشافه للآخرين أن يهبط احترامه، وإذا اطّلع امرؤ على عيبه، فإنّه يبادر إلى الاعتذار.

إنّ لمفهوم الحياء في الثقافة الإسلاميّة دائرة هي أوسع من تلك التي في المجتمعات الأُخرى. يقول نبيّنا الكريم (صلّى الله عليه وآله) في جملة ما أوصى به أبا ذرّ (رضوان الله تعالى عليه): « **يا أبا ذرّ!... استَحِ من الله، فإنّي، والذي نفسي بيده، لأَظَلّ حين أذهب إلى الغائط متقَنِّعاً بثوبي أستحي من الملكين اللذين معي**»[7]. ويروى أيضاً أنّ سلمان (عليه الرحمة) من شدّة حيائه لم ينظر إلى عورته حتّى مرّة واحدة في عمره.

وليست دائرة الحياء في الثقافة الإسلاميّة مقتصرة على بني آدم، فأولياء الله يستحون أن يطّلع حتّى ملائكة ربّهم، المكلّفون بتسجيل أعمالهم، على قبائحهم. بل وفوق ذلك، فإنّهم يخجلون من الله تبارك وتعالى أيضاً. ولهذا فإنّهم لا يجترحون السيّئة حتّى في الخفاء وفي خلواتهم، لأنّهم يرون الله جلّ وعلا حاضراً عندهم، فيستحون من ارتكاب الإثم في حضرته.

إذن فالحياء يعصم المرء عن ارتكاب المعصية. فقد جاء في الدعاء المرويّ بعد زيارة الإمام عليّ بن موسى الرضا (عليهما السلام): «**ربِّ إنّي أَستغفرك استغفار حياء**»[8]، والمعنى: إلهي! إنّني خَجِل من أنّني أذنبت بحضورك. وهذا النمط من الخجل هو على جانب من القوّة عند البعض حتّى أنّه لَيخاطب ربّه بالقول: إلهي! احرقني بنارك كي أخرج من حالة الاستحياء منك. إذن فالحياء عاملٌ يستطيع – إلى هذا الحدّ – أن يكون مؤثّراً في ردع المرء عن ارتكاب المعصية. غير أنّ الشياطين، ومن أجل أن نتلوّث نحن بالآثام، يحاولون سرقة هذا العامل منّا، فيغالطون قائلين: «الإنسان الخجل المتّصف بالحياء هو إنسان ضعيف لا يملك قدرة الدفاع عن نفسه»! بل إنّ هؤلاء قد دخلوا من باب المغالطة أيضاً ليروّجوا لـ «الحرّية» بالمعنى الذي يرومونه منها. ألم يقولوا: «كما أنّ الطائر يشعر بالسرور إذا أفلت من قفصه، فإنّ على الإنسان أيضاً أن يسعى في سبيل حرّيته كي يتسنّى له فعل ما يشاء»؟! ألم يبرّر شياطين [الإنس] كلامهم مستعينين بقول سيّد الشهداء (عليه السلام): «**إنْ لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم**»[9]، فقالوا: «إذا كانت الحرّية سيّئة، فلماذا أوصى الحسين (عليه السلام) بني أُميّة بها»؟ ولقد انطلت هذه المغالطات على البعض غافلين عن أنّ لـ «الحرّية» معاني واستخدامات مختلفة، لكلّ واحدة منها قيمتها الخاصّة، بل إنّ بعضها مضادّ للقيم، ولا يجوز خلطها مع بعضها. وهذه من جملة أساليب أُولئك الذين يسعون لإضلال الناس عن جادّة الصواب.

ثمّ إنّهم ابتدعوا مغالطة أُخرى بغية اجتثاث جذور «الحياء» من المجتمع الإسلاميّ فقالوا: «الإنسان الحيِيّ ضعيف ولا يستطيع الدفاع عن نفسه، إذن فالحياء صفة مذمومة»، ناسين أنّ السيّئ هو الكسل وعدم البراعة، وليس الشعور الذي ينتاب الإنسان نتيجة وقوفه على عيبه ونقصه. إذ بوسع هذا الشعور أن يشكّل دافعاً للإنسان لرفع سوءته وعاملاً لهدايته إلى سبيل الرشاد والرقيّ. فهل لنا – والحال هذه – أن نقول يا ترى: إنّ الحياء مذموم؟

لقد رسم لنا علماؤنا العظام نماذج يُضرب بها المثل في الحياء. إذ يُحكى أنّ المرحوم الحاج الشيخ محمّد حسين الاصفهانيّ كان لا يقوى، من شدّة حيائه، على النظر إلى وجه امرئ أثناء إلقائه الدرس، وكان كلّما رفع رأسه، طأطأه وخفض بصره مرّة أُخرى. ثمّ إنّني شاهدت بأُمّ عيني كيف كان المرحوم آية الله حُجّت لا ينظر إلى الآخرين أثناء شقّ طريقه عبر الأزقّة، بل كان دائم التطلّع في السماء. والمرحوم آية

الله العلاّمة الطباطبائيّ كذلك كان نادراً ما ينظر إلى وجه أحد أثناء إلقائه الدرس، بل كان بصرُه مرفوعاً إلى الأعلى.

فالحياء هو سجيّة مطلوبة تستدعي من الإنسان مراعاة احترام الطرف الآخر. كما أنّها من الممكن أن تشكّل منطلقاً للكثير من الصفات الصالحة الأُخرى. ولهذا السبب فقد ذُكرت هذه السجيّة في حديث المعراج باعتبارها واحدة من أبرز صفات أهل الآخرة.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

نبذ الحماقة

45

إشارة

تناولنا في المحاضرات الماضية تلك المقاطع من حديث المعراج القدسيّ التي تحدّثت عن خصوصيّات مُحبّي الله تعالى. وقد قلنا أثناء البحث إنّ إحدى ميزات المولَعين بحبّ الله هي كون قلوبهم طافحة بمحبّته عزّ وجلّ بحيث لا يعود فيها مجال لمحبّة غيره. بيد أنّ الحديث نفسه يوصي كذلك بمودّة بعض الأشخاص وأصناف أُخرى من الناس. وقد ذكرنا في توضيح التوصيات أعلاه أنّ هذا النمط من الودّ ليس هو بمعزل عن محبّة الله تعالى، بل هو فرع وشعاع منها؛ ذلك أنّ الذي يودّ شخصاً ما فإنّه سيحبّ متعلّقاته أيضاً لأجله. ثمّ إنّ الذين أُوصي بمحبّتهم هم أولياء الله وأحبّاؤه، ولا ريب أنّ كلّ مَن يحبّ الله فإنّه سيودّ هؤلاء أيضاً لأجله سبحانه.

وقد أشرنا، متابعةً للبحث، إلى أنّ من جملة الذين يوصي الحديث بمحبّتهم هم الفقراء الذين ذكر الحديث بأنّ محبّتهم هي عين محبّة الله جلّ وعلا: «**إنّ المحبّة لله هي المحبّة للفقراء**»[1]. وبوسعنا أن نفهم من هذه العبارة أنّ محبّة الفقراء لا تزاحم محبّة الله.

والفئة الثانية التي جاءت التوصية بمحبّتهم هم أهل الآخرة: «**أَحِبَّ الآخرة وأهلَها**»[2]. ثمّ سرد الله، في تتمّة الحديث، ميزات أهل الآخرة، وفي مقابلها صفات أهل الدنيا الذين أوصانا ببغضهم. هذا وقد تطرّقنا في المحاضرات القليلة الأخيرة، بعد ذكر صفات أهل الدنيا، إلى سجايا أهل الآخرة وتكلّمنا بعض

الشيء عن «الحياء» الذي هو أوّل صفاتهم وأبرزها. وسنتناول في محاضرة اليوم ثاني سجيّة من سجايا أهل الآخرة، والتي يعبّر عنها حديث المعراج القدسيّ بقوله: «**قليلٌ حُمقهم**»[3].

معنى الحماقة

لقد سبق أن قلنا في صفات أهل الدنيا: «**وهم عند أنفسهم عُقَلاء، وعند العارفين حُمَقاء**»؛ أي إنّهم يعدّون أنفسهم في قمّة العقل والفهم في حين أنّ أهل المعرفة يرونهم حمقاء. لكنّ الله عزّ وجلّ يعرّف أهل الآخرة في المقابل بكونهم: «**قليلٌ حمقهم**». ولابدّ من التنبّه هنا إلى أنّ هذه العبارة لا تعني وجود شيء من الحماقة عند طلاّب الآخرة، بل يُراد منها أنّه قلّما يمكن العثور في سلوك أهل الآخرة على تصرّفات غير عقلانيّة إذا ما قيست بتصرّفات أهل الدنيا، هذا وإن أتى بعضُهم أحياناً بأعمال غير مدروسة لكنّها يمكن التجاوز عنها، خلافاً لطلاّب الدنيا الذين تغلب عليهم الحماقة.

لكن ما معنى الحماقة يا ترى؟

كما تعلمون فإنّ مفردة «الجهل» تُستخدم في مقابل «العلم» وهي تُطلق على من لا يعلم بموضوع ما. أمّا الذي يأتي – على مستوى العمل – بتصرّف ينمّ عن جهل فيقال له: «أحمق». وفي المقابل فإنّ الذي يكون سلوكه صحيحاً يُنعَت بكونه «عاقلاً». ولذا فإنّ لفظة «العقل» تُستعمل في مقابل «الحُمق» في مقام العمل. بالطبع استخدام كلمة «الجهل» يستوعب أحياناً الجانب النظريّ والعمليّ على حدّ سواء. على سبيل المثال فإنّ المراد من قوله تعالى: «**قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**»[4] يبدو أنّه الجهل على المستوى العمليّ.

أمّا حقيقة «الحماقة» فهي أن يأخذ المرء، في محاولته للوصول إلى هدف ما، بأسباب أو يسلك طريقاً لا يوصله إلى مراده. والحماقة – بعبارة أُخرى – هي إتيان الإنسان فعلاً يؤدّي في نهاية المطاف إلى خسرانه حتّى وإن تصوّر أنّه يحسن صنعاً. وإنّه من هذا المنطلق جاءت التوصية في الأحاديث بعدم مشاورة الأحمق، فهو وإن قصد خدمتك، لكنّه سيضرّك بسبب عدم معرفته[5].

قِصَر النظر الناشئ عن الحمق

لكن كيف تكون حماقة أهل الدنيا زائدة؟ أوَليس ما نعيشه اليوم من تنمية وتطوّر على مختلف المستويات العلميّة والصناعيّة هو صنيعة نفس طلاّب الدنيا هؤلاء؟ على خلاف أهل الآخرة الذين لا يجيدون – كما يتخيّل أهل الدنيا – غير الصلاة والدعاء والعبادة، بل ولربما اكتفى معظمهم بمجرّد إظهار القداسة!

هذا مضافاً إلى أنّه من خلال مشاهدة المرء أُولئك الذين يطلبون الدنيا، وأُولئك الذين لا يفكّرون إلاّ بالآخرة فبإمكانه أن يدرك أنّه ثمّة عقلاء وثمّة حمقى في كلا الفريقين، وأنّه ليس هناك تلازم بين العقل وطلب الآخرة، ولا بين حبّ الدنيا والحمق.

يبدو أنّ الحديث القدسيّ ينظر إلى المسألة من زاوية هي غير تلك التي ننظر منها نحن، الذين نُعَدّ – إلى حدّ ما – من أهل الدنيا. فإنّه إذا نظر امرؤ من الزاوية التي ينظر منها قائل الحديث فسيفهم كم أنّ أهل الدنيا حمقى.

فابن آدم – فطريّاً – هو طالب دَعة وراحة، وهو — بالطبع – يسعى لنيل الراحة الأكثر هناءً والأطول أمداً. ولهذا السبب يحبّ كلّ امرئ أن يطول عمره وهو يبذل كلّ ما بوسعه في سبيل أن يزداد عمره قليلاً. إذ يقول عزّ من قائل: «**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**»[6]. وسبب ذلك هو أنّ الإنسان يسعى بالفطرة وراء اللذّة والسرّاء. وكلّما كانت لذّته أكثر هناءً وبقاءً كان أشدّ سعادةً ورضىً. ولهذا فإنّ كلّ تصرّف يصدر في هذا المجال يُعدّ عقلانيّا. لكنّ أصحاب الدنيا – الذين يرون في تقديم لذّة ساعة من الزمن على لذّة خمسين دقيقة أمراً عقلانياً — فإنّهم يؤثرون مسرّات الدنيا الضيّقة العابرة على المتعة الأبديّة وغير المحدودة للآخرة!

لكن أيّ واحدة من اللذّتين ينبغي للإنسان العاقل أن يختار: هذه العابرة القصيرة، أم تلك الأبديّة الطويلة؟ وإذا كان الحال كذلك، فما الذي يجعل أصحاب الدنيا يغضّون الطرف عن لذائذ الآخرة الباقية بغية نيل مُتع الدنيا الفانية؟ «**الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ**»[7]. أليست هذه حماقة؟ فلقد تحدّث الأنبياء (عليهم السلام) جميعاً عن الآخرة. وإنّ أكثر من ثلث القرآن الكريم يتناول الحياة الآخرة. أمّا أهل الدنيا فمشغولون بإمرار معيشة يومهم الحاضر، وليَجْرِ غداً ما يجري! والله تعالى يقول: «**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**»[8]. فوفق أيّ منطق يفرّط بعض الناس بمسرّات الآخرة الأكثر عذوبةً والأطول بقاءً؟ فلو أطلنا التأمّل في هذه القضيّة واستوعبناها خير استيعاب لاكتشفنا أنّ فعلاً كهذا ليس هو إلاّ الحماقة بعينها.

النسيان عن حماقة

من وحي التجربة، التي قد تكونون أنتم أيضاً مررتم بنماذج متعدّدة منها، فإنّ المرء إذا أنجز نفس هذه الأُمور الدنيويّة المألوفة وفقاً لتعاليم الله عزّ وجلّ وطمعاً في مرضاته فإنّ الله سيرفُده بإمدادات غيبيّة لا يسعه حتّى تصوّرها. هل هي قليلة تلك التجارب المشابهة التي مرّت بنا إبّان فترة الدفاع المقدّس (أثناء الحرب بين العراق وإيران)؟ فلقد كان مجاهدونا في جبهات القتال يشهدون يوميّاً مثل هذه الأيادي

الغيبيّة من جانب الله تبارك وتعالى ممّا لم يكن يُصدَّق حتّى من قِبلهم هم؟ فلقد نهض نفرٌ من الناس العاديّين دونما تجهيزات يُعتَدّ بها، بل كان أغلبهم لا يجيدون استخدام السلاح أيضاً، لمواجهة عدوّ مدجّج بالسلاح مدعوم من العالم بأسره. لكن بما أنّ هؤلاء القوم قد هبّوا لقتال عدوّ الله عن إخلاص في نيّاتهم وابتغاءً لوجه الله جلّ وعلا، فلقد مدّهم الله بالعون فانتصروا في الحرب. أمّا بعد الحرب، وكأنّه لم يبق في هذا العالم إلاّ نحن والأدوات الدنيويّة، فقد نسينا أنّه ثمّة ربّ فوق رؤوسنا أيضاً!

إنّ أهل الآخرة لا ينسون مثل هذه التجارب، وهم يفيدون منها باستمرار. أمّا أهل الدنيا فهم غارقون في النسيان. أوَليس نسيان وعود الله جلّ شأنه ووعود نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله)، والكمّ الهائل من الآيات والروايات، والتجارب العينيّة التي تُذكّرنا بحضور الله تعالى في جميع المجالات والميادين — أوَليس كلّ ذلك من الحماقة؟

فالله عزّ وجلّ يُذَكّرنا باستمرار بأنّه تعالى قد جعل في شؤون الدنيا من السنن ممّا لو أفاد منه الإنسان جيّداً فسوف يظفر في نفس هذه الحياة الدنيا بضروب من النجاح في نيل رغباته الدنيويّة. إحدى هذه السنن هي البركات المترتّبة على الشكر؛ كما في قوله تعالى: «**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**»[9]. أمّا أهل الدنيا فعوضاً عن شكر أنعم ربّهم، فإنّها تُمحى من أذهانهم، وتراهم دائمي الشكوى من عدم تلبية بعض حوائجهم.

والسنّة الأُخرى هي الثمار الحاصلة من الاستغفار. يقول عزّ وجلّ: « **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُم**»[10]. فإنّكم إن استغفرتم ربّكم ثمّ تبتم من ذنوبكم فسيرسل الله السماء عليكم برحمة المطر ولا تُبتلون بالجفاف والقحط، وسوف تتعاظم قوّتكم أيضاً. لكن ماذا يصنع الإنسان عوضاً عن الالتفات إلى هذه السنّة واستغلالها؟ إنّه يصنع سحاباً صناعيّاً كي يحصل منه على أمطار اصطناعيّة! ولربّما فاقت تكاليف هذا العمل ثمارَ نفس المطر الذي سيهطل. غير أنّ أهل الدنيا، وبدلاً من أن يتوبوا إلى بارئهم ويستغفروا ربّهم، ويصطفّوا لأداء صلاة الاستسقاء، فإنّهم يضعون آمالهم في مطر اصطناعيّ ينزل عليهم من سحاب مُصطنع! أوَليست هذه حماقة؟

أو ترى أُولئك الذين كانوا إلى الأمس القريب رفاقَ درب وقتال وزملاءَ عمل، يعمل كلّ واحد منهم اليوم على تخريب صورة زميله في السباق السياسيّ، فيتغاضى عن أعماله الحسنة ويتحدّث كما لو لم يبدر من زميله أيّ صنيع إيجابيّ أبداً. وعوضاً عن العمل على تلاقح الأفكار ووضع اليد في يد الصديق، تراه يمدّ – سرّاً – يد الحاجة إلى العدوّ فيطلب منه المعونة! أليست هذه حماقة؟ أوَليس من الحماقة أن يتخلّى المرء عن أصدقائه ورفاقه ويمدّ يد العوز والحاجة إلى عدوٍّ قد ثبت منه الخداع والمصلحيّة الدنيئة مراراً؟!

الكِبْر الناشئ عن الحمق

إنّ أهل الآخرة ينظرون أوّلاً إلى ربّهم، فإن شقّت عليهم معيشتهم، وكان الله راضياً عنهم، لم يشتكوا أبداً، بل يكون كلّ اعتمادهم على الله وجميع أملهم فيه سبحانه، فهم يقولون: « **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**»[11]. بل حتّى إذا اجتمع الأعداء لإبادتهم وإفنائهم قالوا: « **هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**»[12]. فلقد وعدَنا الله سابقاً مثل هذا الرزق، فإنّ «**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**»، الله كافٍ لنا. فلو مال عنّا جميع الأنصار والأحبّة أيضاً فسوف لا يساورنا القلق، إذ أنّ الله عزّ وجلّ معنا، وهو العوض عن الكلّ وهو فوق الجميع. هكذا هم أهل الآخرة. أما أهل الدنيا فقد يُظهرون الأمل في نصرة الله على ألسنتهم، لكنّهم يتّكلون، في قلوبهم، على القدرات المادّية، وصراعهم مع الآخرين، ثمّ في النهاية على المعونات الخارجيّة، حتّى تلك التي من عدوّهم. فهل يصحّ منّا – مع كلّ ما مرّ – أن نعتبر هؤلاء عقلاء؟

بطبيعة الحال إنّ أهل الدنيا يتفاخرون بكونهم يفهمون فنون السياسة ويعلمون من أين تُؤكَل الكتف وكيف يستغلّون العدوّ، وهم يعدّون أنفسهم من العقلاء ويرون الآخرين أُمّيين جَهَلة، والحال أنّ الله تعالى يقول في حديث المعراج: «**وهم عند أنفسهم عُقَلاء، وعند العارفين حُمَقاء**».

فمَن هو الأحمق إذن؟ إليس ذلك الذي نسي الله واليوم الآخر، وأدار ظهره إلى الإمدادات الغيبيّة، ولم يُلقِ بالاً إلى توسّل الناس ودعائهم في ليالي القدر، وتشبّث – عوضاً عن ذلك كلّه – بأذيال أمريكا علّها تعيد إلينا بعض الذي سرقته هي منّا؟ أوَليست هذه حماقة؟ « **وهم عند أنفسهم عُقَلاء، وعند العارفين حُمَقاء**».

فإن كان الأمر كذلك فما هو إذن معنى الآيات والأحاديث الكثيرة التي توصي الإنسان بالأمل في نصرة الله تعالى؟ ألم يقل ربّ العزّة: «**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**»[13]. فما كان من المسلمين يوم وقعة بدر، وقد كانوا قليلي العدد وخالي الوفاض من العُدّة والسلاح وهم يواجهون جيش قريش الجرّار المدجّج بالسلاح في حالة من الذلّ والبؤس – ما كان منهم إلاّ أن يلجأوا إلى الله تعالى ويستغيثون به: «**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**»[14]، وما كان من الله تعالى في المقابل إلاّ أن يمدّهم « **بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**»[15]. أوَتكذب علينا هذه الآيات يا ترى؟!

لقد سمعتُ من لسان نفس السيّد حسن نصر الله حفظه الله إذ نقل: «بعد حرب تمّوز التي دامت ثلاثة وثلاثين يوماً بين حزب الله والكيان الصهيونيّ، وُجّهت في لقاء مع بعض قادة جيش الاحتلال في

تلفزيون العدوّ أسئلة حول أسباب هزيمتهم أمام جنود حزب الله وهم قلّة، فكان جوابهم: لقد هُوجِمنا في هذه الحرب من قِبل أشخاص كانوا يرتدون ثياباً بيضاً ويحملون في أيديهم السيوف فلم نستطع الصمود بوجههم ولم نجد بُدّاً من الفرار أمامهم». هذه كانت تصريحات قادة جيش الكيان الصهيونيّ حول علّة انكسار جيشهم أمام جند حزب الله والتي بثّها تلفزيون الكيان نفسه. فما الذي كان يملك جنود حزب الله يا ترى غير الإخلاص والتضحية في سبيل الدين؟ وقد مدّ الله تعالى لهم يد العون حتّى استطاعوا بمفردهم وبأيدٍ خالية هزيمة أكبر قوّة عسكريّة في الشرق الأوسط، كانت قد هزَمتْ يوماً بضع دول عربيّة !في غضون ستّة أيّام فقط

فهل يصحّ لمن آمن بالقرآن والسنّة وبهذه التجارب الواقعيّة أن يقول: لا نستطيع التفوّه بكلمة في وجه إسرائيل؟! أوَليس هذا من الحماقة؟

خداع النفس على خلفيّة الحمق

إنّ مَثَل أصحاب الدنيا كمَثَل أطفال يفرّطون في لعبهم الصبيانيّ بجواهر نفيسة ثمناً لبضعة أكياس من رقائق البطاطس المقليّة ثمّ يتفاخرون بصفقتهم تلك! فأهل الدنيا يفرحون بخداع الناس وتخريب صورة :الآخرين من أجل الحصول على مناصب تدوم لهم بضعة أيّام في هذه الدنيا غافلين عن قوله تعالى
؟ فأين يا ترى ذهب فرعون، الذي كان [16]«**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ**»
فيخرّ الناس أمامه سُجَّداً؟ أوَننسى الله تعالى، ونضع الدين جانباً، [17]«**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**» :يقول
ونمنّي أنفسنا فرحين بأنّ العدوّ سيعيد لنا أموالنا؟ وكلّ ما نأمله من الإسلام هو أن يكون طلبتنا وأساتذة جامعاتنا على معرفة بثقافتهم الإسلاميّة بمستوى إطّلاعهم على ثقافتهم الوطنيّة! لكن لنسأل أنفسنا: ما هو المراد من معرفة الإسلام؟! أوَلم يكن طلبتنا الجامعيّون في زمان النظام الشاهنشاهيّ على معرفة بالإسلام؟ بل وحتّى الكيان المحتلّ للقدس يمتلك اليوم مراكز أبحاث حول التشيّع يقصدها الناس من !جميع أنحاء العالم للاطّلاع على مذهب التشيّع

فلطالما أكّد قائد الثورة الإسلاميّة (دام ظلّه) على أنّ المراد من الثقافة هي تلك الثقافة الإسلاميّة الثوريّة، وأنّه لابدّ من إشاعتها بين الناس، لا أن يُكتفى بتعرّف الطالب الجامعيّ على هذه الثقافة. فهل يكفي يا ترى أن يتعرّف الطالب والأُستاذ الجامعيَّان على الثقافة الإسلاميّة، بالضبط كما يطّلعان على الثقافة الوطنيّة وتاريخ إيران القديمة؟ هل هذا هو هدف الثورة الإسلاميّة؟ فكيف لنظام يصبو إلى هدف سيادة الثقافة الإسلاميّة على العالم بأسره أن تصل به الأُمور إلى التفكير بمجرّد تعريف الطلبة بالثقافة الإسلاميّة إلى جانب الثقافة الإيرانيّة؟ أيكون لهذا معنى آخر غير الحماقة؟

نسأل الله تبارك وتعالى أن ينجينا جميعاً من هذا .«**هم عند أنفسهم عُقَلاء، وعند العارفين حُمَقاء**»
.اللون من الحماقة وكلّ حماقة

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

حبّ مخلوقات الله
46

يا أحمد! إنّ أهل الخير وأهل الآخرة رقيقةٌ وجوههم، كثيرٌ حياؤهم، قليلٌ حُمْقهم، كثيرٌ نفعهم، » قليلٌ مكرهم، الناسُ منهم في راحة، وأنفسُهم منهم في تعب، كلامهم موزون، مُحاسِبين لأنفسهم [1]«متعِبين لها

إشارة

بحثنا في المحاضرات الفائتة حول بعض مقاطع حديث المعراج التي يوصي الباري عزّ وجلّ فيها رسوله الكريم (صلّى الله عليه وآله) ببغض أهل الدنيا ومحبّة أهل الآخرة. وحينما سأله (صلّى الله عليه وآله) عن ماهيّة أهل الدنيا وأهل الآخرة، بيّن الله تبارك وتعالى له بعض خصوصيّات الفريقين، وهو ما تكلّمنا عنه .في المحاضرات القليلة الماضية

وانسجاماً .«**كثيرٌ نفعهم، قليلٌ مكرهم**» :ومتابعةً لاستعراض أوصاف أهل الآخرة يقول الباري تعالى مع ما جرى في الحديث في عرض بقيّة خصال أهل الآخرة في مقابل صفات أهل الدنيا، فإنّه في هذا المقطع أيضاً – وبعد أن وصم في المقطع السابق أهل الدنيا بالأنانية وعدم التفكير إلاّ بأنفسهم، وأنّهم لا يعتذرون من سلوكهم المشين، ولا يقبلون عذر الآخرين – يعرّف طلاّب الآخرة، في المقابل، بأنّ نفعهم .للناس كبير وأنّهم لا يستخدمون في تعاملهم معهم أُسلوب النفاق والمكر

التفكير الفرديُّ المذهب

قلنا في إحدى محاضراتنا الماضية، لدى تصنيف خصوصيّات طلاّب الدنيا وفق أدبيّات عالمنا المعاصر إلى ثلاثة مذاهب فكريّة؛ هي مذهب أصالة المتعة، ومذهب أصالة الفرد، ومذهب أصالة الحرّية الأخلاقيّة – قلنا: إنّ روح الأنانية والمنفعيّة تنبع من القول بأصالة الفرد. وبالنظر إلى أنّ سجيّة حبّ نفع الآخرين هي

في مقابل النفعيّة الشخصيّة، نرى من المناسب أن نتوسّع بعض الشيء في البحث حول مذهب أصالة الفرد.

يؤكّد أحد المذاهب الأخلاقيّة الشائعة على جعل مناط تقييم سلوك الإنسان في مقدار اللذّة التي يصيبها من هذا السلوك. وقد قلنا فيما مضى أيضاً: يعتقد بعض أصحاب الرأي في حقل فلسفة الأخلاق بأنّ جذور أصالة اللذّة تمتدّ إلى أصالة النفع. فلو انهمك الإنسان – استناداً إلى هذا المعتقد — في إنجاز عمل لا متعة فيه، بل ويكلّفه تعباً ومشقّة أيضاً، غير أنّ النفع الذي يعود عليه بسببه يفوق المشقّة التي يتجشّمها لأجله، عُدّ هذا العمل قيّماً.

ومن ناحية أُخرى، وتأسيساً على المذاهب المادّية — التي يُعدّ المذهب الدنيويّ واحداً من فروعها — فليس هناك سبب لسعي الإنسان من أجل منفعة الآخرين. هذا النمط من التفكير إنّما يُستقَى من عقيدة أنّ عالم الوجود وكأنّه قد وُجد بمحض صدفة، ومن دون أيّ هدف أو غاية، عبر انفجار في المادّة، وأنّ العمليّة التطوّريّة لجميع المخلوقات إلى ظهور الإنسان هي مجرّد سلسلة من الأحداث العفويّة غير الهادفة، وأنّ كلّ فرد – وبعد أن يمضي فترة في هذا العالم مصارعاً جملة من الحوادث العرضيّة — يموت صدفة ويتحوّل جسده مرّة أُخرى إلى تراب. فماذا عسى الإنسان أن يصنع في هذه الدنيا، وفقاً لهذا الطراز الفكريّ، سوى الاستمتاع! فالإنسان الذي ليس وجوده في هذا العالم إلاّ حصيلة سلسلة من الأحداث العفويّة غير الهادفة، والذي ليس من عاقبة تنتظره سوى التحوّل إلى تراب، لماذا ينبغي له التفكير في نفع الآخرين؟ فإنّ رؤية من هذا القبيل، بشكل طبيعيّ، لا تُنتج غير مذهب أصالة الفرد، وضرورة تفكير المرء براحة نفسه.

المذهب الجماعيّ التفكير

لكنّ بعض الفلاسفة وجدوا، بعد تأمّلهم في هذه الرؤية، أنّها تتعارض مع أمور من قبيل التضحية وبذل النفس في سبيل الآخرين، ممّا يُعدّ من القيم الإنسانيّة المسلَّم بها. ومن هنا فقد ظهر في مقابل مذهب أصالة الفرد مذهب يتّخذ من الجماعة والمجتمع محوراً، ويُرجِع جميع القيم والمبادئ إلى نكران الذات. والإنسان في هذا المذهب لا ينبغي أن يفكّر في مصلحته الشخصيّة بتاتاً، بل يتعيّن أن ينحصر تفكيره في كيفيّة إيصال المزيد من النفع إلى الآخرين. وقد اصطُنعت لتبرير هذا المذهب أدلّة فلسفيّة، من جملتها: أنّه ليس لأيّ فرد من البشر كيان مستقلّ وأصيل غير المجتمع، وأنّ الذي يتمتّع بالأصالة هو المجتمع البشريّ. فالفرد، وفقاً لهذا المذهب، هو في الواقع خليّة من خلايا جسد المجتمع. إذ من الممكن لخلايا جسم الإنسان أن تُفصَل عنه وتستمرّ في الحياة خارجه إذا توفّرت لها الظروف الطبيعيّة الملائمة،

غير أنّ الخليّة الواحدة أو العضو الواحد من البدن لا يُعدّ بمفرده إنساناً. فإنّ مليارات من الخلايا قد اجتمعت مع بعضها البعض وتآزرت فيما بينها لتبني جسم إنسان، لكنّ أيّ واحدة منها لا تُعتبر بمفردها إنساناً.

وفقاً لهذه الرؤية، التي تُصنّف في عداد النظريّات الفلسفّية المعروفة في علم الاجتماع، فإنّ الأصالة والوجود الحقيقيّ هما للمجتمع، وهو جسد تكوّن من اجتماع أفراد البشر وتواصلهم مع بعضهم، وإنّ كلّ فرد يبقى متمتّعاً بالحياة الحقيقيّة ما دام متّصلاً بهذه الجماعة، أمّا إذا قُطع الارتباط بينه وبين الجسد، فسيكون كالعضو المبتور من جسم الإنسان.

ولقد طُرحت على أساس هذا المذهب الفلسفيّ بحوث أخلاقيّة وقيميّة من قبيل تبرير قضيّة نكران الذات. ووفقاً لهذه النظريّة فإنّ رغبة الإنسان في نفع الآخرين تنطلق من كون حياته الحقيقيّة متعلّقة بهم، وأنّه بغياب التعامل والتعاون بين أفراد المجتمع باعتبارهم خلايا لجسد واحد فإنّ كيانهم سيكون عرضة للخطر. بل لقد ذهب البعض إلى عدّ أبيات الشاعر سعدي المعروفة (كلّ فرد من بني آدم عضو في المجتمع البشريّ والجميع مخلوق من جوهر واحد. فإن اشتكى عضو منهم تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى)[2] شاهداً على صحّة هذه النظريّة.

بناءً على ما تقدّم فإنّ كون صفة التفكير في الآخر قيمةً أخلاقيّةً له جذور فلسفيّة وتُستخلَص منه نتائج حقوقيّة واجتماعيّة مختلفة. ومنها أنّ الفكر القائم على أصالة المجتمع قد أنتج الشيوعيّة والعلمانيّة، وهما مذهبان يتعيّن على جميع القائلين بهما العمل لصالح المجتمع، وكلّ عضو لا يكون ذا نفع للمجتمع فهو إمّا أن ينفصل لوحده عن هذا الجسد (كما تنفصل خلايا الجلد الميتة المتقرّنة عن الجسد وتتساقط)، أو أن يتمّ إقصاؤه عنه باعتباره عضواً زائداً وضارّاً (كما يستأصل الجرّاح العضو المريض من البدن). وهذا ما كان يُعمل به في البلدان الشيوعيّة حيث يصار، تحت ذرائع شتّى، إلى التخلّص من المسنّين والعاجزين الذين لا أمل في أن يقدّموا نفعاً ما للمجتمع كي لا تذهب ثروات الأمّة سُدىً!

ولقد اجتذبت هذه النزعات — بطريقة أو بأخرى - أتباعاً من المدارس الفكريّة المختلفة، بل وحتّى من بين بعض المذاهب. ولقد راجت مثل هذه الأفكار الماركسيّة في بلدنا أيضاً، في مرحلة من المراحل، إلى درجة التحاق بعض المعمّمين رسميّاً بحزب «توده»، واستدلالهم — من أجل الترويج للماركسيّة - ببعض الآيات والروايات، لاسيّما روايات نهج البلاغة. وانطلاقاً من تصوّر أنّ الفكر الماركسيّ يمثّل تبريراً علميّاً وفلسفيّاً لتعاليم الإسلام الاجتماعيّة، فقد قدّم هؤلاء الإسلامَ كدين يدعو إلى أصالة المجتمع، هابطين —

نتيجة لذلك – بالأحكام الفرديّة للإسلام، التي لا تجدي نفعاً للآخرين، كالصلاة، إلى مستوى الآداب والتقاليد المحلّية القليلة الأهمّية! فالمهمّ في نظرهم هو خدمة المرء للمجتمع وكونه ذا فائدة للناس.

أثر الاعتقاد بالمعاد على الأخلاق الاجتماعيّة

نحن نعلم بالطبع أنّ للإسلام رأياً آخر غير ما ذكرنا. فالإسلام يعتبر لكلّ فرد وجوداً خاصّاً، وتكليفاً محدّداً، ومصيراً معيّناً، وعاقبة مستقلّة، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً**﴾[3]، أي إنّ كلّ فرد من بني آدم يُحشر يوم القيامة بمعزل عن الآخرين؛ ﴿**فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ**﴾[4]، فالعلاقات الدنيويّة التي كانت تجمع الأفراد تتفكّك في ذلك اليوم ولا يُسئل امرؤ عن أبيه أو أمّه، بل إنّه: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**﴾[5]. فكلّ امرئ يومئذ تشغله أعماله، والناس في ورطة وابتلاء عظيم بحيث يفرّ بعضهم من بعض.

إذن فلكلّ فرد من البشر في الإسلام — من ناحية – استقلالٌ وكيان شخصيّ وهو يحاسَب بمعزل عن الآخرين، كما أنّ الإسلام – من ناحية أخرى — قد سنّ أحكاماً وجعل قيماً اجتماعيّة أيضاً. فاهتمام الإسلام بخدمة الآخرين قد بلغ حدّاً بحيث إنّه أحياناً يُجزِل ثواباً عظيماً على تقديم خدمة صغيرة. فقد ورد في بعض الأخبار انّ ثواب قضاء حاجة الآخرين، وعلاج مشكلاتهم، وكشف الهمّ والغمّ عن قلوب الأرحام، ومساعدة الناس يزيد على ثواب مئات الحجج والعمرات المقبولة[6].

من هنا فمن الميسور القول إنّ الإسلام قد أقرّ بأصالة الفرد على الصعيد الفلسفيّ، أمّا على المستوى الأخلاقيّ الاجتماعيّ فهو يقول بأصالة المجتمع ويقدّم منفعة الجماعة على مصلحة الفرد. فالإسلام يفصل بين الشخصيّة المستقلّة لكلّ فرد وما يتعيّن عليها من تكاليف فرديّة، وبين علاقات الأفراد مع بعضهم البعض وتعاملاتهم الاجتماعيّة، فلا ينبغي أن نقع في فخّ المدارس الإلحاديّة عبر الخلط بين هاتين القضيّتين.

لكن على أيّ أساس يا ترى تمّ وصف أهل الآخرة بأنّهم «كثير نفعهم» أو نعت أهل الدنيا بأنّ: «نفعهم قليل»؟

لقد ذكرنا سابقاً أنّه ثمّة أُناس لا يؤمنون بوجود الآخرة، وهم يعتقدون: «**إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**»[7]، ويزعمون بأنّ الإنسان إنّما يولَد في يوم من الأيّام، ويعيش في هذه الدنيا بضع سنين، ثمّ يموت في نهاية المطاف، وتنتهي دورة وجوده بتبدّل جسده إلى تراب. واعتماداً على وجهة نظر أمثال هؤلاء، الذين «**نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ**»[8]، فإنّه ليس ثمّة تبرير عقلانيّ لإسداء

الخدمات للآخرين والحرص على معالجة مشكلات الناس والنظر في قضاياهم، لأنّه يتحتّم على كلّ امرئ أن يعمل قدر المستطاع على استغلال فرصته المحدودة في هذه الحياة الدنيا في التمتّع باللذّات. فلو خُلِّيَ بين المرء ولذّاته، ولم يكن ثمّة مَن يحاسبه، فأيّ دافع من شأنه أن يدعوه إلى ترك اللذّة وتحمّل عناء خدمة الآخرين يا ترى؟

وفي المقابل فإنّ الذي يعتقد بوجود عالم آخر سوف يُثاب فيه أو يعاقَب على أعماله، فسوف يحذر من ظلم الآخرين، لعلمه بأنّ عذاباً سيحيق به في الآخرة جرّاء ظلمه. كما أنّه يعلم أنّ أيّ خدمة يسديها إلى الناس في الحياة الدنيا فسيثاب عليها أضعافاً مضاعفة في العالم الآخر. فأيّ صفقة أعظم ربحاً من هذه؟!

إنّ التبعات التي أتحفنا بها الفكر الإلحاديّ المتمثّل بمذهب أصالة الفرد ونزوع طلاّب الدنيا نحو اللذّات هي تلك التي نشاهدها اليوم في أغلب أصقاع العالم؛ ألا وهي تفكّك الأسرة، وعدم مبالاة الأولاد بآبائهم، ومحورية الذات، و..الخ. وفي المقابل فإنّ الإيمان بالمعاد والحساب والكتاب يبعث في الإنسان حالة المراقبة لأفعاله وأقواله وغضّ الطرف عن بعض اللذّات العابرة، لينال في الآخرة أضعافها من الأجر والثواب. بالطبع من الممكن أن يعتقد البعض، على مستوى اللسان، بالمعاد كجزء من أصول دينه، غير أنّ حياته — من الناحية العمليّة — لا تختلف عن حياة الكافر! بل لربما كان لبعض الكفّار سلوك أكثر سلامة وأخلاقيّة من سلوك بعض مدّعي الاعتقاد بالله ورسوله. فهمّ هؤلاء المدّعين الزائفين هي أمور الدنيا، وإن زعموا بألسنتهم شيئاً آخر. بل إنّ أمثال هؤلاء يستغربون من مخاوف الآخرين حيال الآخرة! وهذه هي طبيعة النظر إلى الحياة الدنيا بنظرة كونها أصيلة والتي من لوازمها الإيمان بمذهب أصالة الفرد، وطلب اللذّة، وحبّ الذات. وحتّى لو قدّم أمثال هؤلاء خدمة إلى غيرهم فهم — في الواقع — يرومون استجداء منفعة دنيويّة منهم. في حين أنّ الشخص المؤمن بالآخرة، الذي لا يروم من أعماله غير الحصول على المزيد من الثواب يوم القيامة، يؤْثِر خدمة الآخرين — ابتغاء أجرها الأخرويّ الجزيل — على لذّاته ومصالحه الشخصيّة في هذه الدنيا.

وأعلى من هؤلاء أولئك الذين ذاقوا حلاوة محبّة الله وهم يعلمون أنّ الله تعالى فيّاض ورؤوف إلى درجة أنّه خلق الكون كلّه من أجل إفاضة رحمته، وأنّ كلّ مخلوق من مخلوقات هذا العالم هو رمز ومظهر للرحمة الإلهيّة. فالله يحبّ جميع هذه الموجودات ويرغب في أن تتكامل كي تستحقّ المزيد من رحمته. ومن هذا المنطلق فإنّ الذي يحبّ الله تعالى ينبغي أن يحبّ عباده، ومثلما يرغب هو في بلوغ الكمال، فإنّ عليه أن يسعى في تكامل باقي العباد أيضاً. وهي نظرة تحتلّ مقاماً أعلى وألطف من مقام طلب ثواب الآخرة وخوف عقابها. وتأسيساً على هذه الرؤية فإنّ محبّة الله ستمثّل الباعث الوحيد لخدمة خلق الله تبارك

وتعالى. فالمؤمن الذي يحبّ الله سوف لا يتحمّل حتّى رؤية حيوان جائع، لأنّه مخلوق من مخلوقات الله عزّ وجلّ.

بالطبع هناك في هذا المجال، كما في المجالات الأخرى، إفراط وتفريط. فالبعض – على سبيل المثال – يعتقد، استناداً إلى هذه الفكرة، بأنّه لا ينبغي إعدام كائن حيّ أو قتل حيوان على الإطلاق، لأنّ الله هو الذي قد وهبه الحياة. ولقد بلغ الإفراط في هذا المضمار إلى حدّ تقديس البقرة، مثلاً، بل وعبادتها في بعض المذاهب الهنديّة. وحرّم بعضهم الآخر على نفسه أكل لحم أيّ حيوان.

لقد نسي هؤلاء بأنّ الله تعالى قد صاغ نظام هذا العالم بحيث لابدّ، من أجل خلق أيّ ظاهرة جديدة، أن يصار إلى دمج الظواهر السابقة بها، أو محوها. من باب المثال، فإنّ المخلوق الحيّ بحاجة، من أجل البقاء على قيد الحياة، إلى الغذاء. وإنّ الإله الذي خلق هذه المخلوقات قد صمّم نظامَ العالم بحيث تفدي بعض هذه المخلوقات نفسها في سبيل تكامل المخلوقات الأخرى. فالشاة مهما طال عمرها تبقى شاة، أمّا الإنسان فباستطاعته الرقيّ ليصبح «ابن سينا»، أو «سلمان الفارسي» (عليهما الرحمة). إنّه قانون الله. فالله تعالى هو الذي أمر الإنسان، من أجل أن يبقى حيّاً، بأكل لحم الشاة. لكن علينا أن نعلم أنّنا من دون إذن الله تعالى لا يجوز لنا القيام بذلك.

أهمّية الأفكار الأساسيّة

بالرجوع إلى ما قيل سلفاً نفهم أنّ علينا أوّلاً إصلاح رؤيتنا، وأن نعلم ما نحن؟ هل نحن مجرّد هذا البدن المادّي الذي سيموت ذات يوم ويتحوّل إلى تراب؟ أم ثمّة جزء آخر فينا اسمه الروح قد نفخها الله في أجسامنا: «**نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**»[9]، وسيستردّها مَلَك الموت يوماً منّا: «**تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا**»[10]، «**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ**»[11]؟ والاستيفاء يعني أخذ الشيء كلّه دفعة واحدة، ويعني أنّ ملَك الموت يأخذ روحكم ووجودكم مرّة واحدة. فالبدن الذي تراه هو ثوب ستخلعه يوماً ما وسيتحوّل إلى تراب. وإنّ هويّتك الرئيسيّة هي شيء آخر يبقى مصاناً محفوظاً حتّى بعد الموت، بل وإلى يوم القيامة، ثمّ تعود كرّة أخرى، وتُبصر ثمار أعمالك.

علينا أن نعلم أنّ الحياة في هذه الدنيا هي عبارة عن دورة جنينيّة، أمّا الحياة الأصيلة فتشرع بعد الموت. بل هناك علاقة تربط هذه الحياة بالحياة في الآخرة. فعلينا أن نزرع في هذا العالم، كي نحصد ما زرعنا في العالم الآخر. فليس ذلك العالم محلاًّ للزرع والغرس.

نستشفّ من ذلك أنّ علينا الإفادة غاية الفائدة من أعمارنا، وأن نزرع ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ونصون ما زرعنا، كي يوافينا يوم القيامة سالماً صحيحاً، فنكون قادرين في ذلك اليوم على الانتفاع منه.

أمّا إذا أغفل المرءُ الآخرةَ فسيُبتلى بمذهب أصالة الفرد، واللهث وراء اللذة، وحبّ الذات، وسيكون كلّ ما يملك منحصراً في هذه الدنيا، ولن يكون له في الآخرة شيء يحصده.

وكلّما قويت هذه العقيدة في النفس تراءَت القيم المذكورة للإنسان بشكل أوضح، لوجود علاقة منطقيّة بين تلك المعتقدات وهذه القيم. ومن باب المثال فإنّ الذين لا يحملون مثل هذا الإيمان هم كمَن: فهؤلاء يأتون **«أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً»**[12]. بأعمال يتخيّلون أنّها ذات قيمة عظمى، لكن بمجرّد ما يفتحون أعينهم على عالم الآخرة، فهم لا يرون شيئاً: **«وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً»**[13]. كلّ أناس كهؤلاء ليست أعمالهم، أعمالهم، سوى هباء منثور ليس له أدنى قيمة.

فالعمل ذو القيمة هو ذلك الذي يؤتى به عن إيمان: **«وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً»**[14]. فلو كان سعي الإنسان وجهده نابعاً عن إيمان، فهو قيّم.

بناءً على ما تقدّم، فنحن مطالَبون بتدعيم ركائزنا الفكريّة قدر ما نستطيع. فكلّما كان إيماننا أعظم قوّة، وأشدّ وضوحاً، وأكثر رسوخاً وتجذّراً، كانت أعمالنا أكبر قيمة، وكانت في سعادتنا الأبديّة أمضى أثراً.

وصلّى الله على محمّد وآله

أهل الآخرة مستيقظة قلوبهم دائم ذكرهم

إشارة

موضوع بحثنا في المحاضرات السابقة تناول صفات أهل الآخرة التي ذكرها ربّ العزّة في ليلة المعراج. وقد خصّ بعض هذه الصفات بعلاقة أهل الآخرة بالناس وهو ما تحدّثنا عنه في المحاضرة السابقة. لكنّ البعض الآخر منها يتكلّم حول علاقة هؤلاء القوم بالله جلّ وعلا، ومنها قوله تعالى: «**تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة، إذا كُتب الناس من الغافلين كُتبوا من الذاكرين، في أوّل النعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون**»[1].

غير أنّ بعض التعبيرات المذكورة هاهنا غريبة بعض الشيء عنّا، إذ ليس من السهل علينا إدراك مفهوم: نوم العيون ويقظة القلوب.

نعم نحن نعلم إجمالاً أنّه ثمّة طائفة من القضايا تخطر في ذهن المرء أثناء النوم. فلقد اتّفق أن برزت لمعظمنا في حال النوم مسائل من قبيل ذكريات الماضي، وتعلّقات القلب، والطموحات، وأشكال الحرمان، وما إلى ذلك. وقد قام بعض علماء النفس بدراسات وبحوث حول قضيّة الحلم، وأنواعه، وارتباطه بشخصيّة النائم، وعلاقاته، وعواطفه، وميوله، ونشاطاته اليوميّة، وغيرها من القضايا ذات العلاقة، وقد توصّلوا في هذا المضمار إلى نتائج، مقدّمين إيّاها كقواعد لتفسير الأحلام. ومن بين هؤلاء فرويد، وهو عالم نفس شهير صنّف كتاباً حول تفسير الأحلام. بل إنّ لكلّ واحد منّا تقريباً تجارب في هذا المجال، حيث قد شاهدنا في عالم الرؤيا أحداثاً، ومسرّات، ومخاوف، وما إلى ذلك.

لكن يا ترى هل المقصود من يقظة القلب أثناء النوم هو مشاهدة هذه المسائل؟ من الواضح أنّه ليس هذا هو المقصود، ذلك أنّ الناس جميعاً، بما فيهم محبّو الدنيا وطلاّب الآخرة يرون مثل هذه التصوّرات والتلقّيات في عالم الرؤيا. إذن المراد من هذه العبارة هو مفهوم آخر يخرج فهمه عن دائرة إدراك الأشخاص العاديّين من أمثالنا.

في ردّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على سؤال أحد اليهود إيّاه حول خصوصيّاته الشخصيّة قال (صلّى الله عليه وآله) : «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**»[2]. وهذه من الخصوصيّات المذكورة في كتب اليهود لنبيّ آخر الزمان. لكن أنّى للمرء أن يبقى قلبه يقظاً نشطاً وهو في حال النوم؟

نحن ليس لدينا تصوّر واضح عن هذا المفهوم لكنّنا نعلم أنّه حقيقة، حاله حال الكثير من الأمور الأخرى التي لا نفهمها ونتصوّر أنّها من قبيل التعبيرات التي يستخدمها الشعراء. فنحن، مثلاً، لا نستطيع أن ندرك جيّداً كيف يبقى الشهيد حيّاً بعد أن يُوارى جثمانه الثرى وتمرّ على دفنه أعوامٌ ومن المحتمل أن لا يكون قد بقي منه سوى عظيمات؟ فقد يتصوّر البعض أنّ المراد من حياة الشهيد بعد استشهاده هو بقاء اسمه وذكراه. لكنّ لبعض عوائل الشهداء ضروباً من التواصل مع شهيدهم وهم ينقلون عنه أموراً هي ممّا يثير الاستغراب والدهشة في أمثالنا.

الشهداء الأحياء

ويمكن الإشارة، من باب المثال، إلى قصّة شفاء أمّ الشهيد معماريان[3] والتي قد روتها بنفسها قبل بضع سنين في إحدى القنوات التلفزيونيّة. فلقد أصيبت الأمّ بعد استشهاد ولدها ببضع سنوات بألم شديد في

ساقها. وبعد أن توسّلت في إحدى الليالي بسيّد الشهداء (سلام الله عليه) من أجل شفاء ساقها، رأت ولدها الشهيد في المنام وقد أتى لزيارتها. وبعد أن مسح بيده على رأسها ووجهها ربط موضع الألم في ساقها بخرقة خضراء وقال لها: لقد ذهب ألم ساقك. تقول أمّ الشهيد المبجّلة: بعد أن صحوت من نومي وجدت نفس الخرقة الخضراء وقد رُبطت بساقي وليس ثمّة أيّ أثر للوجع.

وبعد مدّة بلغ هذا الخبر المرحوم آية الله العظمى الكلبايكاني (رضوان الله تعالى عليه) فأرسل في طلب أمّ الشهيد معماريان واستخبرها عن تفاصيل القصّة. وبعد أن قارن الخرقة الخضراء وعطرَها مع عطر تربة سيّد الشهداء (عليه السلام) التي في حوزته، والتي قد وصلته من أجداده الطاهرين، قال: «هذه الخرقة مصدرها نفس المكان الذي جُلبت منه هذه التربة». هذا ناهيك عن المرضى الكثيرين الذين تماثلوا للشفاء بسبب هذه الخرقة الخضراء اللون.

فأنّى لشابّ يافع، قد استُشهد قبل سنوات عديدة ثم وُوري جسده الثرى، أن يربط ساق أمّه في عالم الرؤيا بخرقة، وإذا بنفس هذه الخرقة، بعطرها ولونها، تبقى على حالها في عالم اليقظة؟!

وهناك نماذج لا تحصى من هذه القصص قد مرّت بأُسر الشهداء، لكن من غير المعلوم إلى أيّ مدى يمكننا أن نتعامل معها بجدّية ومن صميم قلوبنا!

وللقرآن الكريم في هذا الخصوص تعبيرات عجيبة. فهو يقول ابتداءً في آية كريمة: «**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبيلِ اللهِ أَمْواتٌ**»[4]. ولعلّ البعض يتصوّر هذ الأمر من باب مراعاة احترام الشهيد. لكنّه يقول في آية أخرى: «**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون**»[5]. ونحن لا نعي جيّداً المراد من أنّ الشهداء يُرزقون. إذ لعلّه يعني أنّه ثمّة كمالات أكثر ستظهر للشهداء عند ربّهم. لكنّ المتيقّن هو تأكيده المبرم على ضرورة عدم الظنّ بأنّ الشهداء أموات، بل إنّهم أحياء. وإنّ الذي يملك أقلّ إيمان بالله عزّ وجلّ ورسوله (صلّى الله عليه وآله) والقرآن الكريم لا يستطيع المرور أمام هذه التعبيرات مرور الكرام، بل إنّ من الواضح لكلّ امرئ أنّ هذا الكلام لا يأتي من باب المجاملة ولا بوصفه كلاماً شعريّاً، بل إنّه يحكي عن واقع. لاسيّما عندما نقف على هذا الكمّ الهائل من الشواهد والآثار العينيّة على كون الشهداء أحياء وكيف أنّهم يعالجون ما يواجه أسرهم من مشكلات، ويرشدونهم عند تأزّم الأمور، ويبشّرونهم بأمور معيّنة، ...الخ.

كلّ هذه الأمثلة تشير إلى وجود حقيقة دامغة نعجز نحن عن مشاهدتها، لكنّها موجودة على أيّة حال. فالشهيد حيّ، وهو ينجز أموراً، وينطق بكلام، وتصدر عنه تصرّفات ممّا يستحيل تحقّقه من الإنسان الميت. بالطبع ليس جميع الشهداء في مستوى واحد، بل إنّهم يختلفون في المقامات، لكنّ المقدار المتيقّن

به هو أنّ هناك من بين الشهداء من يقوم بأعمال كثيرة، وتتوسّل بهم عوائلهم وغير عوائلهم فيقضون حوائجهم. وهذه نماذج من الحقائق التي باتت، بفضل شهداء حرب الدفاع المقدّس، تشاهَد عياناً إلى حدّ ما، حتّى زال ما كان يرين عليها من شكوك وشبهات، وتهّيأت الأرضيّة المناسبة لتصديقها من قِبل الناس.

العلماء ذوو القلوب المتيقّظة

ومن الحقائق الأخرى التي يشقّ علينا استيعابها هي بقاء قلوب بعض الناس وأرواحهم يقظة ناشطة في وقت تنام فيه أعينهم.

لعلّ أحلام غالبيّة الناس –كما يشير إلى ذلك بعض علماء النفس – هي نتيجة نشاطاتهم أثناء اليقظة ومتأثّرة برغباتهم الباطنيّة. لكنّه ثمّة أشخاص عاديّون أيضاً، من غير أولياء الله، ممّن يفيدون من ساعات نومهم أكثر مما يفعلون في ساعات صحوهم. إذ كان يوجد من بين العلماء مَن لم يتوصّل إلى حلّ مسألة ما حتّى بعد طول التفكير والتأمّل فيها حال اليقظة فإذا به يعثر على جوابها في المنام ثمّ يتذكّر الجواب بكلّ وضوح بعد الصحو. أو بعض من لم يجدوا لمعضلتهم حلاًّ حال اليقظة لكنّهم بلغوا النتيجة المرجوّة أثناء النوم.

هناك قصّة معروفة مفادها أنّ شخصاً كان قد أمّن كتاباً لدى المرحوم الشيخ عبّاس القمّي (رضوان الله تعالى عليه) وبعد أن توفّي الشيخ جاء الرجل إلى وُلْده مطالبًا بكتابه، فلم يتمكّنوا من العثور عليه. وقد نقل أحد أولاد الشيخ قائلاً: «رأيت والدي الشيخ عبّاس القمّي في عالم الرؤيا فأخبرني بموضع الكتاب الذي نبحث عنه في المكتبة. وعندما صحوت من نومي توجّهت إلى ذات المحلّ الذي أخبرني به في المنام فإذا بي أجد الكتاب هناك». إذن مثل هذه الحوادث تقع حتّى للأشخاص العاديّين.

ويحكي أحد الأصدقاء وقد كان طالب علوم دينيّة في مدرسة الحاج أبي الفتح في طهران، وكان إلى جانب درسه الحوزويّ يعطي هو درساً أيضاً: «في إحدى الليالي بقيت مستيقظاً أطالع الدرس الذي عليّ إلقاؤه في الغد. وفي ساعة متأخّرة من الليل قالت لي والدتي، بعد أن استيقظت عدّة مرّات أثناء الليل وشاهدتني على تلك الحال: «كفاك مطالعة يا بُنيّ، إذهب إلى فراشك»! ومع أنّني لم أُنهِ مطالعتي بعدُ، قلت في ذات نفسي: لعلّي أتسبّب في إيذاء أمّي لو تابعت المطالعة. فأغلقت الكتاب وأويت إلى الفراش. وفي عالم الرؤيا وجدت نفسي قد تناولت الكتاب وانهمكت في مطالعة ما يتعلّق بدرس الغد من نصّ الكتاب وحواشيه بنفس تلك الدقّة التي كنت أتوخّاها في اليقظة. وعندما توجّهت إلى الصفّ

صباحاً شعرت وكأنّني طالعت الدرس حسبما يلزم وتذكّرت كلّ تفاصيله كما لو أنّني طالعته في حال الصحو».

هذا الأمر يحتاج إلى نمط من التركيز الروحيّ ينشأ من شدّة رغبة المرء وتعلّقه بموضوع ما. وتركيز كهذا من شأنه أن يوجّه كلّ تفكير المرء نحو الموضوع المنظور إلى درجة مشاهدة نفسه في عالم الرؤيا مستغرقاً في التفكير في الموضوع ذاته بالضبط كما لو كان يقظاً. ثمّ إنّ لطف الله عزّ وجلّ قد يشمل الإنسان أحياناً فيفهم في الرؤيا بإشراقة ذهنيّة ما لم يفهمه في حال الصحو.

وقد ذكر المرحوم الميرزا الشيخ جواد ملكي التبريزيّ في أحد كتبه: «أعرف شخصاً (ولعلّه يقصد نفسه) كدَّ دهراً طويلاً للوصول إلى معرفة نفسه، فلم يتيسّر له ذلك في عالم اليقظة، حتّى بلغ هذه المعرفة في ليلة من الليالي وهو في المنام، فانتبه من نومه فزعاً بعدما أدرك مدى عظمتها».

وهذا ضرب من يقظة القلب؛ وهو أنّ انشغال بال المرء بأمر معيّن وتركيزه عليه يجعله مشغول الفكر به حتّى في حال النوم فيتسّنى له الاستمرار بالتفكير في شأنه. والحال أنّ الآخرين الذين لا ينشغل بالهم بأمر ما ولا يركّزون عليه لا يقدرون على مثل ذلك.

ومع أنّ من الممكن أن يعود ما ذُكر في الحديث أعلاه إلى هذا النمط من الأمور وإلى نتاج التركيز والتعلّق القلبيّ، إلاّ أنّه يسمو على التفكير، وإنّ لاختيار المرء فيه أثراً أكبر.

أهل الآخرة المتيقّظة قلوبهم

ذكرنا سابقاً أنّ هذا الحديث تناول سمات أولئك الذين بلغوا أعلى ذرى الإنسانيّة. وهو يقول في هذا المقطع أيضاً: «**تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم**»، والمراد أولئك الذين يستفيدون من نومهم كما ينتفعون من صحوهم، وكما أنّ كلّ تفكيرهم في حالة اليقظة منصبّ على الله تعالى فهم في حالة عبادة قلبيّة، فبإمكانهم أن ينعموا بمثل هذا الالتفات أثناء النوم أيضاً، فلا يكون عندهم فارق — من هذه الناحية — بين الصحو والرقاد. فأرواح أمثال هؤلاء ملتفتة إلى الله ومتوجّهة إليه ومشتغلة بعبادته اختياراً حتّى في حالة النوم، بل لربما أصابت من النتائج في تلك الحالة ما يفوق ثماره تلك الحاصلة أثناء الصحو. وكأنّ للأشخاص من هذا القبيل عمرين؛ إذ علاوة على النفع الذي يجنونه من أعمارهم في حال اليقظة فإنّهم يفيدون منه ويعبدون الله في ساعات النوم أيضاً.

ومن هذا المنطلق فلقد سبقنا هؤلاء في هذا المضمار؛ فخلافاً لأمثالنا المحتاجين للجوء إلى الأذكار والأوراد كي نقي أنفسنا من الوقوع في الوساوس أثناء الرقاد، يشتغل هؤلاء حتّى في هذه الساعات بعبادة ربّهم ويبلغون – عبر تكامل الروح – مقامات لم يبلغها الكثيرون حتّى في حال الصحو. وهذه واحدة من خصوصيّات أهل الآخرة حيث يتساوى عندهم نومهم ويقظتهم، ويعبدون الله، وتتوجّه قلوبهم إليه في رقدتهم كما يفعلون في يقظتهم. فلقد نقل البعض: «إنّنا نصحو من نومنا أحياناً فنجد أنفسنا مشغولين بترديد وِرد معيّن، أو إنّنا انشغلنا بالصلاة من اللحظة الأولى التي غلب فيها علينا النوم، وأتينا بعدّة ركعات قبل أن نصحو شاعرين بآثارها ونورانيّتها بعد الصحو».

الفقرة التالية من الحديث تتحدّث عن سمة أخرى من سمات أهل الآخرة وهي: «**أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة**» باستمرار. ثمّ يتبع ذلك بالقول: «**إذا كُتب الناس من الغافلين كُتبوا من الذاكرين**» فلا شيء يشغلهم عن ذكر الله: «**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**»[6]. على عكس الأشخاص العاديّين الذين تلهيهم أصغر الأشياء عن ذكر ربّهم، بل وقد ينسون حتّى صلاتهم. فالجوع والعطش وغيرها الكثير من المسائل التافهة من شأنها أن تشغل معظمنا أثناء اليوم والليلة، أمّا أهل الآخرة فلا يلهيهم أيّ شيء عن ذكر الله عزّ وجلّ.

«**أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة، إذا كُتب الناس من الغافلين كُتبوا من الذاكرين**». فأغلب المؤمنين يذكرون الله في حال الصلاة وحضور قلوبهم أثناءها محفوظ إن شاء الله؛ إذ «**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**»[7]. فمن الطبيعيّ أن يكون المؤمن في حال الصلاة، واثناء تلاوة القرآن، وفي مجلس الموعظة ذاكراً لله تعالى ولأوليائه. لكنّ المرء عادة يغفل في بعض المواطن عن هذه الأمور. فلو حصل حريق، مثلاً، في مكان ما فسينشغل كلّ امرئ في إنقاذ نفسه من النار وسوف لا يكون ذاكراً لله بطبيعة الحال. وعندما يصاب موضع من جسم ابن آدم بألم شديد فسوف ينعدم التفاته إلى الصلاة والدعاء. ولو أصاب الإنسان بهجة غامرة ونشاط مفرط فسينسى كلّ شيء إلى درجة أنّه قد يصاب بالجلطة. هكذا هو ابن آدم. لكنّ لله عباداً لا يغفلون عن ذكره مهما كانت الظروف؛ ففي حال المصيبة والبلاء يستعينون بربّهم لحّل مشكلاتهم، وفي ساعة الفرح والبهجة يشكرون الله على ما أنعم به عليهم، وإذا واجهتهم معضلة علميّة توسّلوا بدايةً إلى الله في حلّها؛ فمع انتفاعهم ممّا وهبهم خالقهم من ذكاء وقابليّة وعقل، ومع الإفادة من الاستاذ الذي وفّره الله لهم، والكتاب الذي جعله سبحانه تحت تصرّفهم، فإنّهم يتوّجهون إلى ربّهم قائلين: إلهي! ألهمني فهماً يمكّنني من حلّ معضلتي العلميّة. فمثل هؤلاء هم أهل الآخرة.

لقد قيل في أوصاف أهل الدنيا إنّهم لا يشكرون أنعم الله، ولا يشكرون الآخرين على إحسانهم، ولا يصبرون على المصائب، بل يجزعون ويفزعون، أمّا أهل الآخرة – في المقابل – فإنّهم: «**في أوّل النعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون**»؛ فهم يشكرون الله تعالى ابتداءً بمحض قدوم النعمة وقبل الانتفاع منها.

أغلب الناس يجرون على ألسنتهم عبارة «الحمد الله» بعد أن يكونوا قد انتفعوا من النعمة بما فيه الكفاية، لكنّ أهل الآخرة يشكرون الله في البداية ويثنون عليه في النهاية بما أنعم عليهم من النعم وجعل في متناولهم من الأسباب، معترفين بأنّهم غير قادرين على شكر تمام نعم ربّهم. هؤلاء هم أهل الآخرة.

لكن لو انهالت السماء على أهل الدنيا نعماً لظلّوا يئنّون من النقص الفلاني! ولو قدّم لهم إنسان عشرات أنواع الإحسان لأمطروه بوابل من الشتائم على خطأ واحد. فهم ينظرون أبداً إلى النصف الخالي من الكأس. أمّا أهل الآخرة فإنّهم دوماً يشاهدون الحسنات، ويرضون بكلّ ما في حياتهم، ويشكرون الله على كلّ ذلك. برأيكم أيّ واحدة من هذه الحالات أفضل؟

اللهمّ ببركة أوليائك وعنايتهم ألحقنا بأهل الآخرة.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

علاقة المحبّة بين العبد والمعبود

«**دعاؤُهم عندَ اللهِ مرفوع، وكلامُهُم مسموع، تَفرحُ الملائكةُ بهم، يدورُ دعاؤهُم تحتَ الحُجُب، يحبُّ الربُّ أن يسمعَ كلامَهُم كما تحبُّ الوالدةُ ولدَها، ولا يشغَلُهم عنِ اللهِ شيءٌ طرفَةَ عين**»

عناية الله بحديث أهل الآخرة

دار كلامنا في المحاضرات الفائتة حول خصوصيّات أهل الدنيا وأهل الآخرة الواردة في حديث المعراج القدسيّ. وإنّ من أوصاف أهل الآخرة التي يذكرها جلّ جلاله في الحديث هي: «**دعاؤُهم عندَ اللهِ مرفوع، وكلامُهُم مسموع**». وإذ كنّا قد نوّهنا فيما سبق بأنّ كلّ صفة من صفات أهل الدنيا هي مقابلة لصفةٍ عند أهل الآخرة، فإنّ المفهوم من ظاهر الوصف المبيّن لأهل الآخرة في هذا المقطع أنّ كلام أهل الدنيا غير مسموع عند الله عزّ وجلّ. لكنّنا نعلم، من جانب آخر، أنّ من صفات الباري تعالى أنّه يعلم بكلّ شيء، ويسمع كلّ مسموع، ويرى كلّ مرئيّ، فكيف يمكن إذن أن لا يسمعَ سبحانه صوتاً

ما؟ ومثل هذا السؤال يُطرح أيضاً فيما يتعلّق بنظر الله إلى عباده المطيعين وعدم نظره إلى الكفّار وأهل المعصية.

لعلّ من أشدّ ألوان العذاب التي تحيق بالكفار يوم القيامة، بحسب القرآن الكريم، هو ما جاء في قوله تعالى: «**وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1]. لكنّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن حول هذه الآية هو: أنّى للكّفار أن يغيبوا عن نظر الله عزّ وجلّ وهو الذي عِلمُه ذاتيّ، وكلّ شيء حاضر أمامه، وما من شيء يغيب عنه؟

أجاب البعض على نظائر هذه الاستفسارات بأنّ المقصود من النظر والسمع هنا هو ذلك الذي يحصل منه الأثر المطلوب، ذلك أنّه ليس كلّ سمع أو نظر بِمُنتِجٍ إلى فائدة. فلتتصوّروا شخصاً لا يحفَل بكلام غيره حتّى وكأنّه لا يسمعه وهو يبغي بذلك إهانته والاستخفاف به. فليس أنّ صوت ذلك الشخص لا يصل إلى أذنه، بل إنّه لا يلتفت إليه ويقال هنا: إنّه لم يسمع كلامه. وعلى العكس، إذا اعتنى المرء بشخص عناية خاصّة التفت إلى قوله وأصغى إليه بدقّة. وهذا الاستماع غير ذاك السماع ووصول الصوت إلى الأذن، فهو سماع تحصل منه نتيجة.

بناءً عليه فإنّ المراد من العبارة المساقة في هذه الفقرة من حديث المعراج هو أنّ الله عزّ وجلّ يرتّب الأثر على كلامهم، فيستجيب دعاءهم، ويجزيهم عن كلامهم الطيّب ثواباً. وفي المقابل، وبحسب بعض الأخبار، فإنّ دعاء بعض المذنبين، وبسبب ما اجترحوا من المعاصي وكفَروا به من النعم، يُرَدّ عليهم ويُضرب على رؤوسهم، أي إنّه لا يصل إلى المقام الذي يكون فيه مسموعاً ومُنتجاً للأثر المطلوب.

فرح الملائكة بكلام أهل الآخرة

ثمّ يأتي الحديث على ذكر أمر مثير للعجب يشقّ علينا إدراك كُنهه، وهو حينما يقول سبحانه وتعالى: إذا دعا أهل الآخرة فرحَ الملائكةُ من سماع أصواتهم. وفوق ذلك: إذا بلغ دعاؤهم العرش والكرسيّ دارَ تحت ما يوجد هناك من الحُجُب، وإنّ الله يُسَرّ بسماع أصوات هؤلاء العباد. وشبيه بهذا ما جاء في بعض الروايات من أنّ العبد الذي يحبّه الله إذا دعا ربّه لحاجة لم يقضِ الله له حاجتَه من فوره وذلك من أجل أن يلحّ أكثر في الدعاء فيسمع الله صوته: «**إنّ العبد لَيدعو الله وهو يحبّه فيقول لجبرئيل: اقض لعبدي هذا حاجتَه وأخّرها فإنّي أحبّ أنْ لا أزال أسمع صوته**»[2].

ثمّ يعرّج الحديث، متابعةً للموضوع، على تشبيهٍ يدعو المرء إلى المزيد من التعجّب والاستغراب، وذلك حينما يشبّه اللهَ سبحانه وتعالى بالأمّ التي تحبّ ولدها وتفرح بسماع صوته، حينما يقول: «**كما تحبُّ الوالدةُ ولدَها**»!

إنّ إدراك مفاهيم هذه الأوصاف فيما يتّصل بالله تعالى تتخّطى حدّ فهم ابن آدم، اللهمّ إلاّ إذا بلغ مقاماً يشاهد فيه هذه الصفات وتجلّياتها بنفسه. على أنّ الله عزّ وجلّ، ومن أجل رفع مستوى فهم عباده وحثّهم على معرفته أكثر، يخاطبهم بلغة يفهمونها. فتارةً يقول: «**لَيسَ كَمِثلِهِ شَيْءٌ**»[3]. بمعنى: على الرغم من إمكانيّة العثور على صفات لدى بني آدم شبيهة بتلك المذكورة لله تعالى، إلاّ أنّه ما من مخلوق يشبهه سبحانه. لكن من حيث إنّ الألفاظ والمفاهيم لا تتّسع لأزيد من استيعاب فهم الإنسان فإنّه لا مناص من الإفادة من نفس هذه الألفاظ لبيان صفات الله تعالى، وإنّنا نحاول تدارك هذا الضعف عبر تنزيه الله عزّ وجلّ من أوجه النقص. فهو عالِم، لكّن علمه ليس كعلمنا، وهو قدير، بيد أنّ قدرته ليست في عضلات ساعده المفتولة. وإنّ من صفات الله السلبيّة التي ينبغي لنا جميعاً الاعتقاد بها هو أنّ صفاته ليست زائدة على ذاته، بل هي عين ذاته، فما بالك بكون أفعاله زائدة على ذاته!

وقد يظنّ البعض أنّ غضب الله الوارد في بعض التعابير القرآنيّة كقوله: «**وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ**»[4] يشبه غضب الإنسان في احمرار الوجه وانتفاخ الأوداج وارتفاع الصوت! وجميعنا يعلم طبعاً أنّ حالات من هذا القبيل لا تليق بشأن مقام الألوهيّة، لكن لابدّ، بشكل من الأشكال، من بيان تفاوت سلوك الله جلّ وعلا تجاه أعمال عباده الحسنة والقبيحة.

التعبير الآخر الذي يتطلّب توضيحاً أكثر هو قوله تعالى: «**فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ**»[5]. وتُستعمل كلمة «آسَفَ» إذا انزعج المرء غاية الانزعاج من سلوك قبيح غير لائق صدر من غيره. والتبرير العامّ لاختلاف هذه الصفات بين الله عزّ وجلّ والبشر يكمن فيما جاء في القرآن الكريم تحديداً كقوله تعالى: «**لَيْسَ كَمِثلِهِ شَيْءٌ**»[6]. ولعلّ من أروع ما جاء في الروايات والأدعية في تنزيه الله تبارك وتعالى من وجوه نقص الصفات المستخدَمة بشكل مشترك بين الله ومخلوقاته هو ما ورد في دعاء عرفة: «**إلهي تَقدَّسَ رضاك أن تكون له علّةٌ منك فكيف يكون له علّةٌ منّي**»[7]. فقد نحسَب أحياناً أنّنا قد أرضَينا الله عنّا بما جئنا به من فعل. وتحليل مثل هذا التصوّر هو أنّ الله سبحانه قد وقع تحت تأثير فعلنا وانفعلَ به. لكنّ قولاً كهذا لا ينسجم مع التوحيد. إذ يقول سيّد الشهداء (صلوات الله عليه) في المقطع المنقول من دعاء عرفة: إلهي، إنّ رضاك أكبر من أن تُحدِث أنتَ علّةً له. فحتّى لو أوجد اللهُ نفسُه علّةً لرضاه كان الرضى الحاصل معلولاً لهذه العلّة وحالةً انفعاليّة، والحال أنّ الرضى ليس بأمر خارجٍ عن ذات

الله كي توجِدَه علّةٌ، حتّى وإن كان الله نفسُه هو الموجِد لها. «**إلهي تَقدَّسَ رضاك أن تكون له علّةٌ منك فكيف يكون له علّةٌ منّي**»، أي إذا كانت الحال هذه فكيف يكون فِعلي هو العلّةُ لرضاك؟!

تحليلٌ لاستخدام الأوصاف البشريّة للذات الإلهيّة

في ميسورنا القول – إجمالاً – فيما يتعلّق بهذه الأوصاف: إنّ بعض المفاهيم هي معانٍ إضافيّة تُتَّخذُ لموجودَين. فإذا كان أحدُ طرفي النسبة هو الله الذي ليس له حالات متعدّدة، جُعلَت التغيّرات النسبيّة للطرف المقابل لكونه مخلوقاً وخاضعاً للتغيُّر. فإذا قيل، مثلاً: «**وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**»[8] فالكلام في اختبار العباد هنا من قبل الله تعالى، ليعلم أيّهم أهل جهاد وأيّهم أهل ضعف وقعود، لا يعني حدوث العلم لله، فإنّ علمَه عزّ وجلّ ذاتيّ قديم، بل يعني أنّ علم الله من حيث إنّه منتسب إلى هذا المخلوق فهو حادث. وتندرج في هذا السياق أوصافٌ مثل «الرضى» و«الغضب» أيضاً؛ فرضى الله عن أحد لا يعني حدوث حالة جديدة في ذات الباري تعالى، بل إنّ ما بين الله وهذا الشخص من نسبة قد تغيّرت باعتبار كون الأخير متغيّراً.

ويتعيّن القول، على الرغم من هذه التبريرات، إنّ التعابير الحاكية عن سموّ محبّة الله لعبده على حبّ الأمّ لولدها، أو المبيّنة لشدّة شوقه عزّ وجلّ لسماع صوت المؤمن هي تعابير قاصرة لا تُفصح عن حدود ونطاق محبّة الله جلّ شأنه.

وشبيه بهذا المعنى ما نجده في حديث عن الباقر (عليه السلام) في باب التوبة يقول فيه: «**إنّ الله تعالى أشَدُّ فرحاً بتوبةِ عبدِهِ من رجلٍ أضلَّ راحلتَهُ وزادَه في ليلةٍ ظلماءَ، فوجدها؛ فاللهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحِلَتِه حين وجدها**»[9]؛ أي إنّ الله عزّ وجلّ أشدّ فرحاً بتوبة عبده العاصي من فرحة الرجل إذا وجد زاده وراحلته بعد أن ضاعا منه في ليلة ظلماء حتّى أشرف على الهلاك. فهل الله تعالى بحاجة إلى توبة عبده المذنب؟!

والتحليل الذي يمكن تقديمه في هذا الصدد هو أنّه لابدّ لنا من التنبّه إلى أمر كمبدءٍ وأصل وهو أنّه ليس لأيٍّ من كمالات الله حدّ تنتهي عنده؛ فلا نهاية لرحمته عزّ وجلّ، بحيث إنّه — على حدّ قوله تعالى — لو وَزّع كلّ ما خلقَ في الجنّة لجميع أهلها من النعم على كلّ عبد من عباده لم تنقص خزائنه مثقال ذرّة، فخزائن رحمته لا نفاد لها وهي لا تنقص مهما أُخذ منها. هذا هو المفتاح الأصليّ لحلّ مثل هذه المسائل. فالله يحبّ ذاته حبّاً لا نهاية له لأنّ كمالاته لا نهاية لها، وهو يحبّ آثاره كذلك، إذ قد سبق القول بأنّ هاتين المحبّتين لا انفصام لهما، وهذا شبيه بحبّنا نحن لآثارِ مَن نُحبّه. فمع أنّ الآثار ذاتها

محدودة، إلاّ أنّ ارتباطها مع الله غير محدود، وليس ثمّة من قصور في عناية الله ولطفه ورحمته لها. على أنّ الآثار والمخلوقات أوعيتُها محدودة، ولهذا ففي مقدور الله أن يهب كلّ إنسان كلّ ما في الجنّة من أنعُم لا نهاية لها دون أن ينقص مِلكُه قيد أنملة، هذا على الرغم من أنّ وعاء الإنسان لا يتّسع لهذه النعمة غير المتناهية. وعلى المنوال نفسه، فليس جزافاً أن نقول إنّه لا نهاية لاشتياق الله لتوبة عبده؛ إذ لا محدودية من جانب الله عزّ وجلّ، وكلّ نقص في هذا المضمار فهو من جانب العبد.

فإنّ لنا إلهاً كهذا، إلهاً يحبّ المذنبين إلى هذا الحدّ، ويفرح لتوبتهم وأوبتهم أشدّ من فرح ذاك المسافر بلُقيا مائِه وزاده وراحلته بعد ضياعها. والغرض من استخدام هذه الأمثلة والمفاهيم هو كشف جانب من عظمة لطف الله ورحمته لنا، على أنّ أيّاً منها لا يؤدّي حقّ الموضوع كما هو، فعظمة كهذه لا يمكن بيانها. فهل سيبقى في قلب المرء أثر لمحبّة غير الله إذا تبلور لديه تصوّرٌ – ولو ناقص – لهذه العظمة، خصوصاً وأنّ الله غنيّ كلّ الغنى عن عبده؟

لا يصحّ أن ننسى الله

فالله عزّ وجلّ، ولبيان لطفه ورحمته لمخلوقاته، يسوق مثل هذه التعبيرات كي نستأنس قليلاً بأمثال هذه المفاهيم، فنزداد معرفة به وإقبالاً على طاعته. وإنّ من بين عباد الله تبارك وتعالى مَن بلغ هذا المقام، وهو كلّما دعا ربّه قال الله لملائكته: أخّروا إجابة دعوته كي أُطيل الاستماع إلى صوته وأُسَرّ به، بل إنّ الملائكة هي الأخرى تبتهج وتفرح لدى الإصغاء لصوت هؤلاء العباد وتفتخر بهم: «**تَفرحُ الملائكةُ بهم**». أيّ عباد هؤلاء؟ إنّهم الذين: «**لا يشغَلُهم عنِ اللهِ شيءٌ طرفَةَ عين**».

إنّ بعض بني البشر يُفسد في الأرض، وإن الملائكة لتشكوا لربّها فسادَه قبل خلقِه: «**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا**»[10]، كأولئك الذين أحرقوا «صبرا وشاتيلا»، وسفكوا دماء الأطفال والنساء الأبرياء. غير أنّ الله يعرف من بين هؤلاء البشر أناساً لا تعلمهم الملائكة: «**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُون**»[11]. فمن بين مليارات من الأراذل المنحطّين من الناس ممن تعلّقت قلوبهم بزخرف الدنيا وزبرجها، يوجد أُناس لا يغفلون عن الله طرفة عين «**لا يشغَلُهم عنِ اللهِ شيءٌ طرفَةَ عين**»، و«**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّه**»[12]. أَوَيمكن ذلك؟!

لقد أثبتت التجارب العلميّة وتجارب علماء النفس أنّ باستطاعة الإنسان أن يدرك سبعة أمور، بل قال بعضهم ثمانية، في آنٍ واحد. ففي الوقت الذي يسمع فيه ويرى يمكنه أن يلمس شيئاً، ويشمّ رائحة، ويتذوّق طعاماً، ..الخ. على أنّ هذا يعني تقسُّم التفاته على ثمانية أمور مختلفة. فلربما لا يستطيع المرء، إذا

ركّز على أمر واحد، أن يلتفت إلى سائر ما حوله. فالذي يطالع كتاباً مثلاً لا ينتبه إلى الضوضاء المحيطة به. فالإنسان في الوقت الواحد يستطيع أن يركّز على أمر واحد بشكل كامل، ويتناقص هذا التركيز بمقدار التفاته إلى أمر آخر. بل لقد ورد في الخبر أنّ الله قد يتجّلى لعباده الصالحين في الجنّة فيجلب انتباههم إليه بحيث يذهلون معه عن كلّ شيء. وإنّ هذا النمط من الالتفات إلى الله والتركيز عليه محال في هذا العالم. فحينما قال موسى (عليه السلام) لربّه: «**رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**»، أجابه ربّه: «**لَنْ تَرَانِي**»[13]، ذلك أنّ هذا العالم لا يستوعب رؤية الله تبارك وتعالى. ومن أجل أن يُثبت تعالى لموسى (عليه السلام) ذلك قال له: «**وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**»، فإن تحمّل الجبل بعض التجلّي رأيتَني أنت أيضاً. غير أنّ الله عندما تجلّى للجبل اندكّ الأخير وخرّ موسى (عليه السلام) مصعوقاً: «**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً**».

فالله الذي خلقنا ويعلم بأوعيتنا قد طلب منّا أن نبذل جهدنا كي لا ننساه في كلّ حال. ومن الواضح أنّ الالتفات والتركيز الكامل في كلّ حال ليس ممكناً بالنسبة لنا في هذا العالم، ولذا فهو تعالى لم يطلب منّا مثل هذا التركيز، بل هو يتوقّع منّا أن نخصّص، أثناء انشغالنا بأعمالنا، بعضَ انتباهنا له عزّ وجلّ. إذ يقول الله سبحانه للطبقة العاديّة من الناس: «**اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً**»[14]، ويخاطبهم في موطن آخر: «**فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً**»[15]، وكذا في الأحاديث الشريفة فإنّه لم يُطلَب منّا ما لا طاقة لنا به. والمراد هو أن نتمرّن على حبّ الله وذكره بمقدار ذكر المرء لمن يحبّ والتفاته روحيّاً إلى محبوبه حتّى في خِضَمّ انهماكه في سائر أعماله. ونتيجة لهذا التمرين ستنشأ لنا تدريجيّاً مع الله في كل نواحي حياتنا آصرة وإن كانت ضعيفة وباهتة، وسوف لا ننساه ولا نغفل عنه مع كل حادثة تافهة. وإنّ عباد الله الذين يجتهدون للوصول إلى هذه المرتبة هم الذين يحبّهم الله جلّ وعلا، ويشتاق لسماع أصواتهم، الأصوات التي تفرح الملائكة أيضاً لسماعها.

نسأل الله ببركة أوليائه أن ينيلنا جميعاً نفحة من معرفتهم.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

الحياة لله سبحانه وحده

تطرّقنا في المحاضرات الفائتة إلى بعض أوصاف أهل الدنيا وأهل الآخرة التي أخبر الله عزّ وجلّ بها نبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله) ليلة المعراج.

الحياة والموت الحقيقيّان

بهذه العبارات تابع حديث المعراج قوله في صفات أهل الآخرة: «**النَّاسُ عِنْدَهُمْ مَوْتَىٰ وَاللَّهُ عِنْدَهُمْ حَيٌّ قَيُّومٌ كَرِيمٌ، يَدْعُونَ الْمُدْبِرِينَ كَرَماً وَيُرِيدُونَ الْمُقْبِلِينَ تَلَطُّفاً، قَدْ صَارَتِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَهُمْ وَاحِدَةً**»[1]، فهو يشير في هذا المقطع إلى ثلاث خصوصيّات لأهل الآخرة، سنتعرّض في هذه المحاضرة إلى أولاها.

يقول الحديث: الناس في نظر أهل الآخرة موتى وليس من حيّ عندهم سوى الله تبارك وتعالى. لكن ما المراد هنا من كون الناس موتى؟

من الواضح أنّه لا يراد بالموت هنا ذلك المعنى الذي يُوقِف قلبَ الإنسان ودماغَه عن العمل ويعطّل أعضاءه وجوارحه، إذ أنّ لجميع أهل الآخرة وأهل الدنيا في هذا العالم أعيناً وآذاناً، وهم يتحرّكون، ويتنفّسون، ..الخ. ومن هنا فإنّ «للموت» في هذه العبارة مدلولاً آخر قد يكون مجازاً أو استعارةً، أو أنه يشير إلى حقيقة هي فوق فهم العامّة.

وقد وردت في القرآن الكريم أيضاً تعابير من هذا القبيل، كقوله تعالى: «**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى**»[2] يخاطب بذلك نبيّه الكريم (صلوات الله عليه وآله)؛ أي: لا تحزن، فهؤلاء سوف لا يؤمنون بك، لأنّهم كالموتى الذين يتعذّر إسماعُهم. وإطلاق مفردة «الموتى» على الذين لا يؤمنون يأتي من باب أنّهم لا يفهمون ما ينبغي لهم فهمه، ولا يفعلون ما يتعيّن عليهم فعله. ونظير هذا الإطلاق نجده أيضاً في آيات قرآنيّة أخرى، كقوله تعالى: «**أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها**»[3]. والآية تقول في مقام المقارنة بين فئتين من الناس: هل إنّ الذي كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يستعين بضيائه ليمشي بين الناس هو كالقابع في الظلمات لا يستطيع الخروج منها؟! فالفئة الأولى هم الذين كانوا في ضلال فأعانهم نور الهداية على تمييز الحقّ عن الباطل وتبيُّن طريق السعادة. أمّا الفئة الثانية – في المقابل – فهم الذين قد توغّلوا في الظلمات حتّى لم يعُد ثمّة أمل في خروجهم منها. فالآية – في الحقيقة – تكشف عن التقابل بين فئتين من البشر: فئة الموتى الذين أُحيُوا بنور هدى الله، وفئة الموتى الذين انغمسوا في دياجي الظلمات فلا يُرجى خلاصهم، في حين أنّ المقارنة التي يطرحها مقطع حديث المعراج محطّ البحث هي بين الناس والله جلّ وعلا: «**النَّاسُ عِنْدَهُمْ مَوْتَىٰ وَاللَّهُ عِنْدَهُمْ حَيٌّ قَيُّومٌ كَرِيمٌ**»؛ فما من أحد من البشر، عند أهل الآخرة، له حظّ من الحياة، فإنّ مثلَهم كمَثَل الموتى، وما من حيّ في نظر الأخرويّين غير الله تعالى.

والمراد من «الحيّ» في هذا المقطع هو الموجود الذي يكون منشأ الأثر على نحو الاستقلال، ولـمّا كان الأخرويّون قد بلغوا في توحيدهم الأفعاليّ درجةً لا يرون فيها غير الله تعالى مؤثّراً حقيقيّاً في الكون، فإنّ الحيّ الحقيقيّ في رأيهم هو الله فحسب، أمّا المخلوقات الأخرى التي لها تأثيرات في عالم الطبيعة بمراتب مختلفة فهي وسائل وأدوات ليس لها إلاّ تأثير مستعار، وهو من الله، وإنّه جلّ وعلا يسترجعه منها متى شاء. فإّن القادر الوحيد الذي ليس لأحد بتاتاً أن يسلبَه قدرتَه، والحاضر في كلّ مكان، والنافذة إرادته في كلّ شيء، هو الله سبحانه وتعالى. إذن فأهل الآخرة قد وصلوا إلى مرتبة من التوحيد الأفعاليّ بحيث لا يرون فيها سوى الله مؤثّراً مستقلاًّ.

المؤثّر الحقيقيّ

يُعنى القرآن الكريم عناية خاصّة بنسبة جميع ظواهر الكون إلى الله عزّ وجلّ. فهو يقول في آيات شتّى: نحن الذين نُنشئ السحاب، ونحن الذين نحرّكه، ونسوقه إلى أرض ميتة، ونحن الذين نُمطره، فنُنبت به الزرع من الأرض، ونحن نرزقكم من الحبوب والثمار التي نُنبتها في الأرض، بل نحن نفلق الحبّ الذي يسقط على الأرض. وإنّ هذا التوجّه الخاصّ يُلمَس في كلّ موضع من كتاب الله وبصور شتّى. بل ويجري هذا النهج أيضاً على أفعال البشر الاختياريّة، تلك التي لولا الاختيار لما سُئل فاعلها عنها ولما بقي مجال للثواب أو العقاب عليها. ومن هذه الأفعال الإيمان، فلو لم يكن إيمان المرء وقبوله الهداية نابعاً من اختياره، فما هي الثمرة المرتجاة منه؟! غير أنّ الله عزّ وجلّ ينسب إيمان عباده إلى نفسه، فيقول: «**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**»[4]. وإنّ العلّة وراء تأكيد القرآن الكريم على أنّه ما من أمر إلا وبيد الله إنجازه هي تنبيه الناس إلى أنّه ثمّة نظام آخر مهيمن على كافّة شؤون الكون وحوادثه هو فوق الأسباب المادّية والطبيعيّة التي يعيشها الإنسان ويعرفها.

ولتقريب المعنى إلى الذهن لنتصوّر سيّارة تسير. فإن سُئل مهندس عن كيفيّة سيرها قال: «يمتزج البنزين في محرّكها بالهواء، فيحترق، فتتحوّل الطاقة الكيمياويّة إلى طاقة حركيّة تدير المحرّك، فيعمل الأخير — عبر القوى المحرّكة — على إدارة العجلات، فتسير السيّارة». وهذا الجواب صائب. لكن إذا لم يجلس سائق السيّارة خلف المقود فكيف ستسير؟ فقد لا يلاحَظ السائق، إلاّ أنّ السيّارة بحاجة إليه إضافة إلى الطاقة والقوى المحرّكة.

فأغلبنا لا يرى فيما يجري في العالم من أحداث سوى تأثير العوامل المادّية ولا يلتفت إلى أنّه ثمّة، مضافاً إلى تلك العوامل، يوجد عامل آخر يسمو عليها هو ضروريّ في السيطرة على الأمور وتوجيهها، ويد أخرى فوق هذه الأسباب تدير هذا النظام الكونيّ. فحتّى الإنسان الذي يفكّر، ويقّرر، ويريد، ويحرّك

أطرافه بقوّته البدنيّة للقيام بعمل ما فهو ليس بخارج عن هذا النظام. فلو صعّدنا نظرتنا عن عالم الطبيعة قليلاً ورأينا النظام الماثل فوق الأسباب الطبيعيّة، لشاهدنا كيف أنّ جميع العوامل المتوفّرة في العالم المادّيّ تُدار بمنظومة أخرى. ولا يعني هذا بالطبع نفي تأثير هذه الأسباب، بل إنّ تأثيرها متأثّر بتلك الإدارة. فالقرآن الكريم يحاول، عبر التأكيد على دور الله عزّ وجلّ في جميع الأمور، السموّ بالإنسان عن حيّز الأسباب المادّية الضيّق ولفت نظره إلى وجود عامل هو فوق العوامل الظاهريّة، كي يشاهد سائقَ السيّارة الذي يمسك بمقودها أيضاً.

فابن آدم في سلوكه يقصر نظره عادةً على العوامل الظاهريّة ولا يلتفت إلى محلّ الله تعالى من الإعراب. فالإنسان يجوع، ولابدّ أن يأكل طعاماً لسدّ جوعه، ومن أجل الحصول على الطعام يتحتّم عليه دفع المال، وبغية كسب المال عليه أن يعمل، فما هو دور الله جلّ وعلا في هذه العمليّة؟

ومع أنّ أغلب الناس يقرّون بوجود الله، لكنّهم غافلون عن أثره في مجريات وأحداث العالم، وهذه هي الظلمات التي يسير فيها ابن آدم. وإنّ باستطاعة كلّ امرئ، بمقدار إيمانه، أن يفتح من هذه الظلمات نافذة إلى النور. فبعض الناس لا يتذكّرون ربّهم إلاّ عند المصائب والملمّات. ويشبّه الله هؤلاء بمن: «**رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ**»[5] (أي السفينة) حتّى إذا هبّت أعاصير عاتية، وأخذت أمواج البحر المتلاطم تأخذ سفينتهم ذات اليمين وذات الشمال، واستولى الذعر على كلّ ذرّة في كيانهم مخافة الغرق، وفقدوا كلّ أمل. في موقف كهذا لا يبقى أمام الإنسان بُدٌّ سوى التوسّل بالله جلّت آلاؤه. فهاهنا: «**دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين**»[6]. لكنّ هؤلاء القوم أنفسهم الذين توجّهوا إلى الله داعين ملتمسين في مثل هذا الظرف تراهم ينسون ربّهم ثانية بعد ما نجوا ووطأت أقدامُهم برّ الأمان: «**فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُون**»[7]. ألا وإنّ هذه حال أغلبنا! والقرآن الكريم الذي هو نور الله يحاول إنقاذنا من هذه الظلمات كي نرى يد الله في كلّ شيء فيستقطب اهتمامنا ونعقد عليه آمالنا، فينهل كلّ امرئ من تذكيرات القرآن الكريم بحسب معرفته وإيمانه.

وخلافاً لأغلبنا حيث لا نقيم لله سبحانه وتعالى في حياتنا وزناً وتنصبّ آمالنا في الخلق فقط، فإنّه ثمّة من بين عباد الله مَن يستحوذ الله على اهتمامهم في كلّ حال، وهم الذين يصفون ربّهم بهذه الصفة: «**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ**»[8]. فحينما سأل النمرود نبيّ الله إبراهيم (عليه السلام): «مَن ربّك». قال إبراهيم: «إنّه الذي يطعمني الطعام ويسقيني الماء! فلم يقل: «الذي يرزقني»، بل قال: «الذي يطعمني». «**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين**»[9]. فمحلّ الطبيب والدواء محفوظ، أمّا الذي يُشفي فهو الله. ومن هنا فإنّه (عليه السلام) يقول: «**إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين**»[10].

هكذا هم عباد الله الخُلّص. فعندما رموا بالنبّي إبراهيم (عليه السلام) بالمنجنيق إلى النار جاءه جبرئيل (عليه السلام) وقال له: «**هل لك من حاجة**»؟ فقال: «**أمّا إليك فلا**»![11]؛ فأنا لست بحاجة إليك أمّا إلى الله فإنّي محتاج من قمّة رأسي إلى أخمص قدمَيّ. وميزة عباد الله هؤلاء أنّ «**الناس عندهم موتى**» ليسوا مصدراً لأيّ أثر. فهم يعاشرونهم، ويحترمونهم، ويقضون حوائجهم، لكنّهم لا يرونهم مصدرَ أثرٍ في أيٍّ من شؤونهم، لأنّ جميع الأمور تُدَبَّر من موضع آخر. على أنّه ينبغي لكلّ امرئ أن يؤدّي واجباته تجاه نفسه، وتجاه الله، وتجاه الناس، لكنّه ليس لتصرّفاتنا من أثر إلاّ بمقدار ما يدبّره هو عزّ وجلّ، فجميع المخلوقات أدوات يعتمد تأثيرها على إذنه تعالى. فمتى ما أذن الله، استطاعت فعل شيء، سواء أكان شيئاً عاديّاً، مثل: «**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**»[12]، أو خارقاً كإبراء المرضى بيد نبيّ الله عيسى (عليه السلام): «**وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي**»[13].

تأثير الرؤية في السلوك

أهل الآخرة الذين يرون الناس جميعاً موتى لا يرون الحياة إلاّ لله جلّ وعلا: «**وَاللَّهُ عِنْدَهُمْ حَيٌّ قَيُّومٌ كَرِيمٌ**». ألا وإنّ من ينال هذه الرؤية، التي أتحفَ الأنبياءُ (عليهم السلام) البشرَ بها، يتغيّر نمط حياته تغييراً جذريّاً. فلو ألقينا إلى حياتنا نحن نظرة لرأينا أنّنا لا نتوانى عن فعل أيّ شيء لبلوغ مآربنا؛ فنحن ننتشي لإطراء الناس لنا، نخطّط للحصول على المناصب، نتآمر، نظلّ سنوات نقلّب الأفكار ونرسم الخطط ولربما نستعين بالكذب والخديعة علّنا نربح الانتخابات يوماً لنتربّع لبضعة أيّام على مقعد الرئاسة! معنى ذلك أنّنا نرى الناس هم الأحياء ونعتقد بأنّ باستطاعتهم – عبر الدعاية والأموال وما إلى ذلك – توفير الكراسي والمقامات لنا. أمّا دَور الله تعالى في كلّ هذا فلعلّنا نتخيّل أنّه سبحانه أجلّ من أن يقحم نفسه في مثل هذه الأمور! في حين أنّ القرآن الكريم يقول في الباري جلّ وعلا: «**تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ**»[14]، فما من خير إلا وهو بيده. ويقول في آية أخرى: «**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ**»[15]، فإن أراد الله بشخص خيراً فلا أحد يستطيع منعه منه وإن أراد بشخص ضرّاً فليس لامرئ تغيير تقدير الله. إذن فمَن ذا الذي يمكن اعتباره حيّاً؟

«**وَاللَّهُ عِنْدَهُمْ حَيٌّ قَيُّومٌ كَرِيمٌ**» فإنّ النعم كلّها، حسب أهل الآخرة، تُسبَغ بلطفه وكرمه عزّ وجلّ، وإنّ تدبير العالَم تكويناً وتشريعاً بيده. أمّا أغلب الناس فإمّا أنّهم لا يؤمنون بذلك، أو أنّهم غافلون عنه يلهثون وراء الأسباب كافرين بأنعمه تعالى. ولعلّ هذا ما دفع المرحوم الشيخ غلامرضا كوتشه بيوكي، أحد علماء يزد الأجلاّء، إلى القول: «غيّر عقلك يا عزيزي»! فينبغي أن نغيّر رؤيتنا ونؤمن بأنّ مقاليد

الأمور ليست بيد هذا وذاك، وأن نضع في حسباننا بأنّ هنالك ربّاً بيده كلّ شيء. فإن غفلنا عن ذلك بُلينا بالسنن الإلهيّة.

سُنَن الله التي لا تبديل لها

لا يجامل الله عزّ وجلّ أحداً حتّى أنبياءه (عليهم السلام) في إجرائه سُنَنَه. فماذا فعل جلّ وعلا مع نبيّه يونس (عليه السلام)؟ فلقد دعا يونس قومَه أعواماً إلى دين الله ولم يؤمنوا، فسأل ربّه أن ينزل عليهم العذاب. فلمّا بانت أمارات العذاب تركهم، وهو نهج ليس بالمحبَّذ كثيراً في منطق الرحمة الإلهيّة. «**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**»[16]؛ فلقد هجر يونسُ قومَه غاضباً ظنّاً منه أنّ الله لن يضيّق عليه لتركه هذا الأَولى، فكان عقابه أن يلتقمه الحوت ويلبث في بطنه لا يجد سبيلاً للخلاص «**فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**»[17]. تنبّه يونس وهو في بطن الحوت إلى خطئه فبادر إلى التوبة وراح يسبّح الله، فأنجاه الله. ومع ذلك يقول جلّ وعلا في موضع آخر: «**فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**»[18]، فلو أنّه لم يرجع عن خطئه لتورّط بالسنّة الإلهيّة إلى الأبد، لأنّ الله لا يجامل حتّى نبيَّه، ولهذا فهو جلّ وعلا يقول لنبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله): «**وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ**»[19]، اقتدِ يا محمّد بجميع الأنبياء، لكن لا تكن مثل يونس، واصبر في الظروف الصعبة: «**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**»[20].

فالله تبارك وتعالى شديد جدّاً في إجرائه سُنَنَه ولا يستثني من هذه القاعدة حتّى الأنبياء (عليهم السلام). فلا نتصورَنّ أنّ كوننا مسلمين، وشيعة، وثوريّين، ومشاركين في جبهات القتال، ومجروحين فيها، ..الخ هي ميزات تجعلنا عزيزين مميَّزين عند الله فيُغضَى عن خطايانا ومعاصينا! فإنّ حساب الله دقيق، وإنّ كلّ صنيع تصنع تُؤجَر عليه، كما أنّ لكفران النعمة، والغفلة عن الله، وطَرق باب غيره حسابَه الخاص، فالذي يرتكب ذلك يوكله الله إلى نفسه ويقول له: «ما دمتَ لجأت إلى غيري فدعك عنّي ولا شأن لي بك»!

فإن أحببنا التنعّم بألطاف الله وأياديه علينا في حياتنا الدنيا والأخرى وصيانة أنفسنا من البلايا ووساوس النفس والشيطان فعلينا أن نكون عبيداً لله وأن لا نرى لأنفسنا قيمة أمامه، بل أن لا نجد في أنفسنا اللياقة لمخاطبته بشكل مباشر، فنعمد دائماً بأدب إلى شفاعة أوليائه عندَه ونتوجّه إلى الحضرة الإلهية متوسّلين بهم. فإنّه من لطف الله تعالى أيضاً أن يوسّط العبد العاصي عند الله أولياءه الصالحين إذا استحيى بسبب خطاياه من النظر في وجه بارئه، فيناجيه على استحياء: «**اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي قَدْ**

أَخْلَقَتْ وَجْهِي عِنْدَكَ وَحَجَبَتْ دُعَائِي عَنْكَ وَحَالَتْ بَيْنِي وَ بَيْنَك... فَهَا أَنَا ذَا مُسْتَجِيرٌ بِكَرَمِ وَجْهِكَ وَعِزِّ جَلالِكَ مُتَوَسِّلٌ إِلَيْكَ مُتَقَرِّبٌ إِلَيْكَ بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ وَأَكْرَمِهِمْ عَلَيْكَ وَأَوْلاهُمْ بِكَ»[21]؛ اللهمّ إن كانت ذنوبي قد سوَّدَت وجهي وحجبتني عنك فلم تعُد تسمع صوتي فإنّي أوسّط لحضرتك أفضل عبادك عندك.

نسأل الله ببركة أوليائه أن يسبغ على أفئدتنا التي لا تساوي شيئاً مثقالَ ذرّة من هذه المعرفة.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

وحدة الدنيا والآخرة

إشارة

في قسم من حديث المعراج القدسيّ، الذي يضمّ حواراً بين الله تبارك وتعالى ونبيّه الكريم (صلّى الله عليه وآله)، وبعد التوصية ببُغض أهل الدنيا ومودّة أهل الآخرة، استُعرضت بعض صفات أهل الدنيا وأهل الآخرة وهو ما تطرّقنا إليه في المحاضرات السابقة.

وقد جاء التعبير، في أحد مقاطع الحديث، عن ميزة من ميزات أهل الآخرة بهذه الصورة: «**النَّاسُ عِنْدَهُمْ مَوْتَىٰ وَاللَّهُ عِنْدَهُمْ حَيٌ قَيُّومٌ كَرِيمٌ**»[1]؛ فالناس عند أهل الآخرة موتى وليس من حيّ في نظرهم سوى الله عزّ وجلّ، الله الذي مائدة كرمه ممدودة وقوام العالم بأسره بإرادته. وقلنا في المحاضرة الفائتة في بحثنا لجانب من هذا المقطع أنّ المراد من موت الناس هنا عدم كونهم منشأً للأثر بشكل مستقلّ وأنّهم أدوات ووسائل يديرها الله كيف يشاء.

أمّا أهل الدنيا، فبما أنّهم يرون للناس الأثر في كّل الأمور فإنّهم يلجأون إليهم في تسيير شؤونهم اليوميّة لينتفعوا من إمكانيّاتهم ومساعداتهم. بل إنهم يستعبدون الضعفاء أو يستعمرونهم إن استطاعوا لاستنزاف طاقاتهم. ويتلخّص هدف أهل الدنيا من تعاملهم مع الآخرين وكسب ودّهم في جلب انتباههم إليهم كي يفيدوا منهم أكبر قدر من الفائدة فيما يصبّ في مصالحهم. في حين أنّه ليس في رأي أهل الآخرة من موجود حيّ قيّوم مستقلّ الأثر في كافّة الأمور إلاّ الله جلّ وعلا؛ فهو الذي خلق الكون بلطفه وكرمه ويحبّ أن تنعم مخلوقاته منتهى التنعّم برحمته وتبلغ حدّ التكامل، ولاسيّما المخلوقات المختارة كالإنسان، فهي التي يتعيّن عليها أن تهّيئ بنفسها أسباب نضجها وتكاملها ورقيّها، المتمثّلة بمعرفة الله والتقرّب منه.

النزوع إلى الآخرة والميل إلى الآخرين

ولوقوف الأخرويّين على هذه الحقيقة فإنّهم يحاولون التعامل مع الناس بما يُعَرِّفُهم بالله فيمهّد لهم التمتّع بالمزيد من رحمته وكرمه: «**يَدْعُونَ الْمُدْبِرِينَ كَرَماً وَيُرِيدُونَ الْمُقْبِلِينَ تَلَطُّفاً، قَدْ صَارَتِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَهُمْ وَاحِدَةً**». وبناءً عليه فعوضاً عن تأمين مصالح أنفسهم يسعى أصحاب الآخرة، خلافاً لعبيد الدنيا، في ما فيه نفع للناس؛ فيطلبون هدايتهم وكمالهم واقترابهم من الله أكثر لينالوا الأهليّة للتنعّم برحمته الأبديّة. لكنّه لمّا كانت لبواعث الإنسان مستويات شتّى، وأنّ بعضها خفيّ، فلو سئل أهل الآخرة عن دافعهم فيما يبذلونه من جهود لإسعاد العباد لَقالوا: بما أنّ الله يحبّ سعادة مخلوقاته فنحن أيضاً نمضي في هذا الاتّجاه. على أنّ هناك في هذا البين بواعثَ لا يعيها الإنسان؛ فإنّ مساعي الأخرويّين لفعل ما يحبّه الله تعالى هي لكي ينعموا هم في النهاية بلطف ربّهم ورحمته أكثر من ذي قبل.

من هنا لا يمدّ أهل الآخرة أيديهم إلى الناس للفوز بالمواهب الماليّة ونيل المناصب والمقامات والحظوة بالمكانة والجاه الاجتماعيّين، بل يهدفون إلى تكامل الآخرين ورقيّهم وتمتّعهم بالأهليّة لاستدراج الرحمة الإلهيّة. وفي هذا الخِضمّ قد ترى طائفة من الناس لا يسلكون السبيل القويمة، بل قد ينكصون على أعقابهم، فيعمد أهل الآخرة، تأديةً لواجبهم وإتماماً للحجّة، إلى العمل على هداية هؤلاء فيبيّنون لهم الحقّ والباطل، ويوجّهونهم إلى سبيل التكامل والرُّقيّ. لكن ثمّة طائفة أخرى منهم تعرف هذه السبيل وتُبدي الاستعداد للمضيّ فيها قُدُماً. ويتعاطى الأخرويّون مع أصحاب الطائفة الأخيرة بمنتهى الرأفة واللطف زيادةً في استمالتهم إليهم ولكي يُثبّتوا خُطاهم في هذه السبيل فلا يتعثّرون فيها ولا يزيغون عنها.

وحدة الدنيا والآخرة

جاءت في آخر المقطع المذكور من الحديث عبارةٌ قد تبدو بعيدة عن أذهان البعض، وهي أنّ أهل الآخرة: «**قَدْ صَارَتِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَهُمْ وَاحِدَةً**».

ولقد أسلفنا بأنّ حياة ابن آدم تنقسم إلى دنيا وآخرة، وأنّ عليه في الأولى العمل والسعي لجني ثمار سعيه في الأخرى. إذن فكيف تتوحّد الدنيا والآخرة في نظر أهل الآخرة؟

مادام الإنسان دنيويّاً لا يؤمن بالآخرة فهو يرى حياته كلّها مقصورة على هذه الحياة الدنيا ولا يوجد في قاموسه شيء باسم الحياة الأخرى. لكنّه ما إن يؤمن بأنّ الآخرة هي جزء لا يتجزّأ من حياة الإنسان فإنّ أوّل ما يرتسم في ذهنه عن العلاقة بين الدنيا والآخرة هي أنّها علاقة النَّقْد بالآجل فيقول في ذات

نفسه: أدرِك اليوم «دنياك» واعمل لها فإنّها نَقْد، فإن كان في الغد «آخرةٌ» فسأفكّر فيها لاحقاً! ألم نشاهد أناساً لم يتورّعوا عن اقتراف أيّ موبقة أيّام شبابهم على أمل أن يتداركوا ذلك في كِبَرِهم بالتوبة؟ بل لقد كان من المتعارف في غابر الأيّام أن تأتي بعض الشخصيّات المرموقة طيلة حياتها بكلّ حسَن وقبيح ثمّ تجاور في أواخر عمرها أحد المشاهد الشريفة للتكفير عن معاصيها بالزيارة وإعانة الآخرين وما إلى ذلك! كما أنّ العقليّة السائدة لدى أغلب الناس تقريباً هي أنّه مادام الإنسان شابّاً فدعه يستمتع بشبابه، فإذا شابَ فليعمل لآخرته! وهي عقلية تسود بين الناس كخطاب عموميّ، فترى الأغلبية الساحقة منهم، في مقام مقارنة الدنيا بالآخرة، يرون الأولى نقداً والأخيرة آجلاً، فيرى البعض — من هذا المنطلق — أنّ حَمْل هَمِّ الآخرة هو شأن العاطلين، وأنّ الغارق في أمور الدنيا ومشاكلها لا مجال له للقلق على آخرته. غير أنّ لله عباداً ينظرون إلى كُلٍّ من الدنيا والآخرة بعين النقد ويؤمنون بأنّ الآخرة حقّ كإيمانِهم بأنّ الدنيا حقّ.

ولتقريب الموضوع إلى الذهن فلنتصوّر طالباً يزمع على المشاركة في الامتحان الوزاريّ ليدخل الجامعة ويجتاز مراحلها كي يتمكّن في نهاية المطاف من الحصول على عمل مناسب ومكانة اجتماعيّة جيّدة. فكم سنة سيقضي هذا الطالب يخصّص كل وقته للدراسة ليجتاز هذه المراحل بتفوّق؟ إنّ بعضهم قد يعطّل جميع أعماله وبرامجه ويكبّ ليلَ نهارَ على دراسته أملاً في اجتياز الاختبار الوزاريّ بنجاح، لظنّه القويّ بإمكانيّة الحصول على عمل مناسب ومنصب وظيفيّ عن هذا الطريق. طالب كهذا تتساوى عنده السنوات الدراسيّة التي تسبق الامتحان الوزاريّ مع التي تتلوه حتّى حصولِه على فرصة العمل المنشودة؛ فكلّ هذه الرحلة تمثّل عنده طريقاً واحداً عليه اجتيازه.

وكذا الحال مع أهل الآخرة، فالدنيا لديهم مقدّمةٌ وبدايةُ طريق تتمّمُه الآخرة. فالدنيا والآخرة ليستا ساحتين منفصلتين عن بعضهما، بل هما خيط بدايته في الدنيا ونهايته في الآخرة. وعلى العكس من أهل الآخرة، لا ينظر الدنيويّون الضعيفو الإيمان إلى الآخرة بهذه النظرة، فالدنيا محور جميع تصرّفاتهم؛ من كسب الرزق، والعيش بكرامة، ونيل المناصب، واستجلاب احترام الآخرين، وصون المكانة الاجتماعيّة، ..الخ. على أنّهم قد يقومون أحياناً – من بين جميع أعمالهم الدنيويّة — بحركة طفيفة من أجل الآخرة، أمّا محور أعمالهم فهو الدنيا، لأنّ الدنيا والآخرة في نظرهم شيئان منفصلان. لكن يعتقد أهل الآخرة بأنّ الدنيا والآخرة بمثابة طريق واحد له عدّة مراحل؛ بالضبط كالطالب الذي يدرس اليوم ليشترك بعد فترة وجيزة في الامتحان الوزاريّ، ليجتاز بعدها المراحل الجامعيّة، ثمّ ليجد في النهاية عملاً مناسباً، و..الخ.

الآخرة عَقِب الدنيا

كان المرحوم العلاّمة الطباطبائيّ (قدّس سرّه) في درس تفسيره يفسّر عبارة: «**عُقْبَى الدَّارِ**»[2]، الواردة ثلاث مرّات في سورة الرعد وصفاً للآخرة، بـ «عَقِب الدنيا»، أي هي نتيجة تترتّب على الدنيا. كالمزارع الذي يحرث الأرض يوماً، فيطرح فيها البذور في يوم آخر، ثمّ يظلّ يعتني بالزرع حتّى يأتي أوان حصاد الثمر؛ فهذه المراحل كلّها تمثّل دورة واحدة بعدّة حلقات. لكنّنا لا ننظر إلى الدنيا والآخرة بهذه النظرة؛ فللدنيا في نظر عبيدها حسابها الخاصّ، وهي أنّها الأصل؛ وهي الاقتصاد والسياسة والتجارة والصناعة والشؤون العسكريّة وما إليها والتي إن لم يضعها المرء في حسبانه عدُّوه عاطلاً! أمّا الآخرة والجنّة والنار فهي قضيّة أخرى لا ينبغي أن تُقلقنا! وهذا ناجم عن عدم إيماننا بأنّ لنا حياة تبدأ من ساعة ولادتنا وليس لها نهاية، وأنّ مرحلة قصيرة منها تمرّ عبر هذه الدنيا، مرحلة تقوم مقام المقدّمة والسبيل التي تعيّن مصير باقي حياتنا، أمّا المقصد والهدف فيأتي في المرحلة التي تلي الدنيا. هذه الدنيا تمثّل مرحلة الحرث، أمّا مرحلة الحصاد فهي في الآخرة: «**فَإِنَّ اليَومَ عَمَلٌ وَلا حِسابَ وَإِنَّ غَداً حِسابٌ وَلا عَمَل**»[3]. هذه هي رؤية أهل الآخرة. أمّا نحن فليست لنا مثل هذه الرؤية إلى الدنيا والآخرة. على أنّنا جميعاً نؤمن بالآخرة، لكنّ إيماننا هذا ضعيف، ذلك أنّنا منجذبون — بشكل أو بآخر – إلى الدنيا وهي في أنظارنا ذات شوكة وخطورة. خلافاً لأهل الآخرة الذين «**قَدْ صَارَتِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَهُمْ وَاحِدَة**»، فكلّ من الدنيا والآخرة في نظرهم مسير واحد، يبدأ من لحظة الولادة، ثم لا ينتهي: «**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً**»[4]، وإنّ مصير الحياة الأبديّة تحدّدها الأيّام القليلة التي نعيشها في الدنيا؛ فكلّ ما نزرعه في هذه الدنيا، نحصده في الآخرة.

صورة الآخرة في الدنيا

هذه قراءة أوّليّة لهذا المقطع من حديث المعراج. لكن ثمّة معنىً آخر يمكن طرحه لهذه العبارة. فاستناداً إلى ما قيل لحدّ الآن فإنّ الدنيا مقدّمة سير وسفر نحو مقصد تبدأ مرحلته النهائيّة من ساعة الموت، لكن يبدو أنّه ثمّة من بين عباد الله من يشاهد المرحلة التالية وهو في الدنيا. وهناك روايات متعدّدة في هذا المضمار أشهرها قصّة زيد بن حارثة.

يروى «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** (صلّى الله عليه وآله) **صَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ فَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَخْفِقُ وَيَهْوِي بِرَأْسِهِ مُصْفَرّاً لَوْنُهُ قَدْ نَحِفَ جِسْمُهُ وَغَارَتْ عَيْنَاهُ فِي رَأْسِهِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ** (صلّى الله عليه وآله): **كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلانُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُوقِناً. فَعَجِبَ رَسُولُ اللَّهِ** (صلّى الله عليه وآله) **مِنْ قَوْلِهِ وَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ؟**» أي ما علامته؟ فأجاب الشاب: عيني لا ترى النوم ليلاً قلقاً من الآخرة، لقد هجرتُ النوم والطعام ولا أفتأ أفكّر كيف سأكفّر عن معاصيَّ «**فَقَالَ: إِنَّ يَقِينِي يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي وَأَسْهَرَ لَيْلِي وَأَظْمَأَ هَوَاجِرِي،**

فَعَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» إلى أن قال: «.. **كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّةِ وَيَتَعَارَفُونَ وَعَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِخُونَ... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ** (صلّى الله عليه وآله) **لأَصْحَابِهِ: هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالإِيمَانِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: الْزَمْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ. فَقَالَ الشَّابُّ: ادْعُ اللَّهَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أُرْزَقَ الشَّهَادَةَ مَعَكَ. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ** (صلّى الله عليه وآله) **فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ** (صلّى الله عليه وآله) **فَاسْتُشْهِدَ بَعْدَ تِسْعَةِ نَفَرٍ وَكَانَ هُوَ الْعَاشِرَ**»[5].

كما نقلت طائفة من الروايات عن ادّعاء بعض الناس بأنّهم يعرفون أناساً يتعذّبون الآن في النار. وروَت طائفة أخرى من الأحاديث عن لسان النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ما شاهده ليلة المعراج، وأنّه رأى أناساً يعذَّبون في جهنّم بصور شتّى، كأن يعلَّقوا من ألسنتهم، وآخرون متنعّمون في الجنّة[6].

وبالالتفات إلى الروايات والأحاديث المذكورة آنفاً يصبح معنى عبارة «**قَدْ صَارَتِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَهُمْ وَاحِدَةً**» أكثر دقّة. إذ يُنظر إلى الدنيا والآخرة في القراءة الأولى كمسيرة متواصلة، الآخرة فيها بمثابة عقبى الدار وعَقِب الحياة الدنيا. أمّا وفق القراءة الثانية فالآخرة تقع في وعاء آخر غير الذي للدنيا، لكن بالإمكان مشاهدة تصوير عامّ لها في هذا العالم.

ويتعيّن القول إجمالاً أنّنا لا نحمل الآخرةَ على محمل الجدّ كما ينبغي لها، وعلينا التأمّل أكثر في هذه المسألة وتغيير سلوكنا بالشكل الذي يلفت انتباهنا أكثر إلى الأمور الأخرويّة، فلا تنصرف كلّ هممنا إلى الدنيا ولذّاتها وجاهها ومقامها. وإنْ مارسنا ضمن الشؤون الدنيويّة نشاطاً ما فليكن من حيث إنّه محبوب لدى الله عزّ وجلّ، بالضبط كما اتّخذ نبيّ الله سليمان (عليه السلام) المُلكَ وسيلة لإشاعة التوحيد ومعرفة الله. ولقد قبل أمير المؤمنين (عليه السلام) أيضاً بالحكم، لكنّه طالما أكّد: «**وَاللَّهِ لَهِيَ** (النَّعْل) **أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلاّ أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً**»[7].

ولعلّه يوجد في زماننا هذا مَن يقبل بمسؤوليّة ضخمة لا لشيء إلاّ طاعةً لله وتأديةً للتكليف الشرعيّ، وإلاّ فإنّه يرفضها.

نسأل الله تعالى أن يمنّ علينا جميعاً بمثل هذه المعرفة ويوفّقنا لمعرفة قدر أمثال هؤلاء وتأدية شكر نعمة وجودهم.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.